

مختصر تفسير ابن كثير

مختصر لتفسير الإمام الجليل الحافظ عماد الدين
أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى ٧٧٦هـ

المجلد الثاني

اختصار وتحقيق

محمد علي الصيّا بوني

أستاذ التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

دار الفکران الكبير
بيروت

الطبعة السابعة
(منقحة)
جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م

طُبِعَ عَلَى نَفَقَةٍ
المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى
فجزاه الله كل خير
يوزع مجاناً ولا يُباع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُحَمَّدٌ صَلَّى

تَقْسِيرُ الْبُحَارِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ"

"وَنُتْلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ"
"البقرة"

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ" "البقرة"

"مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ
أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَا م حَرْفٌ
وَمِيمٌ حَرْفٌ" "البقرة"

"اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ"
"البقرة"

إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ..
يُرِيدُ الْعَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الدَّخْرِ ..
أَصْدَقَ كِتَابٍ اللَّهُ وَتَعْلِيمِهِ ..
لِيَكُونَ عَوْنًا عَلَى فَرْمِ الْقُرْآنِ وَبِمَعْلَمِهِ ..
مُقَدِّمًا عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ:

تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي أَبَدًا
كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي" "سورة البقرة"

السَّيِّدُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ شَرِيفِي

(٧) سُورَةُ الْأَعْرَافِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا سِتُّ وَامْنَانٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ ❶ كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ❷ أَنْتَبَهُوا
مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ❸

تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه، قال ابن جرير عن ابن عباس ﴿المص﴾: أنا الله أفصل، ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك، ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ شك منه، وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به، ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾، ولهذا قال: ﴿لتنذر به﴾ أي أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿وذكرى للمؤمنين﴾، ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي اقتضوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه، ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره، ﴿قليلًا ما تذكرون﴾، كقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، وقوله: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾، وقوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾.

وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ❹ قَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا
إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ❺ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ❻ فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ يَعْلَمُ
وَمَا كُنَّا غَافِينَ ❼

يقول الله تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة كما قال تعالى: ﴿ولقد استهزى برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾، وكقوله: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾، وقال تعالى:

﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين﴾، وقوله: ﴿فجاءها بأسنا بيّاتاً أو هم قائلون﴾ أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بيّاتاً﴾ أي ليلاً ﴿أو هم قائلون﴾ من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة وهو، كما قال: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيّاتاً وهم نائمون﴾ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلبعون، وقال: ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين﴾، وقوله: ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا، كقوله تعالى: ﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة - إلى قوله - خامدين﴾، قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ قال: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، وقوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ الآية، كقوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾، وقوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم؟ قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ قال: عما بلغوا .

وعن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده»، ثم قرأ: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾^(١)، وقال ابن عباس في قوله ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿وما كنا غائبين﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ .

وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى: ﴿والوزن﴾ أي للأعمال يوم القيامة ﴿الحق﴾ أي لا يظلم تعالى أحداً، كقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾، وقال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾، وقال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية﴾، وقال تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون .

(١) رواه ابن مردويه، وهو مخرج في الصحيحين بدون زيادة قوله ثم قرأ الآية .

(فصل) والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساماً، يروى هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة كأنهما غماتان أو غيبتان أو فرقان من طير صواف، وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: لا إله إلا الله، الحديث^(١)، وقيل: يوزن صاحب العمل كما في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة»، ثم قرأ: ﴿فلا تنقم لهم يوم القيامة وزناً﴾، وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أنقل من أحد»، وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى: ممتناً على عبيده فيما مكّن لهم من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل فيها رواسي وأنهاراً وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لهم منافعها وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها ﴿معيشة﴾ أي مكاسب وأسباباً يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كقوله: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، وبين لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منظر عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشراً سوياً ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، والمراد بذلك كله آدم عليه السلام، وقال سفيان الثوري عن ابن عباس: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ قال: خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء^(٢)، ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضاً أن المراد ﴿بخلقناكم﴾ ثم ﴿صورناكم﴾ الذرية، وقال أي خلقنا آدم ثم صورنا الذرية، وهذا فيه نظر لأنه قال بعده: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾، والمراد آبائهم الذين كانوا في زمن موسى ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل، صار كأنه واقع على الأبناء، وهذا بخلاف قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾

(١) الحديث في سنن الترمذي وصححه .

(٢) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه .

الآية، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معيناً، والله أعلم .

﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (١٢)

قال بعض النحاة (لا) هنا زائدة، زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر : (ما إن رأيت ولا سمعت بمثله)، فأدخل (إن) وهي للنفي على (ما) النافية لتأكيد النفي، قالوا: وكذا هنا ﴿ ما منعتك أن لا تسجد ﴾ مع تقدم قوله: ﴿ لم يكن من الساجدين ﴾، واختار ابن جرير أن ﴿ منعتك ﴾ مضمن معنى فعل آخر تقديره: ما ألزمت واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا، وهذا القول قوي حسن، والله أعلم. وقول إبليس لعنه الله : ﴿ أنا خير منه ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله (وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له) ؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ فشذ من بين الملائكة لترك السجود، فلهذا أبلس من الرحمة أي أوبس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله في قياسه، ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع والإجابة والاستكانة والالتقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: « خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم »^(١)، وعن عائشة قالت، قال رسول الله ﷺ: « خلق الله الملائكة من نور العرش، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم »^(٢)، وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح: « وخلقت الحور العين من الزعفران ». وقال الحسن: قاس إبليس وهو أول من قاس، وعن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. إسناد صحيح أيضاً

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (١٣) ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعُثُونَ ﴾ (١٤) ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ (١٥)

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمرٍ قدرني كوني ﴿ فاهبط منها ﴾ أي بسبب عصيانك لأمري وخرجك عن طاعتي فما يكون لك أن تتكبر فيها، قال كثير من المفسرين: الصمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المتزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى ﴿ فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ أي الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ .

(٢) رواه ابن مردويه .

ومكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تتماخ ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب

قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

يغبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿إلى يوم يبعثون﴾ واستوثق إبليس بذلك أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فما أغوييني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ أي كما أغوييني، قال ابن عباس: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكني لأقعدن لعبادك الذين تخلفهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿صراطك المستقيم﴾ أي طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلنهم عنها لكلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي، وقال بعض النحاة: الباء هنا قسمية، كأنه يقول فياغواك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم، قال مجاهد: ﴿صراطك المستقيم﴾ يعني الحق، والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك، روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك قال فعصاه وأسلم» قال: «وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماؤك وإنما مثل المهاجر كالفارس في الطول، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال تقاتل فقتل فتكح المرأة ويقسم المال، قال فعصاه وجاهد»، قال رسول الله ﷺ: «فن فعل ذلك منهم فأت كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»^(١). وقوله: ﴿ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ الآية، قال ابن عباس: ﴿ثم لا تينهم من بين أيديهم﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿ومن خلفهم﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿وعن أيماهم﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وعن شمائلهم﴾ أشبهي لهم المعاصي، وعنه: أما من بين أيديهم فن قبل دنياهم، وأما من خلفهم فأمر آخرتهم، وأما عن أيماهم فن قبل حسناتهم، وأما عن شمائلهم فن قبل سيئاتهم. وقال قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها، وعن أيماهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله^(٢)

وقال مجاهد: ﴿من بين أيديهم وعن أيماهم﴾ من حيث يبصرون، ﴿ومن خلفهم وعن شمائلهم﴾ حيث لا يبصرون، واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه، والشر يحسنه لهم، وقال ابن عباس: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ قال: موحدين، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند . (٢) وكذا روي عن إبراهيم التيمي والسدي وابن جريج .

في هذا الواقع كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولهذا ورد في الحديث: الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان كما قال الحافظ البزار. عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي»^(١). وعن عبدالله بن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»^(٢).

* قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

أكد تعالى على الشيطان اللعنة والطرود والإبعاد والتي عن محل الملاء الأعلى بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾، قال ابن جرير: أما المذموم فهو المعيب، والذام: العيب، يقال ذامه ذاماً فهو مذموم، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم، قال: والمذخور المقتضي وهو المبعد المطرود. وقال ابن أسلم: ما نعرف المذموم والمذموم إلا واحداً، وقال ابن عباس: صغيراً مقبياً، وقال السدي: مقبياً مطروداً، وقال قتادة: لعيناً مقبياً، وقال مجاهد: منقياً مطروداً، وقال الربيع بن أنس: مذموماً منقياً والمذخور المصغر. وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كقوله: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾.

وَيَتَقَادَمُ أَسْكُنَ أَنْتَ وَرَزَوُجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾
فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِيَّايَ لَكُمَا لِمَنِ النَّصِيبَيْنِ ﴿٢١﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليلبسهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن (وقال) كذباً واقتراء: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ﴾ أي لتلا تكونا ملكين أو خالدين ها هنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَتَاكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لِي بِيْلٍ﴾ أي لتلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضْلُوا﴾، أي لتلا تضلوا ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لتلا تميد بكم، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي حلف لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لِمَنِ النَّاصِحِينَ﴾، أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله، وقال قتادة في

(١) أخرجه الحافظ البزار من حديث ابن عباس مرفوعاً.

(٢) ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

الآية: حلف بالله إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول: من خدعنا بالله المخدعنا له .

فَدَلَّيْهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾

عن ابن عباس قال: كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجه السنبلة، فلما أكلتا منها بدت لهما سوأتهما، وكان الذي وارى عنهما من سوأتهما أظفارهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ورق التين، يلزقان بعضه إلى بعض، فانطلق آدم عليه السلام مولياً في الجنة، فعلقت برأسه شجرة من الجنة، فداده الله: يا آدم أمني نفر؟ قال: لا، ولكنني استحييك يا رب، قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأباحتك منها مندوحة عما حرمت عليك؟ قال: بلى يا رب، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: وهو قول الله عز وجل ﴿وَقَاسِمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾ قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كدأ قال: فاهبط من الجنة، وكانا يأكلان منها رغداً فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب، فعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث، فحرث وزرع ثم سقى، حتى إذا بلغ حصده، ثم داسه ثم ذراه، ثم طحنه، ثم عجنه، ثم خبزه، ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قال: ورق التين، وقال مجاهد: جعلتا يخصفان عليهما من ورق الجنة قال كهينة الثوب، وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿يَتَرَعَّ عَنْهُمَا لِبَاسُهُمَا﴾ قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا، فلما أكلتا من الشجرة بدت لهما سوأتهما^(١). وقال قتادة: قال آدم: أي رب أرايت إن تبت واستغفرت، قال: إذا أدخلتك الجنة، وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله. وقال ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كُرْهاً، ولا تضع إلا كُرْهاً، قال: فرت عند ذلك حواء، فقبل لها: الرنة عليك وعلى ولدك؛ وقال الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

قبل المراد بالخطاب في ﴿اهبطوا﴾ آدم وحواء وإبليس، والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه قال: ﴿اهبطا منها جميعاً﴾ الآية، وحواء تبع لآدم، وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات والله أعلم بصحتها، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ، وقوله: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ أي قرار وأعمار مضمونة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول، قال ابن عباس: ﴿مستقر﴾ القبور، وعنه قال ﴿مستقر﴾ فوق الأرض وتحتها رواها ابن أبي حاتم، وقوله: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾، كقوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾، يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلا بعمله .

يَلْبَسِيْهِۦٓ ءَادَمُ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوَارِيْ سَوْءَ تِكْرٍ وَّرِيْشًا وَّلِبَاسٌ اَلْتَقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِّنْ ءَايٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ ﴿٢٦﴾

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات وهي السواآت، والريش والريش ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات. قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب، وقال ابن عباس: الريش: اللباس، والعيش والنعم، وقال ابن أسلم: الرياش الجمال؛ ولبس أبو أمامة ثوباً جديداً، فلما بلغ ترقوته قال الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتني، وأنجمل به في حياتي، ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استجد ثوباً قلبسه فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتني وأنجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به، كان في ذمة الله وفي جوار الله وفي كنف الله حياً وميتاً»^(١). وقوله تعالى: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾، اختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة، وقال قتادة وابن جريج: ﴿ولباس التقوى﴾ الإيمان، وقال ابن عباس: العمل الصالح، وعنه: هو السميت الحسن في الوجه، وعن عروة بن الزبير ﴿لباس التقوى﴾ خشية الله، وقال ابن أسلم: ولباس التقوى يتقي الله فيوارى عورته، فذاك لباس التقوى، وكلها متقاربة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص فوهي محلول الزر، وسمعته يأمر بقتل الكلاب، وبنى عن اللعب بالحمام، ثم قال: يا أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس محمد بيده ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيراً فخير وإن شراً فشر»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾ من آيات الله ﷻ قال: السميت الحسن»^(٢)

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

(٢) رواه ابن جرير ، قال ابن كثير : وفيه ضعف، وقد روى الأئمة الشافعي وأحمد والبخاري في كتاب الأدب من طرق صحيحة عن الحسن البصري بعضه .

يَبْنِيْ اٰدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَنْحَرَجَ اَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَتَزَعُّ عَنْهُمَا لِباسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهيْمَاهُمَا اِنَّهُ يَرِيْكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَاءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿٢٧﴾

يحللر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام في سعيه في إخراجهم من الجنة، التي هي دار النعم إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَفَتُخْلِدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِيْ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِيْنَ بَدَلًا ۝﴾ .

وَإِذَا فَعَلُوا فَحِيْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللّٰهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُوْنَ عَلَى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّيْ بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوْهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُوْنَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلٰلَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُوْنَ ﴿٣٠﴾

كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الحمس - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر فتقول :

اليوم يبلو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يظفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِيْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللّٰهُ أَمَرَنَا بِهَا ۖ قُلْ فَقَالَ تَعَالَىٰ رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿ قُلْ ۖ أَيَا مُحَمَّدٌ لَّنْ ادْعَىٰ ذٰلِكَ ۖ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ ۖ أَيَا هٰذَا الَّذِي تَصْنَعُوْنَهُ فَاحِشَةً مُنْكَرَةً وَاللّٰهُ لَا يَأْمُرُ بِعَمَلِ ذٰلِكَ، ﴿ أَتَقُولُوْنَ عَلَى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ۖ ؟ أَيَا أَتَسْنَدُوْنَ إِلَى اللّٰهِ مِنَ الْاَقْوَالِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ صَحْتَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ أَيَا بِالْعَدْلِ وَالْاِسْتِقَامَةِ، ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوْهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ ۖ أَيَا أَمَرَكُمْ بِالْاِسْتِقَامَةِ فِي عِبَادَتِهِ فِي مُحَاهِلَا، وَهِيَ مُتَابَعَةُ الْمُرْسَلِيْنَ الْمُؤَيَّدِيْنَ بِالْمُعْجَزَاتِ فِيْهَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنِ اللّٰهِ، وَمَا جَامَعُوا بِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَبِالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ الْعَمَلَ حَتَّى يَجْمَعَ هٰذِيْنَ الرِّكَتَيْنِ أَنْ يَكُوْنَ صَوَاباً مُوَافِقاً لِلشَّرِيعَةِ، وَأَنْ يَكُوْنَ خَالِصاً مِنَ الشَّرِكِ .

وعتلف في معنى قوله: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُوْنَ ۖ ﴾، فقال مجاهد: يحييكم بعد موتكم، وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء، وقال قتادة: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم ذهبوا ثم يعيدهم، وقال ابن أسلم: كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخرأ، واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده

بما رواه عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين»^(١). وعن مجاهد قال: يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً، وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل الشقاء كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتدأوا عليه، وقال السدي: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلال كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً، قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة».

وعن سهل بن سعد قال، قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل فيما يرى الناس يعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل فيما يرى الناس يعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة، وإتباع الأعمال بالخواتيم»^(٢). وفي الحديث: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»^(٣). قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها﴾، وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، ووجه الجمع على هذا: أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك، وجعله في غرائزهم وفطرتهم، ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً، ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾، وفي الحديث: «كل الناس يغفلو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» وقدر الله نافذ في بريته، فإنه هو ﴿الذي قدر فهدي﴾ و﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾، وفي الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة»، ولهذا قال تعالى: ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾، ثم علل ذلك فقال: ﴿إنهم اتخلفوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ الآية.

* يَبْنِيْءَ آدَمَ خُلُودًا زَيْنَتُكَرَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة، كما روي عن ابن عباس،

(١) الحديث من رواية الصحيحين، ومعنى قوله ﴿غرلاً﴾ أي غير مختونين.

(٢) هذا جزء من حديث رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم وابن ماجه.

قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فقال الله تعالى: ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾^(١)، وقال العوفي عن ابن عباس: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس، وهو ما يوارى السوءة، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع، فأمرنا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد^(٢). ولهذا الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة، ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل اللباس البياض، كما قال الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً قال، قال رسول الله ﷺ: «إلبسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن خير أكحالكم الإيتمد فإنه يجلو البصر، وبنيت الشعر»، وللإمام أحمد أيضاً وأهل السنن، عن سمرة بن جندب قال، قال رسول الله ﷺ: «عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم». ويروى أن تمباً الداري اشترى رداء بألف وكان يصلي فيه.

وقوله تعالى: ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ الآية، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾، وقال البخاري، قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. وقال ابن عباس: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرفاً أو مخيلة، وفي الحديث: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»^(٣)، وقال الإمام أحمد قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(٤)، وفي الحديث: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتيت»^(٥). وقال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك (الدسم) ما أقاموا في الموسم، فقال الله تعالى لهم: ﴿ كلوا واشربوا ﴾ الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم، وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ ولا تسرفوا ﴾ ولا تأكلوا حراماً ذلك الإسراف، وقال ابن جرير، وقوله: ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾، يقول الله تعالى: ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾ حده في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ۖ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

- (١) رواه مسلم والنسائي وابن جرير واللفظ له.
- (٢) وروي عن مجاهد وعطاء والنخعي وقنادة والسدي والضحاك وغيرهم.
- (٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.
- (٤) ورواه النسائي والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.
- (٥) رواه الحافظ الموصلي والدارقطني وقال فيه: هذا حديث غريب.

خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المأكّل أو المشارب أو الملايس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ الآية، أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبدته في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حساً في الدنيا، فهي لهم خاصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين. عن ابن عباس قال: كانت قریش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ فأمروا بالثياب^(١)

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغبر من الله، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله»^(٢)، وقد تقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام. وقوله: ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾، قال السدي: أما الإثم فالمصيبة، والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق، وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأنخير أن الباغي بغيه على نفسه، وحاصل ما فسر به الإثم: أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا. وقوله تعالى: ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي يجعلوا له شركاء في عبادته، ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ من الاقتراء والكذب من دعوى أن له ولداً، ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كقوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ الآية.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٨﴾ يَبْنِيْٓ أَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكَ رُسُلٌ مِنْكَ يَقْصُوصُونَ عَلَيْكَ أَيْتِيْ قُلْ أَتَقِيْ وَأَصْلَحْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أُخْصِبُ النَّارَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى: ﴿ولكل أمة﴾ أي قرن وجبل ﴿أجل فإذا جاء أجلهم﴾ أي ميقاتهم المقدر لهم ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾، ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته وبشر وحذر فقال: ﴿فن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والذين كذبوا بآياتنا

(١) رواه الطبراني عن ابن عباس .

(٢) رواه أحمد والشيخان .

واستكبروا عنها ﴿ أَي كَذَبَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْعَمَلِ بِهَا ﴾ ﴿ أَوَلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾
أَي مَا كُنُوا فِيهَا مَكْنًا مَخْلَدًا

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ
إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ أَي لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى الْكَذْبَ عَلَى
اللَّهِ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الْمُنْتَزِلَةِ ﴿ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾، اختلف المفسرون في معناه، فقال ابن عباس:
يَنَالُهُمْ مَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ، وَكُتِبَ لِمَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ أَنْ وَجْهَهُ مَسْوَدٌ، وَعَنْهُ قَالَ: نَصِيبُهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ، مِنْ عَمَلٍ
خَيْرًا جَزِي بِهِ، وَمِنْ عَمَلٍ شَرًّا جَزِي بِهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا وَعَدُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَقَالَ
مُحَمَّدُ الْقُرْظِيُّ ﴿ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ قَالَ: عَمَلُهُ وَرِزْقُهُ وَعِصْرُهُ، وَهَذَا الْقَوْلُ قَوِيٌّ فِي الْمَعْنَى، وَالسِّيَاقُ
يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ وَنَظِيرُ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكَذْبَ لَا يَفْلَحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾، وَقَوْلُهُ:
﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ الْآيَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾
الآيَةِ. يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا تَوَفَّتِ الْمُشْرِكِينَ تَفْزَعُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ وَقَبْضُ أَرْوَاحِهِمْ إِلَى النَّارِ، يَقُولُونَ لَهُمْ: أَيْنَ
الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَدْعُونَهُمْ وَتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ادْعُوهُمْ يَخْلُصُوكُمْ بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ، قَالُوا:
﴿ ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أَي ذَهَبُوا عَنَّا فَلَا نَجِدُ نَفْعَهُمْ وَلَا خَيْرَهُمْ ﴿ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أَي أَقْرَأُوا وَاعْتَرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ
﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ .

* قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كَمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ آخَتَهَا
حَتَّىٰ إِذَا آدَرُكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولِهِمْ رَبَّنَاهُتُوا لَآءِ أَضْلُونَا فَعَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ
ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقوله هؤلاء المشركين به المفسرين عليه المكذبين بآياته ﴿ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ ﴾ أَي مِنْ أُمَمَالِكُمْ
وَعَلَى صِفَاتِكُمْ، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أَي مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْكَافِرَةِ، ﴿ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾ وَيَحْتَمَلُ
أَنْ يَكُونَ ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ أَي مَعَ أُمَمٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿ كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ آخَتَهَا ﴾ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ ثُمَّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ الْآيَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ

بهم الأسباب ﴿﴾، وقوله: ﴿﴾ حتى إذا أداركوا فيها جميعاً ﴿﴾ أي اجتمعوا فيها كلهم ﴿﴾ قالت أخراهم لأولاهم ﴿﴾ أي أخراهم دخولاً وهم (الأتباع) لأولاهم وهم (المتبوعون) لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكروهم الأتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلّوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿﴾ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴿﴾ أي أضعف عليهم، كما قال تعالى: ﴿﴾ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ؎ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴿﴾ الآية. وقوله: ﴿﴾ قال لكل ضعف ﴿﴾ أي قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه، كقوله: ﴿﴾ الذين كفروا وصلوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً ﴿﴾ الآية، وقوله: ﴿﴾ وليحملن أنقالم وأنقالاً مع أنقالم ﴿﴾، وقوله: ﴿﴾ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴿﴾ الآية، ﴿﴾ وقالت أولاهم لأخراهم ﴿﴾ أي قال المتبوعون للأتباع: ﴿﴾ فا كان لكم علينا من فضل ﴿﴾، قال السدي: لقد ضلّتم كما ضلّنا، ﴿﴾ فنوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴿﴾، وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى: ﴿﴾ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين ﴿﴾ الآيات .

* إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَآيَتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِلَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

وقوله تعالى: ﴿﴾ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴿﴾ قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء^(١)، وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء^(٢)، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فأتيتها إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعملوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثاً - ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان - قال: فتخرج تسيل كما يسيل القطر في السماء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا

(١) قاله مجاهد وسعيد بن جبير ورواه العوفي عن ابن عباس .

(٢) رواه الضحاك عن ابن عباس وبه قال السدي .

كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له قبره مد البصر - قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يحىء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر ثم يحىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فيتزعزعا كما يتزعزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأتان ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طراحاً - ثم قرأ: ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يحىء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة .

وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فيقال لها ذلك، حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل، وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى يخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة التي كانت

في الجسد الخيث، ارجعي ذميمة، فإنه لم يفتح لك أبواب السماء، فترسل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر^(١). وقد قال ابن جريج: لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم، وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحِظَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هكذا قرأه الجمهور، وفسروه بأنه البعير، قال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خرق الإبرة^(٢). وقرأ ابن عباس: بضم الجيم وتشديد الميم: يعني الحبل الغليظ في خرق الإبرة. وهذا اختيار سعيد بن جبير، وفي رواية أنه قرأ: حتى يلج الجمل، يعني قلوس السفن وهي الحبال الغلاظ. وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ المراد: الفرش، ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ﴾ اللحف، وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي وكذلك نجزي الظالمين^(٣).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُّوا الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ نبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وتزعنا ما في صدورهم من غلٍّ أي من حسد وبغض، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقصص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفسي بيده إن أحدهم يمتزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا». وقال السدي في الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة، في أصل ساقها عينان، فشربرا من إحداها، فيتزع ما في صدورهم من غلٍّ فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى ففجرت عليهم نفرة النعيم، فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً. وقال علي رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾. وروى النسائي وابن مردويه عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني فيكون له شكراً، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني فيكون له حسرة»^(٤)، ولهذا لما أورشوا مقاعد أهل النار من الجنة تودوا أن تلکم الجنة التي أورشموها بما كنتم تعملون، أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأن منازلکم بحسب أعمالکم، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ:

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير واللفظ له .

(٢) هذا قول جمهور السلف منهم أبو العالية والضحاك وابن مسعود ورواه العوفي عن ابن عباس .

(٣) رواه ابن جرير عن قتادة عن علي كرم الله وجهه . (٤) أخرجه ابن مردويه والنسائي عن أبي هريرة مرفوعاً .

«واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(١)

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التفرع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿٤٤﴾ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ﴿٤٥﴾ أن «هنا مفسرة للقول المحذوف، و «قد» للتحقيق، أي قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ قالوا: نعم كما أخبر تعالى في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار، ﴿٤٥﴾ فاطلع فراه في سواء الجحيم «قال تالله إن كدت لتردين» ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴿٤٥﴾ أي ينكر عليه مقالته التي يقوها في الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والتكال، وكذلك تفرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿٤٥﴾ هذه النار التي كنتم بها تكذبون «أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون»، وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتل القلب يوم بدر فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شبة بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. وقال عمر: يا رسول الله تخاطب قوماً قد جئوا؟ فقال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿٤٥﴾ فأذن مؤذن بينهم ﴿٤٥﴾ أي أعلم معلم ونادى مناد ﴿٤٥﴾ أن لعنة الله على الظالمين ﴿٤٥﴾ أي مستقرة عليهم، ثم وصفهم بقوله: ﴿٤٥﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً ﴿٤٥﴾ أي يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويغونها أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد، ﴿٤٥﴾ وهم بالآخرة كافرون ﴿٤٥﴾ أي وهم بقاء الله في الدار الآخرة كافرون أي جاحلون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً، فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً

وَيَنْهَمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ^{٤٦} وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ^{٤٧} لَمَّا دَخَلُوا^{٤٨} وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة، قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى فيه: ﴿٤٦﴾ فضرِبَ بينهم بسور له باب ﴿٤٦﴾ وهو الأعراف الذي قال الله تعالى فيه: ﴿٤٦﴾ وعلى الأعراف رجال ﴿٤٦﴾، ثم روى بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالى:

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً . (٢) الحديث مروي في الصحيحين .

﴿وبينهما حجاب﴾ هو السور وهو الأعراف، وقال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار سور له باب. قال ابن جرير: والأعراف جمع عرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه. وعن ابن عباس: هو سور بين الجنة والنار، وقال السدي: إنما سمي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس، واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم^(١). وقد جاء في حديث مرفوع رواه الحافظ ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته، فقال: «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون». وقال ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف، قال فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلفت بهم حسناتهم عن النار. قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم.

وعن ابن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قول الله: ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ الآيتين، ثم قال: الميزان يخف بمقال حبة، ويرجع، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرخوا أبصارهم إلى يسارهم ونظروا أهل النار ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ تعوذوا بالله من منازلهم، قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، وكل أمة نوراً فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿ربنا أنتم لنا نورنا﴾، وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم يترع، فهناك يقول الله تعالى: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ فكان الطمع دخولاً، قال: فقال ابن مسعود إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة، ثم يقول: هلك من غلبت آحاده عشراته^(٢)، وسئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف؟ قال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد، قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوها الجنة، فأنتم عتقائي، فارعوا من الجنة حيث شئتم»^(٣).

وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولاً، وقوله تعالى: ﴿يعرفون كلاً بسيماهم﴾، قال ابن عباس: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه، وقال العوفي عن ابن عباس: أنزلهم الله بتلك المترلة ليعرفوا من في الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين، وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله، وقال الحسن: إنه تلا هذه الآية: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدونها.

(١) قال بذلك حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف.

(٢) رواه ابن جرير عن ابن مسعود موقوفاً.

(٣) قال ابن كثير: هذا مرسل حسن.

بهم، وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع، وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. قال الضحاك عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. وقال السدي: وإذا مروا بهم يعني أصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. وقال عكرمة: تحدد وجوههم للنار، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم، وقال ابن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكَ جَمْعُكَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾
أَهْوَلَاءُ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

يقول الله تعالى إخباراً عن تفرع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسماهم ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي كثرتكم، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال، ﴿أَهْوَلَاءُ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، قال ابن عباس: يعني أصحاب الأعراف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، وقال ابن جرير عن ابن عباس ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الآية، قال: فلما قالوا لم الذي قضى الله أن يقولوا يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار، قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهْوَلَاءُ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْخَيَاطَةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَلُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِعَاقِبَتِنَا يَجْعَدُونَ ﴿٥١﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شراهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك، قال السدي: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني الطعام، وقال ابن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم، وقال سعيد ابن جبير: يتنادى الرجل أباه أو أخاه فيقول له: قد احترقت، فأفرض علي من الماء، فيقال لهم أجيئهم، فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، قال ابن أسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: يعني طعام الجنة وشراها، وسئل ابن عباس أي الصدقة أفضل؟ فقال، قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة، قالوا: أفيفضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله؟» ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا

يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين هواً ولعباً، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة، وقوله: ﴿فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي يعاملهم معاملة من نسيتهم، لأنه تعالى لا يشد عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى: ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾، وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾: وقال: ﴿كذلك أنتك آياتنا فنسيها وكذلك اليوم تنسى﴾، وقال تعالى: ﴿وقبل اليوم ننسأكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾، وقال ابن عباس: نسيتهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر، وعنه: تركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا، وقال مجاهد: تركهم في النار، وقال السدي: تركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا، وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، فيقول: أظننت أنك ملائي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنسأك كما نسيتني.

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن إعداده إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين كقوله: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت﴾ الآية، وقوله: ﴿فصلناه على علم﴾ للعالمين، أي على علم منا بما فصلناه به كقوله: ﴿أنزله بعلمه﴾، ولما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عنهم في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله: ﴿وما كنا معذيين حتى نبعث رسولاً﴾، ولهذا قال: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار، قاله مجاهد وغير واحد، وقال مالك: ثوابه، وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ، قوله: ﴿يوم يأتي تأويله﴾ أي يوم القيامة، ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا، ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ أي في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿أو نرد﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾، كقوله: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿كما قال ههنا﴾: ﴿قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ذهب عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ

حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُسَخَّرَتَا بِأَمْرِهِ ۚ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۚ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

يخبر تعالى أنه خالق العالم؛ سمواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كآلف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع. وأما قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح وهو إمرارها، كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين مني عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه و﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾، بل الأمر كما قال (نعم بن حماد الخزاعي) شيخ البخاري قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيها وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص؛ فقد سلك سبيل الهدى. وقوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً أي سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه، كقوله: ﴿وآية لم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾، إلى قوله: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾، فقوله: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو في أثره بلا واسطة بينهما، ولهذا قال: ﴿يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ أي الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيتته، ولهذا قال منها: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ أي له الملك والتصرف ﴿تبارك الله رب العالمين﴾، كقوله: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروحاً﴾ الآية، وفي الحديث: «من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه، فقد كفر وحبط عمله، ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه»، لقوله: ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾^(١)، وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروي مرفوعاً: «اللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله».

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

أرشدك تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم، فقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قيل معناه: تذلاً واستكانة وخيفة، كقوله: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ الآية، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم

فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعون سمیع قريب « الحديث، وقال ابن عباس في قوله: ﴿تضرعاً وخفية﴾ قال: السر، وقال ابن جرير: ﴿تضرعاً﴾ تذلاً واستكانة لطاعته ﴿وخفية﴾ يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً مرأاة. وقال الحسن البصري: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لبصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾، وقال ابن جرير: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويأمر بالتضرع والاستكانة، ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ في الدعاء ولا في غيره.

وقال الإمام أحمد إن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها، ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت به من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وقرأ هذه الآية: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً﴾ الآية - وإن بحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل»^(١)، وسمع عبد الله بن مغفل ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني سل الله الجنة وعُدْ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد، فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أي خوفاً مما عنده من وابل العقاب وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب، ثم قال: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ أي إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية، وقال: ﴿قريب﴾ ولم يقل: (قريبة) لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين. وقال مطر الوراق: استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين.

* وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا نِّقَالًا سَفَّثْنَا لِسَاجِدٍ مِّمَّتْ فَأَزَلْنَاهُ لَمَاءَهُ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِّنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُسْكِرُونَ ﴿٥٨﴾

(١) رواه أحمد وأبو داود.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه وأبو داود قال ابن كثير: وإسناده حسن.

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدير المسخر وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر به تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً﴾ أي مبشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ بشراً، كقوله: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾، وقوله: ﴿بين يدي رحمته﴾ أي بين يدي المطر، كما قال: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾، وقال: ﴿فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لحجي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾، وقوله: ﴿حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً﴾ أي حملت الرياح سحاباً ثقالاً أي من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض ملهمة، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله: وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذاباً زلالاً

وقوله تعالى: ﴿سقناه لبلد ميت﴾ أي إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها، كقوله: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾ الآية، ولهذا قال: ﴿فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى﴾ أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رماً يوم القيامة، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض، وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً ليوم القيامة باحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال: ﴿لعلكم تذكرون﴾، وقوله: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾ أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً كقوله: ﴿وأنبثنا نباتاً حسناً﴾، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً، قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها، وقال ابن عباس في الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، وقال البخاري عن أبي موسى الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَرَّمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ أَمَلًا مِّنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَرَّمْ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلِغْكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام: الأول، فالأول، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام. قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل، وقال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوحاً لكثرة ما نوح على نفسه، وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم

على الإسلام. قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد، وصوروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور، فلما تبادى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسموها بأسماء أولئك الصالحين (وداً ومواعاً ويعوث ويعوق ونسراً)، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به، ﴿قال الملأ من قومه﴾ أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾ أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله: ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾، ﴿وإذا لم يهتدوا به فيقولون هذا إفك قديم﴾ إلى غير ذلك من الآيات، ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه، ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾، وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدرکہم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة: «أيها الناس إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد»

* أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أوعجبتم﴾ الآية، أي لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفًا وإحساناً إليكم لينذركم، ولتتقوا نعمة الله، ولا تشرکوا به ﴿ولعلكم ترحمون﴾، قال الله تعالى: ﴿فكذبوه﴾ أي تبادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل كما نص عليه في موضع آخر، ﴿فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ أي السفينة، كما قال: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾، ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾، كما قال: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجلوا لهم من دون الله أنصاراً﴾، وقوله: ﴿إنهم كان قوماً عمين﴾ أي عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له، فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأولياته من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كقوله: ﴿إنا لننصر رسلنا﴾ الآية، وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين، وكان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل، وقال ابن أسلم: ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز. وقال ابن وهب: بلغني عن ابن عباس أنه نجى مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً أحدهم جرهم، وكان لسانه عريباً^(١)

* وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرِهِ ﴿٦٥﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٩﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً، وهؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر، كما قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴿وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة﴾ ؟ وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، فإن هوداً عليه السلام دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه، ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ - والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم - ﴿إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ أي في ضلالة حيث تدعوننا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ ؟ الآية، ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسولٌ من رب العالمين﴾ أي لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء فهو رب كل شيء ومليكه، ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾، وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة، ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقائه، بل احمداوا الله على ذاكم، ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾، أي واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه، ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ أي زاد طولكم على الناس بسطة أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كقوله في قصة طالوت: ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ واذكروا آلاء الله أي نعمه ومنته عليكم ﴿لعلكم تفلحون﴾ .

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا مَا نَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَاتَّخِذْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ رِجْحَةً مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ

كَذِبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

يخبر تعالى عن تمردهم وطفيتهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام، ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ الآية، كقول الكفار من قريش: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فضمن يقال له: صمد، وآخر يقال له: صمود، وآخر يقال له: الهباء، ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ أي قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من ربكم رجس، معناه سخط وغضب ﴿أَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي أحتاجوني في هذه الأصنام التي سميتوها أنتم وآبائكم آلهة وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً، ولهذا قال: ﴿ما نزل الله بها من سلطان﴾. فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴿وهذا تهديد ووعد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخرى من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ﴿ما تذر من شيء إلا جعلته كالرميم﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلَكُوهُم بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ لما تمردوا وعتوا أهلكتهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه، فتشلق رأسه حتى تبيته من جثته، ولهذا قال: ﴿كَانَهُمْ أَعْجَازٌ تَلُخْلُخُ خَاوِيَةٍ﴾. وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام، وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحّدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ واتبعه منهم ناس - وهم يسير - يكتُمون إيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع كلمهم هود فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ • وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ • وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ الآيات .

فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك، وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، فبعثت عاد وفدأ قريياً من سبعين رجلاً إلى الحرم، ليستقوا لهم عند الحرم فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم، فأنشأ الله سحبات ثلاثاً بيضاء وسوداء وحمرأ، ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب فقال: اخترت هذه السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء، فناداه مناد: «اخترت رماداً رمدداً، لا تبق من عاد أحداً، لا والدأ ولا ولدأ، إلا جعلته همدأ». وساق الله السحابة السوداء بما فيها من النعمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد، يقال لها المغيث، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، يقول: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم • تدمر كل شيء﴾ أي تهلك كل شيء مرت به، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، كما قال الله تعالى، والحسوم الدائمة، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك، وقد قال الله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾،

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق عن الحارث البكري قال: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافتدأ لهم يقال له قيل، فر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريته يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحبات سود، فنودي: منها اختر، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي: منها خذها رماداً رمدياً، لا تبق من عاد أحداً، قال: فابلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا. قال أبو وائل وصدق قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافتدأ لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد^(١)

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَرَّبُ عَبْدُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْمِيبَةً مِنْ رَبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٤﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَخِذُوا مِنْ سَهْلِهَا قُصُورًا وَتَحْتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٦﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِاللَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٧﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَمْتُنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٨﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٧٩﴾

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، أجداء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع، قال الإمام أحمد عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعبثوا بها، ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجيين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عبدوا، وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم». وقال أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمر قال، قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(٢). قوله تعالى: ﴿وإلى ثمود﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ﷺ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﷻ، فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأخرجه ابن جرير . (٢) أصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين .

له، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، وقوله: ﴿قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية﴾، أي قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن يخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح اليهود والمواثيق، لأن أجابهم الله إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهدهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء، يتحرك جنبها بين جنبها، كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيسهم (جندع بن عمرو) ومن كان معه على أمره، وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعت بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً، وتدعه لم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها، فيملأون ما شاموا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محضر﴾، وقال تعالى: ﴿هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾، وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها لأنها كانت تنضلع من الماء، وكانت على ما ذكر خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها، قال قتادة: بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان، قلت: وهذا هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿فكذبوه ففقروها فقدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾، وقال: ﴿وأتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾، وقال: ﴿ففقروا الناقة﴾، فأسند ذلك على مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك، والله أعلم.

وذكر ابن جرير وغيره من علماء التفسير: أن سبب قتلها أن امرأة منهم يقال لها (عنيزة) وتكنى أم عثان، كانت عجوزاً كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها (ذؤاب بن عمرو) أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها (صدقة) ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقه، فكانتا يجعلان جعلاً لمن التزم لهما بقتل الناقة فدعت صدقة رجلاً يقال له: الحباب، فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها، فدعت ابن عم لها يقال له: (مصدع بن الحيا) فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة بنت غنم (قدار بن سالف) وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه كان ولد زانية، وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، فعند ذلك انطلق (قدار بن سالف) و(مصدع بن الحيا) فاستغويا غواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ وكانوا رؤساء في قومهم، فاستألوا القبيلة الكافرة بكالمها، فطاعوهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها (قدار بن سالف) في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، وخرجت بنت غنم عنيزة، وأمرت ابنتها - وكانت من أحسن الناس وجهاً - فسفرت عن وجهها لقدار وزمرته، وشد عليها قدار بالسيف فكشف عن عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغبة واحدة تحذر سقبا، ثم طعن في لبتا فتحرها، وانطلق سقبا وهو فصيلها حتى أتى جبلاً منيعاً، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة وبلغ الخبر صالحاً عليه السلام جاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تمتوا في داركم ثلاثة أيام﴾ الآية، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون﴾، فلما عزموا على ذلك وتواطأوا عليه وجأؤوا من الليل ليفتكوا بني الله، فأرسل الله سبحانه وتعالى - وله العزة والرسولة - عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجلاً قبل قومهم، وأصبح نمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة، كما وعدم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل - وهو يوم الجمعة - ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع - وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد، وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه - عياداً بالله من ذلك - لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة. ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى، ولم يبق من ذرية نمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضي الله عنهم، إلا أن رجلاً يقال له (أبو رغال) كان لما وقعت النقمة بقومه مقبلاً إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله .

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾

هذا تقرير من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وعمردهم على الله، وإبانهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريراً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ وقف على القلب - قلب بدر - فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شبة ابن ربيعة، يا فلان بن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا! فقال: «والذي نفسي بيده ما أتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يبجيون»^(١). وهكذا قال صالح عليه السلام لقومه: ﴿لقد أبلغتكم رسالتي ونصحت لكم﴾ أي فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تبصرون ناصحاً، ولهذا قال: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾، وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلك أمته كان يذهب فيقيم في الحرم - حرم مكة - والله أعلم. وقد قال الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: «يا أبا بكر أي واد هذا؟» قال هذا وادي عسفان. قال: «لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمهن الليف، أزرهن العباء، وأرديتهن النار، يلبنون يحجون البيت العتيق»^(٢)

(١) وفي السيرة أنه ﷺ قال لم: «بش عشيرة القوم كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقتي الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتهموني ونصرني الناس، فبش عشيرة القوم كنتم لنبيكم» .

(٢) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى (و) لقد أرسلنا ﴿لوطاً﴾ أو تقديره (و) اذكر ﴿لوطاً﴾ إذ قال لقومه ﴿﴾، ولوط هو ابن هارون ابن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سدوم، وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله. قال عمرو بن دينار في قوله ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ قال: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان يوم لوط؛ وقال الوليد بن عبد الملك: لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً، ولهذا قال لم لوط عليه السلام: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴿أي عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربيكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكهم وجهل، لأنه وضع الشيء في غير محله، ولهذا قال لم في الآية الأخرى: ﴿هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ فأرشدكم إلى نسايتهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك، وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضاً.

* وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾

أي ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين، وقوله تعالى: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾، قال قتادة: عابوهم بغير عيب. وقال مجاهد: إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء، وروى مثله عن ابن عباس أيضاً.

* فَالْتَجَيْنَا إِلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ فَكَانَتْ مِنَ الْقَدِيرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى: فالنجينا لوطاً وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ فاجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴿إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها تماثلهم عليه، وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفائه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسري بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول بل اتبعتم، فلما جاء العذاب التفت هي، فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال ههنا: ﴿إلا امرأته كانت

من الغابرين ﴿٨٥﴾ أي الباقين، وقيل من المالكين وهو تفسير باللازم، وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حَجَارَةً﴾ من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعدها، ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترىء على معاصي الله عز وجل ويكذب رسله، وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللاط يلقى من شاحق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرمم سواء كان محصناً أو غير محصن، وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله. والحجة ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(١). وقال آخرون: هو كالزاني فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة، وهو القول الآخر للشافعي، وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللواطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء إلا قولاً شاذاً لبعض السلف.

وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَافْقُوا أَلْكَيلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٦﴾

مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي يقرب (معان) من طريق الحجاز^(٢)، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهٌ يَرْجُونَ﴾ وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة، ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي قد أقام الله الحجج والبيّنات على صدق ما جئتكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ - إِلَى قَوْلِهِ - لَرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه، ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب الذي يقال له (خطيب الأنبياء) لفصاحة عبارته وجزالة موعظته.

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَفَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٧﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِءَ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٨﴾

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي

(١) ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

(٢) معان هي الآن بلدة شهيرة في شرق الأردن .

تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي: كانوا عشارين، وعن ابن عباس ومجاهد ﴿ولا تفعلوا بكل صراط توعدون﴾: أي تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعب ليتبعوه، والأول أظهر، لأنه قال: ﴿بكل صراط﴾ وهو الطريق، وهذا الثاني هو قوله: ﴿وتصلون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً﴾ أي وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة، ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ أي كنتم مستضعفين لقتلكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك، ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والتكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله، وقوله: ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا﴾ أي قد اختلفتم علي ﴿فاصبروا﴾ أي انتظروا ﴿حتى يحكم الله بيننا وبينكم﴾ أي يفصل ﴿وهو خير الحاكمين﴾، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، واللمار على الكافرين.

* قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَذِرِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْجَانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوذَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعبياً ومن معه من المؤمنين، وتوعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيها هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول، والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة، وقوله: ﴿أولو كنا كاذرين﴾؟ يقول: أو أتم فاعلون ذلك ولو كنا كاذرين ما تدعونا إليه، فإننا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيها أتم فيه فقد أعظمتا القرية على الله، في جعل الشركاء معه أنداداً، وهذا تنفير منه على اتباعهم ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾، وهذا رد إلى الله مستقيم فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علماً، ﴿على الله توكلنا﴾ أي في أمورنا ما نأتي منها وما نذر، ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾، أي احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم، ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ أي خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجوز أبداً.

وَقَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ آتَيْتُمْ شُعَيْبًا أَنْكِرًا إِذَا تَخَسَّرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لئن آتيتهم شعبياً إنكم إذا لخاسرون﴾، فلهذا عقبه بقوله: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾، أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة، وذلك كما أرجفوا شعبياً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء

كما أخبر عنهم في سورة هود، فقال: ﴿ولما جاء أمرنا بنجينا شعبياً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصبيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين﴾، والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تهكوا به في قولهم ﴿أصلاتك تأمرك﴾؟ الآية، فجاءت الصبيحة فأسكتهم، وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾ الآية، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلمت، فيها شر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صبيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام ﴿فأصبحوا في ديارهم جائعين﴾. ثم قال تعالى: ﴿كان لم يغنوا فيها﴾ أي كأنهم لما أصابهم النعمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها. ثم قال تعالى مقابلاً لقليلهم: ﴿الذين كذبوا شعبياً كانوا هم الخاسرين﴾.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالِيتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأْتُمْ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

أي فتولى عنهم شبيب عليه السلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنعمة والنكال، وقال مقررأ لهم وموجهاً: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾ أي قد أدبت إليكم ما أرسلت به، فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، فهذا قال: ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾..؟

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ

الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء. يعني ﴿بالبأساء﴾ ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، ﴿والضراء﴾ ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿لعلهم يضرعون﴾ أي بدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم، وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه، ولهذا قال: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أي حولنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك فما فعلوا، وقوله: ﴿حتى عفوا﴾ أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر ﴿وقالوا قد مس آبائنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾. يقول: تعالى ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله فما نجح فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، وقالوا: قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آبائنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء كما ثبت في الصحيحين: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له» فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء،

ولهذا جاء في الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه»^(١)، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فم يربطه أهله ولا فهم أرسلوه»، أو كما قال، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي على بغتة وعدم شعور منهم، أي أخذناهم فجأة كما في الحديث: «موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة للكافر»

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٧﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٨﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٩﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي ما آمنت قرية بتامها إلا قوم يونس فإنهم آمنوا، وذلك بعدما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَأَمِنُوا فَنَعَّمْنَا بِهِمْ إِلَىٰ هُنَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل، وصدقت به واتبعوه، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي قطر السماء ونبات الأرض، وقال تعالى: ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم، ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجه ﴿فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ أي الكافرة، ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا ونكالنا، ﴿بَيِّنًا﴾ أي ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أي في حال شغلهم وغفلتهم، ﴿فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم، وأخذ إياهم في حال سهوهم وغفلتهم، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

أَوَلَمْ يَدَّبْدِلُوا الَّذِينَ يَرْتُونَ الْآرْضَ مِّن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ شَاءَ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠١﴾

قال ابن عباس المعنى: أولم يتبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، وقال ابن جرير في تفسيرها: أو لم يتبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم، وعملوا أفعالهم، وعتوا على ربهم ﴿أَن لَّوْ شَاءَ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا

(١) في رواية الترمذي: «حتى يلقي الله تعالى وما عليه خطيئة».

قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ﴿١٠١﴾ وقال: ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾، وقال تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾ أي هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً؟ وقال تعالى: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾؟ وقال تعالى: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه، ولهذا عقب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين .

* تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٣﴾

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿تلك القرى نقص عليك﴾ أي يا محمد ﴿من أنبائها﴾ أي من أخبارها، ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾، وقال تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد﴾، وقوله تعالى: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ الباء سببية أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، كقوله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾، ولهذا قال هنا: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم﴾ أي لأكثر الأمم الماضية ﴿من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ أي ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين، خارجين عن الطاعة والامثال. والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربههم ومليكهم، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع .

قال تعالى: ﴿واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أبعلنا من دون الرحمن آتة يعبدون﴾؟ وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾. إلى غير ذلك من الآيات، وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾، عن أبي بن كعب قال: كان في علمه تعالى يوم أقرأ له بالميثاق، أي فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، واختاره ابن جرير، وقال السدي ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهاً. وقال مجاهد في قوله: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾، هذا كقوله: ﴿ولو ردوا لعادوا﴾ الآية

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ أي الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات

الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين، ﴿موسى بآياتنا﴾ أي بحجتنا ودلائلنا البينة إلى فرعون - وهو ملك مصر في زمن موسى - ﴿وملئه﴾ أي قومه، ﴿فظلموا بها﴾ أي جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي الذين صلوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي انظر يا محمد كيف فعلنا بهم وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به .

وَقَالَ مُوسَىٰ يٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامة إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ أي أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربّه ومليكه ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾، قال بعضهم: معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي جدير بذلك وحري به، قالوا: والباء وعلى يتعاقبان، يقال: ربيت بالقوس وعلى القوس، وقال بعض المفسرين: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق، وقرأ آخرون من أهل المدينة: حقيق عليّ، بمعنى واجب وحق عليّ ذلك، أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من جلاله وعظم شأنه، ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ أي بحجة قاطعة من الله أعطانها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به، ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾ أي أطلقهم من أسرك وقهرك ودعهم لعبادة ربهم، فإنهم من سلالة نبي كريم (إسرائيل) وهو يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، ﴿قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ أي قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمعطيك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لتراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

قال ابن عباس: ﴿فألقى عصاه﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل، وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة، وقال السدي في قوله ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾: الثعبان الذكر من الحيات، فاتحة فاها، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها دعر منها ووثب وأحدث، وصاح: يا موسى خذها وأنا أؤمن بك، وأرسل مملك بني إسرائيل، فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا، وقوله ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾: أي أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه، فإذا هي بيضاء تتلأأ من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وأدخل

يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴿١٠٩﴾ الآية. وقال ابن عباس ﴿من غير سوء﴾ يعني من غير برص، ثم أعادها إلى كنهه، فعادت إلى لونها الأول .

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٠﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَذًا تَأْمُرُونَ ﴿١١١﴾

أي قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه واستقر على سرير مملكته، بعد ذلك قال للملأ حوله: ﴿إن هذا ساحر عليم﴾ فوافقوه، وقالوا كمثلته، وتشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلهم في إطفاء نوره، وإخماد كلمته وظهور كذبه وإفترائه، ونحوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى: ﴿ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ فلما تشاوروا في شأنه واتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاها الله تعالى عنهم في قوله تعالى :

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٢﴾ يَا تَوَكُّبُ كُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٣﴾

قال ابن عباس: ﴿أرجه﴾ أخره: وقال قتادة: أحبه ﴿وأرسل﴾ أي ابعث، ﴿في المدائن﴾ أي في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿حاشرين﴾ أي من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم، وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم منهم أن ما جاء موسى به عليه السلام من قبيل ما تشعبه سحرتهم، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بتقليد ما أراهم من البيّنات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أجئتنا لتخرجننا من أرضنا بسحرك يا موسى، فلنأتينك بسحر مثله، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى﴾

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِن كُنَّا لَمِنَ الْمُفْرِّينَ ﴿١١٥﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام، إن غلبوا موسى ليشينهم وليعطينهم عطاء جزيلاً، فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمفريين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله .

قَالُوا يَمُومَسِيْ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَزِيزٍ ﴿١١٧﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم: ﴿إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقيين﴾ أي قبلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وإما أن نكون أول من ألقى﴾، فقال لهم موسى عليه السلام: ألقوا أي أنتم أولاً، قيل: الحكمة في هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغوا من بهرجهم، جاءهم الحق الواضح

الجلي بعد التطلّب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾ أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فإذا جبالهم وعصبيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾. قال ابن عباس: ألقوا جبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً قال: فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وقال محمد بن إسحاق: ألقى كل رجل منهم ما في يده من الجبال والعصي: فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً. وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس رجل منهم إلا ومعه جبل وعصا، ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾ يقول: فرقوم أي من الفرق، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، ولهذا قال تعالى: ﴿وجاءوا بسحر عظيم﴾

* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغَلِبُوا هَٰذَا لَكَ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه ﴿فإذا هي تلقف﴾ أي تأكل ﴿ما يافكون﴾ أي ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل، قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من جبالهم ولا من خشبهم إلا التفتته، فعرفت السحرة أن هذا شيء من الساء ليس هذا بسحر، فخروا سجداً^(١)، وقالوا: ﴿آمنّا برب العالمين رب موسى وهرون﴾ قال محمد بن إسحاق: جعلت تتبع تلك الجبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً، قالوا: ﴿آمنّا برب العالمين رب موسى وهرون﴾ لو كان هذا ساحراً ما غلبنا. وقال القاسم بن أبي برة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فاغر فاه، يتلع جبالهم وعصبيهم، فألقى السحرة عند ذلك سجداً فافروا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلها .

* قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَّنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُمُهُ فِي الۡمَدِينَةِ لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَا صَلَبَ لَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَن ءَأَمَّنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

(١) قيل: كان رؤوسهم أربعة، وهم أئمة السحرة، كما ذكره الطبري، والدارقطني، وكان السحرة: سبعين ألفاً، وقيل دون ذلك، ومهما يكن من أمر فقد كان عددهم كبيراً .

يخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه وسلطته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم من اختار وأحضرهم عنده، ووعدهم بالعتاء الجزيل، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على التقدم عند فرعون، وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترأ وتديساً على رعاي دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفْ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾ فإن قوماً صدقوه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم. وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصوله وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما أصنع بكم، ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ يعني يقطع يده اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿وَلَأَصْلِبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي على الجذوع، قال ابن عباس: وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون، وقول السحرة: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي قد تحققنا أننا إليه راجعون وعذابه أشد من عذابك، ونكاله على ما تدعوننا إليه اليوم، وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي عمتنا بالصبر على دينك والثبات عليه، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي متابعين لنبيك موسى عليه السلام، وقالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة، قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرِ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمره لموسى عليه السلام وقومه من الأذى ﴿وقال الملأ من قوم فرعون﴾ أي لفرعون ﴿أنتر موسى وقومه﴾ أي أئدهم ﴿ليفسدوا في الأرض﴾ أي يفسدوا أهل رعيته ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، ﴿ويذرك وآهلك﴾ الواو هنا حالية أي أئثره وقومه يفسدون في الأرض وقد ترك عبادتك؟ وقيل: هي عاطفة أي أئدهم يصنعون من الفساد ما قد أقرتهم عليه وعلى ترك آهلك؟ وقرأ

بعضهم : إلهتك أي عبادتك^(١) . قال الحسن البصري : كان لفرعون إله يعبد في السر ، فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله : « سقتل أبناءهم ونسجني نساءهم » وهذا أمر ثان بهذا الصنيع ، وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذراً من وجوده ، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون ، وهكذا عومل في صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد ، أعزهم الله وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده ، ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾ ، ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم في قوله : ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ قالوا أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴿ أي فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك ، فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه ﴾ : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوك ﴾ الآية . وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ (١٣٠) ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ يَظُنُّوا يُمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣١)

يقول تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون ﴾ أي اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم ﴿ بالسنين ﴾ وهي سنين الجوع بسبب قلة الزروع ، ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ ، قال رجاء بن حيوة : كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ، ﴿ لعلمهم يذكرون ﴾ فإذا جاءتهم الحسنة ﴿ أي من الخصب والرزق ﴾ قالوا لنا هذه ﴿ أي هذا لنا بما نستحقه ﴾ وإن تصيبهم سيئة ﴿ أي جلد وقحط ﴾ يظنوا بموسى ومن معه ﴿ أي هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴾ ألا إنما طائرهم عند الله ، قال ابن عباس : مصائبهم عند الله ، ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ وعنه ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ أي من قبل الله .

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَالْحِزْنُ لَكَ يَمْؤُمِنِينَ ﴾ (١٣٢) ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ (١٣٣) ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّيحُ قَالُوا يَمْؤَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّيحَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (١٣٤) ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّيحَ وَالْجُرَادَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ (١٣٥)

هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون وعثوم ، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم :

(١) روي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

﴿مهما تأتتا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾، يقولون: أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك ولا تؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ اختلفوا في معناه، فعن ابن عباس: كثرة الأمطار المفرقة المتلفة للزروع والثمار^(١)، وعنه: هو كثرة الموت، وقال مجاهد: ﴿الطوفان﴾ الماء والطاعون، وأما الجراد فعروف مشهور، وهو مأكول لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى: غرونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد، وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد والكبد والطحال». وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب. وروى الحافظ أبو الفرج الحريري قال: سئل شريح القاضي عن الجراد؟ فقال: قبح الله الجرادة فيها خلقه سبعة جبابرة رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجل جمل، وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب. وروى ابن ماجه عن أنس وجابر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كبارها، واقتل صغارها، وأفسد بيضه، واقطع دابره»، وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزقنا إنك سميع الدعاء» فقال له جابر: يا رسول الله أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: «إنما هو نثره حوت في البحر»^(٢). قال هشام: أخبرني زياد أنه أخبره من رآه يثره الحوت. قال من حقق ذلك: إن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس أنه يفقس كله جراداً طياراً. وأما القمل فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة، وعن الحسن: القمل دواب سود صغار، وقال ابن أسلم: القمل البراغيث، وقال ابن جرير: القمل جمع واحدتها قملة وهي دابة تشبه القمل تأكل الإبل فيما بلغني.

وعن سعيد بن جبيرة قال: لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر، فصب عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأثبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبت قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسكطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبق الزرع، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداوسوا وأحرزوا في البيوت فقالوا قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم القمل وهو (السوس) الذي يخرج منه، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحي فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذفته في الضفادع، ويهم أن يتكلم فيشب الضفدع في فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا،

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه .

(١) وبه قال الضحاك بن مزاحم وهو الأظهر .

وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب، فقال: إنه قد سحركم، فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟ فأتوه وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل^(١)

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، فأخذه بالسنين وأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء قفاض على وجه الأرض، ثم ركذ لا يقدرّون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ فدعا موسى ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني، حتى إن كان لياًكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كتيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كتيب أهيل عظيم فضربه بها فانتال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا مثل ما قالوا له، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع فلأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يعترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً.

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا أَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

يغير تعالى أنهم لما عتوا وعمدوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتوارة واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورد فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها، وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون - وهم بنو إسرائيل - مشارق الأرض ومغاربها كما قال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم ائمةً ويجعلهم الوارثين﴾، وقال تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ كذلك وأورثناها قوماً آخرين. وعن الحسن البصري وقنادة في قوله:

(١) روي مثل هذا عن ابن عباس والسدي وقنادة وغير واحد من علماء السلف.

﴿مشارك الأرض ومغارها التي باركنا فيها﴾ يعني الشام، وقوله: ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾، قال مجاهد وهي قوله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض﴾^(١) الآية، وقوله: ﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ أي وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿وما كانوا يعرشون﴾ يبنون^(٢)

وَجَوْنَزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنْ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعْتُمْ مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

يغبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فأتوا﴾ أي فروا ﴿على قوم يعكفون على أصنام لهم﴾. قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين، قال ابن جرير: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلِهَةٌ قال إنكم قوم تجهلون﴾ أي تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعْتُمْ مَا هُمْ فِيهِ﴾ أي هالك ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾، عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حين فررنا بسدرة، فقلت: يا نبي الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلِهَةٌ. إنكم تركبون سنن من قبلكم»^(٣)

قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَنْيُكُمُ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَخْبَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

يذكرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشفاء من عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره، وقد تقدم تفسيرها في البقرة

* وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِّقَّتْ رِيَّةً أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

(١) وروى أيضاً عن ابن جرير وغيره وهو ظاهر

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد .

(٣) رواه أحمد وابن أبي حاتم وأورده ابن جرير .

يقول تعالى ممثلاً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، فصامها موسى عليه السلام وطواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين، وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثر على أن الثلاثين هي (ذو القعدة) وعشر من ذي الحجة، روي عن ابن عباس وغيره، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾، فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور استخلف على بني إسرائيل أخاه (هارون) ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله، له وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرْنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رب أريني أنظر إليك قال لن تراني﴾ وقد أشكل حرف ﴿لن﴾ ههنا على كثير من العلماء، لأنها موضوعة لنفي التأييد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة، وهذا أضعف الأقوال، لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، وقوله تعالى إخباراً عن الكفار ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾، وقيل: إنها لنفي التأييد في الدنيا جمعاً بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة، وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كاللحاح في قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾، وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده» ولهذا قال تعالى: ﴿فلما تجلَّى ربه للجليل جعله دكاً وخر موسى صعقاً﴾، قال ابن جرير الطبري: «لما تجلَّى ربه للجليل أشار بأصبعه فجعله دكاً وأرانا أبو إسماعيل بأصبعه السبابة»، وعن أنس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فلما تجلَّى ربه للجليل جعله دكاً﴾ قال: هكذا بأصبعه، ووضع النبي ﷺ إصبعه الإبهام على الفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل^(١). قال ابن عباس: ما تجلَّى منه إلا قدر الخنصر ﴿جعلته دكاً﴾ قال: تراباً ﴿وخر موسى صعقاً﴾ قال: مغشياً عليه^(٢). وقال قتادة: ﴿وخر موسى صعقاً﴾ قال: ميتاً، وقال الثوري: ساخ الجبل في الأرض حتى

(١) أخرجه ابن جرير وروى الترمذي وأحمد والحاكم قريباً منه.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري وهي رواية السدي عن ابن عباس.

وقع في البحر فهو يذهب معه. وعن عروة بن رويم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صماء ملساء، فلما تجلى الله لموسى على الطور ذك وتفتطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف^(١)

وقال مجاهد في قوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾، فإنه أكبر منك وأشد خلقاً ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله﴾ فنظر إلى الجبل لا يتالك وأقبل الجبل فذلك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعباً. وقال عكرمة ﴿جعله ذكاً﴾ قال: نظر الله إلى الجبل فصار صحراء تراباً، والمعروف أن الصق هو الغشي ها هنا كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً في اللغة، كقوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ فإن هناك قرينة تدل على الموت، كما أن هنا قرينة تدل على الغشي، وهي قوله: ﴿فلما أفاق﴾ والإفاقة لا تكون إلا عن غشي، ﴿قال سبحانه﴾ تتريها وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات، وقوله: ﴿تبت إليك﴾، قال مجاهد: أن أسألك الرؤية ﴿وأنا أول المؤمنين﴾، قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل، واختاره ابن جرير. وفي رواية أخرى عنه ﴿وأنا أول المؤمنين﴾: أنه لا يراك أحد، قال أبو العالية: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة، وهذا قول حسن له النجاء، وقوله: ﴿وخر موسى صعقاً﴾ روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه، وقال يا محمد إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي قال: «ادعوه»، فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله إني مرت باليهودي فسمعتة يقول: والذي اصطفى موسى على البشر، قال: وعلى محمد؟ قال: فقلت: وعلى محمد؟ وأخذتني غصبة فلطمته فقال: «لا تخبروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور»^(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخبروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق فإذا بموسى ممسك بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل»^(٣). والكلام في قوله عليه السلام: «لا تخبروني على موسى» كالكلام على قوله: «لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى» قيل: من باب التواضع وقيل: قبل أن يعلم بذلك، وقيل: نسي أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب، وقيل: على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي، والله أعلم. وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة» الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به، وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء وتجلى للخلائق الملك الديان كما صعق موسى من تجلى الرب تبارك وتعالى، ولهذا قال عليه السلام: «فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور».

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

(٣) رواه الشيخان وأحمد.

قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي نَحْنُ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَنَحْنُ بِقُوَّةٍ وَأَمْرٍ قَوْمَكَ بِأَخْذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين، ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، وأتباعه أكثر من أتباع سائر المرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل (إبراهيم) الخليل عليه السلام، ثم (موسى بن عمران) كلم الرحمن عليه السلام، ولهذا قال الله تعالى له ﴿فخذ ما آتيتك﴾ أي من الكلام والمناجاة ﴿وكن من الشاكرين﴾ أي على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به، ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة، مبينة للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة، وقيل: الألواح أعطاها موسى قبل التوراة فالله أعلم، وقوله ﴿فخذها بقوة﴾ أي بعزم على الطاعة ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾، قال ابن عباس: أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أمر قومه، وقوله ﴿سأريك دار الفاسقين﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب، قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سأريك دار الفاسقين﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري على (وجه التهديد) والوعيد لمن عصاه وخالف أمره^(١)، وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم.

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَسِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

يقول تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي، قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق، أي كما استكبروا بغير حق أذهم بالجهل، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾، وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر، وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً، وقال سفيان بن عيينة: أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي، ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم

كل آية حتى يروا العذاب الأليم»، وقوله: ﴿وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً﴾ أي وإن ظهر لهم سبيل الرشداً أي طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ أي كذبت بها قلوبهم ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ أي لا يعملون بما فيها، وقوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ أي من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله، وقوله: ﴿هل يميزون إلا ما كانوا يعملون﴾؟ أي إنما يجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكما تدين تدان.

وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَداً لَهُمُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلاً جسداً له خوار، والخوار صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾. وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحماً ودماً له خوار، أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة؟ على قولين والله أعلم، ويقال: إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتنوا به وقالوا: ﴿هذا الحكم وإله موسى فنسي﴾، قال تعالى: ﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً﴾؟ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿لم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً﴾؟ ينكر تعالى عليهم ضلالهم بالعجل، وذهولهم عن خالق السموات والأرض، ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال، كما تقدم عن أبي الدرداء قال، قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يعني ويصم»^(١). وقوله: ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ أي ندموا على ما فعلوا ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْلِمْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْسِتْ بِي الْأَعْدَاءَ

وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسفاً، والأسف أشد الغضب ﴿قال بشما خلفتموني من بعدي﴾ يقول: بشئ ما صنعتكم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتمكم، وقوله: ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى، وقوله: ﴿وألقي الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ قيل: كانت الألواح من زمرد، وقيل: من ياقوت، وظاهر السياق أنه إنما ألقي الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، ﴿وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿قال يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾، وقال ها هنا: ﴿ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي لا تسقي مساقهم ولا تخطي معهم وإنما قال: ﴿ابن أمّ﴾ ليكون أرق وأجمع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه، فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام، عند ذلك ﴿قال﴾ موسى ﴿رب اغفر لي ولإخوتي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى ليس المعادين كالمخبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعابهم ألقي الألواح»^(١)

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

أما (الغضب) الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً وأما (الذلة) فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا، وقوله: ﴿وكذلك نجزي المفتريين﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين، وعن أبي قلابة أنه قرأ هذه الآية: ﴿وكذلك نجزي المفتريين﴾ فقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل. ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك﴾ أي يا محمد يا نبي الرحمة ﴿من بعدها﴾ أي من بعد تلك الفعلة ﴿لغفور رحيم﴾. عن عبد الله بن مسعود: أنه سئل عن ذلك يعني الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها، فتلا هذه الآية: ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها^(٢)

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) رواه ابن أبي حاتم أيضاً عنه.

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ^{١٥٤} وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٥﴾

يقول تعالى: ﴿ولما سكّت﴾ أي سكن ﴿عن موسى الغضب﴾ أي غضبه على قومه، ﴿أخذ الألواح﴾ أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضباً له ﴿وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك، ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿أخذ الألواح﴾ قال: رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي! قال تلك أمة أحمد، قال رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون، أي آخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها رب اجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال: اللهم اجعلي من أمة أحمد^(١).

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُهُمْ بِفَعْلِ السُّفْهَاءِ مِنَّا^{١٥٥} إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٦﴾ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ

قال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً، ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً﴾ على عينيه ثم ذهب بهم ليعتزلوا، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: ﴿لن تؤمن لك﴾ يا موسى ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ فإنك قد كلمته فأرانا، ﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ فاتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾^(٢)، وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً: الخير فالخير، وقال انطلقوا إلى الله فتربوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى (طور سيناء) لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون - فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه - لموسى، اطلب لنا نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرِب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام، وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه يفعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم فقالوا يا موسى: ﴿لن تؤمن لك حتى

(١) ذكر هذا الأثر مطولاً عن قتادة ولم يرمز إليه ابن كثير بضعف. (٢) روي مثل هذا عن ابن عباس وبعض السلف.

نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة ﴿ وهي الصاعقة فالتفت أرواحهم فأتوا جميعاً ﴾ فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿ رب لو شئت أهلكهم من قبل وإياي ﴾ قد سفهوا، أهلك من ورائي من بني إسرائيل ؟ وقال ابن عباس وقتادة: إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾، وقوله: ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك، يقول: إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك فما شئت كان، فضل من تشاء وتهدي من تشاء ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك والحكم كله لك، لك الخلق والأمر، وقوله: ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ الغفر هو الستر وترك المؤاخذه بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل، ﴿ وأنت خير الغافرين ﴾ أي لا يغفر الذنب إلا أنت، ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ الفصل الأول من الدعاء لدفع الحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ أي أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أي تبنا ورجعنا وأبنا إليك^(١). عن علي قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿ إنا هدنا إليك ﴾

قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

يقول تعالى مجيباً لموسى في قوله: ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ الآية، ﴿ قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء ﴾ أي أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك سبحانه لا إله إلا هو، وقوله تعالى: ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله إنهم يقولون: ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾. عن جندب بن عبد الله البجلي قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته، ثم عقّلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته، فأطلق عقلاها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله ﷺ: « أتقولون هذا أضل أم بعيره، ألم تسمعو ما قال ؟ » قالوا: بلى، قال: « لقد حظرت رحمة واسعة، إن الله عز وجل خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وإنسها وبهائمها، وآخر عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره ؟ » رواه أحمد وأبو داود، وقال الإمام أحمد أيضاً عن سلمان عن النبي ﷺ قال: « إن لله عز وجل مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وآخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة ». عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: « لله مائة رحمة فقسم منها جزءاً واحداً بين الخلق، به يتراحم الناس والوحش والطير »^(٢). وقوله:

(١) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك والسدي وقتادة وغيرهم .

(٢) أخرجه ابن جرير قال ابن كثير : وفيه جابر الجعفي ضعيف .

(٣) رواه ابن ماجة والإمام أحمد .

﴿ فَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ ﴾ الآية، يعني فساوجب حصول رحمتي منة مني وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾، وقوله: ﴿ للذين يتقون ﴾ أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات وهم أمة محمد ﷺ (الذين يتقون) أي الشرك والعظائم من الذنوب، قوله: ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ قيل: زكاة النفوس، وقيل: الأموال، ويحتمل أن تكون عامة لهما، فإن الآية مكية ﴿ والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ أي يصدقون .

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أمهم ببعثه وأمرهم باتباعه، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم، كما روى الإمام أحمد عن رجل من الأعراب، قال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل، فلاسمعن منه قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمضون، فتبعهم حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل القتيان وأحسنها، فقال رسول الله ﷺ: « أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي » فقال: برأسه هكذا أي لا؛ فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فقال: « أقيموا اليهودي عن أخيكم »، ثم تولى كفته والصلاة عليه^(١). وروى ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وحرزاً للأمينين، أنت عبدي ورسولي، اسلمك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به قلوباً غلفاً، وأذاناً صماً، وأعيناً عمياً. وقد رواه البخاري في صحيحه وزاد بعد قوله « ليس بفظ ولا غليظ » ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يغفو ويصفح .

وقوله تعالى: ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه. عن أبي حميد وأبي أسيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « إذا سمعتم الحديث عني مما تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه

(١) أخرجه أحمد عن الجريري عن أبي صخر العقيلي قال ابن كثير: هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بتمامه .

منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكروه قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه^(١). وعن علي رضي الله عنه قال: «إذا سمعتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظنوا به الذي هو أهدى، والذي هو أهنى، والذي هو أمتى^(٢). وفي رواية قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظنوا به الذي هو أهداه وأهناه وأتقاه. وقوله: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام، ونحو ذلك مما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكَل التي حرمها الله تعالى، قال ابن عباس: كلهم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكَل التي حرمها الله تعالى، قال بعض العلماء: فكل ما أحل الله تعالى من المأكَل فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين، وقوله: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ أي أنه جاء بالتيسير والسباحة، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» وقال ﷺ لأمر به (معاذ) و (أبي موسى الأشعري) لما بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطوعا ولا تحتلفا»، وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» وقال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»، ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾، وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي عظموه ووقروه، ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أي القرآن والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي في الدنيا والآخرة.

قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الَّذِي يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يا أيها الناس﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ أي جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ موعده﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَلَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾، والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله عليه رسول الله إلى الناس كلهم. قال البخاري في تفسير هذه الآية، عن أبي البرداء رضي الله عنه قال: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاوراة فأغضب أبو بكر عمر، فأنصرف عنه عمر مغضباً فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابيه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ،

(١) قال ابن كثير: رواه أحمد بإسناد جيد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

(٢) رواه الإمام أحمد.

فقال أبو الرداء ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أي غاضب وحاقد، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الرداء: فغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لآنا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت». وقال الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي ولا أقوله فخراً: بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود، ونصرت بالربع مسيرة شهر، وأحللت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي يوم القيامة، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً». وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(١). وعن جابر ابن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالربع مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأبما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحللت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه ويبعث إلى الناس عامة»^(٢). وقوله: ﴿الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت﴾ صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربّه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم، وقوله: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿النبي الأمي﴾ أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه منعت بذلك في كتبهم، ولهذا قال النبي الأمي، وقوله: ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي يصدق قوله وعمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿واتبعوه﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي إلى الصراط المستقيم.

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾، وقال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾، وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾، وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ الآية.

* وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَى عَشَرَ آسَابًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ آضِرْبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أثنى عشرة عينًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِيبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ

(١) رواه أحمد في المسند ومسلم في صحيحه واللفظ لأحمد.

(٢) رواه الشيخان عن جابر بن عبد الله مرفوعاً.

وَالسَّالَوِيَّ كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمْنَاهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ حُبْدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدينة وهذا السياق مكّي، ونبينا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا والله الحمد والمنة .

وَسَعَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ الآية، يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه، ﴿واسألهم﴾ أي واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتياطهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجعلونها في كتبهم لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم، وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطئ بحر القلزم، وقال ابن عباس: هي قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور^(١)، وقيل: هي مدين وهو رواية عن ابن عباس، وقوله: ﴿إذ يعدون في السبت﴾ أي يعدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لم بالوصاة به إذ ذاك ﴿إذ تأتيهم حثانهم يوم سبتهم شرعاً﴾، قال ابن عباس: أي ظاهرة على الماء، ﴿ويوم لا يسبئون لا تأتيمهم كذلك نبلوهم﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده، ﴿كذلك نبلوهم﴾ نختبرهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ يقول: يفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام، وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتسحلوا محارم الله بأدنى الحيل﴾^(٢)

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكَ وَلَعَلَّهُمْ يَسْتَفْهِنُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

(١) وهو قول عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي .

(٢) قال ابن كثير: إسناده جيد ورجاله مشهورون ثقات .

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطبياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ أي لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم قد هلكوا، واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم، قالت لهم المنكرة: ﴿معذرة إلى ربكم﴾ أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿ولعلمهم يتقون﴾ أي لعلمهم بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم، قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أنجينا الذين ينون عن سوء وأخذنا الذين ظلموا﴾، أي ارتكبوا المعصية ﴿بمذاب ببس﴾، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكنتين، لأن الجزء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين، وقال ابن عباس في الآية: هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدرها عليها، فضى على ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة، وقالوا: تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غياً وعتواً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاء تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾؟ وكانوا أشد غضباً لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون﴾ وكل قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: لم تعظون قوماً مهلكهم الله والذين قالوا معذرة إلى ربكم، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة .

عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكساني حلة. وقال عبد الرزاق عن عكرمة قال: جثت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو منه، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت ما يبكيك يا ابن عباس جعلني الله فداك؟ قال: فقال هؤلاء الورقات قال: وإذا هو في سورة الأعراف، قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم، قال: فإنه كان بها حي من اليهود سيق الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدرها عليها حتى يفوصوا بعد كد ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً بيضاء سماناً، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه وكلوها في غيره من الأيام، فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت، فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنحت، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكت، وقال الأيمنون: ويلكم، تنهاكم أن تعرضوا لعقوبة الله، وقال الأيسرون: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾؟ قال الأيمنون: ﴿معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون﴾ أي ينهون، إن ينهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينهوا فعذرة إلى ربكم، فضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون فقد فعلتم يا أعداء الله، والله لنأتينكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله

بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب، ونادوا فلم يجابوا، فوضعوا سلماً وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم، فقال: أي عباد الله قردة والله تعاوى تعاوى، لها أذنان، قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القرود فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس، فتشم ثيابه، وتبكي، فيقول: ألم تنهكم عن كذا؟ فتقول برأسها: أي نعم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجبنا الذين يبهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس﴾ قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها، قال: قلت جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوه، وقالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم؟﴾ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين^(١)

(القول الثاني): أن الساكتين كانوا من المالكين، قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس أنه قال: ابتدعوا السبت، فابتلوا فيه، فحرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر، فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل، فإذا جاء السبت جاءت شرعاً فكثروا ما شاء الله أن يمتكوا كذلك، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخزم أنفه ثم ضرب له وتداً في الساحل وربطه وتركه في الماء، فلما كان الغد أحذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهونه أحد إلا عصبة منهم نهوه، حتى ظهر ذلك في الأسواق ففعل علانية، قال، فقالت طائفة للذين يبهونهم: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم﴾ فقالوا: نسخط أعمالهم ﴿ولعلمهم يتقون﴾ فلما نسوا ما ذكروا به - إلى قوله - قردة خاسئين. قال ابن عباس: كانوا أثلاثاً، ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا، و﴿بئيس﴾ معناه في قول مجاهد الشديد، وفي رواية: ألم، وقال قتادة: موجه، والكل متقارب، والله أعلم، وقوله: ﴿خاسئين﴾ أي ذليلين حقيرين مهانين.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ
وَلِئِنَّ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

﴿تَأَذَّنَ﴾ تفعل من الأذان أي أعلم، قاله مجاهد، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا أتبعته باللام في قوله: ﴿ليبعثن عليهم﴾ أي على اليهود، ﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتياهم على المحارم، ويقال: إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين

(١) أخرجه عبد الرزاق عن ابن عباس .

(٢) قال ابن كثير: هذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى القول بهذا .

والكلدانين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ، فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: هي المسكنة وأخذ الجزية منهم، وعنه: هي الجزية، والذي يسومهم سوء العذاب محمد ﷺ وأمه إلى يوم القيامة^(١). ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم عليه السلام، وذلك آخر الزمان. وقوله: ﴿إِنْ رَبُّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أي لمن عصاه وخالف شرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لمن تاب إليه وأتاب، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترهيب والترغيب كثيراً لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٦٨) فُخِّلَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧٠)

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أُمَمًا أي طوائف وفرقاً، ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي فيهم الصالح وغير ذلك، كقول الجن: ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَنَا دُونَ ذَلِكَ﴾، ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ أي اختبرناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي بالرخاء والشدّة، والرغبة والرّهبّة، والعافية والبلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ الآية، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة، وقال مجاهد: هم النصارى، وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدون بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقوا فيه، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾. قال مجاهد: لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً ويتمنون المغفرة، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾. وقال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهد أن لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيها صنع، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي، يقول: وإن يأت الآخرون عرض الدنيا يأخذوه، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الآية،

يقول تعالى منكرًا عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس ولا يكتُمونه، كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ الآية، وقال ابن جريج قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال: فيها يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها. وقوله تعالى: ﴿وَالِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَقُولُونَ أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾ يرغبهم في جزيل ثوابه ويحذرهم من وييل عقابه، أي وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه، ﴿أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾؟ يقول أفليس هؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير، ثم أننى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

* وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

قال ابن عباس ﴿نتقنا الجبل فوقهم﴾ يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾ بميثاقهم، رفعت الملائكة فوق رؤوسهم، ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكّت عنه الغضب، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم وأبوا أن يقرؤا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ قال: رفعت الملائكة فوق رؤوسهم^(١). وقال أبو بكر بن عبد الله قيل: هذا كتاب أُنْقِلُونَهُ بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها وحلودها يسيرة قبلناها، قال: اقبلوها بما فيها، قالوا: لا، حتى نعلم ما فيها كيف حلودها وفرائضها، فأوحى الله إلى الجبل فانتقل فارتفع في السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء، قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي عز وجل؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل، قال: فحدثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجدًا على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرأوا من أن يسقط عليه، فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة، قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتر، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتر ونغض لها رأسه: أي حوّل، كما قال تعالى: ﴿فَيَسْغُضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾^(٢) والله أعلم.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا

(١) رواه النسائي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٢) أخرجه سنيد بن داود في تفسيره عن حجاج بن محمد عن أبي بكر بن عبد الله.

أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ خَنيفًا فَطَرَتِ اللَّهُ التِّي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة». وقال ابن جرير عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة قبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» فقال رجل: يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين، فقال: «إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة ولد تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها»، قال الحسن: والله لقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية. وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال، فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي».

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا - إلى قوله - المبطلون﴾».

عن أبي مسعود عن جرير قال: مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام، قال فقال: يا جابر إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده، فإن ابني مجلس ومستول، ففعلت به الذي أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله عم يسأل... من يسأله إياه؟ قال: يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم، قلت يا أبا القاسم: وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابن عباس: إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة.

(١) رواه ابن جرير وأخرجه أحمد والنسائي.

(٢) رواه أحمد والشيخان.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم في المستدرک.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ الآية، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةَ، قَالَ: خَلَقْتَ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةَ، قَالَ: خَلَقْتَ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهُ بِهِ النَّارَ»^(١)

(حديث آخر): قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسْمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْصًا مِنْ نَوْرٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ أَيُّ رَبِّ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيْصَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، قَالَ أَيُّ رَبِّ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ، قَالَ: رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عَمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ قَدْ وَهَبْتَ لَهُ مِنْ عَمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا انْقَضَى عَمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ قَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عَمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْلَمْ تَعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمَ، فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمَ فَنَسِيتْ ذُرِّيَّتَهُ، وَخَطِئَ آدَمَ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ»^(٢). (حديث آخر): عن هشام ابن حكيم رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَبْدَأُ بِالْأَعْمَالِ أَمْ قَدْ قَضَى الْقَضَاءُ؟ قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَخَذَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ أَفَاضَ بِهِمْ فِي كَفَيْهِ، ثُمَّ قَالَ هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ مَيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ مَيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ»^(٣)

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فانهو إلا في حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرمهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسر الحسن الآية بذلك، قالوا، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، ولم يقل من آدم، ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، أي أوجدكم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً، والشهادة تارة تكون بالقول، كقوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

(٢) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن هشام بن حكيم.

على أنفسنا ﴿ الآية ﴾ ، وتارة نكون حالاً ، كقوله تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ ، أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ ، كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال ، كقوله : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ . قالوا : وما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه ، فإن قيل : إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده ؟ فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ، ولهذا قال : ﴿ أن تقولوا ﴾ أي لثلاث تقولوا يوم القيامة ﴿ إنا كنا عن هذا ﴾ أي التوحيد ﴿ غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا ﴾ الآية .

وَأَنزَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَكَه يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ ﴿١٧٧﴾

هو رجل من بني إسرائيل ، يقال له بلم بن باعوراء^(١) ، وقال قتادة عن ابن عباس : هو (صيني بن الراهب) ، وقال كعب : كان رجلاً من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر ، وكان مقبلاً بيت المقدس مع الجبارين ، وعن ابن عباس رضي الله عنه : هو رجل من أهل اليمن ، يقال له (بلم) آتاه الله آياته فتركها ، وقال مالك بن دينار : كان من علماء بني إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد ، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه ، فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام . وقال سفيان بن عيينة عن ابن عباس : هو بلم بن باعوراء ، وقال ثقفيف : هو أمية بن أبي الصلت ، وقال عبد الله بن عمرو في قوله : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ﴾ الآية ، قال : هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت ؛ وقد روي من غير وجه عنه وهو صحيح إليه ، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه ، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ، ولكنه لم ينتفع بعلمه . فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة ، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه ، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ، ورثى أهل بدر من المشركين بمروءة بليغة فحبه الله . وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه ، فإن له أشعاراً ربانية وحكماً وفصاحة ، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام .

والمشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة : إنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل ، كما قال ابن

(١) ذكره عبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

مسعود وغيره من السلف، وكان يعلم اسم الله الأكبر، وكان مجاب الدعوة، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه - يعني بلعم - بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخري، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فانسلخ منها فأتبعه الشيطان﴾ الآية. وقال السدي: لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة﴾، بعث (يوشع بن نون) نبياً فدعا بني إسرائيل، فأخبرهم أنه نبي، وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وصدقوه، وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له: (بلعام) فكان عالماً يعلم الاسم الأعظم المكتوم، فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين، وقال لهم: لا ترهبوا بني إسرائيل، فإنني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون، وقوله تعالى: ﴿فأتبعه الشيطان﴾ أي استحوذ عليه وعلى أمره فهما أمره امتثل وأطاعه، ولهذا قال: ﴿فكان من الغاوين﴾ أي من الهالكين الحائزين البائسين، وقد ورد في معنى هذه الآية حديث (حذيفة بن اليمان) رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن مما أخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام، اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك» قال: قلت يا نبي الله أيها أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟ قال: «بل الرامي»^(١). وقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾، يقول تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناها إياها، ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولى البصائر والنبي

قال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم عن أبي النضر: أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه، فقالوا له هذا (موسى بن عمران) في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، وإنا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم قال: ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليه وأنا أعلم من الله ما أعلم؟ قالوا له: ما لنا من منزل، فلم يزالوا به يرفقونه ويتضرعون إليه حتى فتوه، فافتن؛ فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل - وهو جبل حسيبان - فلما سار عليها غير كثير ربضت به فتزل عنها فضربها، حتى إذا أزلقها قامت فركبها، فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به فضربها، حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمتها حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ تذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم، فلم يتزع عنها، فضربها، فخلى الله سبيلها، حين فعل بها ذلك، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسيبان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: أنتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا، قال: فهذا ما لا أملك. هذا شيء قد غلب الله عليه، قال: واندلع لسانه فوقع على

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي قال ابن كثير: إسناده جيد.

صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمركم لكم وأحتال، جملوا النساء وأعطوهم السلع، ثم أرسلوهم إلى العسكر يبعثها فيه، ومروهم فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتهموهم، ففعلوا، فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين برجل من عظماء بني إسرائيل وهو (زمرى بن شلوم) رأس سبط شمعون بن يعقوب، فلما رآها أعجبته، فقام فأخذ يدها، وأتى بها موسى وقال: إني أظنك ستقول: هذا حرام عليك لا تقر بها، قال: أجل هي حرام عليك، قال: فوالله لا أطيعك في هذا، فدخل بها قوته، فوقع عليها، وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل، وكان (فناحص) صاحب أمر موسى غائباً حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع، فجاء الطاعون يحوس فيهم، فأخبر الخبر، فأخذ حربته ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظلهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورفع الطاعون، فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيها بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فناحص، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً، والمقلل لهم يقول عشرون ألفاً في ساعة من النهار، فبي بلغام بن باعوراء أنزل الله: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها - إلى قوله - لعلمهم يتفكرون﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿قتله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ اختلف المفسرون في معناه، فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبي النضر أن بلغاماً اندلع لسانه على صدره فتشبهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر، وقيل: معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لهثه في حالتيه إن حملت عليه، وإن تركه هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه، كما قال تعالى: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾، ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾. وقيل: معناه أن قلب الكافر والمنافق والفضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب فغير عن هذا بهذا^(٢)، وقوله تعالى: ﴿فاقص القصص لعلمهم يتفكرون﴾، يقول تعالى لنبى محمد ﷺ: ﴿فاقص القصص لعلمهم﴾ أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلغام، وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب، في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كلم الله موسى بن عمران عليه السلام، ولهذا قال: ﴿لعلمهم يتفكرون﴾ أي فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس بأولاهم باتباعه ومناصرتهم وموازرتهم كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد، أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة، وقوله: ﴿سواء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ يقول تعالى: سواء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا أي سواء مثلهم أن شهبوا

(١) رواه محمد بن إسحاق عن سالم أبي النضر وأخرجه ابن جرير بمثله وفيه أن الزنى وقع من عدد من الجند الذين كانوا مع موسى عليه السلام فسلب الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً.

(٢) نقل نحو هذا عن الحسن البصري وغيره.

بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب وبئس المثل مثله؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه»^(١) وقوله: «وأنفسهم كانوا يظلمون» أي ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والاقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى .

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»^(٢)

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾ أي خلقنا وجعلنا لجهنم ﴿كثيراً من الجن والإنس﴾ أي هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»، وفي صحيح مسلم أيضاً عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له، عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم». وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: «ثم يبعث الله إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد»، وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه، وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»، والأحاديث في هذا كثيرة. وقوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولم أعين لا يبصرون بها ولم أذان لا يسمعون بها﴾ يعني ليس يتفهمون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يحمدون بآيات الله﴾ الآية، وقال تعالى:

(٢) الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن .

(١) هو في الصحيحين من حديث ابن عباس .

﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ ولم يكونوا صماً ولا بكاً ولا عمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾، وقال: ﴿فإنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور﴾، وقال: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾، وقوله تعالى: ﴿أولئك كالأنعام﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعون ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقبها في ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾ أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول، ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بل هم أضل﴾ أي من الدواب، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنس بها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء، ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعاً وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»^(١). ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن يجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب غمي، إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبدل مكانه فرحاً». فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها». وذكر ابن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه (الأحادي في شرح الترمذي) أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فأنه أعلم. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائهم﴾، قال: إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله، وقال مجاهد: اشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، وقال قتادة: يلحدون: يشركون في أسمائهم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب، وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحضر.

وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

(١) أخرجه الشيخان والترمذي وابن ماجه وزاد الترمذي (هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن...) وذكر أسماء الله الحسنى.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ أي بعض الأمم ﴿أمة﴾ قائمة بالحق قولاً وعملاً ﴿يهلون بالحق﴾ يقولونه ويدعون إليه، ﴿وبه يعدلون﴾ يعملون ويقضون، وقد جاء في الآثار أن المراد في الآية هذه الأمة المحمدية، قال قتادة: بلغني أن النبي ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها»، ومن قوم موسى أمة يهلون بالحق وبه يعدلون. وقال رسول الله ﷺ: «إن من أمتي قوماً على الحق حتى يتزل عيسى ابن مريم متى ما نزل»، وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أممي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة»، وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي وسأُمْلِي لَهُمْ أي أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي قوي سديد.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ما بصاحبهم﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿من جنة﴾ أي ليس به جنون بل هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعي به كما قال تعالى: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾، وقال تعالى: ﴿ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، يقول ﴿ثم تفكروا﴾ في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا، فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً، وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً، فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً، يا بني فلان، يا بني فلان، فحلمهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إِنْ صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

* أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

يقول تعالى: أَوَلَمْ يَنْظُرُوا هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق من شيء فيها، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، فيؤمنوا بالله وبصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وألم عقابه، وقوله: ﴿فَبِأَيِّ

حديث بعده يؤمنون ﴿ يقول: فبأي تخويفٍ وتحذيرٍ وترهيبٍ بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاها به من عند الله، يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله عز وجل؟

مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

يقول تعالى من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئاً ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْحَتِي إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَتَّىٰ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

يقول تعالى: ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾ قيل: نزلت في قريش، وقيل في نفر من اليهود، والأول أشبه لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكديباً بوجودها، كما قال تعالى: ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾، وقال تعالى: ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾، وقوله: ﴿ أيان مرساها ﴾. قال ابن عباس: منهاها أي متى محطها، وأبان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة: ﴿ قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾، أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يظهر أمرها، ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، ولهذا قال: ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾. قال قتادة: ثقل علمها على أهل السموات والأرض، قال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض، يقول كبرت عليهم، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة؛ وقال ابن جريج: إذا جاء انشقت السماء، وانتثرت النجوم وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله عز وجل، فذلك ثقلها، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد: ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض كما قال قتادة، كقوله تعالى: ﴿ لا تأتیکم إلا بغثة ﴾، ولا يني ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض والله أعلم، وقال السدي: خفيت في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿ لا تأتیکم إلا بغثة ﴾ يفتهم قيامها تأتيمهم على غفلة، وقال قتادة: قضى الله أنها ﴿ لا تأتیکم إلا بغثة ﴾ قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: « إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق، ويخفض ميزانه ويرفعه ». وقال البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت وراها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيماناً لم تكن آمنت من

قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومن الساعة، وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتباعدانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَتَّىٰ عَنْهَا﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم، قال ابن عباس: لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حتمي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسلاً، وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَتَّىٰ عَنْهَا﴾، والصحيح عن مجاهد قال: استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها، وكذا قال الضحاك عن ابن عباس: كأنك عالم بها لست تعلمها، وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: ﴿كَأَنَّكَ حَتَّىٰ عَنْهَا﴾: كأنك بها عالم وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية؛ وهذا القول أرجح في المقام من الأول، والله أعلم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِن أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فتنى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما المستول عنها بأعلم من السائل» أي لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية، وفي رواية: فسأله عن أشراط الساعة فبين له أشراط الساعة، ثم قال: «في خمس لا يعلمهن إلا الله»، وقرأ هذه الآية، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»^(١)، ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهوري فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: «هاؤم» على نحو من صوته، قال: يا محمد متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكنني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب» فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث

وقال الإمام أحمد عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: «علمها عند ربي عز وجل لا يجلبها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشارطها وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجاً» قالوا: يا رسول الله الفتنة قد عرفناها، فما الهرج؟ قال: «بلسان الحبشة: القتل»، قال: «ويلقى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً». وقال وكيع عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة، حتى نزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا﴾ الآية، وهذا إسناد جيد قوي، فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة، والعاقب والمقني والهاشر، الذي تحشر الناس على قدميه مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما:

(١) قال ابن كثير: قد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد في أول شرح البخاري.

« بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها، ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿ قل إن علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءَ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾ الآية، وقوله: ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾، قال مجاهد: لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملاً صالحاً. والأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس: ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾: أي من المال، وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أبيع فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ولا يصيبني الفقر. وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدية من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ وما مسني السوء ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر أن يكون واقعيته، ثم أخبر أنه هو نذير وبشير، أي نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿ فإنا يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾ .

* هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَرَتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَّا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ الآية، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وجعل منها زوجها ليكنس إليها ﴾ ليألفها ويسكن بها، كقوله تعالى: ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ فلا ألفة أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدته إلى التفرقة بين المراء وزوجه، ﴿ فلما تغشاهما ﴾ أي وطئها ﴿ حملت حملاً خفياً ﴾ وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألماً إنما هي النطقة ثم العلقه ثم المضغة، وقوله: ﴿ فرت به ﴾، قال مجاهد: استمرت بحمله، وقال أيوب سألت الحسن عن قوله: ﴿ فرت به ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي، إنما هي: فاستمرت به، وقال قتادة ﴿ فرت به ﴾: استبان حملها، وقال العوفي عن ابن عباس: استمرت به فشكت أحملت أم لا، ﴿ فلما أثقلت ﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها، وقال السدي: كبر الولد في بطنها، ﴿ دعا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً ﴾ أي بشراً سوياً،

كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقنا أن يكون بهيمة. وقال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلاماً لنكونن من الشاكرين ﴿فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون﴾. ذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها

قال الإمام أحمد في مسنده عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعش لها ولد، فقال: سمي (عبد الحارث) فإنه يعش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»^(١). قال ابن جرير عن الحسن ﴿جعلاً له شركاء فيما آتاها﴾ قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم، وعن قتادة قال كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، وعن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم الله ويسمهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاها إبليس فقال: إنكما لو سميته بغير الذي تسميانه به لعاش، قال فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله يقول: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة - إلى قوله - جعلاً له شركاء فيما آتاها﴾ إلى آخر الآية، وعنه قال: أتاها الشيطان فقال: هل تدرين ما يولد لكما! أم هل تدرين ما يكون أبهية أم لا؟ وزين لهما الباطل، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فاتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياً ومات، كما مات الأول، فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قول الله تعالى: ﴿فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها﴾ الآية. وروى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها: أتطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سمي عبد الحارث، فلم تفعل، فولدت فات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة فهيها فأطاعا، وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق (آدم وحواء) وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ الآية، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن، والله أعلم.

﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لِمُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَبْعُوكَ سَوَاءٌ عَلَيْكَ أَدْعَوْتَهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَلِمْتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم في المستدرک قال ابن كثير: وهذا الحديث معلول وقد رجح رحمه الله كونه موقوفاً على الصحابي ويَبين أنه غير مرفوع وضعف ما ورد من آثار

مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمَّنَّا لَكَ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمَّنَّا لَكَ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمَّنَّا لَكَ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٦﴾

تعالى أنها عبيد مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم، بل الأناس أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبتطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، أي استنصروا بها عليّ فلا تؤخروني طرفة عين واجهدوا جهدكم، ﴿إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي الله حسي وكافني وهو نصيري وعليه متكلي وإليه ألتجأ، وهو ولي في الدنيا والآخرة وهو ولي كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وكقول الخليل: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴿الآيَاتِ﴾، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلى آخر الآية؛ مؤكداً لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب وذاك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، إنما قال: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل لأنها على صور مصورة كالإنسان وتراه يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ، فعبّر عنها بضمير من يعقل، وقال السدي: المراد بهذا المشركون، والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ زَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠)

قال ابن عباس ﴿خذ العفو﴾ يعني خذ ما عفا لك من أموالهم وما أتوك به من شيء فخذ، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات، وقال الضحاك عن ابن عباس: أنفق الفضل، وقال عبد الرحمن بن أسلم: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم، واختار هذا القول ابن جرير، وقال غير واحد عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿خذ العفو﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل ﴿خذ العفو﴾ من أخلاق الناس. وفي رواية عن أبي الزبير: ﴿خذ العفو﴾ قال: من أخلاق الناس والله لا يأخذنه منهم ما صحبتهم، وهذا أشهر الأقوال، ويشهد له ما روي عن أبي قال: لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك^(١). وقال الإمام أحمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: «يا عقبة صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك»

وقال البخاري قوله: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ العرف: المعروف^(١). عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم (عيينة بن حصن بن حذيفة) فترل على ابن أخيه (الحر بن قيس) وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاوراته كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل^(٢). وقال ابن أبي حاتم عن عبد الله بن نافع: أن (سالم بن عبد الله بن عمر) مر على غير لأهل الشام وفيها جرس فقال: إن هذا مني عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجلجل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به، فسكت سالم وقال: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾، وقال ابن جرير: أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله ولا بالصفتح عن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب. وقال قتادة في الآية: هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها. وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى؛ فسبك في بيتين فيما جناس فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولن في الكلام لكل الأنام فستحسن من ذوي الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يخرجه، وإما مسيء فره بالمعروف فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿وإما يترغبنك من الشيطان نرغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾، فهذه الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحس السجدة لا رابع هن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، ثم يرشد تعالى إلى الاستعانة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك. قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وإما يترغبنك من الشيطان نرغ﴾: وإما بغضبناك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته ﴿فاستعذ بالله﴾ يقول: فاستعج بالله من نرغه، ﴿إنه سميع عليم﴾ سميع لجهل الجاهل عليك والاستعانة به من نرغه ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نرغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه. وقد تقدم

(١) قول البخاري العرف: المعروف نص عليه عروة والسدي وقاتدة وابن جرير . (٢) أخرجه البخاري في صحيحه .

في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ، فغضب أحدهما فقال رسول الله ﷺ «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» الحديث. وأصل التزغ: الفساد إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان يتزغ بينهم﴾، والعياذ: الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما الملاذ في طلب الخير، كما قال الحسن بن هانئ:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهضون عظماً أنت جابره

وقد قلنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن إعادته ها هنا.

* إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

يغفر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إذَا مَسَّهُمْ﴾ أي أصحابهم ﴿طائف﴾، منهم من فسره بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب، وقوله: ﴿تذكروا﴾ أي عقاب الله وجزيل ثوابه ووعدته ووعدته، فتأبوا وأتأبوا واستأذوا بالله ورجعوا إليه من قريب، ﴿فإذا هم مبصرون﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف، فقالت: يا رسول الله إني أصرع، وأتكشف، فادع الله أن يشفيني، فقال: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة»، فقالت: بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها فكانت لا تتكشف^(١). وروي أن شاباً كان يتعبد في المسجد فهو يته امرأة فدعته إلى نفسها، فما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: ﴿إن الذين اتقوا إذا مَسَّهُمْ طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ فخر مغشياً عليه، ثم أفاق، فأعادها، فأت، فجاء عمر فعزى فيه أباه، وكان قد دفن ليلاً فذهب فصرى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى ﴿ولن خاف مقام ربه جتان﴾، فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر قد أعطانيهما^(٢) ربي عز وجل في الجنة مرتين. وقوله تعالى: ﴿وإخوانهم يملكونهم﴾ أي وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ وهم أتباعهم والمستمعون لهم، القابلون لأوامرهم ﴿يملكونهم في الغي﴾ أي تساعدهم الشياطين على المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم، المد: الزيادة، يعني يزيلونهم في الغي يعني الجهل والسفه، ﴿ثم لا يقصرون﴾ قيل: معناه إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك، كما قال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عما يعملون ولا الشياطين تمسك عنهم، وقيل: معناه كما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يملكونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾،

(١) رواه ابن مردويه وغير واحد من أهل السنن وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه الحافظ ابن عساكر في ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه.

قال: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لا يقصرون، يقول لا يسأمون، وكذا قال السدي وغيره، يعني أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس، ولا تسأم من إمدادهم في الشر، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية، ﴿لا يقصرون﴾ لا تفتّر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾، قال ابن عباس وغيره: ترعجهم إلى المعاصي إزعاجاً

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإٌ مِنْ رَبِّكَ وَهْدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ يقول: لولا تلقبنا وقال مرة أخرى لولا أحدثنا فأنشأتها، وقال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها عن نفسك^(١)، واختاره ابن جرير. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿لولا اجتبيتها﴾ يقول: تلقبنا من الله تعالى: وقال الضحاك ﴿لولا اجتبيتها﴾ يقول: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء، ومعنى قوله تعالى: ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ أي معجزة وخارق، كقوله تعالى: ﴿إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾، يقولون للرسول ﷺ ألا نجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾ أي أنا لا أقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمثل ما يوجه إلي، فإن بعثت آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها، إلا أن يأذن لي في ذلك فإنه حكيم عليم، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيانات، فقال: ﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظماً له واحتراماً، لا كما كان يعتمله كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ الآية، ولكن بتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، كما روي عن أبي موسى الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا»^(٢). وعن أبي هريرة قال: كانوا يتكلمون في الصلاة فلما نزلت هذه الآية: ﴿وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له﴾ والآية الأخرى أمروا بالإنصات. قال ابن جرير وقال ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة فجاء القرآن: ﴿وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾، وقال أيضاً عن بشير بن جابر قال: صلى ابن مسعود فسمع ناساً يقرأون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفهموا أما آن لكم أن تعقلوا: ﴿وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ كما أمركم الله. وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: «هل

(١) وهو قول قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ورواه أهل السنن.

قرأ أحد منكم معي آتفا؟ قال رجل: نعم يا رسول الله، قال: «إني أقول ما لي أنزع القرآن»، قال: فاتى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ. وقال عبد الله بن المبارك: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرأون فيما لا يجهر به سرّاً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرّاً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. وهذا مذهب طائفة من العلماء وهو أحد قولي الشافعية، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة، وقال الشافعي في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سككات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم.

وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته قراءة له»^(١) وهذا أصح، وقد أفرد لها الإمام البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، يعني في الصلاة المفروضة، وعن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم. وقال ابن المبارك عن ثابت بن عجلان قال: سمعت ابن جبير يقول في قوله ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة، وهذا اختيار ابن جرير: أن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة، كما جاء في الأحاديث بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة، وقال الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»^(٢)

وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَجِوْنَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾، وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء وهذه الآية مكية، وقال ههنا بالغدو وهو أول النهار، والآصال جمع أصيل، وأما قوله: ﴿تضرعاً وخيفة﴾ أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهرًا، ولهذا قال: ﴿ودون الجهر من القول﴾، وهكذا يستحب أن يكون الذكر خفياً لا يكون نداء وجهرًا بليغاً، ولهذا لما سألو رسول الله ﷺ فقالوا: أقرب ربنا فتناجيه أم بعيد فتناديه؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ: «يا أيها الناس اربعوا على

(١) رواه أحمد وأهل السنن.

(٢) هذا الحديث رواه أحمد عن جابر مرفوعاً وهو في الموطأ عن جابر موقوفاً قال ابن كثير: وهذا أصح.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند.

أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عتق راحلته»، وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار، والمراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغلو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ الآية، وإنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل كما جاء في الحديث: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف، الأول فالأول، ويتراصون في الصف»، وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتأليها ومستمعها السجود بالإجماع .

[انتهى تفسير سورة الأعراف . والله الحمد والمنة]



(٨) سُورَةُ الْاَنْفَالِ الْمَكِّيَّةِ
وَاَيَاتُهَا خَمْسُونَ وَسَبْعُونَ

وهي مدنية. آياتها سبعون وخمس آيات، كلماتها ألف كلمة وسبائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة، حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ط فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

قال البخاري: الأنفال المغانم، عن سعيد بن جبيرة قال، قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر، وروي عن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء^(١)، قال فيها لبيد

إِنْ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَقْلُ وَيَا ذَنْنِ اللَّهِ رَبَّنِي وَالْعَجَلُ

وقال ابن جرير عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: القرس من النفل والسلب من النفل، ثم عاد لمسأله، فقال ابن عباس أيضاً، ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يجرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟.. مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسر النفل بما ينقله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم. وقال مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾، وقال ابن مسعود: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف، وقال ابن المبارك عن عطاء بن أبي رباح في الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد أنها المغانم .

غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء، قال ابن جرير وقال آخرون: هي أنفال السرايا، بلغني في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال: السرايا، ومعنى هذا ما ينزله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم، وبشهاد بذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما روي عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قتل أخي (عمير) وقتلت (سعيد بن العاص) وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيبة، فأتيت به النبي ﷺ فقال: «أذهب فاطرحه في القبض»، قال: فرجعت وبني ما لا يعلمه الله من قتل أخي وأخذ سلمي، قال: فما جاوزت إلا يسيراً، حتى نزلت سورة الأنفال فقال لي رسول الله ﷺ: «أذهب فخذ سلبك».

(سبب آخر في نزول الآية)

وقال الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: سألت (عبادة) عن الأنفال، فقال: فبينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فانترعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء، يقول: عن سواء. وقال الإمام أحمد أيضاً عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمتهم، وقال الذين أحرقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فاتفقوا الله وأصلحو ذات بينهم، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل راجعاً نفل الثلث، وكان يكره الأنفال^(١). وروى أبو داود والنسائي وابن مردويه واللفظ له، عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا» فتسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغامم جاعوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ لا تستأثروا علينا فإننا كنا ردمًا لكم لو انكشفتم لفتحتم إلينا، فتنازعوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال الإمام القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب (الأموال الشرعية): أما الأنفال فهي المغامم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى، قلت: هكذا روي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي، وقال ابن زيد: ليست منسوخة بل هي محكمة، والأنفال أصلها جماع الغنائم إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة. ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلاً من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

أموال عدوهم، وإنما هو شيء خصهم الله به تفضلاً منه عليهم، بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم، فنقلها الله تعالى هذه الأمة فهذا أصل النفل. وشاهد هذا ما في الصحيحين: «وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» وذكر تمام الحديث.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في قسمه بينكم على ما أَرَادَهُ الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف، وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم، وقال السدي ﴿وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي لا تستبوا، ولنذكر ههنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى الموصلي رحمه الله في مسنده عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيته ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «رجلان من أمتي جنبيا بين يدي رب العزة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته، قال: يا رب لم يبق من حسناتي شيء، قال: رب فليحمل عني من أوزاري»، قال: ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «إن ذلك ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك وانظر في الجنان فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكحلة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ لأي صديق هذا؟ لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى ثمنه؟ قال: رب ومن يملك ثمنه؟ قال: أنت تملكه، قال: ماذا يا رب؟ قال تغفر عن أخيك، قال: يا رب فإني قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فادخلا الجنة». ثم قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»^(١)

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قال مجاهد: ﴿وجلت قلوبهم﴾ فرقت أي فزعت وخافت، وهذه صفة المؤمن حق المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه أي خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره، كقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ الآية، وكقوله تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ فإن الجنة هي المأوى. ولهذا قال سفيان الثوري، سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال يهيم بمعضية، فيقال له: اتق الله فيجل قلبه؛ وعن أم الدرداء في قوله: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ قالت: الوجل في القلب كاحتراق السعفة^(٢)، أما تجدد له قشعريرة؟ قال: بلى، قالت: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك فإن الدعاء يذهب ذلك،

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي . (٢) السعفة : جريدة النخل .

وقوله: ﴿وَإِذَا تَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، كقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾، وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهاها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري والله الحمد والمنة. ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبیر: التوكل على الله جماع الإيمان، وقوله: ﴿الَّذِينَ يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون﴾، ينه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى، وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، وقال مقاتل: إقامتها المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد، والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه. قال قتادة في قوله: ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾ فأنفقوا مما رزقكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. عن الحارث ابن مالك الأنصاري: أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فاحقيقة إيمانك؟» فقال: عزت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظلمات نهارى، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتراوون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون^(١) فيها، فقال: «يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً^(٢)». وقال عمرو بن مرة في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ إنما أنزل القرآن بلسان العرب كقولك: فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة، وفلان تاجر حقاً وفي القوم تجار، وفلان شاعر حقاً وفي القوم شعراء. وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بصير بما يعملون﴾، ﴿ومغفرة﴾ أي يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات، وقال الضحاك: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد، ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليраهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغائر في أفق من آفاق السماء» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»، وفي الحديث الآخر: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما تراءون الكوكب الغائر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعماء^(٣)»

(١) يتضاغون: أي يرفعون أصواتهم بالصراخ والعيول.

(٢) أخرجه الحافظ الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

كَمَا أخرجَكَ رَبُّكَ مِنَ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهَ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْلَا كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قال الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله: ﴿كَمَا أخرجَكَ رَبُّكَ﴾ فقال بعضهم: شبه به في الصلاح للمؤمنين، والمعنى: أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغام وتباحثتم فيها، فانتزعها الله منكم، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، كذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء وهم النفيرون الذين خرجوا لإحراز غيرهم، فكان عاقبة كراحتكم للقتال بأن قدره لكم على غير ميعاد رشداً وهدى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وقال آخرون: معنى ذلك ﴿كَمَا أخرجَكَ رَبُّكَ مِنَ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعدما تبين لهم، قال مجاهد: ﴿كَمَا أخرجَكَ رَبُّكَ﴾ كذلك يجادلونك في الحق. وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر، فقالوا: أخرجتنا للغير ولم تعلمنا قتالاً فنستعد له. قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً لغير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم والتفرقة بين الحق والباطل، والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفيرون أوحى الله إليه، يعده إحدى الطائفتين إما العير وإما النفيرون، ورغب كثير من المسلمين إلى العير، لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾

روى ابن أبي حاتم قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا، قال: ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر: مثل قول أبي بكر، ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فصل جبال من شئت، واقطع جبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فترز القرآن على قول سعد: ﴿كَمَا أخرجَكَ رَبُّكَ مِنَ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾^(١) الآيات، وقال ابن عباس: لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عباد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن أبي وقاص الليثي عن أبيه عن جده.

ما قال، وذلك يوم بدر أمر الناس أن يتهيأوا للقتال وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾، وقال مجاهد: يجادلونك في الحق: في القتال للقاء المشركين. عن عكرمة عن ابن عباس قال، قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء، فتاده العباس بن عبد المطلب وهو أسير في وثاقه: إنه لا يصلح لك، قال: ولم ؟ قال: لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك^(١). ومعنى قوله تعالى: ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أي يحبون أن الطائفة التي لا منعة ولا قتال تكون لهم وهي العير، ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ أي هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم.

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله: لما سمع رسول الله ﷺ بآبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكوها، فانتدب الناس فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز، يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان مخوفاً على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك، فاستأجر (ضمضم بن عمرو الغفاري) فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قريشاً، فيستفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له ذفران، فخرج منه، حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش، فقال أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن، ثم قام عمر رضي الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به فحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: « أشيروا علي أيها الناس » وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما تمنع منه أبناءنا، ونساءنا وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرتهم إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى علو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال: « أجل »، فقال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك،

(١) أخرجه الإمام أحمد قال ابن كثير: إسناده جيد ولم يخرج أحد من أهل الكتب السنة.

ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»، وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي وقتادة وعبد الرحمن بن أسلم وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاءً بسياق محمد بن إسحاق.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِنَضْمِنَ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً» قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفالك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، فلما كان يومئذ التقوا فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العلم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكيني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ وأني بكر وهما يبيكان، فقلت: يا رسول الله ما يبيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاءً تبكيت لبكائك، قال النبي ﷺ: «للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة من النبي ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ - إِلَىٰ قَوْلِهِ - فَاكْلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، فأحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أخذ من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مِصْيَةٌ قَدْ أَصَبَتْ مِثْلَهَا قَلَمٌ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بأخذكم الفداء^(١)

قال البخاري في كتاب المغازي باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ الآية، عن طارق ابن شهاب قال، سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليَّ

(١) رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير

فما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا ﴾، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره، يعني قوله، وعن ابن عباس قال، قال النبي ﷺ يوم بدر: « اللهم أشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: « سيهزم الجمع ويولون الدبر ». وقوله تعالى: ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾ أي يردف بعضهم بعضاً، كما قال ابن عباس ﴿ مردفين ﴾: متتابعين، ويحتمل أن المراد ﴿ مردفين ﴾ لكم أي نجدة لكم، كما قال العوفي عن ابن عباس ﴿ مردفين ﴾ يقول: المدد، كما تقول أنت للرجل زده كذا وكذا^(١). وفي رواية ﴿ مردفين ﴾ قال: بعضهم على أثر بعض، وقال ابن جرير: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ، وهذا يقتضي - إن صح إسناده - أن الألف مردفة بمثلها، ولهذا قرأ بعضهم: ﴿ مردفين ﴾ بفتح الدال والله أعلم، والمشهور ما روي عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة، وروي عن ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، قال: فنظر إليه، فإذا هو قد حطم وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين^(٢)

وفي البخاري قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تملكون أهل بدر فيكم؟ قال: « من أفضل المسلمين » أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدرأ من الملائكة، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل (حاطب بن أبي بلتعة) « إنه قد شهد بدرأ وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟ »، وقوله تعالى: ﴿ وما جعله الله إلا بشري ﴾ الآية، أي وما جعل الله بعث الملائكة إلا بشري ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ أي بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ كما قال تعالى: ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾، وقال تعالى: ﴿ وتلك الأيام نداؤها بين الناس ﴾ فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تم تلك الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادا الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب يوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه وأنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر ﴾، وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين: ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويغزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾، ولهذا كان قتل

(١) وبه قال مجاهد وابن كثير القاريء وابن زيد .

(٢) أخرجه مسلم وابن جرير

صناديد قريش بأيدي أعدائهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان، وقتل أبي جهل في معركة القتال أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى .

* إِذْ يُغَشِّكُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ . وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَالَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلُّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُسَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً، أتمهم به من خوفهم الذي حصل لهم، من كثرة علوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدَدٍ غَمٍّ أَمْنَةً نَاعِماً﴾ الآية. قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً؛ يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه، ولقد نظرت إليهم يميلون وهم تحت الحَجَفِ^(١)، وقال الحافظ أبو يعلى عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويكي حتى أصبح، وقال عبد الله بن مسعود: النعاس في القتال أمانة من الله، وفي الصلاة من الشيطان. وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب. وكان ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ متبهماً فقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناباه النقع»، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعَ وَيُولُونِ الدَّبْرَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، قال ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظم فاجعلوا يصلون مجنين محدثين، حتى تعاوطوا ذلك في صلورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملأوا الأسقية، وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً وثبت به الأقدام^(٢)، وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث الله المطر عليها، والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك

(٢) وروي نحوه عن قتادة والضحاك .

(١) الحجف: جمع حجة وهي الترس .

أي أول ماء وجده، فقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزهُ أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة» فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستني الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء، فسار رسول الله ﷺ ففعل ذلك. وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل الناس فأطفأ بالمطر الغبار وتلبدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم، وقوله: ﴿ليطهركم به﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر، ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي من وسوسة أو خاطر سيء وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة ﴿عليهم ثياب سندس خضر﴾ فهذا زينة الظاهر، ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ أي مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته، ﴿وليربط على قلوبكم﴾ أي بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن ﴿ويثبت به الأقدام﴾ وهو شجاعة الظاهر والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروها عليها، وهو أنه تعالى وتقدس أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه أن يثبتوا الذين آمنوا، قال ابن جرير: أي ثبتوا المؤمنين وقوا أنفسهم على أعدائهم سألني الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي، ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ أي اضربوا الهام فأفلقوها واحترقوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم. وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿فوق الأعناق﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس، قاله عكرمة. وقيل معناه أي على الأعناق وهي الرقاب، قاله الضحاك. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ وقال القاسم، قال النبي ﷺ: «إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله، إنما بعث لضرب الرقاب وشد الوثاق»، وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به، وقوله: ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾، قال ابن جرير: معناه واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم، والبنان جمع بنانة كما قال الشاعر

ألا ليتني قطعت مني بنانة ولاقيته في البيت يقظان حاذراً

وقال ابن عباس ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ يعني بالبنان الأطراف^(١)، وقال السدي: البنان الأطراف، ويقال كل مفصل، وقال الأوزاعي: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك، وقال العوفي عن ابن عباس فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أنني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ الآية، فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلاً، وأمر عقبة بن أبي معيط، فقتل صبراً فوق ذلك سبعين يعني قتيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي خالفوهما، فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق، ومأخوذ أيضاً من شق العصا وهو جعلها فرقتين ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه لا يغوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿ذلكم فذوقوه

(١) وكذا قال الضحاك وابن جرير والسدي.

وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٥﴾ هَذَا خُطَابٌ لِلْكَافِرِ، أَي ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ فِي الدُّنْيَا وَعَلِمُوا أَيْضاً أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ

يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٦﴾ وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك ﴿١٥﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ﴿١٥﴾ أي تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم ﴿١٥﴾ فلا تولوهم الأدبار ﴿١٥﴾ أي نفروا وتركوا أصحابكم، ﴿١٥﴾ ومن يؤلم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ﴿١٥﴾ أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه خاف منه، فينبهه، ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك^(١). وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها، ﴿١٥﴾ أو متحيزاً إلى فئة ﴿١٥﴾ أي فر من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونوه، فيجوز له ذلك، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة. قال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فخاص الناس حيصة، فكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة ثم بتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإذا كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «مَنْ الْقَوْمُ؟» فقلنا: نحن الفرارون، فقال: «لا، بل أنتم العكَّارون أنا فتتكم وأنا فئة المسلمين» قال: فأتيناه حتى قبلنا يده. وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿١٦﴾ أو متحيزاً إلى فئة ﴿١٦﴾. قال أهل العلم: معنى قوله «العكَّارون»: أي العرافون، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيدة لما قُتل بآرض فارس لكثرة الجيش من المجوس فقال عمر: لو تحيز إليَّ لكنت له فئة، ويروى عنه أنا فئة كل مسلم. وقال الضحاك في قوله ﴿١٦﴾ أو متحيزاً إلى فئة ﴿١٦﴾: المتحيز الفار إلى النبي وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه، فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٢). ولهذا قال تعالى: ﴿١٦﴾ فقد باء ﴿١٦﴾ أي رجع ﴿١٦﴾ بغضبٍ من الله ومأواه ﴿١٦﴾ أي مصيره ومنقلبه يوم مياعده ﴿١٦﴾ جهنم وبئس المصير ﴿١٦﴾.

وقال الإمام أحمد عن بشير بن معبد قال: أتيت النبي ﷺ لأبايه فاشترط عليَّ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت يا رسول الله أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضبٍ من الله، فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت. والصدقة، فوالله مالي إلا غنيمة

(١) وهو قول سعيد بن جبير والسدي.

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه

وعشر ذود من رسل أهلي وحمولهم، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حرك يده ثم قال: « فلا جهاد ولا صدقة فم تدخل الجنة إذا؟ » قلت: يا رسول الله أنا أباعك، فبايعته عليين كلهم^(١). وقد ذهب ذاهبون إلى أن القرار إنما كان حراماً على الصحابة، لأن الجهاد كان فرض عين عليهم، وقيل: على الأنصار خاصة لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وقيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة^(٢). وحجتهم في هذا أنه لم تكن عصاة لها شوكة يفيتون إليها إلا عصابتهم تلك كما قال النبي ﷺ: « اللهم إن تهلك هذه العصاة لا تعبد في الأرض »، ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر فلا بأس عليه، وقال ابن المبارك عن يزيد بن أبي حبيب: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار، قال: ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ﴾، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾، إلى قوله: ﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ ثم ولتيم مديريين » ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء. وعن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية: ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ إنما أنزلت في أهل بدر، وهذا كله لا يني أن يكون القرار من الزحف حراماً على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم من أن القرار من الزحف من الموبقات كما هو مذهب الجماهير، والله أعلم.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَنِيدُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير، لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، ولهذا قال: ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم، مع كثرة عددهم وقلة عددهم، بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ﴾ يعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس بكثرة العدد والعُدَد، وإنما النصر من عنده تعالى، كما قال تعالى: ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ﴾، ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكتبهم بها لا أنت، قال ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر فقال: « يا رب إن تهلك هذه العصاة فلن تعبد في الأرض أبداً » فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين. وقال محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب

(١) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: حديث غريب من هذا الوجه لم يخرجه في الكتب الستة.

(٢) يروي هذا عن عمرو ابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد ونافع والحسن البصري وسعيد بن جبيرة وعكرمة وقائدة والضحاك وغيرهم.

فرمى بها في وجوه القوم وقال: «شاهدت الوجوه»، فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾. وقال عروة بن الزبير في قوله: ﴿وليلى المؤمنين منه بلاء حسناً﴾ أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم، من إظهارهم على علومهم مع كثرة علومهم وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته، ﴿إن الله سميع عليم﴾ أي سميع الدعاء ﴿عليم﴾ بمن يستحق النصر والغلب، وقوله: ﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين، فيما يستقبل مصفر أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى للكفار: ﴿إن تستفتحوا﴾ أي تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم، كما قال أبو جهل، قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة، فكان المستفتح^(١)، وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفتيين وخير القبيلتين، فقال الله: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ يقول: قد نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ. وقوله: ﴿وإن تنتهوا﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فهو خير لكم﴾ أي في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وإن تعودوا نعد﴾، كقوله: ﴿وإن عدتم عدنا﴾، معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة، وقال السدي: ﴿وإن تعودوا﴾ أي إلى الاستفتاح ﴿نعد﴾ أي إلى الفتح ل محمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه، والأول أقوى. ﴿ولن تغني عنكم فئتك شئاً ولو كثرت﴾ أي ولو جمعتم من الجمع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له، ﴿وإن الله مع المؤمنين﴾ وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّالُّونَ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والنشبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال: ﴿ولا تولوا عنه﴾ أي تركوا طاعته وامتنال أوامره وترك زواجه، ﴿وأنتم تسمعون﴾ أي بعدما علمتم ما

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

دعاهم إليه، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: المراد المشركون، واختاره ابن جرير، وقال ابن إسحاق: هم المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّةُ﴾ أي عن سماع الحق، ﴿الْبَكْمُ﴾ عن فهمه، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهؤلاء شر البرية لأن كل دابة مما سواهم مطبوعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش؛ ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لم صحيح ولا قصد لم صحيح - لو فرض أن لم فهماً - فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لأفهمهم وتقدير الكلام (و) لكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُمْ مَعْرُضُونَ﴾ عنه

يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُٓ
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

قال البخاري: ﴿استجيبوا﴾ أجيبوا ﴿لما يحييكم﴾ لما يصلحكم، عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فر بي النبي ﷺ فدعاني، فلم آته حتى صليت، ثم أتته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ثم قال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له. فقال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني. وقال مجاهد ﴿لما يحييكم﴾ قال: للحق، وقال قتادة ﴿لما يحييكم﴾ هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة؛ وقال السدي: ﴿لما يحييكم﴾ ففي الإسلام إحيائهم بعد موتهم بالكفر، وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان^(١)؛ وقال السدي: لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه، وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية؛ قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال: فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها»

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن التواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه»، وكان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه»^(٢). (حديث آخر): قال الإمام أحمد عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم مقلب القلوب ثبت

(١) وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وعطية ومقاتل وفي رواية عن مجاهد (يحول بين المرء وقلبه) أي حتى يتركه لا يعقل.

(٢) ورواه النسائي وابن ماجه

قلبي على دينك » قالت، فقلت: يا رسول الله أو إن القلوب لتقلب؟ قال: « نعم ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه. فنسأل الله ربنا أن لا يزيع قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب » قالت، فقلت: يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: « بلى، قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحبيني »

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿فتنة﴾ أي اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي، ولا من باشر الذنب، بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع، كما قال الإمام أحمد عن مطرف، قال: قلنا للزبير يا أبا عبد الله ما جاء بك؟ ضيعت الخليفة الذي قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾، لم نكن نحسب أننا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت^(١). وروى ابن جرير عن الحسن قال، قال الزبير: لقد خفنا - يعني قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ ونحن مع رسول الله ﷺ، وما ظننا أننا خصصنا بها خاصة؛ وقال الحسن في هذه الآية: نزلت في (علي، وعمار، وطلحة، والزبير) رضي الله عنهم، وقال الزبير: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾، وقال السدي: نزلت في أهل بدر خاصة فأصابهم يوم الجمل فاقتلوا، وقال ابن عباس: ﴿لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة، وقال في رواية له عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين ظهرانيهم فيعهم الله بالعذاب، وهذا تفسير حسن جداً، ولهذا قال مجاهد: هي أيضاً لكم، والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم، وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، عن عدي بن عميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة^(٢) »

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنه عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم »، وقال حذيفة رضي الله عنه: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات، لتأمرن بالمعروف ولتنه عن المنكر، ولتحاسنن على الخير، أو ليسحتكم الله جميعاً بعذاب، أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم. (حديث آخر): قال الإمام

(١) رواه أحمد والبخاري

(٢) رواه أحمد، قال ابن كثير: لم يخرج في الكتب الستة أحد وفيه رجل منهم.

أحمد أيضاً عن عامر رضي الله عنه قال: سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول - وأوماً بأصبعه إلى أذنيه - يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمدهن فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فأذوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقاً لاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً^(١). (حديث آخر): عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصي في أمي عهم الله بعذاب من عنده» فقلت؟ يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى» قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»^(٢). وفي رواية: «ما من قوم يعملون بالمعاصي وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لا يغيره، إلا عهم الله بعقاب أو أصابهم العقاب». وفي أخرى عن عائشة ترفعه: «إذا ظهر سوء في الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه» فقلت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم ثم يصيرون إلى رحمة الله»^(٣).

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ۚ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

بنيه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثروهم، ومستضعفين خائفين فقوام ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة، قليلين مستضعفين مضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فأوأم إليهم، وقبض لهم أهلها آووا ونصروا وواسوا بأموالهم، وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، قال قتادة: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوع بطوناً، وأعرأ جلوداً، وأبينه ضللاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فكُنْ به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتهم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا ۚ وَاللَّهُ وَالرُّسُولُ وَتَحُونُوا ۚ آمَنْتُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْلَكُوا مِنْكُمْ وَأَوَّلَدُكُمْ فِتْنَةً ۚ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة ليعتزلوا على حكم رسول الله ﷺ،

(٣) أخرجهما الإمام أحمد .

(١) أخرجه البخاري والترمذي أيضاً .

(٢) رواه الإمام أحمد .

فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبيح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده يحله، فقال: يا رسول الله إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: «يجزيك الثلث أن تصدق به»^(١). وقال ابن جرير: نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحونوا الله والرسول﴾ الآية. وفي الصحيحين قصة (حاطب بن أبي بلتعة) أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، واستنصر حاطباً فأقر بما صنع، وفيها، فقام عمر ابن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه فإنه قد شهد بداراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبيل خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية، وقال ابن عباس ﴿وتحونوا أماناتكم﴾: الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد يعني الفريضة، يقول: لا تحونوا لا تنقضوها، وقال في رواية: لا تحونوا الله والرسول يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم. وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين، وقال ابن زيد: نهاكم أن تحونوا الله والرسول كما صنع المنافقون، وقوله ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه كما قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾، وقال: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾، وقوله ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ أي ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة، وفي الأثر يقول الله تعالى: يا ابن آدم اطلبنني تجلني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتِكَ فاتكَ كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه»^(٢)، بل حب رسول الله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفس كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قال ابن عباس وغير واحد ﴿فرقاناً﴾ مخرجاً^(١)، زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة، وفي رواية عن ابن عباس ﴿فرقاناً﴾ نجاة، وفي رواية عنه: نصراء. وقال محمد بن إسحاق ﴿فرقاناً﴾ أي فصلاً بين الحق والباطل؛ وهذا التفسير أعم مما تقدم، وهو يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعاده يوم القيامة وتكفير ذنوبه وهو محوها، وغفرها: سترها عن الناس، وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾.

وَأَذِمْكُمْ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿ليثبتوك﴾ ليقيدوك؛ وقال عطاء وابن زيد: ليجسوك، وقال السدي: الإثبات هو الحبس والوثاق، وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو جمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء، وقال عطاء: سمعت (عبيد بن عمير) يقول: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تلدي ما ائتمروا بك؟ قال: «يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني»، قال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربي»، قال: نعم الرب ربك استوص به خيراً، قال: «أنا أستوصي به؟ بل هو يستوصي بي»، قال فترلت: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ الآية. والدليل على صحة ما قلنا، ما روى محمد بن إسحاق صاحب المغازي عن مجاهد عن ابن عباس: أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا له من أنت؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم، ولن يعلمكم رأيي ونصحي قالوا: أجل ادخل فدخل معهم، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يوائمكم في أمركم بأمره، فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابعة، قال: فصرخ عدو الله فقال: والله ما هذا برأي، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يشوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قالوا صدق الشيخ فانظروا في غير هذا؛ قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع إذا غاب

(١) وهو قول السدي وعكرمة والفصحاك وقتادة ومقاتل وغيرهم ويشهد له قول الله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

(٢) قال ابن كثير: ذكر أبي طالب في هذا غريب جداً بل منكر، لأن الآية مدنية واجتماع قريش واتهامهم كان ليلة الهجرة، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو ثلاث سنين.

عنكم أذاه، فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه، ثم لياتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم، قالوا صدق والله، فانظروا رأياً غير هذا؛ قال: فقال أبو جهل لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، لا أرى غيره، قالوا: وما هو؟ قال: تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهذاً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل (الدية) واسترحنا وقطعنا عنا أذاه، قال: فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى، ولا أرى غيره، قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له، فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبيت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، وأنزل في قولهم تربصوا به ريب المنون: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعَرَ تَرْبِصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾.

قال ابن إسحاق: أتاه جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ (علي بن أبي طالب) فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى بيرد له أخضر، ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم، وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذرهما على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه ﷺ وهو يقرأ: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ - إلى قوله - فأغشيناهم فهم لا يبصرون. وقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك يا بنية؟» قالت: «يا أبت ومالي لا أبكي وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومائة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك، فقال: «يا بنية اتني بوضوء»، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد، فلما رآوه قالوا: ها هو ذا، فطأطأوا رؤوسهم، وسقطت رقابهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم، فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «شاهت الوجوه»، فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً^(١). وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ الآية. قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأنبئوه بالوفاق يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل اخرجوه، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علي رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً بحسونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رد الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أخري، فاقصصوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل، ففروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فكش فيه ثلاث ليال^(٢). وقال عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي فكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند.

(١) قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ولا أعرف له علة.

وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

يغبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته، إذا تنلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ وهذا منهم قول بلا فعل، وإلا فقد تحلوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، وقد قيل: إن القائل لذلك هو (النضر بن الحارث)، فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رسم وأسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس، جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أبتا أحسن قصصاً أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر وقوع في الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً بين يديه، ففعل ذلك والله الحمد، وكان الذي أسره (المقداد بن الأسود) رضي الله عنه كما قال ابن جرير. ومعنى ﴿أساطير الأولين﴾ جمع أسطورة: أي كتبهم، اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس، وهذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ - إلى - إنه كان غفوراً رحيماً ﴿أي لمن تاب إليه وأناب فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم، وهذا مما عييبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَهْدِنَا لَهُ وَوَفِّقْنَا لَاتِّبَاعِهِ، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾، ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قسطنا قبل يوم الحساب﴾، وقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَافًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. عن أنس بن مالك قال أبو جهل ابن هشام: ﴿اللهم إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(١). وقال الأعمش عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا قَالُوا اللَّهُمَّ﴾ الآية، قال: هو النضر بن الحارث بن كلدة قال: فأنزل الله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ للكافرين ليس له دافع^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، قال ابن عباس: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه .

(٢) وهو قول مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدي .

وما ملك، ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ الآية. قال ابن عباس: كان فيهم أمانان النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار^(١). وعن ابن عباس: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ يقول ما كان الله ليعذب قوماً وأنبياءهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان، وهو الاستغفار، يستغفرون يعني يصلون، يعني بهذا أهل مكة، وقال الضحاك: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ يعني المؤمنين الذين كانوا بمكة. وقال رسول الله ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون»، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة^(٢). ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(٣).

وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر فقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد، قال قتادة والسدي: لم يكن القوم يستغفرون ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا. قال ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري قالا، قال في الأنفال: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴿فنسخها الآية التي تليها﴾ وما لم ألا يعذبهم الله - إلى قوله - فنوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴿فقاتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والضر، وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾، ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وما لم ألا يعذبهم الله وهم يصلون عن المسجد الحرام﴾، وقوله: ﴿وما لم ألا يعذبهم الله وهم يصلون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي وكيف لا يعذبهم الله وهم يصلون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة، يصلون المؤمنين الذين هم أهل عن الصلاة فيه والطواف به، ولهذا قال: ﴿وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون﴾ أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهل النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين، وقال تعالى:

(٣) أخرجه أحمد والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه الترمذي في سننه.

﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرَ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية. وقال الحافظ ابن مردويه في تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ من أولياؤك؟ قال: «كل تقي»، وتلا رسول الله ﷺ ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾. وقال الحاكم في مستدركه: جمع رسول الله ﷺ قريشاً فقال: «هل فيكم من غيركم؟» فقالوا: «فينا ابن أختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا، فقال: «حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا إِنْ أَوْلِيَائِي مِنْكُمْ الْمُتَّقُونَ»

وقال عروة والسدي في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وقال مجاهد: هم المجاهدون من كانوا حيث كانوا، ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتدلونه عند المسجد الحرام وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾ المكاء هو الصفير^(١)، وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم. وقال السدي: المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء ويكون بأرض الحجاز. عن ابن عباس قال: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق، والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق. وقال ابن جرير عن ابن عمر في قوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾ قال: المكاء الصفير، والتصدية التصفيق، وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون، ويصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته، وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين. وعن سعيد ابن جبير ﴿وتصدية﴾ قال: صدم الناس عن سبيل الله عز وجل، قوله: ﴿فَنُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحاك وابن جريج ومحمد بن إسحاق هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي، واختاره ابن جرير عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قال محمد بن إسحاق: لما أصيب قريش يوم بدر ورجع أبو سفيان بعيره، مشى (عبد الله بن أبي ربيعة) و (عكرمة بن أبي جهل) و (صفوان بن أمية) في رجال من قريش أصيب آبؤهم وأبنائهم وإخوانهم بيد، فكلما أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا، ففعلوا، قال: ففهم أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢) وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر، وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى

(١) وهو قول ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة.

(٢) في الباب: أخرج ابن جرير أنها نزلت في أبي سفيان استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش ليقاتل بهم رسول الله ﷺ.

أن الكفار ينفقون أموالهم ليصلوا عن اتباع الحق، فيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة، حيث لم يجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، فهذا الخزي لم في الدنيا، ولم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قتل منهم أو مات قاتل الخزي الأبدي والعذاب السرمدي، ولهذا قال: ﴿فسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾، وقوله تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ قال ابن عباس: يميز أهل السعادة من أهل الشقاء، وقال السدي: يميز المؤمن من الكافر، وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة، كقوله: ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم﴾ الآية، وقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿يومئذ يصدعون﴾، وقال تعالى: ﴿وإما أقررناهم اليوم أيها المجرمون﴾، ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، أي: إنما أقررناهم على ذلك ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ أي من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك، كقوله: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ الآية، فعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقررناهم على إتفاق الأموال وبهذا في ذلك ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه﴾ أي يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى في السحاب ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أي متراكماً متراكباً، ﴿فيجعل في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ ائْتَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَبُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعَمْ الْمَوَلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة يغفر لهم ما قد سلف: أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء في الصحيح: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر». وفي الصحيح أيضاً، أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يحب ما قبله والتوبة تحب ما كان قبلها». وقوله: ﴿وإن يعودوا﴾ أي يستمروا على ما هم فيه، ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾: أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعالجهم بالعذاب والعقوبة، قال مجاهد في قوله: ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ أي في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم، وقوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾، قال البخاري عن ابن عمر: أن رجلاً جاء فقال: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا﴾ الآية، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي أعير

بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله، قال عز وجل: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ إلى آخر الآية. قال فإن الله تعالى يقول: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾، قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه، إما أن يقتلوه وإما أن يوفقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيها يريد، قال: فما قولكم في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وخخته وأشار بيده، وهذه ابنته أو بنته حيث تزون. وأتى رجلان في فتنة ابن الزبير إلى ابن عمر فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر ابن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني الله أن أحرّم عليّ دم المسلم، قالوا: أولم يقل الله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ يعني لا يكون شرك^(١). وقال عروة بن الزبير: ﴿حتى لا تكون فتنة﴾ حتى لا يفتن مسلم عن دينه، وقوله: ﴿ويكون الدين كله لله﴾، قال الضحاك عن ابن عباس: يخلص التوحيد لله؛ وقال الحسن وقتادة: أن يقال لا إله إلا الله، أن يكون التوحيد خالصاً لله فليس فيه شرك ويخلع ما دونه من الأنداد، وقال عبد الرحمن بن أسلم: ﴿ويكون الدين كله لله﴾ لا يكون مع دينكم كفر، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل». وقوله: ﴿فإن انتهوا﴾ عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾، كقوله: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ الآية. وفي الآية الأخرى: ﴿فإخوانكم في الدين﴾، وقال: ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال لا إله إلا الله فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال لأسامة: «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» فقال: يا رسول الله إنما قالها تعوذاً، قال: «هلا شفت عن قلبه»، وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، وقوله: ﴿وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾ أي وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ سيديكم وناصركم على أعدائكم فنعى المولى ونعم النصير.

* وَعَلِمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصاً لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة لإحلال الغنائم، والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب، والتيء ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون

(١) وهو قول مجاهد والحسن وقتادة والسدي ومقاتل وزيد بن أسلم.

عليها أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك؛ هذا مذهب الإمام الشافعي، ومن العلماء من يطلق الشيء على ما تطلق عليه الغنيمة والعكس أيضاً، ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة﴾ تؤكد لتخمين كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط، قال الله تعالى: ﴿ومن يغلل يأتي بما غل يوم القيامة﴾ الآية، وقوله: ﴿فإن لله خمسة وللرسول﴾ اختلف المفسرون ههنا، فقال بعضهم لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة. وقال آخرون: ذكر الله ههنا استفتاح كلام للتبرك، وسهم لرسوله ﷺ. قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة، ثم قرأ: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول﴾، فإن لله خمسة: مفتاح كلام ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾، فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً^(١)، ويؤيد هذا ما رواه الحافظ البيهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال: أتيت النبي ﷺ وهو يواذي القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش» قلت فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا ولا سهم تستخرجه من جييك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم».

وقال ابن جرير عن الحسن قال: أوصى الحسن بالخمس من ماله، وقال: ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه؛ وعن عطاء قال: خمس الله والرسول واحد يحمل منه ويصنع فيه ما شاء، يعني النبي ﷺ، وهذا أعم وأشمل، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ويرده في أمته كيف شاء. ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب الكندي: أنه جلس مع عبادة بن الصامت وأبي الدرداء والحارث ابن معاوية الكندي رضي الله عنهم، فتذكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس، فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بغير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أظفاري فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر، وجاهدوا في الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ينجي الله به من الهلكة والغم»^(٢). وعن عمرو بن عبسة أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بغير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعير ثم قال: «ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم»^(٣) وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك، كما نص عليه محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء. وروى الإمام أحمد والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد. وعن عائشة رضي الله عنها

(١) وهو قول النخعي والحسن البصري والشعبي وعطاء وقتادة وغيرهم.

(٢) قال ابن كثير: هذا حديث حسن عظيم ولم أره في شيء من الكتب الستة وله شواهد.

(٣) رواه أبو داود والنسائي

قالت: كانت صفية من الصني^(١)، وعن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي ﷺ، وسهم الصني، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله»، فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ^(٢). فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه، وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين كما يتصرف في مال النبي .

وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف وهو أصح الأقوال، فإذا ثبت هذا وعلم فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس ماذا يصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده، وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين؛ وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، اختاره ابن جرير. وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل، قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق، وقيل: إن الخمس جميعه للنوي القربى، ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال قائلون: سهم النبي ﷺ يُسلم للخليفة من بعده، وقال آخرون: لقربة النبي ﷺ، وقال آخرون: سهم القربة لقربة الخليفة، واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. قال الأعمش عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يعلنان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان عليٌّ يقول فيه؟ قال: كان أشدهم فيه، وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله، وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى (بني هاشم) و (بني المطلب) لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له، مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ؛ وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمهم فلم يوافقهم على ذلك، بل حاربوهم ونابنوهم، ومالوا بطون قريش على حرب الرسول .

وقال جبير بن مطعم: مشيت أنا وعثمان بن عفان، إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله ﷺ أعطيت بني المطلب من خمس خبير وتركنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد»^(٣). وفي بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام»، وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب. قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم، ثم روى عن مجاهد قال: علم الله أن في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة، وفي رواية عنه قال: هم قربة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة؛ عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «رغبت لكم عن غسالة الأيدي، لأن لكم من خمس

(١) رواه أبو داود في سننه .

(٢) رواه أبو داود والنسائي .

(٣) رواه البخاري في عدة أبواب .

الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم^(١)، وقوله: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي أيتام المسلمين، واختلف العلماء هل يختص بالأيام الفقراء أو بعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين، والمساكين هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة وليس له ما يتفقه في سفره ذلك، وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات من سورة براءة إن شاء الله تعالى .

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ أي امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله، ولهذا جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس في وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وَأَمْرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمْرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تَوَدُّوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ» الحديث، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾ يتبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل بيد، ويسمى الفرقان، لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه، قال ابن عباس: يوم الفرقان يوم بدر، فرق الله فيه بين الحق والباطل^(٢). وقال عروة بن الزبير: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، وكان رأس المشركين (عتبة بن ربيعة) فالتقوا يوم الجمعان لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين ألف والتسعمائة، فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين وأسر منهم مثل ذلك. وكانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان، روى ابن مردويه عن علي قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان، وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير .

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدَّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدَّنْيَا﴾ أي إذ أنتم نزول بعُدوة الوادي الدنيا القرية إلى المدينة ﴿وَهُمْ﴾ أي المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة، ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي مما يلي سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، قال محمد بن إسحاق في هذه الآية: ولو كان ذلك عن ميعة منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددهم ما لقيتموهم ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ليقضي

(١) رواه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: حديث حسن الإسناد .

(٢) أخرجه الحاكم .

الله ما أراد بقدرته من اعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله من غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه^(١)، وإنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، وقال ابن جرير: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمتنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشمر هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقى السقاة ونهد الناس بعضهم لبعض، وقال محمد بن إسحاق وبعث أبو سفيان إلى قريش فقال: إن الله قد نجى غيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدرأ - وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثاً، فنطعم بها الطعام وننحر بها الجزر، ونسقي بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابونا بعدها أبداً. وأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ». قال محمد بن إسحاق وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله ألا نبي لك عريشاً تكون فيه ونبيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا؟ فإن أظفرن الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك وتلتحق بمن وراءنا من قومتنا، فقد والله تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حباً منهم، لو علموا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ويوازرونك وينصرونك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له، فبني له عريش فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر ما معهما غيرهما. قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ قال: « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم أحزم الغداة ». وقوله: ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾ أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، يقول تعالى: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك، أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحجة عليه ﴿ ويحيى من حي ﴾ أي يؤمن من آمن ﴿ عن بينة ﴾ أي حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾، وقالت عائشة في قصة الإفك: فهلك في من هلك، أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك، وقوله: ﴿ وإن الله لسميع ﴾ أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿ عليم ﴾ أي بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَّامِكَ قَلِيلًا وَلَوَّارَنَّهُمْ كَثِيرًا أَلْفَسَلَّمْ وَلَسْتَزَعَمَ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

(١) أخرجه محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه.

قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم، وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَاكُم كَثِيراً لَفُشِمْتُمْ﴾ أي لجبنتم عنهم واختلقتم فيما بينكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي من ذلك بأن أراكم قليلاً، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بما تجنّه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ يَرْيَكُوهُمْ إِذِ التَّقِيمِ فِي آعِينِكُمْ قَلِيلاً﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين؟ قال: لا، بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم، فسألناه فقال: كنا ألفاً^(١)، وقوله: ﴿وَيَقْلَلُكُمْ فِي آعِينِهِمْ﴾، قال عكرمة: حضض بعضهم على بعض، ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنفقة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأبد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعيفه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِينَ الثَّقَيْنِ فَبِئْسَ الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنُ﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منها حق وصدق والله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ^(٣)

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾. وفي الصحيحين: «يا أيها الناس لا تتموا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»، ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم منزل الكتاب، وعجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»^(٤). وفي الحديث: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنائزة»^(٥). وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى: «إن عهدي كل عهدي الذي يذكركني وهو مناجز قرنه»: أي لا يشغله ذلك الحال عن ذكرني ودعائي واستعائتي. وقال قتادة: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون، عند الضرب بالسيوف. وعن كعب الأحبار قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجنبوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به، ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، ولا يتنازَعوا فيها بينهم أيضاً فيختلفوا، فيكون

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير

(٢) أخرجه الشيخان عن عبد الله بن أبي أوفى مرفوعاً.

(٣) أخرجه الطبراني عن زيد بن أرقم مرفوعاً.

سبباً لتخاذلهم وفشلهم، ﴿وتذهب ربحكم﴾ أي قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال ﴿واصبروا﴾ إن الله مع الصابرين ﴿وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والاثار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتنال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد من بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة البيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، وقهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم .

* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لِمُ الشَّيْطَانِ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِيهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّهُمْ أَذْيُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٩﴾

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركون في خروجهم من ديارهم بطلاء، أي دفعاً للحق، ﴿ورثاء الناس﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل: لا والله، لا نرجع حتى نرد ماء بدر وننحر الجزر، ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم وردوا به الحمام، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء، في عذاب سرمدي أبدي، ولهذا قال: ﴿والله بما يعملون محيط﴾ أي عالم بما جاموا به، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم. قال ابن عباس ومجاهد: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر^(١)، وقال محمد بن كعب، لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدخوف، فأنزل الله: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس﴾، وقوله تعالى: ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارك لكم﴾ الآية؛ حسن لم لعنه الله ما جاموا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم، كما قال تعالى عنه: ﴿بعدهم وعنيهم وما بعدهم الشيطان إلا غروراً﴾، قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإني جارك لكم، فلما اتقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة ﴿نكص على عقبيه﴾ قال: رجع مدبراً، وقال: ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ الآية. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جنده من الشياطين معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج في صورة (سراقة بن مالك بن جشم) فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم

(١) وهو قول قتادة والضحاك والسدي وغيرهم .

من الناس وإني جار لكم، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل يا سراقه أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب؛ وذلك حين رأى الملائكة. وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم وتبرأ منهم عند ذلك. قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعْدٌ حَقٌّ وَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية .

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾، قال ابن عباس: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غرَّ هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قتلهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، قال قتادة: وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: والله لا يعبد الله بعد اليوم قسوة وعتواً، وقال ابن جريج: هم قوم كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر، وقال الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: غرَّ هؤلاء دينهم. وقال مجاهد: هم فئة من قريش خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: غرَّ هؤلاء دينهم، حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم. وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار سواء. وقال ابن جرير عن الحسن في هذه الآية قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي يعتمد على جنبه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي لا يضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منبع الجناب عظيم السلطان ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله لا يضيعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ٥١

يقول تعالى: ولو تراءى لو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكراً، إذا يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون ذوقوا عذاب الحريق. قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدبرتهم الملائكة يضربون أدبارهم، وقال مجاهد في قوله: ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ يوم بدر، وقال سعيد بن جبيرة: يضربون وجوههم وأدبارهم. قال: وأستأهمهم، ولكن الله يكتفي؛ والسباق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا قال تعالى: ﴿ولو ترى

إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴿ وفي سورة القتال مثلها، وتقدم قوله تعالى: ﴿ ولو ترى إذ المجرمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم ﴾ أي باسطو أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم إذا استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً، وذلك إذا بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما في حديث البراء: « أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سحوم وحمم وظل من يحوم، فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصفوف المبلول، فتخرج معها العروق والعصب »، ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ذوقوا عذاب الحريق، وقوله تعالى: ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ أي هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جازاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾: أي لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل الذي لا يجر، تبارك وتقدس الغني الحميد، ولهذا جاء في الحديث القدسي الصحيح: « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

كَذَابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٦﴾
يقول تعالى: فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي عادتنا وستتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون، ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول، الكافرين بآيات الله ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلكتهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ إن الله قوي شديد العقاب ﴾ أي لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۖ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾
كَذَابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلًّا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٨﴾
يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كقوله تعالى: ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾، وقوله: ﴿ كذاب آل فرعون ﴾ أي كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكتهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين .

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَتَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ مِنْهُمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٦١﴾

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، وكلما أكدوه بالآيمان نكثوه، ﴿وهم لا يتقون﴾: أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام، ﴿فإما تنقضهم في الحرب﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿فشرّد بهم من خلفهم﴾ أي نكل بهم^(١)، ومعناه: غلظ عقوبتهم وأنهم قتلاً ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿لعلهم يذكرون﴾ لعلهم يحذرون أن ينكثوا فبصنع بهم مثل ذلك

وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وإما تخافن من قوم﴾ قد عاهدتهم ﴿خيانة﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من الموائق والعهود ﴿فانبد إليهم﴾ أي عهدهم على سواء: أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك، قال الرازي: فاضرب وجوه الفدر للأعداء حتى يجيبوك إلى السواء

﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ ولو في حق الكفار لا يحبها أيضاً، عن سلم بن عامر قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبد إليهم على سواء»، قال فبلغ ذلك معاوية، فرجع فإذا بالشيخ عمرو بن عنبسة رضي الله عنه^(٢). وقال الإمام أحمد عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: دعوني أَدْعُوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله عز وجل للإسلام، فإن أسلمتم فلکم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، وإن أبيتم نابذناكم على سواء، ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ بفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ولا تحسبن﴾ يا محمد ﴿الذين كفروا سبقوا﴾ أي فاتونا فلا تقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيتنا فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا

(١) قاله ابن عباس والحسن البصري والضحاك والسدي وعطاء الخراساني وابن عينة .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان وقال الترمذي: حسن صحيح .

ساء ما يحكمون ﴿٦٠﴾ أي يظنون، وقوله تعالى: ﴿٦١﴾ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض وماوأهم النار ولبئس المصير ﴿٦٢﴾، وقوله تعالى: ﴿٦٣﴾ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم ماوأهم جهنم وبئس المهاد ﴿٦٤﴾. ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال: ﴿٦٥﴾ وأعدوا لهم ما استطعتم ﴿٦٦﴾ أي مهما أمكنكم ﴿٦٧﴾ من قوة ومن رباط الخيل ﴿٦٨﴾. عن عقبه بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿٦٩﴾ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴿٧٠﴾، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي ﴿٧١﴾. وروى الإمام أحمد وأهل السنن عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيول ثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر. فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأروائها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك حسنات له، ففي ذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهي على ذلك وزر». وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر؟ فقال: «ما أنزل الله عليّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿٧٢﴾ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿٧٣﴾». وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث والله أعلم.

وفي الحديث: «الخيول معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل الله كانت النفقة عليه كالمداد يده بالصدقة لا يقبضها» ﴿٧٤﴾. وفي صحيح البخاري قال رسول الله ﷺ: «الخيول معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»، وقوله: ﴿٧٥﴾ ترهبون ﴿٧٦﴾ أي تخوفون ﴿٧٧﴾ به عدو الله وعدوكم ﴿٧٨﴾ أي من الكفار ﴿٧٩﴾ وآخرين من دونهم ﴿٨٠﴾، قال مجاهد: يعني بني قريظة، وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: هم الشياطين التي في الدور، وقال مقاتل: هم المنافقون، وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله تعالى: ﴿٨١﴾ ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴿٨٢﴾، وقوله: ﴿٨٣﴾ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴿٨٤﴾ أي مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يوف إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف كما تقدم في قوله تعالى: ﴿٨٥﴾ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴿٨٦﴾.

* وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٨٧﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ

(١) أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه وأبو داود .

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له ومالك

(٣) أخرجه الطبراني عن سهل بن الحنظلية .

حَسْبُكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِصَرِّهِ، وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ^٤ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ^٥ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبد إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومناذلتك فقاتلهم ﴿٦٢﴾ وإن جنحوا ﴿٦٣﴾ أي مالوا ﴿٦٤﴾ للسلم ﴿٦٥﴾ أي المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿٦٦﴾ فاجنح لها ﴿٦٧﴾ أي فل إليها، وأقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين، أجاهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الآخر. قال ابن عباس ومجاهد: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿٦٨﴾ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴿٦٩﴾ الآية^(١)، وفيه نظر، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص والله أعلم. وقوله ﴿٦٧﴾ وتوكل على الله ﴿٦٨﴾ أي صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا ﴿٦٩﴾ فإن حسبك الله ﴿٧٠﴾ أي كافيك وحده، ثم ذكر نعمته عليه بما أيده من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿٧١﴾ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ﴿٧٢﴾ أي جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك، ﴿٧٣﴾ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴿٧٤﴾ أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿٧٥﴾ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴿٧٦﴾.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضللاً لا فهداكم الله بي، وعالة لا أغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله آمن، ولهذا قال تعالى: ﴿٧٧﴾ ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴿٧٨﴾ أي عزيز الجنب فلا يخيب رجاء من توكل عليه ﴿٧٩﴾ حكيم ﴿٨٠﴾ في أفعاله وأحكامه، عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿٨١﴾ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴿٨٢﴾، وعن مجاهد قال: إذا التقى المتحابان في الله فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه، تحات خطاياهما كما تحات ورق الشجر، قال عبدة، فقلت له: إن هذا ليسير فقال: لا تقل ذلك، فإن الله يقول: ﴿٨٣﴾ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴿٨٤﴾ قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني. عن سلمان الفارسي أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحات عنهما ذنوبهما كما تحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحار».

﴿٨٥﴾ يَتَّيِبُ النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٦﴾ يَتَّيِبُ النَّبِيُّ^٤ النَّبِيُّ حَرِصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ

(١) وهو قول عطاء وعكرمة والحسن وقتادة وزيد بن أسلم.

إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ^{٦٥} وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ^{٦٦} أَلَعَلَّنَا خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ^{٦٧} وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ^{٦٨}

يحرص تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال، ومناجزة الأعداء، ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم: أي كافيتهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وتراذفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حسبك الله وحسب من شهد معك، ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي حثهم وذمهم عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال (عمير بن الحمام) عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ «نعم»، فقال: يخ، يخ، فقال: «ما يحملك على قولك يخ، يخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتين من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه. ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وأمرأ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كل واحد بعشرة، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة، قال عبد الله بن المبارك عن ابن عباس لما نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى قوله ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: خفف الله عنهم من العدة ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. وروى البخاري نحوه، وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ثقل على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عِشْرُونَ مِائَتَيْنِ، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم يسع لهم أن يفرّوا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم وجزاء لهم أن يتحزروا عنهم^(١). وروى الحافظ ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ النَّبَاِّ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٩)

(١) وروى عن مجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم والضحاك وغيرهم نحو ذلك.

لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: « ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟ » فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستبتهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب فاضرم الوادي عليهم ناراً ثم ألقهم فيه، قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة؛ ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ فئن تبغني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال: ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال: ﴿ ربنا اطمس على أمواهلم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾، وإن مثلك يا عبد الله كمثل نوح عليه السلام قال: ﴿ رب لا تنزلني على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق »، قال ابن مسعود: قلت يا رسول الله إلا (سهيل بن بيضاء) فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيته في يوم أخوف من أن تقع عليّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: « إلا سهيل بن بيضاء »، فأنزل الله عز وجل: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴾ إلى آخر الآية^(١). عن ابن عمر قال: لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعده الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: « إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه » فقال له عمر: أفأنتهم؟ فقال: « نعم »، فأتى عمر الأنصار، فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى، قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى فخذ، فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له: يا عباس أسلم، فوالله لأن تسلم أحب إليّ من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فيهم، فقال أبو بكر: عشيرتك فأرسلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴾ الآية^(٢)

قال ابن عباس: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴾ قال: غنائم بدر قبل أن يجلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أقدم إليهم، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، وكذا روي عن مجاهد، وقال الأعمش: سبق منه أن لا يعذب أحداً شهد بدرأ، وقال شعبة عن مجاهد: ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ أي لهم بالمغفرة، وعن ابن عباس في قوله: ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ يعني في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى لكم ﴿ لمسكم فيما أخذتم ﴾ من الأسارى ﴿ عذاب عظيم ﴾، ويستشهد لهذا القول بما أخرجه في الصحيحين: « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه ويبعث إلى الناس عامة ». وقد روى

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم في المستدرک وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) أخرجه ابن مردويه والحاكم في المستدرک وقال الحاكم: صحيح الإسناد .

الإمام أبو داود في سننه عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة، وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم، إن شاء قتل كما فعل بيني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر، هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَابَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً منهم - أي من بني هاشم - فلا يقتله، ومن لقي البخثري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكراً»، فقال أبو حذيفة بن عتبة: «أقتل آبائنا وأبنائنا وإخواننا وعشائرنا وترك العباس؟ والله لئن لقيت لألجمنه بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص - قال عمر: والله إنه لأول يوم كنتاني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص - أ يضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟»، فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفاً إلا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً رضي الله عنه، قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلاً موسراً فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك: أن رجلاً من الأنصار قالوا: يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه. قال: «لا والله لا تلزون منه درهماً»، وبعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل وعقيل، وحليفك عتبة بن عمرو». قال: ما ذاك عندي يا رسول الله، قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها إن أصبت في سفر في هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم»، قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبت مني عشرين أوقية من مال كان معي، فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك»، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل. وقال أبو جعفر بن جرير: قال

العباس في نزلت: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾، فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي، وسأله أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذت مني فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبداً كلهم تاجرٌ مالي في يده . وقال ابن عباس قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله لننصحن لك على قومنا، فأئزل الله: ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ بخلف لكم خيراً مما أخذ منكم ﴿ويغفر لكم﴾ الشرك الذي كنتم عليه، قال فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وإن لي الدنيا، لقد قال: ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾، فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف، وقال: ﴿ويغفر لكم﴾ وأرجو أن يكون قد غفر لي. وقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً، وقد توضأ لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذ شاكياً، ولا حرم سائلاً، وما صلى يومئذ حتى فرقه، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتني، فكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا وأرجو المغفرة. قال الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك قال: أتني رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال: «انثروه في مسجدي» قال: وكان أكثر مال أتني به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس، فقال: يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ» فحثا في ثوبه، ثم ذهب بقله فلم يستطع، فقال: مر بعضهم يرفعه إليّ، قال: «لا»، قال: فارفعه أنت عليّ، قال: «لا»، فثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عنه عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وتَمَّ منها درهم^(١). وقوله: ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل﴾ أي وإن يريدوا خيانتك فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ أي من قبل بدر بالكفر به ﴿فأمكن منهم﴾ أي بالأسارى يوم بدر ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بفعله حكيم فيه، قال قتادة: نزلت في (عبد الله بن أبي سرح) الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين، وقال عطاء الخراساني: نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا: لننصحن لك على قومنا، وقال السدي بالعموم، وهو أشمل وأظهر والله أعلم .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ وَلِنَفْسِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين، وقسمهم إلى (مهاجرين) خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وإلى (أنصار) وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء ﴿بعضهم أولياء بعض﴾، أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كل اثنين أخوان،

ولا الكافر المسلم « وفي المسند والسنن: « لا يتوارث أهل ملتين شتى »^(١) ، وقال رسول الله ﷺ: « أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين ، لا يترأى نارهما »^(٢) ، وروى أبو داود عن سمرة بن جندب: أما بعد قال رسول الله ﷺ: « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله ». ومعنى قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ فساد كبير﴾ أي إن لم يجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس ، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل .

* وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَٰئِ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف الذي لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يسأم ولا يعمل لحسنه وتنوعه، ثم ذكر أن الأنباغ لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الآية، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، وفي الحديث المتفق عليه: « المرء مع أحب »، وفي الحديث الآخر: « ومن أحب قوماً فهو منهم » وفي رواية: « حشر معهم »، وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولَٰئِ الْأَرْحَامُ﴾^(٣) خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض، على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبية، بل يدلون بوارث كالخالدة والخال والعمة ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات، كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد، على أنها ناسخة للإرث بالهلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص والله أعلم .

« آخر تفسير سورة الأنفال والله الحمد والمنة وعليه التكلان وهو حسنا ونعم الوكيل »

(١) أخرجه أحمد وأصحاب السنن وقال الترمذي: حسن صحيح .

(٢) أخرجه ابن جرير مرسلًا ومتصلًا

(٣) أخرج ابن جرير: كان الرجل يعاقد الرجل فيقول ترثني وأرثك، فنزلت: ﴿وَأُولَٰئِ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ...﴾ الآية. وأخرج ابن سعد: أخى رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام وكعب بن مالك، قال الزبير: لقد رأيت كعباً أصابته الجراحة بأحد، فقلت: لو مات لورثته، فنزلت هذه الآية .

(٩) سُورَةُ الْبُورَةِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعَشْرُونَ وَآيَةٌ

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ۖ

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما قال البراء بن عازب: آخر آية نزلت ﷻ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله ﷻ، وآخر سورة نزلت: براءة^(١). وإنما لم يسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه. وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ليقم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس: براءة من الله ورسوله ﷻ، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ، كما سيأتي بيانه. فقوله تعالى براءة من الله ورسوله ﷻ أي هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله ﷻ إلى الذين عاهدتم من المشركين، فسبحوا في الأرض أربعة أشهر ﷻ. اختلف المفسرون ههنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية للنبي المهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﷻ فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمُ ۖ الآية، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهداه إلى مدته؛ وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله.

وقال ابن عباس: حدَّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسبحون في الأرض حيث شاءوا، وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم، فأمر الله نبيه إذا انسلخ الحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد، يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيه السيف أيضاً حتى يدخلوا في الإسلام. وقال مجاهد: براءة من الله ورسوله ﷻ إلى أهل العهد خزاعة ومدلج، ومن كان له عهد أو غيرهم، فقفل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ﷺ الحج ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك»،

(١) أخرجه البخاري عن البراء بن عازب.

فأرسل أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما، فطافا بالناس في ذي المجاز وبأمكنهم التي كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها، فأذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر، فهي الأشهر المتواليات عشرون من ذي الحجة إلى عشر محفل من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا .

وَأَذِنَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

يقول تعالى: وإعلام ﴿من الله ورسوله﴾ وتقدم، وإنذار إلى الناس ﴿يوم الحج الأكبر﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعاً ﴿أن الله يرى من المشركين ورسوله﴾ أي يرى منهم أيضاً. ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: ﴿فإن تبتم﴾ أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال، ﴿فهو خير لكم، وإن توليتم﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فاعلموا أنكم غير معجزين الله﴾، بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيتته ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال. روى البخاري عن أبي هريرة قال: بعني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل الأكبر، من أجل قول الناس الحج الأصغر، فنبت أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشركاً^(١). وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: كنت مع (علي بن أبي طالب) حين بعث رسول الله ﷺ إلى أهل مكة براءة فقال: ما كنتم تناهون؟ قال: كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله يرى من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك، قال: فكنت أنا نادي حتى صحل صوتي .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث براءة مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي»، فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٢). وعن علي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ حين بعث براءة قال: يا نبي الله إني لست باللسن ولا بالخطيب، قال: «لا بد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت» قال: فإن كان لا بد فسأذهب أنا، قال: «انطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك»، قال: ثم وضع يده على فيه. وقال محمد بن إسحاق: نزلت براءة على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر ليقم الحج للناس فقبل يا رسول الله: لو بعثت إلى أبي بكر، فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي»، ثم دعا علياً فقال: «أذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد .

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي وقال: حسن غريب .

رسول الله ﷺ فهو له إلى مدته فخرج علي رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضاء، حتى أدرك أبا بكر في الطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضى، فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن بالناس بالذي أمره رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد ذلك مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطوف بالبيت عريان ثم قلما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى .

عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر يوم عرفة، وقال عمرو بن الوليد السهمي عن عباد البصري قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد، قال: فحججت بعد أبي فأبيت المدينة، فسألت عن أفضل أهلها، فقالوا: (سعيد بن المسيب) فأتيته، فقلت: إني سألت عن أفضل أهل المدينة، فقالوا سعيد بن المسيب، فأخبرني عن صوم يوم عرفة، فقال: أخبرك عن من هو أفضل مني مائة ضعف (عمر) أو (ابن عمر) كان ينهى عن صومه، ويقول هو يوم الحج الأكبر^(١). والقول الثاني: أنه يوم النحر، قال الحارث الأعمور: سألت علياً رضي الله عنه عن يوم الحج الأكبر فقال: هو يوم النحر. وقال عبد الرزاق عن عبد الله ابن أبي أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وقال عبد الله بن سنان خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر، واختاره ابن جرير، وروى عن محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له وأخذ الناس بخطامه أو زمامه فقال: «أي يوم هذا؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر؟»^(٢)

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ
إِلَىٰ مِدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٩﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسبح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث (ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعنده إلى مدته) وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي يماليء عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفى له بدمته وعهده إلى مدته، ولهذا حرص تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الموفين بعهدهم .

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وطاووس وغيرهم .

(٢) رواه ابن جرير قال ابن كثير: إسناده صحيح وأصله مخرج في الصحيحين .

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ما هي ؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى : ﴿ منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ﴾ الآية ، ولكن قال ابن جرير : آخر الأشهر الحرم في حقهم الحرم ، وفيه نظر ، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس^(١) في رواية العوفي عنه ، أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله : ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ ، ثم قال : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ﴾ أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمتنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم ، لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر ، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة . وقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ أي من الأرض ، وهذا عام ، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله : ﴿ ولا تقاتلوه عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ ، وقوله : ﴿ وخذلوه ﴾ أي وأسروهم ، إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً ، وقوله : ﴿ واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم ، بل اقصدهم بالحصار في معانقلهم وحصونهم ، والرصد في طرقهم ومسالكهم ، حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام ، ولهذا قال : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ ، ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة ، حيث حرمت قتالهم بشرط الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته ، ونبه بأعلاها على أدناها ، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل ، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمهاجرين ، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالخلق ، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة ، وقد جاء في الصحيحين : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » الحديث ، وقال عبد الله بن مسعود : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له ، وقال ابن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه !

وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، واستقبلوا قبلتنا ، وأكلوا ذبيحتنا ، وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم » . قال أنس : توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم قال في آية أخرى : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ . وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك : إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عقد وكل مدة . وقال ابن عباس في هذه الآية : أمره الله تعالى

(١) وهو قول مجاهد وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو الأرجح .

أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول. ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحّاك والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَنَّا بَعْدَ وَإِذَا فُتِنَّا﴾ وقال قتادة بالعكس .

وَلَمَّا أَحَدُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وإن أحد من المشركين﴾ الذين أمرتك بقتالهم، وأحلت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿استجارك﴾ أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله، أي القرآن تقرأه عليه، وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ثم أبلغه مأمنه﴾ أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عبادته، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، فأرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم. ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عقتك»، والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرفته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين تقفوا، فقال تعالى: ﴿كيف يكون للمشركين عهد﴾ أي أمان ويتركون فيها هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ يعني يوم الحديبية، ﴿فاستقيموا لكم فاستقيموا لهم﴾ أي مهما تمسكوا بما عاهدتموه عليه وعاهدتموه من ترك الحرب بينكم وبينهم ﴿فاستقيموا لهم﴾ إن الله يحب المتقين، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالأوا حلفاءهم، وهم (بنو بكر) على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصبيهم والله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر

على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتيسير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء، ومنهم (صفوان بن أمية) و (عكرمة بن أبي جهل) وغيرهما ثم هدام الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله .

* كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأدبلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة، قال ابن عباس: الإل القاربة، والذمة والمهد^(١)، وقال مجاهد: الإل: الله أي لا يرقبون الله ولا غيره، والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر، وعن مجاهد أيضاً: الإل العهد، وقال قتادة: الإل الحلف .

أَشْتَرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَلَمْ يُخَوِّنْكَ فِي الدِّينِ ۖ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذمّاً للمشركين وحثاً للمؤمنين على قتالهم: ﴿اشترؤا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما اتهاوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فلم يخونك في الدين﴾ ونفصل الآيات لقوم يعلمون .

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا ۚ إِنَّ أُمَّةَ الْكُفْرِ ۖ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم بأيمانهم أي عهودهم ومواثيقهم ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي عابوه وانتقصوه، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بنقص، ولهذا قال: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴿أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال﴾، قال قتادة: أئمة الكفر كآبي جهل وعتبة وشيبة وأمие بن خلف، قال ابن مردويه: مر (سعد بن أبي وقاص) برجل من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر، فقال سعد: كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر، والآية عامة وإن كان سبب نزولها في مشركي قريش والله أعلم .

(١) وهو قول الضحاك والسدي كما قال تميم بن مقبل: أفسد الناس خلوف خلفوا: قطعوا الإل وأعراق الرحم .

أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدْءُهُمْ وَأَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتُمْ تَحْشَوْنَ فَلَلهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذِيبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

وهذا أيضاً تهيج وتحريض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيْسْتَغْفِرُواكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيَخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَهُمْ يَدْعُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قبل: المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر غيرهم، وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان، وقوله: ﴿أَنْتُمْ تَحْشَوْنَهُمْ؟ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون فاننا أهل أن نخشى العباد من سطوتي وعقوبي، ثم قال تعالى بياناً لحكته فيما شرع لهم من الجهاد، مع قدرته على إهلاك العدو ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم، وقال مجاهد وعكرمة: ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ يعني خزاعة، ﴿ويَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من عباده ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بما يصلح عباده، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يبور أبداً.

* أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أي ظننتم أن تترككم مهملين، لا تختبركم بأمور يظهر فيها الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتمى بأحد القسمين عن الآخر، كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يمت أرضاً أريد الخير أيهما يليني

وقال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؟ وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية، والحاصل: أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من بطيئه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ

هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم وقالم: كما قال السدي: لو سألت النصراني ما دينك؟ لقال: نصراني، ولو سألت اليهودي ما دينك؟ لقال: يهودي، ﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ أي بشركهم ﴿وفي النار هم خالدون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد. كما قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾^(١). وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله»، وعن أنس مرفوعاً يقول الله: وعزتي وجلالي إني لأهم بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرت إلى عمار بيوتي، وإلى المتحابين في، وإلى المستغفرين بالإسحار، صرفت ذلك عنهم^(٢). وقال عبد الرزاق عن عمرو ابن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها، وقال المسعودي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصلي، فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾^(٣)، وقوله: ﴿وأقام الصلاة﴾ أي التي هي أكبر عبادات البدن ﴿وآتى الزكاة﴾ أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلاق، وقوله: ﴿ولم يحش إلا الله﴾ أي ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يحش سواه ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، قال ابن عباس: من وحّد الله وآمن باليوم الآخر ﴿وأقام الصلاة﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿ولم يحش إلا الله﴾ يقول لم يعبد إلا الله ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، يقول تعالى إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾، وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة، وقال محمد بن إسحاق: وعسى من الله حق.

* أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٢﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٣﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾

(١) رواه أحمد والترمذي وابن مردويه والحاكم.

(٢) قال ابن عساكر: حديث غريب

(٣) أخرجه ابن مردويه.

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر بيدل قال: لأن كنتم سبقتونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعلم المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ - إِلَى قَوْلِهِ - وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، يعني أن ذلك كله كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك، وقال الضحاك: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعبرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعلم المسجد الحرام، ونفك العاني، ونحجب البيت، ونسقي الحاج، فأُنزل الله: ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية. وعن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قُلتُم، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، قال: ففعل، فأُنزل الله عز وجل: ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَادَ كُذِّ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا أي اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك، كقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾، ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من أثر أهله وقربائه وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي تحبونها لطبيعتها وحسنها أي إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي فانظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. وروى الإمام أحمد عن زهرة بن معبد عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»، فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر»^(٢). وقد ثبت

(١) أخرجه عبد الرزاق ورواه مسلم وأبو داود وابن مردويه وابن حبان وابن جرير وهذا لفظه .

(٢) انفرد بإخراجه البخاري

في الصحيح عنه عليه السلام أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين». وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا تابعتُم بالعبادة وأخذتم بأذنان البقر ورضيتُم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١)

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْعًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم، ونبهم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبهم كثرتهم^(٢)، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده، وبإمداده، وإن قل الجمع، ﴿فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين﴾، وقد كانت وقعة حنين^(٣) بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ صلى الله عليه وسلم من فتح مكة وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغه أن (هوازن) جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم (مالك بن عوف النضري) ومعه ثقيف بكاملها وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والنساء والنعم، وجاءوا بقضهم وقضبضهم؛ فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم؛ فعند ذلك ولي المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء، يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، ويقول في تلك الحال: «أنا النبي لا كذب» أنا ابن عبد المطلب، وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ثم أمر صلى الله عليه وسلم عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة، يعني شجرة بيعة

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود واللفظ له عن ابن عمر مرفوعاً.

(٢) أخرج البيهقي: أن رجلاً قال يوم حنين: لن تغلب من قلة؟ وكانوا اثني عشر ألفاً، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: ﴿ويوم حنين...﴾ الآية.

(٣) حنين: اسم موضع بأوطاس، عرف باسم رجل اسمه: حنين بن قانية بن مهلائيل من العساليق، كما في معجم البكري.

الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على أن لا يفروا عنه، فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: ليك ليك، وانعطف الناس، فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه، ثم انحدر عنه وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ، فلما اجتمعت شزيمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم عليه السلام، أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من تراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، ثم رمى القوم بها، فابقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أبقاهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ».

وقال الإمام أحمد عن (يزيد بن أسيد) قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين، فسرنا في يوم قاتظ شديد الحر، فترلنا تحت ظلال الشجر، فلما زالت الشمس لبست لأمتي، وركبت فرسي، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، حان الرواح، فقال: «أجل» فقال: «يا بلال»، فثار من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر، فقال: ليك وسعديك وأنا فداؤك، فقال: «أسرج لي فرسي»، فأخرج سرجاً دقناه من ليف ليس فيها أشر ولا بطر، قال فأسرج فركب وركبنا، فصافقناهم عسبنا ولبلتنا، فتشامت الخيلان، فولى المسلمون مدبرين، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلِيْتُمُ مَدْبِرِينَ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله»، ثم قال: «يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله» قال: ثم اقتحم عن فرسه، فأخذ كفاً من تراب، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه» فهزمهم الله تعالى، قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض، كإمرار الحديد على الطست الحديد^(١). وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: يا أبا عمارة أفرتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوماً رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهم، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء، وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»^(٢). قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي طمأنينته وثباته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين ﷺ أي الذين معه ﷺ وأنزل جنوداً لم تروها ﷺ وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير عن عبد الرحمن مولى ابن بثرن، حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين، لم يقوموا لنا حلب شاة، قال: لما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ، قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا، قال: فانهزمنا وركبوا اكتافنا، فكانت إياها.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة، قال: ورسول الله ﷺ

(٢) أخرجه الشيخان عن البراء بن عازب.

(١) رواه الإمام أحمد والحافظ البيهقي.

على بغلته البيضاء يمضي قدماً، فحادثت بغلته، فقال عن السرج، فقلت ارتفع رفعك الله، قال: «ناولني كفاً من التراب» فناولته قال: فضرب به وجوههم، فامتلاأت أعينهم تراباً قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك، قال: «اهتف بهم» فهتفت بهم، فجاءوا وسيوفهم بأيامهم كأنها الشهب، وولى المشركون أديبارهم^(١). وعن شيبه بن عثمان قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عري، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحزرة إياهما، فقلت اليوم أدرك ثأري منه قال: فذهبت لأجيته عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع يضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج، فقلت: عمه ولن يخذله، قال: فجثته عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان، فقلت: ابن عمه ولن يخذله، فجثته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف، إذ رفع لي شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق فخفت أن يمحشمي، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقري، فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «يا شيبه يا شيبه ادن مني، اللهم أذهب عنه الشيطان» قال: فرفعت إليه بصري وهو أحب إلي من سمعي وبصري، فقال: «يا شيبه قاتل الكفار»^(٢). قال محمد بن إسحاق عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوي من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منشور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فأكنا نشك أنها الملائكة، وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالعرب وأوتيت جوامع الكلم»، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه، وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بقرب من عشرين يوماً، فعند ذلك خبرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فردّه عليهم، وقسم الأموال بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء، لكي يتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة (مالك بن عوف النضري) واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد

فكانه ليث على أشباله وسط المباءة خادر في مرصد

يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا الْمُشْرِكُونَ يَحْجَسُّ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ فَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

(٢) أخرجه الحافظ البيهقي.

(١) رواه الحافظ البيهقي والإمام أحمد في مسنده بنحوه.

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً، بنبي المشركين الذين هم نجس عن المسجد الحرام، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية، وكان نزولها في سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فأتى الله ذلك وحكم به شرعاً وقدرأ، وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، وقال عطاء: الحرم كله مسجد لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾، ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك، كما ورد في الصحيح: «المؤمن لا ينجس»، وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وقال أشعث عن الحسن من صافحهم فليتوضأ. وقوله: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾، قال محمد بن إسحاق: قال الناس: لتقطع عنا الأسواق، ولتلهكن التجارة، وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق، فأنزل الله: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾^(١) من وجه غير ذلك ﴿إن شاء﴾، إلى قوله: ﴿وهم صاغرون﴾ أي هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله بما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية، ﴿إن الله عليم﴾ أي بما يصلحكم ﴿حكيم﴾ أي فيما يأمر به وينهى عنه لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى، ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، وقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه، فلما جاءوا كفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلماذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً واستقامت جزيرة العرب، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً، وتحلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيط وحر، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فترز بها

(١) في الباب: أخرج ابن أبي حاتم: كان المشركون يميثون إلى البيت بالطعام يتجرون فيه، فلما نهوا عن إتيان البيت، قال المسلمون: أين لنا الطعام؟ فأنزل الله: ﴿وإن خفتم...﴾ الآية. وأخرج ابن جرير: لما نزلت ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ...﴾ شق ذلك على المسلمين، وقالوا: من يأتينا بالطعام وبالمتاع؟ فأنزل الله الآية.

وأقام بها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال، وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ أي إن لم يسلموا ﴿عن يد﴾: أي عن قهر لهم وغلبة ﴿وهم صاغرون﴾ أي ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أدلاء صغرة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم: «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه» ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية (عبد الرحمن بن غنم الأشعري) قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نحدد ما خرب منها، ولا نحجي منها ما كان خططاً للمسلمين، وأن لا نمنع كنائسنا أن يتزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام، نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوفر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتفي بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا نقش خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر، وأن نجز مقادير رؤوسنا، وأن نلزم زينا حيثما كنا، وأن نشد الزناير على أوساطنا، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا، وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طريق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نوابيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعائين ولا بعبثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر الثيران معهم في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم، قال: فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه: «ولا نضرب أحداً من المسلمين» شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق».

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيَ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِعُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ إِنْ يُؤَفَّكَونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من (اليهود والنصارى) لمقاتلتهم هذه المقالة الشيعة والفرية على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في العزيز إنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأما ضلال النصاري في

المسيح فظاهر، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين، فقال: ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى اقترانهم واختلافهم، ﴿بضاهئون﴾ أي يشابهون ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قاتلهم الله﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أنى يؤفكون﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟ وقوله: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم﴾، روى الإمام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القبول على رسول الله ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيسية وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فحدث الناس بقدمه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ قال فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ: «يا عدي ما تقول؟ أيعزك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ أيعزك أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون». وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرّموا، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ أي الذي ما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ﴿لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأصداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أن يطفئوا نور الله﴾: أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم واقتراهم، فنلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغويه، ثم قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع (ودين الحق) هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿ليظهره على الدين كله﴾: أي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيلغ ملك أمتي ما زوى لي منها». وعن تميم الدارمي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيراً ويذل ذليلاً، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»، فكان تميم الدارمي يقول: قد عرفت ذلك في أهل

بني لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية^(١) وفي المسند أيضاً عن عدي بن حاتم قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي أسلم تسلم» فقلت: إني من أهل دين، قال: «أنا أعلم بدينك منك»، فقلت أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم ألت من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟» قلت بلى! قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك» قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسي بيده ليتن الله هذا الأمر حتى تخرج الطعنة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتح كنوز كسرى بن هرمز» قلت كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليذلن المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه الطعنة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها^(٢). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الآية، أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل»، ثم يبعث الله ريحاً طيبة، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم^(٣).

* يَتَّيِبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُوا أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَنُونَ ﴿٣٥﴾

قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنهَاهُمُ الرِّبَايُونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ﴾ والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون: علمائهم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنَّ مِنْهُمْ قَسِيسِينَ وَرَهْبَانًا﴾ والمقصود التحذير من علماء سوء وعباد الضلال، قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى، وفي الحديث الصحيح: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فن؟»، وفي رواية فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا هؤلاء؟». والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيَأْكُلُوا أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند . (٢) أخرجه أحمد في المسند . (٣) رواه مسلم في صحيحه .

ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية خراج وهدايا وضرائب تحمي إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها، وعوضهم الذل والصغار، وباؤوا بغضب من الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي وهم مع أكلهم الحرام، يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجبهة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وقوله: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ الآية، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوكة وأخبار سوء ورهبانها

وأما الكثر، فقال ابن عمر: هو المال الذي لا تؤدي زكاته، وعنه قال: ما أدى زكاته فليس بكثر، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدي زكاته فهو كثر^(١)، وقال عمر بن الخطاب: أيما مال أدبت زكاته فليس بكثر وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كثر يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض. وروى البخاري عن خالد بن أسلم قال خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال، وكذا قال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية

قال الإمام أحمد عن ثوبان قال: لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا: فأبي المال نتخذ؟ قال عمر: فأننا أعلم لكم ذلك، فأوضح على بغير فأدركه وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله أي المال نتخذ؟ قال: «قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة». (حديث آخر): روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة﴾ الآية، كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالاً يبقى بعده، فقال عمر: أنا أفرج عنكم، فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأبى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا لطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم»، قال فكبر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكثر المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»^(٢)

وقوله تعالى: ﴿يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كترتم لأنفسكم فنوقوا ما كنتم تكتزون﴾ أي يقال لهم هذا الكلام تبيكياً وتقريعاً وتهكماً، كما في قوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي هذا بذاك وهذا الذي كنتم تكتزون لأنفسكم، ولهذا يقال من أحب شيئاً وقدمه على طاعة

(١) وروي هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة وغيرهم.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم في المستدرک وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

الله عُدْبَ به، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها، وكانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحصى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرما، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، قال عبد الله بن مسعود: والذي لا إله غيره لا يكوى عبد يكثر فيمس دينار ديناراً ولا درهم درهماً، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حذته؛ وقال طاووس: بلغني أن الكثر يتحول يوم القيامة شجاعاً يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول: أنا كنت لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجهه وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار».

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَمِ فَلَا تَطْلُبُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَتِّلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

عن أبي بكرة أن النبي ﷺ خطب في حجة فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»^(١) الحديث. وعن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: «أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم»^(٢). وقال سعيد بن منصور عن ابن عباس في قوله: ﴿منها أربعة حرم﴾ قال: محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة، وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة»، وهكذا قال ههنا: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أي الأمر اليوم شرعاً كما ابتدع الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض، وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث إن المراد بقوله: «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة، وفي هذا نظر، كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء.

(١) رواه الإمام أحمد وأخرجه البخاري في التفسير بتمامه.

(٢) أخرجه ابن جرير وابن مردويه.

وقوله تعالى: ﴿منها أربعة حرم﴾ فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم وأما قوله ﷺ: «ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى مضر ليعين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة؛ وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة: ثلاثة سرد، وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل أشهر الحج شهراً وهو ذو القعدة، لأنهم يفعلون فيه عن القتال، وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتبار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً، وقوله: ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحلو بها على ما سبق في كتاب الله الأول، قال تعالى: ﴿فلا تظلموا فيه أنفسكم﴾ أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وقال ابن عباس في قوله: ﴿فلا تظلموا فيه أنفسكم﴾ قال في الشهور كلها، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حراماً وعظم حرمتن، وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم، وقال قتادة: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء، وقال: إن الله اصطفى صفائاً من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر فعظموا ما عظم الله، فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل، وقال محمد بن إسحاق: ﴿فلا تظلموا فيه أنفسكم﴾ أي لا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً كما فعل أهل الشرك، وهذا القول اختيار ابن جرير، وقوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ أي جميعكم ﴿كما يقاتلونكم كافة﴾ أي جميعاً ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾.

وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين: (أحدهما) وهو الأشهر أنه منسوخ لأنه تعالى قال: ﴿فلا تظلموا فيه أنفسكم﴾ وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً، ولو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيد بانسلاخها، ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة، كما ثبت في الصحيحين أنه خرج إلى هوازن في شوال فلما كسره واستفاد أموالهم ورجع فلهم لجأوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف، فحاصره أربعين يوماً وانصرف ولم يفتتحها، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام (القول الآخر): أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام﴾، وقال: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾، وقال: ﴿فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ الآية، وأما في قوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ كما يقاتلونكم كافة فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ويكون من باب

التبليغ والتحضيض، أي كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم وقاتلوهم بنظر ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداية منهم، كما قال تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾ الآية، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف فإنهم هم الذين ابتدأوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والتزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم ليزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً وكان ابتداءه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُؤْاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة والعصية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم، المانع لهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة ما حرم الله. قال ابن عباس: النسيء أن جنادة الكناني كان يوافي الموسم في كل عام، وكان يكنى أبا ثمامة، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال فيحل له للناس، فيحرم صفرًا عامًا، ويحرم المحرم عامًا، فذلك قول الله: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ يقول: يتركون عامًا وعامًا يحرمونه. وعن مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول أيها الناس: إني لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول، إنا قد حرمتنا المحرم وأخرنا صفر، ثم يجيء العام المقبل بعده، فيقول مثل مقالته، ويقول: إنا قد حرمتنا صفر وأخرنا المحرم، فهو قوله: ﴿ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ قال: يعني الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام، فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عامًا يحرمون عوضه صفرًا وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها، ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفر وربيع وربيع إلى آخرها فيحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ﴿ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله﴾: أي في تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة ينشئون إلى صفر أي يؤخروه، وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار» الحديث: أي إن الأمر في عدة الشهور، وتحريم ما هو محرم منها، على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي، لا كما تعتمد جهلة العرب من فصلهم تحريم بعضها بالنسبة عن بعض والله أعلم. وقال محمد بن إسحاق: كان أول من نسا الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل (القلمس)، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد، ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه

عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام، فكانت العرب إذا فرغت من حجهما اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرم رجياً وذا القعدة وذا الحجة، ويحل الحرم عاماً، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاماً ليواطيء عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله، والله أعلم^(١)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحماة القبط، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي إذا دعيت إلى الجهاد في سبيل الله ﴿أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي ما لكم فعلنتم هكذا رضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة؛ ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغب في الآخرة فقال: ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، كما قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدهم أصبعه هذه في اليم فلينظر بما ترجع»، وأشار بالسبابة^(٢). وقال الأعمش ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كراد الراكب، وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة، قال: اتوني بكفني الذي أكفني فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولي ظهره فبكى، وهو يقول: أف لك من دار إن كان كثير لك قليل، وإن كان قليل لك قصير، وإن كنا منك لني غرور. ثم تواعد تعالى من ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتناقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتناقلكم عنه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

إِلَّا تَنْضَرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَهُ نَزَّوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

(١) أخرج ابن جرير: كانوا يعملون السنة ثلاثة عشر شهراً، فيجعلون الحرم صفرأ، فيستحلون فيه المحرمات، فأنزل الله ﴿إنما النسيء...﴾ الآية.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه والإمام أحمد في المسند.

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصَرُوا﴾ أي تنصروا رسول الله فإن الله ناصر ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ أي عام الهجرة، لما هم المشركون بقتله، فخرج منهم هارباً صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر، فلقياً إلى (غار ثور) ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم سيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر رضي الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبت به ويقول: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما». كما قال الإمام أحمد عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال، فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي تأييده ونصره عليه، أي على الرسول ﷺ، وقيل: على أبي بكر، لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينته، وأيده بمجنود لم تروها: أي الملائكة وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا قال ابن عباس: يعني بكلمة الذين كفروا - الشرك، وكلمة الله هي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾. وفي الصحيحين: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي في انتقامه وانتصاره، منيع الجناح لا يضام من لاذب بابه، واحتسب بالتمسك بخطابه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المشط والمكره والعسر واليسر، فقال: ﴿انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وقال أبو طلحة: كهولاً وشباناً^(٢) ما سمع الله عذر أحد، ثم خرج إلى الشام، فقاتل حتى قتل. وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية: ﴿انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً، جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، ففتحن نفرو عنك، فأبى، فركب البحر، فات، فلم يجدوا له جزيرة يدفونه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير فدفنوه فيها. وقال مجاهد: شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين، وقال الحكم: مشاغيل وغير مشاغيل، وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: انفروا نشاطاً وغير نشاط، وقال الحسن البصري: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير. وقال الإمام الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خِفَافًا وَرِكْبَانًا، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خِفَافًا وَثِقَالًا وَرِكْبَانًا ومشاة، وهذا تفصيل في المسألة؛ وقال السدي قوله ﴿انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: غنياً وفقيراً وقويّاً وضعيفاً فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد وكان عظيماً سمياً، فشكا إليه،

(١) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) في الأشهر وروي عن ابن عباس وغيره أن الضمير يعود على (أبي بكر) لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينته قال ابن كثير وهذا لا ينافي بتجدد سكينته خاصة.

(٣) قال ابن عباس والحسن البصري وعكرمة ومقاتل والضحاك وغير واحد ﴿انفروا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي شباباً وكهولاً

وسأله أن يأذن له فأبى، فترلت يومئذ: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس، فنسخها الله فقال: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله﴾ . وقال ابن جرير عن أبي راشد الحراني قال: وافيت (المقداد بن الأسود) فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من ثوابت الصيارفة بحمص وقد فصل عنها من عظمه يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك، فقال: أنت علينا سورة البعوث: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾، وقال ابن جرير عن حبان بن زيد الشرعي قال: نفرنا مع (صفوان بن عمرو) وكان والياً على حمص، فرأيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت إليه فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك، قال: فرجع حاجبيه، فقال: يا ابن أخي استغفرنا الله خفافاً وثقالاً، إلا إنه من يحبه الله ينليه ثم يعيده الله فيقيه، وإنما يبلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعد إلا الله عز وجل. ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله وبذل المهج في مرضاته ومرضاه رسول، فقال: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، لأنكم تغرمون في النفقة قليلاً، فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ: «تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يردّه إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة»، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ الآية، ومن هذا القليل ما رواه الإمام أحمد عن أنس عن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال أجدي كارهاً، قال: «أسلم وإن كنت كارهاً»

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا مَخْرَجَنَا مَعَكَ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى موجهاً للذين تحلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا بعدما أستاذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعدار ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي قريباً أيضاً ﴿لاتبعوك﴾: أي لكانوا جاءوا معك لذلك ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾: أي المسافة إلى الشام ﴿وسيحلفون بالله﴾: أي لكم إذا رجعت إليهم ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾: أي لو لم يكن لنا أعدار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ .

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذَّابِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُولُونُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

قال عون: هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا ؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبه، فقال: ﴿عفا الله عنك لم أذنت

﴿٩﴾ ، وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء، فقال: ﴿فإذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾ الآية. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاعملوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، ولهذا قال تعالى: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ أي في إبداء الأعداء ﴿وتعلم الكاذبين﴾ يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنتكم فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال: ﴿لا يستأذنتك﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ولما ندبهم إليه بادرُوا وامثلُوا ﴿والله عليم بالمتقين﴾ إنما يستأذنتك: أي في القعود ممن لا عذر له ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، وارتابت قلوبهم ﴿أي شككت في صحة ما جنتهم به، فهم في ريبهم يترددون﴾: أي يتحبرون، يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً.

* وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عِدَّةٌ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾
لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى: ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ أي معك إلى الغزو ﴿لأعدوا له عدة﴾ أي لكانوا تأهبوا له ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أي أبغض أن يخرجوا معك قديراً ﴿فثبطهم﴾ أي أحرهم، ﴿وقيل اقعدوا مع القاعد﴾ أي قديراً، ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي لأنهم جناء مخولون ﴿ولأضعوا خلائكم يبتغونكم الفتنة﴾ أي ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحوهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد ﴿وفيكم سماعون لهم﴾: أي عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين. وقال محمد بن إسحاق: كان الذين استأذنوا فيما بلغني من ذوي الشرف منهم (عبدالله بن أبي بن سلول) و (الجد بن قيس) وكانوا أشرافاً في قومهم فثبطهم الله لعلهم بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وفيكم سماعون لهم﴾، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿والله عليم بالظالمين﴾،

(١) أخرج ابن جرير: اثنان قبلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسارى فأنزل الله: ﴿عفا الله عنك﴾ اللباب.

فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومنع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾ .

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨)

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رتمه العرب عن قوس واحدة، وحاربه يهود المدينة ومناقضوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه، فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أغر الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ .

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩)

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ﴿أِذْنَ لِي﴾ في القعود، ﴿وَلَا تَفْتِنِي﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم، قال تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا، كما قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه (للجد بن قيس): «هل لك يا جد العام في جلد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك»، فقي الجد ابن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾ (٥٠) الآية: أي إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة لتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب .

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٥١) قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥٢)

يعلم تبارك وتعالى نية ﷺ بعداوة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة، أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك، ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ أي قد احترزنا

(١) أخرجه محمد بن إسحاق عن الزهري وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد، وكان الجد بن قيس من أشرف بني سلمة .

(٢) في اللباب: أخرج ابن أبي حاتم: جعل المنافقون المتخلفون بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء، ويقولون: إنه هو =

من متابعتة من قبل هذا، ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرَحُونَ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه الثامة، فقال ﴿قُلْ﴾ أي لهم، ﴿لَنْ يَصِيْبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي نحن تحت مشيئته وقدره، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي سيدنا وملجؤنا، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ ۖ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ إِنَّا كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ۖ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، ﴿هل ترصدون بنا﴾ أي تنتظرون بنا ﴿إلا إحدى الحسينين﴾ شهادة أو ظفر بكم، ﴿ونحن نترصد بكم﴾ أي ننتظر بكم ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾ أي ننتظر بكم هذا بسبي أو بقتل، ﴿فترصدوا إنا معكم مترصدون﴾، وقوله تعالى : ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً﴾^(١) أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿لأنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أي ليس لهم قدم صحيح ولا همة في العمل، ﴿ولا ينفقون﴾ نفقة ﴿إلا وهم كارهون﴾، وقد أخبر الصادق المصدوق عليه السلام : «أن الله لا يعمل حتى تملوا» و «أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»، فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين .

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۖ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾، كقوله تعالى : ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾، وقوله : ﴿إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بها في الحياة الدنيا﴾ قال الحسن البصري : يزكاتها والنفقة منها في سبيل الله، وقال قتادة : هذا من المقدم والمؤخر تقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بها في الآخرة، واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوي الحسن، وقوله : ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي ويريد أن يميتهم - حين يميتهم - على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم، عياداً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه .

= وأصحابه ، فساءهم ذلك ، فأنزل الله : ﴿إن تصبك حسنة ...﴾ الآية .

(١) في اللباب : أخرج ابن جرير : قال الجدي بن قيس : إني رأيت لم أصبر ولكن أعينك بمالي ، فتزلت فيه : ﴿أنفقوا طوعاً أو كرهاً ...﴾ الآية

* وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

يخبر تعالى نبيه محمد ﷺ عن جزعهم وفرعهم وفرقهم واهلهم أنهم ﴿يحلِفون بالله إنهم لمنكم﴾ بمينة مؤكدة ﴿وما هم منكم﴾ أي في نفس الأمر، ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي فهو الذي حملهم على الحلف، ﴿لو يجدون ملجأ﴾ أي حصناً يتحصنون به وحرزاً يتحرزون به، ﴿أو مغارات﴾ وهي التي في الجبال ﴿أو مدخلا﴾ وهو السرب في الأرض والنفق، ﴿لولوا إليه وهم يجمحون﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم، لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة .

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى: ﴿ومنهم﴾ أي ومن المنافقين ﴿من يلزك﴾ أي يعيب عليك ﴿في﴾ قسم ﴿الصدقات﴾ إذا فرقها، ويتهكم في ذلك، وهم التهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم، ولهذا ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ أي يغضبون لأنفسهم، قال قتادة: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات، وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة، فقال: يا محمد ! والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت، فقال نبي الله ﷺ: «يلك فن ذا الذي يعدل عليك بعدي ؟»، وهذا الذي ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان عن أبي سعيد في قصة (ذي الخويصرة) لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل، فقال: «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً: «إنه يخرج من ضيضيء^(١) هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يفرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فأينا لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء»، وذكر بقية الحديث. ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله، والتوكل على الله وحده، في قوله ﴿وقالوا حسبنا الله﴾، وكذلك الرغبة إلى الله وحده، في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامثال أوامره وترك زواجه، وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره .

* إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَامِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ، ولزمهم إياه في قسم الصدقات، بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين، وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية، هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين: (أحدهما) أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة، (والثاني): أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها، وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف^(١). وقال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وإنما قدم الفقهاء ههنا على البقية لأنهم أخرج من غيرهم على المشهور، ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة: أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، وهو كما قال أحمد، قال عمر رضي الله عنه: الفقير ليس بالذي لا مال له، ولكن الفقير الأخلق الكسب، قال ابن علية: الأخلق المحارف عندنا والجمهور على خلافه، وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس، وقال قتادة: الفقير من به زمانة، والمسكين الصحيح الجسم.

ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية. فأما الفقراء فمن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي»^(٢) وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلّب فيهما البصر، فرآهما جليدين، فقال: «إن شئنا أعطيتكما ولا حظّ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»^(٣)، وأما المساكين فمن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرّة والتمرّتان» قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غني يغنيه، ولا يفتن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً»^(٤). وأما العاملون عليها فهم الجبّة والسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت عن عبد المطلب بن الحارث أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد إنما هي أوساخ الناس»^(٥). وأما المؤلفّة قلوبهم فأقسام: منهم من يعطى لبس، كما أعطى النبي ﷺ (صفوان بن أمية) من غنائم حنين، وقد كان شهدا مشركاً، كما قال الإمام أحمد عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ^(٦). ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل، مائة من الإبل، وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم». وفي الصحيحين عن أبي سعيد: أن علياً بعث إلى النبي ﷺ

(١) منهم عمر وابن عباس وحذيفة وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران وغيرهم.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد جيد قوي.

(٤) رواه الشيخان

(٥) رواه مسلم

(٦) رواه أحمد ومسلم والترمذي

بذهبية في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: «أنا لفهم»، ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد.

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد وأذل لهم رقاب العباد، وقال آخرون: بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم. وأما الرقاب فروي عن الحسن البصري ومقاتل وسعيد بن جبير أنهم المكاتبون؛ وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما، وقال ابن عباس والحسن لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب أحمد ومالك أي أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً؛ وفي الحديث: «ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والتاكي الذي يريد العفاف»^(١). وفي المسند عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار، فقال: «أعتق النسمة وفك الرقبة»، فقال: يا رسول الله أو ليس واحداً؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها»^(٢). وأما الغارمون فهم أقسام: فمنهم من تحمل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم، لما روي عن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «تصدقوا عليه»، فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك»^(٣). وأما ﴿في سبيل الله﴾ فهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان. وعند الحسن: والحج من سبيل الله وكذلك ﴿ابن السبيل﴾ وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال، لحديث أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله، وابن السبيل، أو جار فقير فيهدى لك أو يدعوك»^(٤). وقوله: ﴿فريضة من الله﴾ أي حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿والله عليم حكيم﴾: أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عبادته، ﴿حكيم﴾ فيما يقوله ويفعله ويشعره ويحكم به لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لِّكَرُّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

(٤) رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري.

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن إلا أبا داود.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه^(١) ويقولون ﴿هو أذن﴾ أي من قال له شيئاً صدقه فينا، ومن حدّثه صدقه، فإذا جثنا وحلفنا له صدقنا، قال الله تعالى: ﴿قل أذن خير لكم﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب، ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أي ويصدق المؤمنين، ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾ أي وهو حجة على الكافرين، ولهذا قال: ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ أَنْ خَرَى الْعَظِيمُ ﴿٦٧﴾

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لم شر من الحمير، قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار، قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ، فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يلتمن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدّق الصادق وكذب الكاذب، فأنزل الله الآية، وقوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله﴾ أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادّ الله عزّ وجلّ أي شاقه وحاربه وخالفه ﴿فأنّ له نار جهنم خالداً فيها﴾ أي مهاناً معذباً، و﴿ذلك الخزي العظيم﴾ أي وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنْ اللَّهَ يُخْرِجْ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٨﴾

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾، وقال في هذه الآية: ﴿قل استزروا إن الله مخرج ما تحذرون﴾ أي إن الله سيزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم، كقوله تعالى: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾، ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة الفاضحة فضحت المنافقين.

وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٩﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٧٠﴾

قال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنة، وأجبتنا عند اللقاء، فرغ ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال: ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ - إلى قوله - كانوا مجرمين ﴿وإن رجليه لتسفعان الحجارة

(١) قيل: هو عتاب بن قشير، وقيل هو نبتل بن الحارث.

وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ^(١). وقال ابن إسحاق: كان جماعة من المنافقين منهم (وديع بن ثابت) ورجل من أشجع يقال له (مخشي بن حمير) يسرون مع رسول الله ﷺ، وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أنحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأننا بكم غداً مقرنين في الجبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: «أحرك القوم فإنهم قد احترقوا فأسألم عما قالوا، فإن أنكروا قتل بلى قلم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله ﷺ يعتزلون إليه، فقال وديع بن ثابت يا رسول الله: إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي عُي عنه في هذه الآية (مخشي بن حمير) فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم الهمامة^(٢). وقال قتادة: بينما النبي ﷺ في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسرون بين يديه فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها؟ هياات هياات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال: «عليَّ هؤلاء النفر» فدعاهم فقال: «لتم كذا وكذا»، فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب. وقوله: ﴿لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي بهذا المقال الذي استنزأتم به، ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعِذْ طَائِفَةٌ﴾ أي لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم ﴿يَأْتِهِمْ كَانُوا يَجْرِمُونَ﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ^٤ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ^(٥) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ^(٦)

يقول تعالى منكر على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي عاملهم معاملة من نسيتهم، كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة، وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ما كثر فيها مخلصين هم والكفار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي كفايتهم في العذاب، ﴿وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مَنَكْرَ قُوَّةً وَأَكْثَرَ آمُولًا وَأُولَٰئِكَ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا أَصْنَعُ لِّلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِّمْتُ لَآلِئِهِ خَاضُوا^٥ وَأُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ^(٦)

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، ﴿بجلاقمهم﴾ قال الحسن: بدينهم، ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ أي في الكذب والباطل، ﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة، ﴿في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. عن ابن عباس قال: ما أشبه الليلة بالبارحة، ﴿كالذين من قبلهم﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم، والذي نفسي بيده لبتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه^(١). وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لبتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: «فن؟»، قال أبو هريرة: الخلاق الدين، ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ قالوا: يا رسول الله كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فهل الناس إلا هم؟»^(٢)

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودَ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنْتُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم﴾، أي ألم يخبروا خبر من كان قبلهم من الأمم المكذبة للرسول، ﴿قوم نوح﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبد ورسوله نوح عليه السلام، ﴿وعاد﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام، ﴿وثمود﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة، ﴿وقوم إبراهيم﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم نمرود لعنه الله، ﴿وأصحاب مدين﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابهم الرجفة وعذاب يوم الظلة، ﴿والمؤتفكات﴾ قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال ﴿والمؤتفكة أهوى﴾، والفرس أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ﴿أنتم رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل القاطعات ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي يهلكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه

(١) أخرجه ابن جرير عن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس .

(٢) قال ابن كثير: وهذا الحديث له شاهد في الصحيح .

بعضاً « وشك بين أصابعه. وفي الصحيح أيضاً: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ». وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فيما أمر وترك ما عنه زجر، ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي يعز من أطاعه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المناهقين بصفاتهم المتقدمة فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى .

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٧﴾

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ خالدين فيها ﴿أَي مَآكِنٍ فِيهَا أَبَدًا﴾، ﴿وَمَسَاكِنٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين: « جنتان من ذهب آبيتها وما فيها، وجنتان من فضة آبيتها وما فيها، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »، وقال عليه السلام: « إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألت الله فأسأله الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن »^(١). وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: « إن أهل الجنة ليتراوون الغرف في الجنة كما ترون الكواكب في السماء » أخرجه في الصحيحين. وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: « لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه »، وعند الترمذي عن علي رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها » فقام أعرابي فقال: يا رسول الله لمن هي؟ فقال: « لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام »، وعن أسامة بن زيد قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « ألا هل من مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا حفر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نصيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية »، قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال: « قولوا إن شاء الله »، فقال القوم: إن شاء الله^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم، مما هم فيه من النعيم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يدك، فيقول: هل

(١) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة

(٢) رواه ابن ماجه عن أسامة بن زيد .

رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَمْلَأُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ اللَّهِ أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة، وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: (بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾، وسيف للكفار أهل الكتاب ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾، وسيف للمنافقين ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾، وسيف للبغاة ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾، وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيف إذا أظهروا النفاق). قال ابن مسعود ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ قال: بيده فإن لم يستطع فليكنفه في وجهه، وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم، وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم. وقال الحسن وقائدة ومجاهد: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم؛ ولا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال والله أعلم. وقوله ﴿يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ قال قتادة: نزلت في (عبد الله بن أبي) وذلك أنه اقتل رجلان، جهني وأنصاري، فعلا الجهني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار ألا تنصرون أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، وقال: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾، فسمي بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة، فقال: «إنه سيأتكم إنسان فينظر إليكم - بعيني الشيطان - فإذا جاء فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل، فجاءه بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا حتى يجاوز عنهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يخلفون بالله ما قالوا﴾^(٢) الآية، وقوله: ﴿وهو بما لم ينالوا﴾ قيل أنزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ، وقيل: في (عبد الله

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عباس.

(١) رواه الشيخان ومالك عن أبي سعيد الخدري.

ابن أبي) هم بقتل رسول الله ﷺ، وقد ورد أن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية، روى الحافظ البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنت أخذاً بنظام ناقة رسول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق الناقة، حتى إذا كنا بالعقبة، فإذا أنا بالنبي ﷺ راكباً قد اعترضوه فيها، قال: فاتهم رسول الله ﷺ، وصرخ بهم، فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين، ولكننا قد عرفنا الركاب، قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا؟» قلنا: لا، قال: «أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها»، قلنا يا رسول الله أفلا نبعث إلى عشايرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم». وقوله تعالى: ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته وعين سعادته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ: «لأنصار: ألم أجدكم ضاللاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فآلفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله آمن، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، كقوله: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله﴾ الآية، ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿فإن يتوبوا بك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة﴾ أي وإن يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا: أي بالقتل والحلم والغم، والآخرة: أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾ أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، لا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً

* وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّ ءَاتٰهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوْا بِهٖ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ ﴿٧٦﴾ فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِيْ قُلُوْبِهِمْ اِلٰى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا اٰخَلَفُوْا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴿٧٧﴾ اَلَمْ يَعْلَمُوْا اَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَاَنَّ اللّٰهَ عَلِيْمُ الْغُيُوْبِ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناهم من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما وفي بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عذاباً بالله من ذلك، وقد ذكر كثير من المفسرين أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في (ثعلبة بن حاطب) الأنصاري، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً، قال، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» قال، ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ فالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت» قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً»، قال: فاتخذ غنماً، فمات كما ينمي اللود، فضابت عليه المدينة، فتنحى عنها، فزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في

جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت، ففتنحتي حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمي كما ينمي اللود، حتى ترك الجمعة، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا يا رسول الله اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره، فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة»، وأنزل الله عز وجل ثأوه: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية، ونزلت فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: «مرّا بثعلبة وبفلان - رجل من بني سليم - فخذوا صدقاتهما»، فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذا! انطلقا حتى تفردا ثم عودا إليّ، فانطلقا، وسمع بهما السلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها، قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال: بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة، فأخذها منه، ومرا على الناس، فأخذوا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أروني كتابكما، فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية! انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ، فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة»، قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي، فأنزل الله عز وجل: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ الآية. فهلك ثعلبة في خلافة عثمان^(١). وقوله تعالى: ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه﴾ الآية: أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، وقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ الآية، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى وأنه أعلم بضمائرهم، وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علام الغيوب، أي يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

وهذا أيضاً من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبتهم ولزمهم في جميع الأحوال، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل^(٢) على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مراء، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿الذين يلمزون المطوعين﴾ الآية. وقال ابن عباس: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ، وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء، وقالوا: إن

(١) أخرجه ابن جرير بتمامه وفيه أن رسول الله ﷺ لم يقبل صدقته في حياته فلما قبض ﷺ عرضها على أبي بكر فلم يقبلها ثم عرضها على عمر فلم يقبلها حتى هلك في زمن عثمان، ورواه أيضاً ابن أبي حاتم بنحوه.

(٢) أي نؤاجر أنفسنا في الحمل، وفي رواية عنده في التفسير: نتحامل، أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة.

الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع. وقال ابن إسحاق: كان من المطوعين من المؤمنين في الصدقات (عبد الرحمن ابن عوف) تصدق بأربعة آلاف درهم، و (عاصم بن عدي) أخو بني العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم بن عدي وتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء، وكان الذي تصدق بجهده (أبو عقيل) حليف بني عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة، فتضاحكوا به، وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عقيل. وقال الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً»، قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله عندي أربعة آلاف، أفقن أقرضهما ربي وأفقن لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت» وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر، فقال يا رسول الله: أصبت صاعين من تمر، صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي، قال: فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾^(١) الآية، وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً، لأن الجزاء من جنس العمل.

أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم؛ وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسباً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها؛ وقيل: بل لها مفهوم كما روي، لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «إن ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرون لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم»، وقال الشعبي: لما ثقل (عبد الله بن أبي) انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي يحتضر، فأحب أن تشهده ونصلي عليه، فانطلق معه حتى شهده، وألبسه قميصه، وصلى عليه، فقيل له: أنصلي عليه؟ فقال: «إن الله قال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾، ولأستغفرون لهم سبعين وسبعين وسبعين»^(٢)

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَكُونُوا كَثِيرًا جَرَاءَ

بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بعودهم بعد خروجه ﴿وكرهوا أن يجاهدوا﴾ معه ﴿بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا﴾ - أي بعضهم لبعض - ﴿لا تنفروا في الحر﴾، وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلماذا قالوا: ﴿لا تنفروا في الحر﴾، قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قل﴾ لهم ﴿نار جهنم﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أشد حراً﴾ مما فررت منه من الحر بل أشد حراً من النار، كما قال رسول الله ﷺ: «نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، فقال: «فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً»^(١)، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت في البحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»^(٢). وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء كالليل المظلم». وعن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿ناراً وقودها الناس والحجارة﴾، قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء كالليل لا يضيء لها»^(٣)، والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة. وقال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿كلا إنها لظى نزاعة للشوى﴾، وقال تعالى: ﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد﴾، وقال تعالى: ﴿سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾، وقال تعالى هنا: ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾^(٤) أي لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به من حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الشاعر:

كالمتجبر من الرمضاء بالنار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فليضحكوا قليلاً﴾ الآية، قال ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً، وقال الحافظ الموصلي عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتابكوا، فإن أهل النار يبيكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم، كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون، فلو أن سفناً أزعجت فيها لجرت»^(٥)

(١) رواه البخاري ومسلم ومالك عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه أحمد قال ابن كثير: إسناده صحيح

(٣) أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك .

(٤) في اللباب: أخرجه ابن جرير: خرج رسول الله ﷺ، في حر شديد، إلى تبوك، فقال رجل من بني مسلمة: لا تنفروا في الحر، فترلت: ﴿قل نار جهنم...﴾ الآية .

(٥) رواه ابن ماجه والحافظ الموصلي .

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى أمرأ لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي رذك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾، قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً ﴿فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ﴾: أي معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾، أي تعزوا لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا أَمْنَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية، فإن جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة، وقال قتادة: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي مع النساء، قال ابن جرير: وهذا لا يستقيم، لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال: فاقعدوا مع الخوالف أو الخالقات، ورجع قول ابن عباس رضي الله عنهما

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴿٨٤﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٤﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه؛ وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في (عبد الله بن أبي بن سلول) رأس المنافقين. كما قال البخاري عن نافع عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ لبصلي عليه، فقام عمر، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» وسأزيده على سبعين»، قال: إنه منافق، قال: فصلي عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾^(١). وعن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لما توفي (عبد الله بن أبي) دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله أعلى عدو الله (عبد الله بن أبي) القاتل يوم كذا وكذا وكذا - بعدد أيامه -؟ قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكرثت عليه قال: «آخر عني يا عمر، إني خيرت فاخترت، قد قيل لي: ﴿استغفر لهم﴾ الآية، لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت»، قال: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فرغ منه، قال: فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم، قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية، فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل^(٢)، وروى الإمام أحمد عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبي أتى ابنه النبي ﷺ

فقال: يا رسول الله إنك إن لم تأتني لم نزل نعيّر بهذا، فاتاه النبي ﷺ فوجده قد أدخل في حفرته، فقال: «أفلا قبل أن تدخلوه»، فأخرج من حفرته، وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه. وقال البخاري: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعدما أدخل في قبره، فأمر به فأخرج، ووضع على ركبته، ونفت عليه من ريقه، وألبسه قميصه، والله أعلم.

وقال قتادة: أرسل عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: «أهلكك حب يهود» قال: يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنّبني، ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره، فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾^(١) والآية، ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره، كما قال قتادة: كان رسول الله ﷺ إذا دعى إلى جنازة سأل عنها، فإن أثنى عليها خيراً قام فصللي عليها، وإن كان غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها»، ولم يصل عليها؛ وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليها (حذيفة بن اليمان) لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا كان يقال له: (صاحب السر) الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة، ولما نسي الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل، كما ثبت في الصحاح: «من شهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان» قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد»، وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فروى أبو داود عن عثمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيك واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل»^(٢)

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة، والله الحمد والمنة .

* وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْذَنَكَ أُولُوا الطُّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ

الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى منكرأ وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود وقالوا: ﴿ذرنا نكون مع القاعدين﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً كما قال تعالى عنهم: ﴿فإذا جاء خوف رأيهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، فإذا ذهب

(١) أخرجه ابن جرير الطبري .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه

الخوف سلقوكم بالسنة حداد ﴿٨٨﴾ أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، كما قال الشاعر
أفي السلم أعياراً: جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء الفوارك ؟

وقال تعالى: ﴿٨٩﴾ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر
المغشي عليه من الموت فأولئهم ﴿٩٠﴾، وقوله: ﴿٩١﴾ وطبع على قلوبهم ﴿٩٢﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول
في سبيل الله، ﴿٩٣﴾ فهم لا يفقهون ﴿٩٤﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم في فعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم في تجنبوه .

* لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٩٥﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩٦﴾

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين، بين ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم فقال: ﴿٩٧﴾ لكن الرسول والذين آمنوا
معه جاهدوا ﴿٩٨﴾ لبيان حالهم ومآلهم، وقوله: ﴿٩٩﴾ وأولئك لهم الخيرات ﴿١٠٠﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس
والدرجات العلى .

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، وهم من أحياء العرب
من حول المدينة، قال ابن إسحاق: وبلغني أنهم نفر من بني غفار، وهذا القول هو الأظهر^(١)، لأنه قال بعد هذا:
﴿١٠٢﴾ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴿١٠٣﴾ أي لم يأتوا فيعتذروا، وقال مجاهد: ﴿١٠٤﴾ وجاء المعذرون من الأعراب ﴿١٠٥﴾ قال:
نفر من بني غفار، جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله؛ وكذا قال الحسن وقادة: ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال:
﴿١٠٦﴾ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴿١٠٧﴾

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى
الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٨﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ
عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَعَيْنُهُمْ غُضُوفٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿١٠٩﴾ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ
وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١٠﴾

(١) روى الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿١٠١﴾ وجاء المعذرون ﴿١٠٢﴾ بالتخفيف ويقول: هم أهل العذر وقراءة الجمهور بالتشديد .

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا يفلح عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجهاد في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما؛ ولهذا بدأ به، ومنها ما هو عارض بسبب مرض في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقر لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يشطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: ﴿ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾. قال قتادة: نزلت هذه الآية في عائد ابن عمرو المزني، وروي عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، فكنت أكتب براءة، فإني لواضع القلم على أذني، إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما يتزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف يا رسول الله وأنا أعمى؟ فترلت: ﴿ليس على الضعفاء﴾ الآية. وقال ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يبتعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال لهم: «والله لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولوا وهم يبكون، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً، فلما رأى الله حرصهم على معيته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال: ﴿ليس على الضعفاء﴾ إلى قوله: ﴿فهم لا يعلمون﴾، وقال مجاهد في قوله: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ نزلت في بني مقرن من مزينة، كانوا سبعة نفر، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة، فقال: ﴿لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾. وفي حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتهم سيراً إلا وهم معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم حسبهم العذر»^(١). وعن جابر قال، قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم في الأجر حسبهم المرض»^(٢)، ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرجال: ﴿وطيع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُغَرِّضَنَّ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَنَرَضُنَّ عَنْهُمْ فَإِنْ رَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم﴾ أي لن نصدقكم ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ أي قد أعلمنا الله أحوالكم، ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيخبركم بأعمالكم

(١) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك .

(٢) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه .

خيرها وشرها ويجزيكم عليها، ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتدلين لتعرضوا عنهم، فلا توبنهم، فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ أي خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ومأواهم في آخرتهم جهنم، ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ أي من الآثام والخطايا، وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم، ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾
وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَلَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَىٰ لَهُمْ ۗ سِيدُ خِلْمِهِمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومناققين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، ﴿وأجدر﴾ أي أخرى ﴿أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾، كما قال الأعمش: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم (نهاوند) فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريني، فقال زيد: ما يريك من يدي إنها الشمال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال! فقال زيد صدق الله: ﴿الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾، وفي الحديث: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتن»^(١)، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري به، وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري. ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن، فهم أطفأ أخلاقاً من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء، وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكننا والله ما نقبل، فقال رسول الله ﷺ: «وأملك»^(٢) إن كان الله نزع منكم الرحمة؟، وقال ابن نميرة: «من قلبك الرحمة». وقوله: ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿حكيم﴾ فيما قسم بين عباده، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته، وأخبر تعالى أن منهم: ﴿من يتخذ ما ينفق﴾ أي في سبيل الله ﴿مغرمًا﴾ أي غرامة وخسارة، ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ أي ينتظر بكم الحوادث والآفات، ﴿عليهم دائرة السوء﴾ أي هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم، ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان، وقوله: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول﴾ هذا هو القسم المملوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ويتبنون بذلك

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن ابن عباس مرفوعاً

(٢) وفي البخاري أو أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة .

كسلاً مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ أي أقروا بها واعترفوا فيها بينهم وبين ربهم، ولم أعمال آخر صالحة خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين، وقد قال ابن عباس: نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا ألا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، وروى البخاري عن سمرة بن جندب قال، قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فأتني بي إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأنهم ما أنت راء، وشطر كأنهم ما أنت راء، قالوا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالوا لي هذه جنة عدن وهذا منزلك، قالوا: وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً مجاوز الله عنهم» .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾
أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكّيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في ﴿أموالهم﴾ إلى الذين اعترفوا بذنوبهم^(١). ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان خاصاً بالرسول ﷺ، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية، وقد رد عليهم أبو بكر الصديق وقائلهم حتى أدوا الزكاة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عناقاً - وفي رواية عقلاً - كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلنهم على منعه. وقوله: ﴿وصل عليهم﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم فاتاه أبي بصدقته، فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى»، وفي الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله صل علي وعلى زوجي، فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك»، وقوله: ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾، قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة: وقار، وقوله: ﴿والله سميع﴾ أي لدعائك ﴿عليم﴾ أي بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له، ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾، هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويحفظها ويحققها، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله يتقبلها يمينه فيريها لصاحبها، حتى تصير الثمرة مثل أحد، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها يمينه، فيريها لأحدكم كما يري أحدكم مهره، حتى

(١) في اللباب: أخرج ابن جرير: وجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا، فتصدق بها واستغفر لنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فأنزل الله: ﴿خذ من أموالهم﴾ الآية. وعن قتادة: أن هذه الآيات نزلت في سبعة: أربعة منهم ربطوا أنفسهم، وهم أبو لبابة، ومرداس، وأوس بن خزام، وثعلبة بن ديمة .

أن اللقمة لتكون مثل أحد»، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾

وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَسِّرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

قال مجاهد: هذا وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره، بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى المؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾، وقال تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾، وقال: ﴿وحصل ما في الصدور﴾، وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا كما قال الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان»، وقد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمهم حتى تهديهم كما هديتنا»^(١). وقال البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل: ﴿اعملوا فيسرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾، وفي الحديث الصحيح: «إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته»، قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه»^(٢)

﴿وَالْآخَرُونَ مَرْجُوفُونَ ۖ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٠٦﴾

قال ابن عباس ومجاهد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي عن التوبة، وهم (مرارة بن الربيع) و (كعب بن مالك) و (هلال بن أمية)، فعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكاً ولا نفاقاً، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فترلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجي هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ الآية، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت الآية، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك، وقوله: ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ أي هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمن يستحق العقوبة بمن يستحق العفو، ﴿حكيم﴾ في أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه

(١) أخرجه أحمد والطبراني

(٢) أخرجه أحمد عن أنس بن مالك

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدِ أُسَسِّ
عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له (أبو عامر الراهب) وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين (أبو عامر) بريقه، وبارز بالعداوة وظاهر بها، ونخرج فأراد إلى كفار مكة من مشركي قريش، بمائلتهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتنحهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم (أبو عامر) في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخطبهم واستألمهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله قد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة. وذلك لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى (هرقل) ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدمونهم وعينهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصل في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشائبة، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»، فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بنحبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم (مسجد قباء) الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما قال ابن عباس في الآية: هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعملوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قبصر ملك الروم فأتي بجنود من الروم وأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فتحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وليحلفن﴾ أي الذين بنوه، ﴿إن أردنا إلا الحسنى﴾ أي ما أردنا بينائه إلا خيراً ورفقاً

بالناس، قال تعالى: ﴿وَالله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي فيما قصصوا وفما نووا، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء، وكفراً بالله وتفرقاً بين المؤمنين، وإرساداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق لعنه الله. وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهي له ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن تقوم فيه: أي يصلي أبداً، ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من يوم بنيانه على التقوى، وهي طاعة الله وطاعة رسوله وجمعاً لكلمة المؤمنين وموتلاً للإسلام وأهله، ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسه أول قلوبهم ونزوله على بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عين له جهة القبلة والله أعلم. قال الإمام أحمد، عن عويم ابن مساعدة الأنصاري أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الشاء في الطهور في قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟» فقالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أديارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا. وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف^(١)، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى، أحدهما قال: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا النبي ﷺ فسألاه فقال: «هو مسجدي هذا». وفي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال أحدهما: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي هذا»^(٢). وقال الإمام أحمد، عن أبي سعيد عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي»^(٣).

(طريق آخر) : قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى عن أنيس بن يحيى، حدثني أبي، قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: اختلف رجلان، رجل من بني خنبرة، ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: «هو هذا المسجد»، لمسجد رسول الله ﷺ، وقال في ذلك يعني مسجد قباء. وقد قال: بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير، وقوله: ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رَجُلًا

(١) منهم ابن عباس وعروة بن الزبير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري وسعيد بن جبان وقتادة وغيرهم.

(٢) رواهما الإمام أحمد رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي.

يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين ﴿١٠٩﴾، دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتزهد عن ملابسة القاذورات، وقال الإمام أحمد: عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح، فقرأ الروم فيها فأوهم، فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا، فليحسن الوضوء»، فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها، وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿والله يحب المطهرين﴾ إن الظهور بالماء لحسن ولكمهم المطهرون من الذنوب، وقال الأعمش: التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك.

أَفَنَ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مِّنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَمَّ هَارِيَهُ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ
قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١١﴾

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، فاتمَّ بني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار، أي طرف حفيرة في نار جهنم، ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يصلح عمل المفسدين، قال جابر: رأيت المسجد الذي بنى ضراراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ، وقال ابن جريج: ذكر لنا أن رجلاً حفروا فوجدوا الدخان الذي يخرج منه، وكذا قال قتادة. وقال خلف الكوفي: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن، وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة، وقوله تعالى: ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ أي شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم كما أشرب عابدين العجل حبه، وقوله: ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ أي بموتهم، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد من السلف، ﴿والله عليم﴾ أي بأعمال خلقه، ﴿حكيم﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر

* إِنْ اللَّهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ
وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي
بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٢﴾

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم - إذ بذلوا في سبيله - بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده الطامعين له. ولهذا قال الحسن البصري

وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم، وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا والله عز وجل في عنقه بيعة وفي بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية، وقال (عبد الله بن رواحة) رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال: «اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة»، قالوا: ربح البيع لا نقبل ولا نستقبل، فترلت: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم» الآية، وقوله: «يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون» أي سواء قتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة، ولهذا جاء في الصحيحين: «تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»، وقوله: «وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن» تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله في كتبه العظيمة وهي «التوراة» المترلة على موسى، و«الإنجيل» المترل على عيسى، و«القرآن» المترل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقوله: «ومن أوفى بعهده من الله» فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله: «ومن أصدق من الله حديثاً»، «ومن أصدق من الله قبلاً»، ولهذا قال: «فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» أي فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد، ووفى هذا العهد، بالفوز العظيم والنعم المقيم.

﴿التَّائِبُونَ الْعَبَدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّكُّوعُونَ السَّائِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢)

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة، «التائبون» من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، «العابدون» أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، ومن أخصها الحمد لله، ولهذا قال: «الحامدون»، ومن أفضل الأعمال الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا، قال: «السائدون» كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: «سائحات» أي صائمات، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: «الراكعون الساجدون»، وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيمهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: «وبشر المؤمنين» لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به، والسياسة يراد بها الصيام فقد سئل النبي ﷺ عن السائحين؟ فقال: «هم الصائمون»، وهذا أصح الأقوال وأشهرها. وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، وهو ما رواه أبو داود في سننه من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة، فقال النبي ﷺ: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله». وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال ابن أسلم: هم المهاجرون، وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواطئ الجبال، والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في

صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال»^(١) ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»، وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال: القائمون بطاعة الله، وكذا قال الحسن البصري، وعنه قال: لفرائض الله، والقائمون على أمر الله.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَحْصَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَبِثَ تَبْيِّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْفَىٰ ذُو حَلِيمٍ ﴿١١٤﴾

لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: «أي عم! قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب! فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَحْصَابُ الْجَحِيمِ﴾، قال، ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢). وقال الإمام أحمد، عن ابن بريدة عن أبيه قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال: يا رسول الله ما لك؟ قال: «إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي، فدمعت عيني رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وامسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية فاشربوا في أي وعاء شئتم ولا تشربوا مسكراً».

وقال ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر، فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً، ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام إليه عمر بن الخطاب، فدعاه ثم دعانا فقال: «ما أبكاكم؟» فقلنا: بكيك لبكاكك، قال: «إن القبر الذي جلست عنده قبر أمية، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي»، ثم أورده من وجه آخر وفيه: «وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل عليّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، فأخذني ما يأخذ الولد للوالد، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة».

وقال ابن عباس في هذه الرواية: كانوا يستغفرون لهم، حتى نزلت هذه الآية فأمسكوا عن الاستغفار لأموالهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، وقال قتادة في الآية: ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله إن من آياتنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويفك العاني، ويوفي بالذم، أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النبي ﷺ: «بلى، والله إني لأستغفر

لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾، ثم عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، وقال الثوري، عن ابن عباس: مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس، فقال: فكان يبنني له أن يعيش معه ويدفنه ويدعو له بالصالح ما دام حياً، فإذا مات وكله إلى شأته، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ - إِلَى قَوْلِهِ - تَبَرُّاً مِنْهُ﴾، ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره عن علي رضي الله عنه: لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: «أذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني»، فذكر تمام الحديث. وقال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو الله، وكذا قال مجاهد والضحاك، وقوله: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَاهٍ حَلِيمٌ﴾، قال ابن مسعود: الأواه الدعاء؛ وقال ابن جرير: قال رجل: يا رسول الله ما الأواه؟ قال: «المتضرع»، وقال الثوري: سئل ابن مسعود عن الأواه، فقال: هو الرحيم أي عباد الله، وقال ابن عباس: الأواه الموقن، بلسان الحبشة. وعنه: الأواه المؤمن. وقال سعيد بن جبير والشعبي: الأواه المسبح، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأواه، وعن مجاهد: الأواه الحفيظ، الرجل يذنب الذنب سراً ثم يتوب منه سراً، ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم رحمه الله. وقال ابن جرير: إن رجلاً كان يكثر ذكر الله ويسبح، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنه أواه»، وقال أيضاً عن ابن عباس أن النبي ﷺ دفن ميتاً فقال: «رحمك الله إن كنت لأواهاً» يعني تلاء للقرآن، قال ابن جرير: وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعاء وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ قال سلام عليك سأستغفر لك ربّي إنه كان بي حفيماً، فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَاهٍ حَلِيمٌ﴾.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَسْئَلَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل، إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ الآية، قال ابن جرير: يقول تعالى: وما كان الله ليبقي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووقفكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأنهم يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه. وقال ابن أبي حاتم، عن حكيم ابن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟»، قالوا:

ما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيظ السماء، وما تلام أن تنطق، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم».

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ يَرْحِمُهُمْ رُؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في سنة مجدية وحر شديد، وعسر من الزاد والماء، عن عبد الله بن عباس قال: قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فترلنا متراً فأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، وحتى وإن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله! إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فقال: «تحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سألت السماء فأهطلت ثم سكنت، فلوؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لها جاوزت العسكر^(١)، قال ابن جرير في قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي من النفقة والظهر والزاد والماء، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي عن الحق، ويشك في دين الرسول ﷺ، ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُ يَرْحِمُهُمْ رُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

قال الإمام أحمد، عن عبيد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال: سمعت كعب ابن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أختلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط إلا في غزاة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عبر قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواقفنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر. وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة،

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وكان رسول الله ﷺ قلماً يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز، واستقبل عدواً كثيراً فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: قتل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم يتزل فيه وحى من الله عز وجل؛ وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال، وأنا إليها أصعر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فطفقت أغدو لكي أنجز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسى: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتأدى بي، حتى استمر بالناس الجدد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت: أنجز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه، فغلوت بعد ما فصلوا لأنجز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غلوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتأدى بي حتى أسرعوا وتفاطروا الغزو، فهمت أن أرتحل فالحقهم وليت أني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عنده الله عز وجل، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: « ما فعل كعب بن مالك ؟ » فقال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله برداه والنظر في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بشما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عنه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بشي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادمًا راح عني الباطل، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه. فأصبح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتدون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جثت فلما سلمت عليه تبسم تبسم الغضب، ثم قال لي: « تعال »، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: « ما خلعتك، ألم تكن قد اشتريت ظهراً ؟ » فقلت: يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك بحديث كذب ترضى به عني لبوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك بصدق تجدد عليّ فيه إني لأرجو عقيب ذلك من الله عز وجل؛ والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال، فقال رسول الله ﷺ: « أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك »، فقام إلي رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ، قال: والله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، قال: ثم قلت لهم: هل لقي معي هذا أحد ؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان، قال ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: فن هما ؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرأ لي فيها أسوة، قال: فضيت حين ذكروهما لي،

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. ثم ذكر تنمة الحديث^(١)

قال وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَعَلَى الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ۝ وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فَرَجَ بِهِ عَنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الضِّيقِ وَالْكَرْبِ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ لَيْلَةً بِأَيَّامِهَا وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ أَيَّامًا مَعَ سَعَتِهَا، فَسَدَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكُ وَالْمَذَاهِبُ، فَلَا يَهْتَدُونَ مَا يَصْنَعُونَ، فَضَبَرُوا لِأَمْرِ اللَّهِ وَاسْتَكَانُوا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَثَبَّتُوا حَتَّى فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِسَبَبِ صَدَقَتِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي تَخَلُّفِهِمْ، وَانْهَكَ عَنْ غَيْرِ عَذْرٍ، فَعَقِبُوا عَلَى ذَلِكَ هَذِهِ الْمُدَّةَ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ عَاقِبَةُ صَدَقَتِهِمْ خَيْرًا لَهُمْ وَتُوبَةً عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ۝ أَيُّ أَصْدَقُوا وَالزَّمُوا الصَّدَقَ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ وَتَنْجُوا مِنَ الْمَهَالِكِ، وَبِحُجَلٍ لَكُمْ فَرَجًا مِنْ أُمُورِكُمْ وَمَعْرَجًا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: الْكَذِبُ لَا يَصْلُحُ مِنْهُ جَدُ وَلَا هَزْلٌ، أَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ۝﴾، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنْ أُرِدْتَ أَنْ تَكُونَ مَعَ الصَّادِقِينَ فَعَلَيْكَ بِالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْكَفِّ عَنْ أَهْلِ الْمَلَّةِ .

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطَأًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورجبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر، لأنهم ﴿لا يصيبهم ظمأٌ﴾ وهو العطش ﴿ولا نصبٌ﴾ وهو التعب ﴿ولا مخمصَةٌ﴾ وهي المجاعة ﴿ولا يَطْعُونَ مَوْطَأًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي يزلوا منزلاً يرهب عدوهم، ﴿ولا ينالون﴾ منه ظفراً وغلبة عليه، ﴿إلا كتب لهم﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً، ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾، كقوله: ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ .

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

يقول تعالى ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ أي قليلاً ولا كثيراً، ﴿ولا يقطعون

(١). أخرجه الشيخان وأحمد، وله تنمة طويلة في توبة الله عز وجل عليه يرجع إليها في الصحيحين .

وادياً ﴿أي في السير إلى الأعداء﴾، ﴿إلا كتب لهم﴾، ولم يقل ههنا به لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿ليجزئهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾، وقد حصل لأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر وبصيب عظيم؛ وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة، كما روي أن رسول الله ﷺ خطب فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: عليّ مائة بغير بأحلاسها وأقتابها قال: ثم حث، فقال عثمان: عليّ مائة بغير أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم نزل مرقاة من المنبر، ثم حث، فقال عثمان بن عفان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها، «ما على عثمان ما عمل بعد هذا». وعن عبد الرحمن بن سمره قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبا في حجر النبي ﷺ، فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده، ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم» يرددها مراراً، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم﴾ الآية، ما ازداد قوم في سبيل الله بعداً من أهلهم إلا ازدادوا قرباً من الله.

* وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، عن ابن عباس في الآية ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾، يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يعني عصابة، يعني السرايا ولا يسبوا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا، وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿ليتفقوا في الدين﴾ يقول: ليعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لعلهم يحذرون﴾. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفًا، ومن الخصب ما يتفقون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجتمونا، فوجدوا من أنفسهم من ذلك تحرجًا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله عز وجل: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يعني الخبير ﴿ليتفقوا في الدين﴾ وليستمعوا إلى ما أنزل الله، ﴿وليُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم ﴿إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾، وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعداء، وكان إذا أقام وأرسل السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، وكان الرجل إذا غزا فترل بعده قرآن وتلاه نبي الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنًا فيقرئونه ويفقهونه في الدين، وهو قوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾، يقول: إذا أقام رسول الله ﷺ ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يعني ذلك أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً، ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله فسرت السرايا

وقعد معه معظم الناس . وقال عكرمة : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ ، ﴿ وما كان لأهل المدينة ﴾ الآية ، قال المنافقون : هلك أصحاب البدو والذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه ، وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً شرع في قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم لأنهم أهل الكتاب ، فبلغ تبوك ، ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال ، وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام . ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً ، فاختاره الله لما عنده ، وقام بالأمر بعده وزيره وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فأدى عن الرسول ما حملة ، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان ، وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح الله ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنف كسرى وقبصر ومن أطاعهما من العباد ، وأنفق كنوزهما في سبيل الله ، كما أخبر بذلك رسول الله ، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده ، وولي عهده الفاروق عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين ، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً ، ثم لما مات أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار ، فكسى الإسلام حلة سابعة ، وأمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها . وعلت كلمة الله وظهر دينه ، وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها ، وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم ، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً بأخيه المؤمن ، غليظاً على عدوه الكافر ، كقوله تعالى : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ﴾ ، وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ قال : « أنا الضحوك القتال » يعني أنه ضحوك في وجه وليه ، قال لهامة عدوه . وقوله : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ أي قاتلوا الكفار ، وتوكلوا على الله ، واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه ، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم ، ولم تزل الفتوحات كثيرة ، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في البلاد ، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَنُفَرُونَ ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى: ﴿ وإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾، فمن المنافقين ﴿ من يقول أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ أي يقول بعضهم لبعض، وفي الآية الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ أي زادتهم شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿ والَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾، وهذه من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضرارهم ودمارهم، كما أن سيء المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

أَوْ لَا يَرْوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَمْرٍأَ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَا مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

يقول تعالى: أولاً يرى هؤلاء المنافقون، ﴿ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾ أي يختبرون، ﴿ في كل عام مرة أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ أي لا يتوبون عن ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجمع، وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أَوْ مَرَّتَيْنِ، وقوله: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أَنَّهُمْ إِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي تلفتوا هل يراكم من أحد ثم انصرفوا أي تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى: ﴿ فَاَلَمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ • كَانَهُمْ حَمْرٌ مُّسْتَفْرَّةٌ ﴾، وقوله: ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾، كقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾، وقوله: ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يتصلون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شغل عنه ونفور منه، فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

يقول تعالى متمناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ لقد مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، وقال تعالى: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ أي منكم وبلغتكم، وقوله تعالى: ﴿ عزيز على ما عنتكم ﴾ أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه، ﴿ حريص عليكم ﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، عن عبد الله بن

مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلمها منكم مطلع، ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش والذباب»^(١). وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم، فقعده أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال: رأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم فأوردتهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى، فقال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني، فقالت طائفة: صدق والله لتتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه^(٢). وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رِؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ كقوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تولوا عما جنتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي الله كافي، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم وجميع الخلائق من السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش، مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، وقد روى أبو داود عن أبي الدرداء قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمه.



(١) أخرجه الإمام أحمد .

(٢) رواه أحمد .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّتِي تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾
 أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة .

وقال ابن عباس ﴿الر﴾ أي أنا الله أرى، وكذلك قال الضحاك وغيره، ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين، وقال الحسن: التوراة والزبور، وقال قتادة: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن، وهذا القول لا أعرف وجهه ومعناه، وقوله: ﴿أكان للناس عجباً﴾ يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار، ومن إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿أبشروا يهودنا﴾؟ وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾؟ وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجائب﴾؟ ! وقال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، قال: فأنزل الله عز وجل ﴿أكان للناس عجباً﴾ الآية، وقوله: ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ اختلفوا فيه؛ فقال ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر، وقال العوفي عنه: ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ يقول: أجراً حسناً بما قدموا^(١)، وقال مجاهد: الأعمال الصالحة، صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسيبهم، قال: ومحمد ﷺ يشفع لهم، وقال قتادة: سلف صدق عند ربهم، واختار ابن جرير قول مجاهد: إنها الأعمال الصالحة التي قدموها، كما يقال: له قدم في الإسلام، كقول حسان:

لنا القدم العليا إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع

وقول ذي الرمة: لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحسب العادي طمئت على البحر

(١) وهو قول الضحاك والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مِينٌ ﴾ أي مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً، ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مِينٌ ﴾ أي ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كآلف سنة مما تعدون ، كما سيأتي بيانه ، ثم استوى على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسفها، وهو باقوتة حمراء، وقوله: ﴿ يدبر الأمر ﴾ أي يدبر الخلائق ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ ولا يشغله شأن عن شأن، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران والفقار ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ الآية، ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ . وقوله: ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾، كقوله تعالى: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾، وقوله: ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾، وقوله: ﴿ ذلکم الله ربکم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أيها المشركون في أمرکم تعبدون مع الله إلهاً غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله ﴾ .

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾، ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى، ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾، أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل من يحموم، ﴿ هذا فلينذروه حميم وغساق ﴾ .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

يغير تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لثلاثاً يشبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتراد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾، ﴿وَقَدَرَهُ﴾ أي القمر، ﴿مَنَازِلَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابِ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام، ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾، وقوله: ﴿فَنفُصِلُ الْآيَاتِ﴾ أي نبين الحجج والأدلة، ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنْ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً كقوله تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿وَكَايُنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي العقول، وقال ههنا ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي عقاب الله وسخطه وعذابه.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنوا إليها نفوسهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ الآية، قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها، وهم غافلون عن آيات الله الكونية، فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا ياتمرون بها بأن ماؤهم يوم معادهم النار جزاء ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِلَٰهِتِهِمْ تَجْرِي مِنَ الْوَهْدِ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ ﴿١٠﴾ وَأَجْرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتلوا ما أمروا به، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم، أي بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال: يكون لهم نوراً يمشون به، وقال ابن جريج: في الآية يمثل له عمله في صورة حسنة إذا قام من قبره يبشره بكل خير، فيقول

له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِأَمْرَانِهِم﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيلزم صاحبه حتى يقذفه في النار.

وقوله تعالى: ﴿دَعَا فِيهَا رَبَّهُ لِمِثْلِ هَٰذَا قَدْ أَتَىٰهُ الْبَٰسُ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِ يَصْرِفَهُ لَوْلَا رَحْمَتُ رَبِّهِ لَكُنَّ سَاءَ لَهَٰذِهِ الْأُمَّةُ حَرَّىٰ﴾. وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴿﴾ أي هذا حال أهل الجنة، قال ابن جريج: أخبرني أنه إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾، قال: فإذا أكلوا حملوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾، وقال مقاتل: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سبحانك اللهم﴾ قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحيفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهن كلهن، وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾، وقوله: ﴿إلا قليلاً سلاماً سلاماً﴾، وقوله: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾، وقوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾ الآية، وقوله: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾، ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يلهمون السيح والتحميد كما يلهمون النفس»، وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم، فتكرر وتعاود وترداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

* وَلَوْ يُعِجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده، أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أولادهم بالشر، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلماذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأولادهم بالخير والبركة، ولهذا قال: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾ الآية: أي لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه جابر قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم»^(١)، وهذا كقوله تعالى: ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير﴾ الآية، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

(١) أخرجه البزار وأبو داود عن جابر بن عبد الله.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَبَّ كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ، مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الشَّرَّ فذو دعاء عريض﴾ أي كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه، في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب، كأنه ما كان به من ذلك شيء، ﴿مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾، ثم ذم تعالى من هذه صفة وطريقته فقال: ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فأما من رزقه الله الهداية والسداد، والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك، وفي الحديث: «عجبا للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكَ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاؤهم به من البينات، استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فانظروا كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء».

وَإِذَا تُنَادَى عَلَيْهِمْ أَيُّائَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: انت بقرآن غير هذا، أي رد هذا وجثنا بغيره من نط آخر أو بدله إلى وضع آخر، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أي ليس هذا إلي إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به، ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيتته وإرادته، والدليل على أني لست أقوله من عندي، ولا اقربته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تنتقلون علي شيئا تغمصوني به، ولهذا قال:

﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ؟ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم (أبا سفيان) قال له : هل كنتم تهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : فقلت : لا ، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق (والفضل ما شهدت به الأعداء) فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب ليكذب على الله . وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة : بعث الله فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة .

* قَنَ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى : لا أحد أظلم ولا أعنى ولا أشد إجراماً ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾ ، وتقول على الله ، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك ، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا ، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشبه حال هذا بالأنبياء ؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين الضحى وبين حنشد الظلماء ، قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس ^(١) فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، قال : فكان أول ما سمعته يقول : « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » ، ولما وفد (ضمام بن ثعلبة) على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله ﷺ فيما قاله : من رفع هذه السماء ؟ قال : « الله » ، قال : ومن نصب هذه الجبال ؟ قال : « الله » ، قال : ومن سطح هذه الأرض ؟ قال : « الله » ، قال : فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال : « اللهم نعم » ، ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ، ويحلف له رسول الله ﷺ ، فقال له : صدقت ، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص ، فقد أبقي بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه ، قال حسان بن ثابت :

لولم تكن فيه آيات مينة كانت بديته تأتيك بالخبر

وذكروا أن (عمرو بن العاص) وفد على مسيلمة ، وكان صديقاً له في الجاهلية ، وكان عمرو لم يسلم بعد ، فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو ، ماذا أنزل على صاحبكم ، يعني رسول الله ﷺ ، في هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة ، فقال ؟ وما هي ؟ فقال : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ إلى آخر السورة ، ففكر مسيلمة ساعة ، ثم قال : وأنا قد أنزل عليّ مثله ، فقال : وما هو ؟ فقال : (يا وبر ، يا وبر ، إنما أنت أذنان وصدر وساترك حفر نقر) ، كيف ترى يا عمرو ، فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك تكذب . فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه ، وحال مسيلمة لعنه

(١) يعني قومه اليهود . وأما العرب وهم الأنصار فكانوا في أشد الغبطة والسرور .

الله وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهي، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى؟ ولهذا قال تعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون﴾، وكذلك من كذب بالحق الذي جاء به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما في الحديث: «أعنى الناس على الله رجل قتل نبياً أو قتله نبي».

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَتُولا شَفَعْنَاهُ عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَدْعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنصر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض﴾ قال ابن جرير: معناه أنخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام، قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبياناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة: ﴿لهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾، وقوله: ﴿ولو لا كلمة سبقت من ربك﴾ الآية، أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه أجل الخلق إلى أجل معلوم، لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

أي ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون: كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، أو نحو ذلك، بما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾، وكقوله: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ الآية، يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أي إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة، ولهذا لما خير رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عذبوا، وبين إنظارهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبينا ﷺ إلى الجواب عما سألوا: ﴿قل إنما الغيب لله﴾ أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله في وفيكم، ولو علم منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وتثبتاً لأجابه، ولكن علم

أنهم إنما يسألون عناداً وتعتاً فتركهم فيما راہم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد لما فيهم من المكابرة كقوله تعالى: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ فقل هؤلاء لا فائدة من جوابهم لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم، ولهذا قال: ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلُنَا يَكْذِبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنَ بِيَمٍ يَبْرِجُ طَيْبَةٌ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أُجِبْتُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بَنَاءِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط، ونحو ذلك ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾، قال مجاهد استهزاء وتكذيب، ﴿قل الله أسرع مكرًا﴾ أي أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه، والكاثبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحسونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازه على التقير والعظيم، ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ أي بحفظكم ويكلؤكم بحراسته، ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم يريح طيبة وفرحوا بها﴾ أي بسرعة سيرهم رافلين، فيبئس ما كنتم كذلك إذا ﴿جاءتها﴾ أي تلك السفن ﴿ريح عاصف﴾ أي شديدة، ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ أي اغتم البحر عليهم، ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي هلكوا، ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي لا يدعون معه صنماً ولا وثناً يفرّدونه بالدعاء والابتهال، كقوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾، ﴿لئن أنجيتنا من هذه﴾ أي هذه الحال ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ أي لا نشرك بك أحداً ولنفرّدك بالعبادة كما أفرّدناك بالدعاء ههنا، قال الله تعالى: ﴿فلما أنجاهم﴾ أي من تلك الورطة، ﴿إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي كأن لم يكن من ذلك شيء، ﴿كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»، وقوله: ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحفيرة، ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ أي مصيركم ومآلكم، ﴿فننبئكم﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها، فن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَنَّهُمْ أَمَرْنَا لَيلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها، وسرعة انقضاءها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض، مما يأكل الناس من زروع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام، ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ أي زينتها القانية، ﴿ وازينت ﴾ أي حسنت بما خرج في رباهما من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿ وظن أهلها ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿ أنهم قادرون عليها ﴾ أي على جذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءت صاعقة أو ريح شديدة باردة، فأبيست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿ أتأما أمرنا ليلاً أو نهراً فجعلناها حصيداً ﴾ أي يابساً بعد الخضرة والنضارة، ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك، وقال قتادة: ﴿ كأن لم تغن ﴾ كأن لم تنعم، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن، قال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يكنوا فيها ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً، مع اغترارهم بها وتفلتها عنهم، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال: ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقبلاً ﴾، وكذا في سورة (الزمر) و (الحديد) يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا، وقوله: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها وسمّاها دار السلام، أي من الآفات والنقائص والنكبات فقال: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾.

روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: « إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: إنما مثلك ومثل أمتك كمثلكم اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسلاً يدعو الناس إلى طعامه، فنهض منهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فآله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها »^(١)

* لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

يغفر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، ﴿ الحسنى ﴾ في الدار الآخرة ﴿ هل جزاء

الإحسان إلا الإحسان؟ وقوله: ﴿وزيادة﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال ويشمل ما يعطيهم الله في الجنة من القصور والحدود والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه، النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضل ورحمته، وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم الجمهور من السلف والخلف، روى الإمام أحمد عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا؟ ويدخلنا الجنة ويخرنا من النار؟ - قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم»^(١). وعن أبي موسى الأشعري، عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً بنادي: يا أهل الجنة - بصوت يسمع أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل»^(٢). وسئل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل»، وقوله تعالى: ﴿ولا يرق وجوههم قتر﴾ أي قنام وسواد في عرصات المحشر، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من الفترة والغبرة، ﴿ولا ذلة﴾ أي هوان وصغار، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً﴾ أي نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضل ورحمته آمين

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْنُلُهَا وَهُمْ ذُلٌّ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ^٣ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك، ﴿وترهقهم﴾ أي تعزيبهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿مهطعين مقنعي رؤوسهم﴾ الآية، وقوله: ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي مانع ولا واق يقيهم العذاب، كقوله تعالى: ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾. كلا لا وزر، وقوله: ﴿كأنما أغشيت وجوههم﴾ الآية إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾، وقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة﴾. ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴿الآية﴾.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم وجماعة من الأئمة .

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه ابن جرير عن أبي بن كعب .

إِنَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكُنْ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكَ ٱلْغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُل نَفْسٌ مَّا أَسْلَفَتْ ۖ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَهُمْ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوٓا۟ يَفْتُرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ﴿٢٨﴾ ويوم نحشرهم ﴿٢٩﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر، كقوله ﴿٣٠﴾ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴿٣١﴾، ثم نقول للذين أشركوا ﴿٣٢﴾ الآية، أي الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كقوله تعالى ﴿٣٣﴾ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴿٣٤﴾، وقوله ﴿٣٥﴾ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴿٣٦﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿٣٧﴾ يومئذ يصدعون ﴿٣٨﴾ أي يصيرون صدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، ﴿٣٩﴾ مكانكم أنتم وشركاؤكم، فزيلنا بينهم ﴿٤٠﴾ أي أنهم أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم، كقوله ﴿٤١﴾ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴿٤٢﴾ الآية، وقوله ﴿٤٣﴾ إذ تيرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴿٤٤﴾، وقوله ﴿٤٥﴾ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ﴿٤٦﴾ الآية، ﴿٤٧﴾ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴿٤٨﴾ الآية، أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبيكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره وقد تركوا عبادة الحي القيوم القادر على كل شيء، العلم بكل شيء، وقد أرسل رسله أمراً بعبادته وحده لا شريك له ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿٤٩﴾ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴿٥٠﴾، وقال ﴿٥١﴾ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون؟ ﴿٥٢﴾، وقوله تعالى: ﴿٥٣﴾ هُنَالِكَ تَبْلَى كُل نَفْسٌ مَّا أَسْلَفَتْ ﴿٥٤﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر، كقوله تعالى: ﴿٥٥﴾ يوم تبلى السرائر ﴿٥٦﴾، وقال تعالى: ﴿٥٧﴾ يَبْنَى ٱلْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ مِمَّا قَدَّم وَآخَرُ ﴿٥٨﴾، وقال تعالى: ﴿٥٩﴾ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴿٦٠﴾ اقرأ كتابك ﴿٦١﴾، وقوله ﴿٦٢﴾ ورددوا إلى الله مولاهم الحق ﴿٦٣﴾ أي ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ﴿٦٤﴾ وضل عنهم ﴿٦٥﴾ أي ذهب عن المشركين، ﴿٦٦﴾ ما كانوا يفترون ﴿٦٧﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ قَدْ لَكَرَّ ٱللَّهُ رُبُّكَ ٱلْحَقُّ فَمَا ذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّى تُصَرَّفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلهيته، فقال تعالى ﴿٣٤﴾ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴿٣٥﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقرته ومشيته، فيخرج منها حباً وعنباً وقصباً وزيتوناً ونخلًا وحدائق غلباً وفاكهة وأباً ﴿٣٦﴾ إله مع الله ؟ فيقولون: الله ﴿٣٧﴾ أمن هذا الذي يرزقكم إن أسك رزقه ﴿٣٨﴾ ؟ وقوله ﴿٣٩﴾ أمن يملك السمع والأبصار ﴿٤٠﴾ أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كقوله تعالى: ﴿٤١﴾ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار ﴿٤٢﴾

الآية . وقال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَابْصَارَكُمْ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجِ الْحَيِّ مِنَ الْمِيتِ وَيَخْرِجِ الْمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أي بقدرته العظيمة ومته العسيمة ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يَدْبِرِ الْأَمْرَ ﴾ أي من يده ملكوت كل شيء ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فالملك كله العلوي والسفلي فقرون إليه خاضعون لديه ، ﴿ فَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون به ، ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ ﴾ أي أفلا تتخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم ؟ وقوله : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ﴾ الآية ، أي فهذا الذي اعترقتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم والحكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ، ﴿ فَإِذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ ؟ أي فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد ، لا شريك له ، ﴿ فَأَنَّى تَصْرَفُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه ؟ وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء ، وقوله : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده ، الذي بعث رسله بتوحيده ، فلماذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار ، كقوله : ﴿ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَبْدُوُا أَنْ يَخْلُقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوُا أَنْ يَخْلُقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٥﴾
قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ قَالُوا كَيْفَ نَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٧﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره ، وعبدوا من الأصنام والأنداد ، ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَبْدُوُا أَنْ يَخْلُقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي من بدأ خلق هذه السماوات والأرض ، ثم ينشئ ما فيها من الخلائق ، ويفرق أجرام السماوات والأرض ويبدلها بفناء ما فيها ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له ، ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل ، ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ؟ ﴾ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴿ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال ، وإنما يهدي الحياري والضلال ، ويقلب القلوب من النقي إلى الرشد الله رب العالمين ، ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ ﴾ أي أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويصير بعد العمى ، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي لعماء وبكمه ، كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي فإياكم بذهب بعقولكم ، كيف سويت بين الله وبين خلقه ، وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا ؟ وهلا أفردتم الرب جلّ جلاله بالعبادة وحده ، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة ؟ ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً ، وإنما هو ظن منهم أي توهم وتخيل ، وذلك لا يغني

عنهم شيئاً، ﴿٣٧﴾ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ تهديد لهم ووعد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٢﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعاني العزيرة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله، الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿٣٧﴾ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴿٣٨﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿٣٩﴾ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴿٤٠﴾ أي من الكتب المتقدمة ومهيئاً عليه، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وقوله: ﴿٤١﴾ وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴿٤٢﴾ أي وبيان الأحكام بياناً شافياً كافياً لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما تقدم في الحديث « فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم » أي خبر عما سلف وعما سيأتي، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه . وقوله: ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٤﴾ أي إن ادعيتم وافتريتم وشككتكم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً إن هذا من عند محمد، فمحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أتم بسورة مثله، أي من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان، وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد، فليعارضوه بنظير ما جاء، وليستعينوا بمن شاعوا، وأخبر أنهم لا يقدرُونَ على ذلك ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿٤٥﴾ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٤٦﴾ ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿٤٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿٤٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٠﴾ وكذا في سورة البقرة، وهي مدنية تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال: ﴿٥١﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴿٥٢﴾ الآية . هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن، جاءهم من الله ما لا قبل

لأحد به؛ ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام، وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأشدهم له انقياداً.

ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً». وقوله: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً، ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم السالفة، ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم، وقوله: ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ الآية، أي ومن هؤلاء الذين بعث إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك ويتنفع بما أرسلت به، ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه؟ ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كل ما يستحقه تبارك وتعالى وتقديس.

وإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آَعَمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝١١ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ ۝١٣ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١٤

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وَإِنْ كَذَّبَكَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ فَبَرِّأ مِنْهُمْ وَمِنْ عَمَلِهِمْ ﴿قُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، كقوله تعالى عن إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم النافع في القلوب والأبدان، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك كما لا تقدر على إسماع الأصم، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله، ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من الخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَخَدَّوْنَكَ إِلَّا هُزْواً﴾ الآية، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياء وأذنناً صماء، وقلوباً غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين؛ فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝١٥

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة، وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمُ﴾ الآية. كقوله: ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يَوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾، وكقوله: ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ صُحَاها﴾، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في السدار الآخرة كقوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾، وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم بعضاً، كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه، ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِّمْ حِمِيماً﴾، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، أي مصيرهم ومنقلبهم، والله يشهد على أفعالهم بعدك، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ الآية، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسوله، وكتاب أعمالها من خير وشر شاهد عليها وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة، يفصل بينهم ويقضي لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق»، فأتمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسوله صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْكَرَ عَذَابُهُ بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؕ أَلَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ يَوْمَ أَنْكَرَ عَذَابُهُ بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥١﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة لهم فيه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ أي كائنة

لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضِراً وَلَا نفعاً ﴾ الآية، أي لا أقول إلا ما علمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به، إلا أن يطلعي الله عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعي على وقتها، ولكن ﴿ لكل أمة أجل ﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة فإذا انقضى أجلهم ﴿ فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾، كقوله: ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾ الآية، ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً ﴾ ؟ أي ليلاً أو نهاراً، ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ . ثم إذا ما وقع آمنتكم به الآن وقد كنتم به تستعجلون ﴿ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴾ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ الآية، ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾، وقوله: ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ﴾ أي يوم القيامة يقال لهم هذا نبيكنا وتقريباً كقوله: ﴿ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

* وَيَسْتَبْخِرُونَكَ أَحَقُّهُ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَا فِتْنَتَ بِهِ ؕ وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى: ويستخبرونك ﴿ أحق هو ﴾ أي المعاد بعد صيرورة الأجسام تراباً ﴿ قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ أي ليس صيورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ﴿ فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾، وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ، ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾، وفي التغابن: ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يعثوا قل بلى وربي لتبعن ثم لئن لم يأتهم بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾، ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افترى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط ﴾ أي بالحق ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ .

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؕ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأن وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيى ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ؕ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ممثلاً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة

من ربكم ﴿أي زاجر عن الفواحش، ﴿وشفاء لما في الصلور﴾ أي من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس وذنس، ﴿وهدى ورحمة﴾ أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى: ﴿ونزل من القرآن ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾. وقوله: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿هو خير مما يجمعون﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة .

* قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

قال ابن عباس ومجاهد: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل، كقوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ الآيات، وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال: ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أي ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة؟ وقوله: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا، ويحتمل أن يكون المراد ﴿لذو فضل على الناس﴾ فبما أباح لهم مما خلقه من المنافع، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم، ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً .

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلاق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة، ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ الآية،

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة ؟ كما قال تعالى : ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلَبُ فِي السَّاجِدِينَ﴾ ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي إذ تأخّلون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راعون سامعون ، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى أن أولياءه ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ كما فسرهم بهم ، فكل من كان تقياً ، كان الله ولياً ف ﴿لا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما وراءهم في الدنيا . وقال عبد الله ابن مسعود : أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله ^(١) ، وقال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء » ، قيل : من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم ؟ قال : « هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم قرأ : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ^(٢) ، وقال الإمام أحمد ، عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ في قوله : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ، قال : « الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له » . وقال الإمام أحمد ، عن عبادة ابن الصامت ، أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فقال : « لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أمتي - أو قال أحد قبلك - تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » ؛ وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله : الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويشنون عليه به ، فقال رسول الله ﷺ : « تلك عاجل بشرى المؤمن » ^(٣) . وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الرؤيا الصالحة يشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ^(٤) . وقال ابن جرير ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » - قال - في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له وهي في الآخرة الجنة ^(٥) ، وقال ابن جرير ، عن أم كرز الكعبية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ذهبت النبوة وبقيت المبشرات » ؛ وقيل : المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ توعَدُونَ﴾ ، وفي حديث البراء رضي الله عنه : (أن المؤمن

(١) ورد هذا القول في حديث مرفوع رواه البزار عن ابن عباس قال ، قال رجل : يا رسول الله من أولياء الله ؟ فذكره .

(٢) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة ورواه أبو داود في سننه .

(٣) رواه مسلم وأخرجه أحمد عن أبي ذر .

(٤) أخرجه ابن جرير ، وقد روي عن جمع من الصحابة والتابعين تفسير (البشرى) بالرؤيا الصالحة .

(٥) وروي موقوفاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : . الرؤيا الحسنة بشرى من الله وهي من المبشرات .

إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان، فتخرج من فيه كما تسيل القطرة من فم السقاء). وأما بشرهم في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشْرَاكِهِمْ يَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْبَيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم وتوكل عليه فإن العزة لله جميعاً أي جميعاً له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم، ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئاً، لا ضراً ولا نفعاً ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرفهم وكذبهم وإفكهم، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي يستريحون فيه من نصبهم وكلامهم وحركاتهم، ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم، ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أُنْثَوْنَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى منكرأ على من ادعى أن له ﴿وَلَدًا﴾ سبحانه هو الغني ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿أُنْثَوْنَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأً أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً، ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين من زعم أن له ولداً، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة،

فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَأَنبَأَهُمْ إِذَا اسْتَدْرَجَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ مَتَعَهُمْ قَلِيلًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ يَضْرِبُهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٧٠﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَذِيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴿٧٢﴾ أَي الْمَوْجِعَ الْمُؤَلَّمِ ﴿٧٣﴾ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٤﴾ أَي بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَاقْتِرَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْإِفْكَ وَالزُّورِ .

* وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كِبُرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِمَا يَنْتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧٥﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أُنْجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَآمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَيْهِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿وَآتَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أَي أَخْبَرَهُمْ وَأَقْصَصَ عَلَيْهِمْ، أَي عَلَى كُفَارِ مَكَّةَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَكَ وَيُخَالِفُونَكَ، ﴿نَبَأُ نُوحٍ﴾ أَي خَبَرَهُ مَعَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ كَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَدَمَرَهُم بِالْغُرُقِ أَجْمَعِينَ عَنْ آخِرِهِمْ لِيَحْذَرُوا هَؤُلَاءِ أَنْ يَصِيبَهُمُ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ مَا أَصَابَ أَوَّلَئِكَ، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كِبُرٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَي عَظُمَ عَلَيْكُمْ ﴿مَقَامِي﴾ أَي فِيكُمْ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ، ﴿وَتَذَكِيرِي﴾ أَيَاكُمْ ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أَي بِحُجُجِهِ وَبِرَاهِينِهِ، ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أَي فَإِنِّي لَا أَبَالِي وَلَا أَكْفُ عَنْكُمْ سِوَاهُ عَظُمَ عَلَيْكُمْ أَوْ لَا، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أَي فَاجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ صَنَمٍ وَوَتْنٍ، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أَي وَلَا تَجْعَلُوا أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ مُتَلَبِّسًا، بَلْ أَفْضَلُوا حَالَكُمْ مَعِيَ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنْكُمْ مُحَقَّقُونَ فَأَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونَ، أَي وَلَا تُؤَخِّرُونِي سَاعَةً وَاحِدَةً، أَي مَهْمَا قَدَرْتُمْ فافْعَلُوا، فَإِنِّي لَا أَبَالِيكُمْ وَلَا أَخَافُ مِنْكُمْ لِأَنْكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، كَمَا قَالَ هُودٌ لِقَوْمِهِ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الْآيَةُ . وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَي كَذَّبْتُمْ وَأَدْبَرْتُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَي لَمْ أَطْلُبْ مِنْكُمْ عَلَى نَصِيحَتِي أَيَاكُمْ شَيْئًا، ﴿إِن أُنْجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَآمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَي وَأَنَا مِمِّثِلٌ مَا أَمَرْتُ بِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَتَعَدَّدَتْ مَنَاهِلُهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أَي عَلَى دِينِهِ ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وَهِيَ السَّفِينَةُ، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَيْهِ﴾ أَي فِي الْأَرْضِ، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أَي فَانْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ أَنْجَيْنَا الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلَكْنَا الْمُكَذِّبِينَ .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِحَاءِ وَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى

قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات﴾ أي بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به، ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾، أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسولهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كقوله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ الآية، وقوله: ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؛ والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة وأنجي من آمن بهم وذلك من بعد نوح عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وقال الله تعالى: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ الآية، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيّد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾

يقول تعالى: ﴿ثم بعثنا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿موسى وهارون إلى فرعون وملئه﴾ أي قومه، ﴿بآياتنا﴾ أي حججنا وبراهيننا، ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له وكانوا قوماً مجرمين، ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين﴾، كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وهتان، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا﴾ الآية، ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى﴾ منكرأ عليهم ﴿أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون﴾ قالوا أجتنا لتلفتنا﴾ أي تشنينا ﴿عما وجدنا عليه آبائنا﴾ أي الدين الذي كانوا عليه، ﴿وتكون لكم﴾ أي لك وهارون ﴿الكبرياء﴾ أي العظمة والرياسة ﴿في الأرض وما نحن لكم بمؤمنين﴾. وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز، لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر: أن ربي على فراشه بمنزلة الولد ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، ولم تزل الآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهز العقول ويدهش الأبواب، ﴿وما تأتيتهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ وصمم فرعون وملأه قبحهم الله على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين، ﴿فقطعت دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُنَبِّئُنِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

ذكر تعالى قصة السحرة مع موسى عليه السلام، وما أراده فرعون من معارضة الحق المبين، ﴿٧٩﴾ وقال فرعون اتنوبي بكل ساحر عليم . فلما جاء السحرة قال لم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴿٨٠﴾ ، وإنما قال لم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿٧٩﴾ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ﴿٨٠﴾ ، فأراد موسى أن تكون البداية منهم ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم، ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاعوا بسحر عظيم، ﴿٨١﴾ فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴿٨١﴾ ، فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿٨٢﴾ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله أن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴿٨٢﴾ .

فَأَمَّا مَنْ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات، والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم الشباب على وجل وخوف منه ومن ملته أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون لعنه الله كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة يخاف رعيته منه خوفاً شديداً. قال ابن عباس: الذرية التي آمنت لموسى من غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير «منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه»، وعنه: ﴿٨٣﴾ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴿٨٣﴾ يقول: من بني إسرائيل، وقال مجاهد في قوله: ﴿٨٣﴾ إلا ذرية من قومه ﴿٨٣﴾ هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آبائهم، واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل، لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين، وفي هذا نظر، لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب، وأنهم من بني إسرائيل، والمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبه المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، ﴿٨٣﴾ قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴿٨٣﴾ ، وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ﴿٨٣﴾ على خوف من فرعون وملئهم ﴿٨٣﴾ أي وأشرف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان، وما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى :

وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْقُومُ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَلَعَلَّيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا

لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ أي فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿أليس الله بكاف عبده﴾، ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل، كقوله تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾، وقد امثال بنو إسرائيل ذلك فقالوا: ﴿على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ أي لا تظفرهم وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك، هكذا روي عن أبي الضحى، وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا بنا. وعن مجاهد: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، وقوله: ﴿ونجنا برحمتك﴾ أي خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿من القوم الكافرين﴾ أي الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمننا بك وتوكلنا عليك .

* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

يذكر تعالى سبب انجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوءا، أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾، فقال ابن عباس: أمروا أن يتخذوها مساجد، وقال الثوري، عن إبراهيم: كانوا خائفين فأمرُوا أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استمعوا بالصبر والصلاة﴾، وفي الحديث: (كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى) ^(١)، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾، أي بالثواب والنصر القريب، وقال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال، قالت بنو إسرائيل عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ *

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلماً وعلو وتكبراً وعتواً، قال موسى: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة﴾

أي من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴿أَي لِيَفْتَنَنَّ﴾ بما أعطيتهم من شئت من خلقك؛ وليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتناك بهم ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾، قال ابن عباس: أي أهلكها، وقال الضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة، وقوله ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملكه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا ينجيهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾، ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي آمن عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَجِيبْتُ دَعْوَتَكَ﴾، قال أبو العالية وعكرمة: دعا موسى وأمن هارون، أي قد أجبتكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، ﴿فَاسْتَجِبْنَا﴾ أي كما أجبت دعوتكما فاستجبنا على أمري، قال ابن عباس: فاستجبنا فامضيا لأمرى وهي الاستقامة، قال ابن جريج: يقولون إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وقيل: أربعين يوماً.

وَجَلَّوْنَا بِنِيِّ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَالْفَنِّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُجِيبُكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر وهم فيها قبل ستائة ألف مقاتل سوى الذرية، اشتد حتى فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم، فلحقهم وقت شروق الشمس، ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، أي كيف المخلص مما نحن فيه؟ فقال: ﴿كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، فكان كل فرق كالطود العظيم، وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف، فلما رأى ذلك هاله، وأحجم وهاب وهم بالرجوع، وهيئات ولات حين مناص، فاقترحوا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقهم، لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهم أولم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكت الأمواج فوق فرعون، وغشيتهم سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فأمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾، ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي أهدأ الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي في الأرض، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَتَمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله، ذلك من أسرار الغيب التي أعلم

الله بها رسوله ﷺ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل - قال، قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال^(١) البحر فدفسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة^(٢)»

وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنجِيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لَنَا خَلْفَكَ آيَةٌ﴾، قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنجِيكَ﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿بِيَدِنَا﴾، قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقوله: ﴿لَتَكُونَ لَنَا خَلْفَكَ آيَةٌ﴾ أي لتكون لبي إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء، ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما قال ابن عباس: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «وأنتم أحق بموسى منهم فصوموه»^(٣).

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْأَأَ صَدَقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية، وقوله: ﴿مَبْأَأَ صَدَقٍ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده، استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكاملها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، وقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآيات، ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالين إلى بلاد بيت المقدس، وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالة، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدها مع (يوشع بن نون) ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم انتزعها الصحابة رضي الله عنهم من يد النصارى، وكان فتح بيت المقدس على يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً، وقوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد ورد في الحديث: أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على

(١) حال البحر: طينه الأسود.

(٢) ورواه الترمذي وابن أبي حاتم وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) رواه البخاري عن ابن عباس.

اثنين وسبعين فرقة، وستتفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثمان وسبعون في النار . قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي »^(١) ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ رَبِّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أي يفصل بينهم ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَةِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٤﴾

قال قتادة : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا أشك ولا أسأل » ، وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكعب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجْلُونَهُ مَكْرُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ الآية ، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم ، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴿ أي لا يؤمنون إيماناً ينفعهم ، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها ، ولهذا لما دعا موسى على فرعون وملكه قال : ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ .

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَبِيزَةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٥﴾

يقول تعالى : فهلا كانت قرية آمنت بكلمها من الأمم السالفة بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم ، كقوله تعالى : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ . وفي الحديث الصحيح : « عرض عليّ الأنبياء فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس ، والنبي يمر معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد » ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ، ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرة سدت الخافقين ، والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكلمها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس ، وهم (أهل نينوى) وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم ، بعد ما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له ، واستكانوا ، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم ، فعندها رحمهم الله ، وكشف عنهم العذاب وأخروا : كما قال تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ . وقال قتادة في تفسير

(١) رواه الحاكم بهذا اللفظ وهو في السنن والمسانيد .

هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، إلا قوم يونس لما قلدوا نبيهم، وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجزوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله الصديق من قلوبهم، والتوبة والتندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى: ﴿ولو شاء ربك﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾، وقال تعالى: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿أفأنت تكره الناس﴾ أي تلزمهم وتلجنهم، ﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي ليس ذلك عليك ولا إليك ﴿ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء﴾، ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾، ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس﴾ وهو الخبال والفضلال ﴿على الذين لا يعقلون﴾ أي حجج الله وأدلتها، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل.

قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في آلائه، وما خلق الله في السموات والأرض من الآيات الباهرة لنفوس الألباب، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرع والأزهار وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخرٌ مدللٌ للسالكين، بتسخير التقدير لا إله إلا هو رب العالمين، وقوله: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ أي: وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية، والرسول بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كقوله: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ الآية، وقوله: ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾، أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسولهم، ﴿قل فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا، أي ونهلك المكذبين بالرسول، كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين حقاً أوجب الله تعالى على نفسه الكريمة، كقوله: ﴿كتب ربكم على نفسه

الرحمة ﴿١٠٤﴾ ، وكما جاء في الصحيحين: « إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي سبقت غضبي » .

قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلٰكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي تَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾ وَأَن أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْك بَحِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إليّ ، فأنا لا أعبد الذين تعبّدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذي يتوفّاكم كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ، فإن كانت أهنتكم التي تدعون من دون الله حقاً فأنا لا أعبدُها ، فادعوها فلتضرنني فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له ، وأمرت أن أكون من المؤمنين ، وقوله: ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ ، أي أخلص العبادة لله وحده حنيفاً أي منحرفاً عن الشرك ، ولهذا قال: ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ ، وهو معطوف على قوله: ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ ، وقوله: ﴿ وإن يمسك الله بضرب الآيَةِ ، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده ، روى الحافظ بن عساكر ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » وقوله: ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أي لمن تاب إليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه .

قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَٱنْهٰتَدِىْ فَمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَلَمَّا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٩﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخٰكِمِينَ ﴿١١٠﴾

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس ، أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ، فن هتدى به واتبعه فإنما يعود نفعه على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ، ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى ، وقوله: ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر ﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك ، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿ حتى يحكم الله ﴾ أي يفتح بينك وبينهم ، ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته .

(١١) سُورَةُ هُودٍ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ مِائَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كَتَبْتُ أَحَكَّتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق، وأما قوله : ﴿ أَحَكَّتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَلَتْ ﴾ أي هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها فالقرآن كامل صورة ومعنى، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير، وقوله : ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخير بعواقب الأمور ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي أنزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، وقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال : « يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبّحكم ألسنهم مصدق ؟ » فقالوا : ما جربنا عليك كذباً، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد »، وقوله : ﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ ﴾ أي وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك : ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ﴾ أي في الدنيا، ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أي في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقولهِ : ﴿ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ الآية، وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك »، عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾، قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا، بقيت له عشر حسنات، وإن لم

يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده على أعشاره^(١). وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾، هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي معادكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلق يوم القيامة، وهذا مقام ترهيب كما أن الأول مقام ترغيب.

* أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا الساء بفروجهم وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية، وفي لفظ آخر له: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفضوا إلى الساء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى الساء، فترل ذلك فيهم،^(٢) قال البخاري: ﴿يستغشون﴾ يغطون رؤوسهم، وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله وعمل السيئات، أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند مناهمهم في ظلمة الليل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر، وما أحسن ما قال (زهري بن أبي سلمى) في معلقته المشهورة

فلا تكنن الله ما في قلوبكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ شتى عنه صدره وغطى رأسه فأنزل الله ذلك، وعود الضمير إلى الله أولى، لقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

* وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧﴾

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها وأنه يعلم مستقرها، أي يعلم أين انتهى سيرها في الأرض وأين تأوي إليه من وكرها وهو مستودعها، عن ابن عباس: ﴿ويعلم مستقرها﴾ أي حيث تأوي ﴿ومستودعها﴾ حيث تموت، وعن مجاهد: ﴿مستقرها﴾ في الرحم ﴿ومستودعها﴾ في الصلب، فجميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله كقوله: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾، وقوله: ﴿ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري .

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴿٨﴾ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٩﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما روى الإمام أحمد، عن عمران بن حصين قال، قال رسول الله ﷺ: «أقبلوا البشرى يا بني نعيم»، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، قال: «أقبلوا البشرى يا أهل اليمن»، قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء»، قال، فأتاني آت فقال: يا عمران انحلت ناقتك من عقالها، قال: فخرجت في إثرها، فلا أدري ما كان بعدي^(١)، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»، قال مجاهد: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ قبل أن يخلق شيئاً، وقال قتادة: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ يبينكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السماوات والأرض، وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه، وعن سعيد بن جبير: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي خلق السماوات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ولم يخلق ذلك عبثاً، كقوله: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً﴾، وقال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾. ففعل الله الملك الحق، وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليعتبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل أكثر عملاً، بل ﴿أحسن عملاً﴾، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ، ففتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل، وقوله: ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت﴾ الآية، يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيعذبهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البدأة، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، وقولهم: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي يقولون كفراً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما نقول، وقوله: ﴿ولئن أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ الآية، يقول تعالى: ولئن أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ وَالْمُؤَاخَذَةَ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ وَأَمَدٍ مَحْصُورٍ، وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن

(١) قال ابن كثير: وهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة، فمنها قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر، فقال: كان الله ولم يكن شيء قبله، وفي رواية غيره، وفي رواية منه كان عرشه على الماء.

تكذيباً واستعجالاً ﴿ ما يحبه ﴾ أي يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيّد؛ والأمة تستعمل القرآن في معان متعددة، فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية : ﴿ إلى أمة معدودة ﴾، وقوله في يوسف : ﴿ واذكر بعد أمة ﴾، وتستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾، وتستعمل في الملة والدين كقول : المشركين : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ ، وتستعمل في الجماعة كقوله : ﴿ وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾، وتستعمل في الفرقة والطائفة كقوله تعالى : ﴿ ومن قوم موسى أمة يهلون بالحق وبه يعدلون ﴾ .

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ تَزَعَّتْهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَبِعُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

يغير تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له بأس وقنوط بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيراً ولم يرج بعد ذلك فرجاً ، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿ ليقولن ذهب السيئات عني ﴾ أي يقول ما ينالني بعد هذا ضم ولا سوء، ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ أي فرح بما في يده بطر فخور على غيره، قال الله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ أي على الشدائد والمكاره، ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي في الرخاء والعافية، ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ أي بما يصيبهم من الضراء ﴿ وأجر كبير ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث : « والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها، وفي الصحيحين : « والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴿١٢﴾ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ فَلَا تَسْتَجِيبُوا لَهُمْ قَالُوا لَوْ عَلِمْنَا أَنَّ مَا أَتَيْنَا مِنْ لَدُنِ اللَّهِ لَإِلهَ إِلَّا هُوَ قَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلَبُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم في قوله : ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ ، فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه وأرشدته إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره، ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء اللبل

وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا﴾ أي لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير ولك أسوة باخوانك من الرسل قبلك فإنهم كَذَّبُوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل، ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله، لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي فإن لم يأتوا بما دعوتهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وأمره ونبيه ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قال ابن عباس: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون فقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة لا يعملها إلا التماس الدنيا، أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله الذي كان يعملها وهو في الآخرة من الخاسرين، وقال أنس والحسن: نزلت في اليهود والنصارى، وقال مجاهد: نزلت في أهل الرياء، وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤَتْهُ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ .

أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَالْنَارُ مَوْعِدُهُ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى، التي فطر عليها عباده، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية. وفي الصحيحين: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) الحديث. وفي صحيح مسلم: (يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحلت لهم. وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً). فالؤمن باق على هذه الفطرة، وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة، المحتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا

قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ إنه جبريل عليه السلام، وعن علي والحسن وقتادة: هو محمد ﷺ، وكلاهما قريب في المعنى، لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبي ﷺ وبلغه النبي إلى أمته، ثم قال تعالى: ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿إماماً ورحمة﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوة يقتلون بها ورحمة من الله بهم، فمن آمن به حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك يؤمنون به﴾، ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه، ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض، مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿لأنذرکم به ومن بلغ﴾، ﴿فالنار موعده﴾ كما ورد في الصحيح (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار)^(١)، وقال سعيد بن جبیر: كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت تصديقه في القرآن، فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار»، فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ حتى وجدت هذه الآية: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾، قال: من الملل كلها، وقوله: ﴿فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك﴾ الآية، أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾، وقال تعالى: ﴿ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾، وقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾، كقوله تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، وقوله: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَا يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَاجِرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق، كما ورد عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يذني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول:

(١) أخرجه مسلم عن أبي موسى الأشعري .

﴿الْأَشْهَادَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(١٠) الآية. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يردون الناس عن اتباع الحق، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي ويريدون أن يكون طريقهم ﴿عِوَجًا﴾ غير معتدلة، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي جاحلون بها مكذبون بوقوعها، ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي بل كانوا تحت قهره وغلته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم، ولكن ﴿يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ولهذا قال تعالى: ﴿يَضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾، الآية، أي يضاعف عليهم العذاب، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يفترون عنهم من عذابها، كما قال تعالى: ﴿كَلِمَاتٍ خُتِبَتْ لِزَانِهِمْ سَعِيرًا﴾، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي ذهب عنهم، ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام فلم نجد عنهم شيئاً بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، وقال الخليل لقومه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِيُكْفَرَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ الَّذِي كُفِّرْتُمْ وَكُلٌّ يَجْرُمُ إِلَى جَهَنَّمَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، ﴿وَمَا أَوَّاكُمُ النَّارُ وَمَالَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرتهم ودمارهم، ولهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾، يخبر تعالى عن مآلهم بأنهم أخسر الناس في الآخرة، لأنهم اعتاضوا عن نعم الجنان بحميم آن، وعن الحور العين بطعام من غسيل، وعن القصور العالية بالهاوية، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الْخَاسِرُونَ.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاخْتَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتعلة على الغرف العاليات، والقطوف الدانيات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ولا يبصقون ولا يتمخضون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون، ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي الذين وصفهم أولاً بالشقاء، والمؤمنين بالسعادة، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به، ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾، وأما المؤمن

ففتن ذكي، بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ أفلا تعتبرون فنفرون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾، وكقوله: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِرَأْيِهِ وَمَا نَرَىٰ لَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إني لكم نذير مبين﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾، وقوله: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ أي إن استمررت على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً، ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾، والملأ هم (السادة والكبراء) من الكافرين منهم ﴿ما نراك إلا بشراً مثلاً﴾، أي لست بملك ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أرادوا أن يبادوا بكابلاً والحكمة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك، ولهذا قالوا: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرادوا أن يبادوا برأي﴾ أي في أول بادئ ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾، يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق لما دخلتم في دينكم هذا، ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة. هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأتونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء. والغالب على الأشراف والكبراء مخالفة الحق، كما قال تعالى: ﴿قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾، ولما سأل هرقل ملك الروم أباسفيان: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل^(١)، وقولهم: بادئ الرأي ليس بمذمة ولا عيب، لأن الحق إذا وضع لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلي واضح، وفي الحديث: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير (أي بكر)، فإنه لم يتلعم»^(٢) أي ما تردّد ولا تروى، لأنه رأى أمراً عظيماً واضحاً فبادر إليه وسارع، وقوله: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾، هم لا يرون ذلك لأنهم عمي عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون، وفي الآخرة هم الأخسرون.

* قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا

وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح على قومه في ذلك: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، ﴿فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتلا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتهم إلى تكذيبها ورددها ﴿أَنْزَلْ مَكُوهَا﴾ أي نضبكم بقبولها وأنتم لها كارهون .

وَيَقُولُونَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِيْنِي أَرْسَلَكُمْ قَوْمًا يَجهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُونَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول لقومه: ولا أسألكم على نصحي ﴿مَالًا﴾ أجرة أخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل ، ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ .

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ إِنِّي يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده، ولا يسألكم على ذلك أجراً، ثم هو يدعو الشريف والوضيع، فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خازن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحقروهم وتزدرونهم، إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾، فإن كانوا مؤمنين، فلهم جزاء الحسن .

قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نعمة الله وعذابه - والبلاء موكل بالمنطق - قالوا: ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالتنا﴾ أي حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك، ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ أي من النعمة والعذاب ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به ، ﴿إن كنت من الصادقين﴾ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴿أي إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء﴾، ﴿ولا ينفعكم نصحي﴾ أي أردت أن أنصح لكم إن كان الله

يريد أن يغويكم ﴿أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذارني إياكم ونصحي﴾ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴿أي اغواءكم ودماركم﴾ هو ربكم وإليه ترجعون ﴿أي هو مالك أزمة الأمور، المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجوز، له الخلق وله الأمر وهو المبدئ المعيد.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرَىٰ مِمَّا تَحْمِلُونَ ﴿٣٥﴾

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكدا لها مقرر لها، يقول تعالى لمحمد ﷺ أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون اقرى هذا وافعله من عنده، ﴿قل إن افترته فعلي إجرامي﴾ أي قائم ذلك علي، ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ أي ليس ذلك مفتعلا ولا مفترى، لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح، لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾، ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم، ﴿وأصنع الفلك﴾ يعني السفينة، ﴿بأعيننا﴾ أي بمرأى منا، ﴿ووحينا﴾ أي تعلينا لك ما تصنعه، ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أيهم مغرقون. قال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين، وعن الحسن: طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة، وقيل غير ذلك، قالوا: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع، فالسفل للذواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطير، وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقوله تعالى: ﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ أي يهزأون به ويكذبون بما يتوعدهم به من العرق، ﴿قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم﴾ الآية. وعيد شديد وتهديد أكيد، ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ أي يهينه في الدنيا، ﴿ويحل عليه عذاب مقيم﴾ أي دائم مستمر أبداً.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام، إذا جاء أمر الله من المطر المتهان، الذي لا يقلع ولا يفر، كما

قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ ۖ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ ، وأما قوله: ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾ ، فعن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تنور، حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار صارت تنور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف، فحينئذ أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة ﴿من كل زوجين اثنين﴾ من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى، وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقربته، ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ منهم ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه (يام) الذي انزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله، وقوله: ﴿وَمَن آمَنَ﴾ أي من قومك، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً، وقيل كانوا عشرة، والله أعلم.

* وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرَكَبٌ مِّمَّنَّا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصْمُنِي مِّنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام للذين أمر بحملهم معه في السفينة أنه قال: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها. قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور، عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما روى الطبراني، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ - الآية - ﴿بسم الله مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا﴾ إن ربي لغفور رحيم» ، وقوله: ﴿إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم كقوله: ﴿إِنْ رَبِّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، وقوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبق جميع الأرض، حتى طغت على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل بثمانين ميلاً، وهذه السفينة جارية على وجه الماء بإذن الله وكفه وعنايته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۖ لَنَجْعَلَنَّ لَكُمْ تَذَكُّرًا وَتَعْبًا ۖ أَدْنَىٰ أَعْيُنِي﴾ ، وقال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِّمَن كَانَ كُفْرًا﴾ ، وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ الآية، هذا هو الابن الرابع واسمه يام^(١) وكان كافراً، فدعا أبوه أن يؤمن ويركب معهم، ولا يفرق مثل ما يفرق الكافرون، قال ساوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴿اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عليه السلام ﴿لَا عَصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي ليس شيء

(١) وقيل اسمه كنعان، وهو الهالك، وأما الناجي من ولد آدم فهو (سام، وحام، ويافت).

يعصم اليوم من أمر الله، وقيل إن ﴿عاصم﴾ بمعنى (معصوم) كما يقال طاعم وكاسر، بمعنى مطعوم ومكسو ﴿وحال بينهما الموج فكان من المفرقين﴾ .

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ مَاءَكَ وَيَسْمَاةَ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تفلح عن المطر ﴿وغِيضَ الْمَاءِ﴾، أي شرع في النقص، ﴿وقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديار، ﴿واستوت﴾ السفينة بمن فيها ﴿على الجودي﴾، قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة أرسى عليه سفينة نوح عليه السلام، وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها وأبقى الله السفينة على الجودي عبرة وآية، حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكمن سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً، وقال الضحاك: الجودي جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو الطور، وقال كعب الأحبار: إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودي، وقال قتادة وغيره: ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوماً، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من الحرم، وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير، وأنهم صاموا يومهم ذلك، والله أعلم، وقوله: ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أي هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية، وقد روى ابن جرير عن عائشة زوج النبي ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي» .

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْتَوِخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخٰٓلِفِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخٰٓسِرِينَ ﴿٤٧﴾

هذا سؤال استعلام من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق: ﴿قال رب إن ابني من أهلي﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين، ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ أي الذين وعدت إنجاءهم لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالفرق، لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام، قال ابن عباس: هو ابنة غير أنه خالفه في العمل والنية، وقال عكرمة: إنه عمل عملاً غير صالح، ويروى أن رسول الله ﷺ قرأ بذلك .

قِيلَ لِنُوحٍ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّا سِنْعُهُمْ فَمِمَّنْ مَعَهُمْ فَمِنْهُمْ مَنَّا عَذَابُ الْإِيمِ ﴿٤٨﴾

قال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء، وانسدت بناييع الأرض وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وقبل يا أرض ابلعي ماءك﴾ الآية، فجعل الماء ينقص ويغض ويدبر، وكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال، وظهر البر، وكشف نوح غطاء الفلك ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركاتٍ عليك وعلى أمم ممن معك﴾ الآية.

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ هذه القصة وأشباهها ﴿من أنباء الغيب﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحياً إليك على وجهها كأنك شاهدتها ﴿نوحياً إليك﴾ أي نعلمك بها وحياً منا إليك، ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك فإننا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾ الآية، ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾.

وإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مَفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِن أُجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَحْرُومِينَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿إلى عاد أخاهم هوداً﴾ أمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره، ﴿أفلا تعقلون﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجره، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة وبالعودة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه، ولهذا قال: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ وفي الحديث: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب».

قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَاكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴿٥٦﴾ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

يعبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: ﴿ما جئتنا بيينة﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه، ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ أي بمجرد قولك اتركوهم تتركهم ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ بمصدقين، ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ يقولون ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك، بسبب نهيك عن عبادتها وعييك لها، ﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه﴾، يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿فاكيدوني جميعاً﴾ أي أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي طرفه عين. وقوله: ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ أي تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يبور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم، وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام، التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده، الذي ما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ۚ إِلَيْكُمْ وَسَخِّلْتُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ أَلَا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

يقول لهم هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها، ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾ يعبدونه وحده ولا يشركون به ولا يسالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم، ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعاله، ﴿ولما جاء أمرنا﴾ وهو الريح العقيم أهلكتهم الله عن آخرهم ونجى هوداً وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه، ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم﴾ كفروا بها وعصوا رسل الله وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، فترل كفرهم مترلة من كفر بجميع الرسل ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فلهذا اتبعوا في هذه الدنيا لعنة كلما ذكروا، وينادي عليهم يوم القيامة

على رؤوس الأشهاد ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ الآية، قال السدي: ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه.

* وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۖ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾

يقول تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿إلى﴾ ثمود ﴿فهم﴾ الذين كانوا يسكنون مداخل الحجر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم ﴿أخاهم﴾ صالحاً ﴿فأمرهم﴾ بعبادة الله وحده، ولهذا قال: ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي ابتداء خلقكم منها خلق منها أبائكم آدم، ﴿واستعمركم فيها﴾ أي جعلكم عمارة تعمرونها وتستغلونها، ﴿فاستغفروه﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيها تستقبلونه، ﴿إن ربي قريب مجيب﴾، كما قال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ الآية.

قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم: ﴿قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا﴾ أي كنا نرجوك قبل أن تقول ما قلت ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾، وما كان عليه أسلافنا، ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾ أي شك كثير، ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان، ﴿وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته﴾، وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتوني ﴿غير تحسير﴾ أي خسارة.

وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۖ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٦٧﴾ كَانُوا يَغْنَوْنَ فِيهَا ۖ أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هاهنا وبالله التوفيق.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَالَتْ إِنَّا جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ بَنِي إِلَهِي ٱلْأُفَىٰ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخٌ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحِمَ ٱللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا﴾ وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى، قيل تبشره بإسحاق، وقيل بهلاك قوم لوط، ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿ولما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط﴾، ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ أي عليكم، قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به لأن الرفع يدل على الثبوت والندام ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ أي ذهب سريعاً، فأتاهم بالضيافة وهو عجل فتى البقر، ﴿حنيد﴾ مشوي على الرضف وهي الحجارة المحمأة، هذا معنى ما روي عن ابن عباس وقتادة وغير واحد، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون﴾ وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة، وقوله: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ ينكرهم، ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ وذلك أن الملائكة لاهمة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه، فلهم رأى حالهم معرضين عما جاء به فارغين عنه بالكلية، فعند ذلك نكرهم ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم أجلمهم ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ فذبحه ثم شواه في الرضف وأتاهم به فقعده معهم، وقامت سارة تخدمهم، فذلك حين يقول ﴿وامرأته قائمة﴾^(١) وهو جالس، فلما قربه إليهم ﴿قال ألا تأكلون﴾ قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بشئ، قال: فإن لهذا ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله وتحملونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذ ربه خليلاً ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾، يقول فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة، وقالت سارة: عجباً لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا؟! ﴿قالوا لا تحف﴾ أي قالوا لا تحف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم وعنادهم، قال ابن عباس: ﴿فضحكت﴾ أي حاضت، وقول وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق، فخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها ﴿فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾ أي يولد لها يكون له ولد وعقب ونسل، فإن يعقوب ولد إسحاق، ومن هنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو (إسماعيل) وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم

(١) امرأة إبراهيم: هي سارة، والغلام الذي بشرت به - كما ذكره السهيلي - هو إسحاق، قال: ولم تلد سارة لإبراهيم غيره، وأما إسماعيل فهو بكره من هاجر القبطية.

بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال وأصححه وأبينه والله الحمد، ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ الآية، حكى قولها في هذه الآية كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فإنها ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز﴾، وفي الذاريات ﴿فأقبل امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعلنهن عند التعجب، ﴿قالوا أنتعجين من أمر الله﴾ أي قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله فإنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً فإن الله على ما يشاء قدير، ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود ممدد في صفاته وذاته.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتْلُمُ بَرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أقهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: رأيتم أن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لتنجينه وأهله إلا امرأته﴾ الآية، فسكت عنهم واطمأنت نفسه،^(١) وقوله: ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ مدح لإبراهيم بهذ الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها. وقوله تعالى: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك﴾ الآية، أي أنه قد نفذ فيهم القضاء وحق عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هُنَا لَاءَ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

يخبر تعالى عن قدوم الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً عليه السلام، وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاءً من الله - وله الحكمة والحجة البالغة - فساءه شأنهم وضائق نفسه بسببهم، وخشي أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء، ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾، قال ابن عباس: شديد بلاؤه، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك. وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض

له فتضيّفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمرض لهم بأن ينصرفوا عنه: ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال قتادة: وقد كانوا أمروا أن لا يهلكهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك، قال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار، ولقوا بنت لوط تستقي، فقالوا: يا جارية هل من منزل؟ فقالت: مكانكم حتى آتيكم وفرقت عليهم من قومها فأتت أباهما، فقالت: يا أبتاه أدرك فتيتاً على باب المدينة ما رأيته وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فقالوا: خل عنا فلنضيف الرجال، فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إليه، وقوله: ﴿يهرعون إليه﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك، وقوله: ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ أي لم يزل هذا من سجيبتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال، وقوله: ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ يرشدهم إلى نساءهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾، ﴿قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ قال مجاهد: لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبي أبو أمته، وكذا روي عن قتادة وغير واحد. وقوله: ﴿فاتقوا الله ولا تحزنوا في ضيفي﴾ أي اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نساءكم، ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ أي فيه خير، يقبل ما أمره به ويترك ما أنهاه عنه، ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهين، ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي ليس لنا غرض إلا في الذكور وأنت تعلم ذلك، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ قال السدي: ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ إنما نريد الرجال.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكَ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يَفْطَحْ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِن مَّوْعَدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لو أن لي بكم قوة﴾ الآية، أي لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فابعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه»، فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه، ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يتبع أدبارهم، أي يكون ساقية لأهله، ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهم ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة، وقوله: ﴿ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾، ذكروا أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة التفت وقالت: واقوماه، فجاءها حجر من السماء فقتلها، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له لأنه قال لهم أهلكهم الساعة، فقالوا: ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح يقرب﴾؟ هذا وقوم لوط وقوف على

الباب وعكوف، قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعلونه ويتهدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم، فرجموا وهم لا يتلون الطريق؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُكِّرُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَهِيَ الْآيَةُ﴾.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ سَافِلِهَا وَأَمَطرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى: ﴿فلما جاء أمرنا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جعلنا عليها﴾ وهي سدوم ﴿سافِلِهَا﴾، كقوله: ﴿ففشاها ما غشى﴾، ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ أي حجارة من طين، قاله ابن عباس وغيره. وقد قاله في الآية الأخرى: ﴿حجارة من طين﴾ أي مستحجرة قوية شديدة، وقال بعضهم: مشوية، وقال البخاري: ﴿سجيل﴾: الشديد الكبير، سجيل وسجين اللام والنون اختان، وقوله: ﴿منضود﴾ قال بعضهم: منضودة في السماء أي معدة لذلك. وقال آخرون: ﴿منضود﴾ أي يتبع بعضهم بعضاً في نزولها عليهم، وقوله: ﴿مسومة﴾ أي معلمة كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه، فينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث، إذ جاءه حجر من السماء فسمط عليه من بين الناس قدمه، فتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم، فلم يبق منهم أحد، وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سرهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم كفأها؛ وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن، ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها. وقال قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودمدم بعضها على بعض، فجعل عليها سافِلِهَا، ثم أتبعها حجارة من سجيل، قال تعالى: ﴿جعلنا عليها سافِلِهَا وَأَمَطرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾. وقال السدي: لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقطع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكلهم ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله: ﴿والمؤتفة أهوى﴾، ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿وأمطرنا عليهم﴾ أي في القرى حجارة من سجيل، وقوله: ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ أي وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه.

* وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُومَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَتَّقُوا الْمِثَالَةَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانِي حِينَئِذٍ بَعِيدٌ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد أرسلنا إلى مدين﴾ وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان، بلاداً تعرف بهم يقال لها (مدين)، فأرسل الله إليهم شعبياً وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: ﴿أخاهم شعبياً﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، ﴿إني أراكم بخير﴾ أي في معيشتكم ورزقكم، وإني أخاف أن تسلبوا ما أتم فيه باتهاكم محارم الله، ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي في الدار الآخرة.

وَيَقَوْمٌ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

نهام أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن، ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق، وقوله: ﴿بقية الله خير لكم﴾، قال ابن عباس: رزق الله خير لكم، وقال الحسن: رزق الله خير لكم من بخسكم الناس، وقال الربيع: وصية الله خير لكم، وقال مجاهد: طاعة الله، وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال ابن جرير: أي ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس، قلت: ويشبه قوله تعالى: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ الآية، وقوله: ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي بوقب ولا حفيظ، أي افعلوا ذلك لله عز وجل، لا تفعلوا ليراكم الناس بل لله عز وجل.

قَالُوا يَشْعِبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

يقولون له على سبيل التهكم - قبهم الله - ﴿أصلاتك﴾ أي قراءتك^(١)، ﴿تأمرك أن نترك ما يعبد آبائنا﴾ أي الأوثان والأصنام، ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ فترك التطفيف عن قولك، وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد، قال الحسن في الآية: أي والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آبائهم، وقال الثوري في قوله: ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾؟ يعنون الزكاة، ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد؟﴾ يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبهم الله ولعنهم وقد فعل.

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِّنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفُكَ إِلَيَّ مَا أَنْهَكَ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

يقول لهم أرأيتم يا قوم ﴿إن كنت على بينة من ربي﴾ أي على بصيرة فيما أدعو إليه، ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين، قال الثوري: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم، وقال قتادة: لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه، ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾ أي فيما أمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي، ﴿وما توفيقي﴾ في إصابة الحق فيما أريده ﴿إلا بالله عليه توكلت﴾ في جميع أموري ﴿وبإله أنيب﴾ أي أرجع، قاله مجاهد. روى الإمام أحمد عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن الأنصاري قال: سمعت أبا حميد أو أبا أسيد يقول عنه ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه»^(١). ومعناه والله أعلم: مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾، قال أبو سليمان الضبي: كانت نجينا كتب (عمر بن عبد العزيز) فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح ﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

وَيَقَوْمٌ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

يقول لهم: ﴿ويا قوم لا يجرمكم شقائي﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النعمة والعذاب، وقال قتادة: ﴿ويا قوم لا يجرمكم شقائي﴾ يقول: لا يحملنكم فراقي، وقال السدي: عداوتي، على أن تبادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم، ولما أحاط الناس بعثمان بن عفان أشرف عليهم من داره فقال: ﴿يا قوم لا يجرمكم شقائي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح﴾، يا قوم لا تقتلوني، إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا، وشبك بين أصابعه^(٢)، وقوله: ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ قيل: المراد في الزمان، قال قتادة: يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران، ﴿واستغفروا ربكم﴾ من سالف الذنوب، ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيها تستقبلونه من الأعمال السيئة ﴿إن ربي رحيم ودود﴾ لمن تاب.

قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضِعْفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظَهْرِيْ إِنَّ رَبِّيْ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

يقولون: ﴿يا شعيب ما نفقه﴾ ما نفهم ﴿كثيراً﴾ من قولك، ﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾^(١)، قال السدي: أنت واحد، وقال أبو روق: يعنون ذليلاً، لأن عشيرتك ليسوا على دينك، ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ أي قومك ﴿لرجمناك﴾ قيل: بالحجارة، وقيل: لسبيناك، ﴿وما أنت علينا بغزيز﴾ أي ليس عندنا لك معزة، ﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾، يقول: أتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى أن تتألموا بنبئه بمساءة وقد اتخذتم جانب الله ﴿وراءكم ظهرياً﴾ أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه، ﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم عليها.

* وَيَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۖ أَلَا بُعْدًا لِّلْمَدِينِ ۚ كَمَا بَعْدَتْ نَمُودُ ﴿٩٥﴾

لما ينسب نبي الله شعيب من استجابته له قال: يا قوم ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي طريقتكم، وهذا تهديد شديد ﴿إني عامل﴾ على طريقي، ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب﴾، أي مني ومنكم، ﴿وارتقبوا﴾ أي انتظروا، ﴿إني معكم رقيب﴾، قال الله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾، وقوله: ﴿جاثمين﴾ أي هالدين لا حراك بهم. وذكر هنا أنه أنهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء ﴿عذاب يوم الظلة﴾، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، وقوله: ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿ألا بعداً للمدين كما بعدت نمود﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وكانوا عرباً مثلهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبَشَّ الْأَوْرَدَ الْمُرُودُ ﴿٩٨﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَشَسُّ الْأَرْقَدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغي، ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد؛ وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار، وبشس الورد المورود﴾، وكذلك شأن المتبعين يكونون موفرين في

(١) روي عن سعيد بن جبير والثوري أنها قالوا: كان شعيب ضريير البصر.

العذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ضَعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية، أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِشَرِّ الرُّفْدِ الْمَرْفُودِ﴾. قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان، وقال ابن عباس: لعنة الدنيا والآخرة^(١)، وهو كقوله: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ قَاتَلُوا هُنَا وَمَاتُوا هُنَا وَمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، قال: ﴿ذلك من أنباء القرى﴾ أي أخبارهم، ﴿نقصه عليك منها قائمٌ وحصيدٌ﴾ أي عامر، ﴿وحصيدٌ﴾ أي هالك، ﴿وما ظلمناهم﴾ أي إذ أهلكناهم ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، ﴿فما أغت عنهم آفاتهم﴾ أي أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿من دون الله من شيء﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكهم، ﴿وما زادوهم غير تنبيي﴾. قال مجاهد وقتادة: أي غير تحسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة.

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسولنا كذلك نفعل بأشباههم، ﴿إن أخذه أليم شديد﴾. وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ ﷻ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ الآية.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴿١٠٣﴾ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٤﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَنُفِثَ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين وإيجائنا المؤمنين ﴿آية﴾ أي عظة واعتباراً على صلح موعودنا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبَّهُمْ لِنُلْكَنَ الظَّالِمِينَ﴾ الآية. وقوله: ﴿ذلك يوم تجموع له الناس﴾ أي أولهم وآخرهم، كقوله: ﴿وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً﴾، ﴿وذلك يوم مشهود﴾ أي عظم تحضره الملائكة، ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وقوله: ﴿وما تؤخره إلا لأجل معدود﴾ أي ما تؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة

(١) وكذا قال الضحاك وقتادة.

الله في وجود أناس ملعودين من ذرية آدم، ضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة، ولهذا قال: ﴿وما تؤخره إلا لأجل ملعود﴾ أي لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينقص منها، ﴿يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ أي يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله، كقوله: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾، وفي الصحيحين في حديث الشفاعة: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم»، وقوله: ﴿فإنهم شقي وسعيد﴾ أي فن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد، كما قال: ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾، ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال:

قَامَا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى: ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾، قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، أي تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ قال ابن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم، دوام السماوات والأرض، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، يعنون بذلك كله أبداً، فخطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السماوات والأرض الجنس، لأنه لا بد في عالم الآخرة من سماوات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾، ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ قال: يقول سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض، وعن ابن عباس قال: لكل جنة سماء وأرض، وقال ابن أسلم: ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماء، وقوله: ﴿إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾، كقوله: ﴿النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾، وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة نقل كثير منها ابن جرير رحمه الله، واختار أن الاستثناء عائد على (العصاة) من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر ﴿لا إله إلا الله﴾، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً، وقال السدي: هي منسوخة بقوله: ﴿خالدين فيها أبداً﴾.

* وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٌ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى: ﴿وأما الذين سعدوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ففي الجنة﴾ أي فأواهم الجنة، ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكنين فيها أبداً، ﴿ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيها هم فيه من

النعم ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، وعقَّب ذلك بقوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ أي غير مقطوع^(١)، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء، بل حتم له بالذوام وعدم الانقطاع، ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾، كقوله: ﴿لا يستل عما يفعل وهم يسألون﴾، وهنا طيَّب القلوب وثبَّت المقصود بقوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾. وقد جاء في الصحيحين: «يوتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»، وفي الصحيح أيضاً: «يقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً».

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءُ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيحُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ۝ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكُنِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۝ وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيُوقِنَهُمْ رَبِّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝

يقول تعالى: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ المشركون إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء، قال سفيان الثوري، عن ابن عباس: ﴿وإننا لموقفهم نصيهم غير منقوص﴾، قال: ما وعدوا من خير أو شر، وقال ابن أسلم: لموقفهم من العذاب نصيهم غير منقوص، ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فن مؤمن به ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغيظك تكذيبهم لك، وقوله تعالى: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لفضي بينهم﴾. قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لفضي الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾، ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم فقال: ﴿وإن كلاً لما ليوقنهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير﴾ أي عليم بأعمالهم جميعاً، جليلها وحقيقها صغيرها وكبيرها، وقوله: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ قال ابن عباس: هو الركون إلى الشرك، وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم، وقال ابن جرير عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا، وهذا القول حسن، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم، ﴿فتمسك النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝

(١) قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد.

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات واللباس على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد، وينهى عن الطغيان وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا ينحى عليه شيء.

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ لَهُمْ الْأَقْبَالُ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

قال ابن عباس: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ يعني الصبح والمغرب، وقال الحسن: هي الصبح والعصر، وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى، ﴿وزلفاً من الليل﴾ يعني صلاة العشاء^(١)، وقال مجاهد والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، والله أعلم. وقوله: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحد استحلقتني فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له»، وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان: أنه توضأ لم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول يتوضأ وقال: «من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر». وقال البخاري، عن ابن مسعود، أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم»^(٢).

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه» قال، قلنا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً حراماً فينفق منه فيأرك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»، وروى الإمام أبو جعفر بن جرير عن أبي اليسر (كعب بن عمرو

(١) وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري ورواه مسلم وأحمد وأصحاب السنن إلا أبا داود.

الأنصاري) قال: أتتني امرأة تبتاع مني بدرهم تمرأ، فقلت: إن في البيت تمرأ أجود من هذا، فدخلت فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت عمر فسألته فقال: اتق الله واستر على نفسك، ولا تجربن أحداً، فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أخلفت رجلاً غارياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟» حتى ظننت أني من أهل النار، حتى تمت أني أسلمت ساعتئذ، فأطرق رسول الله ﷺ ساعة، فنزل جبريل، فقال: أبو اليسر: فجئت فقرأت علي رسول الله ﷺ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَىٰ مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرُوا لِلَّذَكِرِينَ﴾ فقال إنسان: يا رسول الله أله خاصة أم للناس عامة؟ قال: «لناس عامة». وعن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن»^(١)، وفي رواية عنه قال، قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها»، قال، قلت: يا رسول الله أمن الحسنات (لا إله إلا الله)؟ قال: «هي أفضل الحسنات» رواه أحمد.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكَ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّنَ الْمُجْبِنِينَ أَنِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»، وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب، ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحة نقمته وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَٰئِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم، قال عكرمة: مختلفين في الهدى، وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي إلا من

رحم ربك ﴿١﴾ أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازره، ففاز بسعادة الدنيا والآخرة، لأنهم الفرقة الناجية، وقال عطاء: ﴿٢﴾ ولا يزالون مختلفين ﴿٣﴾ يعني اليهود والنصارى والمجوس ﴿٤﴾ إلا من رحم ربك ﴿٥﴾ يعني الحنيفية، وقال قتادة: أهل رحمة الله: أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبداهم، وأهل معصيته أهل الفرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبداهم. وقوله: ﴿٦﴾ ولذلك خلقهم ﴿٧﴾، قال الحسن البصري: وللأختلاف خلقهم. وقال ابن عباس: خلقهم فريقين كقوله: ﴿٨﴾ ففهم شقي وسعيد ﴿٩﴾، وعن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿١٠﴾ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴿١١﴾، وقيل: بل المراد وللرحمة وللأختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿١٢﴾ ولا يزالون مختلفين ﴿١٣﴾، قال: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿١٤﴾ إلا من رحم ربك ﴿١٥﴾، فمن رحم ربك غير مختلف، فقل له لذلك خلقهم، قال: خلق هؤلاء الجنة، وخلق هؤلاء النار، وخلق هؤلاء لعذابه، وقال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿١٦﴾ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴿١٧﴾ قال: فريق في الجنة وفريق في السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير، وقوله: ﴿١٨﴾ ونمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿١٩﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقرره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين (الجن والإنس) وله الحجة البالغة والحكمة التامة، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطتهم، وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك من أشياء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: ﴿٢٠﴾ هل من مزيد ﴿٢١﴾ حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول: قط قط وعزتك » .

﴿٢٢﴾ وَكَلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئُ بِهِءَ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أمهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين، كل هذا مما ﴿٢٤﴾ ثبت به فؤادك ﴿٢٥﴾ أي قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة، وقوله: ﴿٢٦﴾ وجاءك في هذه الحق ﴿٢٧﴾ أي في هذه السورة، قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وعن الحسن وقتادة: في هذه الدنيا، والصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق ونبا صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

﴿١٢١﴾ وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢٣﴾

يقول تعالى أمر أرسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي على طريقته ومنهجكم، ﴿إنا عاملون﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا، ﴿وانتظروا إنا منتظرون﴾ أي ﴿فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

﴿١٢٤﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَعَبْدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٥﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السماوات والأرض وأنه إليه المرجع والمسآب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه. فإنه كاف من توكل عليه وأنانب إليه، وقوله: ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد بل هو علم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين .



(١٢) سُورَةُ يُونُسَ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الْإِخْوَةُ عَشِيرَةُ وَمَا شَأْنُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقوله ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي الذي يفسح عن الأشياء المبهمة ويشرحها ويبينها ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون﴾، وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو (رمضان) فكل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾، فأرادوا القصص فلم على أحسن القصص، ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتلة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ، قال: ففضب، وقال: «أمتوكون فيها يا ابن الخطاب؟» والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو يباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني». وعن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال، فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله ابن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضي بنا لله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا. قال: فسري عن النبي ﷺ، وقال: «والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللت، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»^(١)

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت .

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف ، إذ قال لأبيه - وأبوه هو يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - كما قال رسول الله ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم »^(١) ، وعن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فعن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فخيركم في الجاهلية خيركم في الإسلام إذا فقهوا »^(٢) . وقال ابن عباس : رؤيا الأنبياء وحي ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه^(٣) ، ولما رآها يوسف قصها على أبيه يعقوب ، فقال له أبوه : وهذا أمر مشئت يجمعه الله من بعد .

* قَالَ يٰ بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً ، بحيث يخزون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً ، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته ، فيحسدونه على ذلك ، فيغنون له الغوائل حسداً منهم له ، ولهذا قال له : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها ، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به ، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتلف عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره » ، وفي الحديث الآخر : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت »^(٤) ومن هذا يؤخذ الأمر بكتان النعمة حتى توجد وتظهر ، كما ورد في حديث : « استعينوا على قضاء الحوائج بكتانها ، فإن كل ذي نعمة محسود » .

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف : إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقادة والثوري وعبد الرحمن بن أسلم وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة على الأشهر .

(٤) رواه أحمد وأحمد وبعض أصحاب السنن عن معاوية بن جعدة القشيري .

والقمر ساجدة لك ﴿ كذلك يجتبيك ربك ﴾ أي يختارك ويصطفيك لنبوته، ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ قال مجاهد: يعني تعبیر الرؤيا، ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ أي يارسالك والإيحاء إليك، ولهذا قال: ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم ﴾ وهو الخليل، ﴿ وإسحق ﴾ ولده وهو الذبيح في قول، وليس بالرجيح ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته .

* لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلسَّالِئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطَ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته ﴿ آيات ﴾ أي عبرة ومواعظ ﴿ للسائلين ﴾ عن ذلك، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه، ﴿ إذ قالوا ليوסף وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ أي حلفوا فيما يظنون والله ليوסף وأخوه، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿ أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ﴾ أي جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؟ ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ يعنون في تقديمهما علينا، ومحبة إياهما أكثر منا، وأعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك؛ ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾، وهذا فيه احتمال، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم والله أعلم، ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ﴾ يقولون: هذا الذي يراحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو أن تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه وتحملوا أنتم بأبيكم، ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾، فاضمروا التوبة قبل الذنب ﴿ قال قاتل منهم ﴾، قال قتادة: وكان أكبرهم واسمه روبيل، وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا، وقال مجاهد: هو شمعون ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ أي لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله، لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكن له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه، وإشارته عليهم بأن يلقوه ﴿ في غيابة الجب ﴾ وهو أسفله، قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس، ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ أي المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله، ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي إن كنتم عازمين على ما تقولون، قال محمد بن إسحاق: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، وليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيه على كبر سنه

ورقة عظمه، مع مكانه من الله ممن أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً .

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ ﴿١٢﴾

لما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير (روبييل) جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ما بالك ﴿ لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ ؟ وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له، ﴿ أرسله معنا ﴾ أي ابنته معنا ﴿ غدا نرتع ونلعب ﴾، وقرأ بعضهم بالياء، ﴿ يرتع ويلعب ﴾، قال ابن عباس: يسمى وينشط، ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أهلك .

قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا نَلَّخَسْرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لابنه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: ﴿ إنني ليحزني أن تذهبوا به ﴾ أي يشق عليّ مفارقتهم مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لقرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة، والكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾، يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فم هذه الكلمة وجعلوها عندهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراحنة ﴿ لنن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة، إنا إذا هالكون عاجزون .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، ﴿ واجتمعوا أن يجعلوه في غيبة الجب ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهورونه له إكراماً له وبسطاً وشرحاً لصدره وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له، فذكر السدي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه، وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب^(١) الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فسقط في الماء، فغمره، فصعد إلى صخرة تكون

(١) قال قتادة: هي بئر بيت المقدس، وقال أبو زيد: بحيرة طبرية، وروي أنه أقام في الجب ثلاثة أيام .

في وسطه فقام فوقها، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته، وإنزاله اليسر في حال العسر، إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيباً لقلبه، وتثبيتاً له: إنك لا تحزن بما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: بإيحاء الله إليه، وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يشعرون بك.

وَجَاءَ آبَاؤُهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا بَنَاتَنَا إِنَّا زُهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَأكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ويكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿إِنَّا زُهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي ترامي، ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فأكله الذئب﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه، وقوله: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تهمني في ذلك لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب؟ فأنت معذور في تكذيبك لنا، لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا، ﴿وجامعوا على قميصه بدم كذب﴾ أي مكنوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالأوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عملوا إلى سخله^(١)، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرجوه، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾، أي فساو صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ أي على ما تذكرون من الكذب والمحال، قال ابن عباس: ﴿وجامعوا على قميصه بدم كذب﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص، وقال مجاهد: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه، وقد روي مرفوعاً عن (حبان بن أبي حبله) قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فصبر جميل﴾ فقال: صبر لا شكوى فيه. وقال الثوري: ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تتركي نفسك، وذكر البخاري ههنا حديث عائشة في الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَآلَهُ عِلْمٌ﴾

يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام في الحب حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الحب وحيداً فريداً، فكث عليه السلام في البئر ثلاثة أيام، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة، فترلوا قريباً من تلك البئر وأرسلوا واردهم، وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ أي يا بشراي، ﴿وأسرؤه بضاعة﴾ أي وأسره الواردون من بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركهم فيه إذا علموا خبره^(١)، وقال ابن عباس: ﴿وأسرؤه بضاعة﴾: يعني إخوة يوسف أسروا شأنه، وكنتمو أن يكون أخصاهم، وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع، فذكره إخوته لوارد القوم، فنأى أصحابه: ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ يباع، فباعه إخوته؛ وقوله: ﴿والله علم بما يعملون﴾ أي علم بما يفعله إخوة يوسف ومشروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾، وقوله: ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل، قاله مجاهد وعكرمة، والبخس: هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فلا يخاف نجساً ولا رهقاً﴾ أي اعتاض عنه إخوته بثمن قليل، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين، أي ليس لهم رغبة فيه بل لو سئلوه بلا شيء لأجابوا، والضمير في قوله: ﴿وشروه﴾ عائد على إخوة يوسف^(٢)، وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة؛ والأول أقوى، لأن قوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسرؤه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿شروه﴾ إنما هو لإخوته، وقوله: ﴿دراهم معدودة﴾ عن ابن مسعود رضي الله عنه: باعوه بعشرين درهماً، وقال عكرمة: أربعون درهماً، وقال الضحاك في قوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ ذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومترته عند الله عز وجل.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَآئِلُ يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ۚ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى بالطافه بيوسف عليه السلام، أنه قبض له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها، عن ابن عباس: وكان اسمه (قطفير) وكان على خزائن مصر، وكان

(١) قاله مجاهد والسدي وابن جرير وهذا أحد الأقوال في الآية.

(٢) وهو رأي ابن عباس ومجاهد والضحاك.

الملك يومئذ (الريان بن الوليد) رجل من العماليق، قال : واسم امرأته (راعيل)، وقال غيره: اسمها (زليخا)، وقال عبد الله بن مسعود: أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ﴾، والمرأة التي قالت لآبيها: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ الآية، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. يقول تعالى: ﴿ كَمَا أَنْقَذْنَا يَوْسُفَ مِنْ إِخْوَتِهِ ﴾ كذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴿ يعني بلاد مصر ﴾ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴿ قال مجاهد والسدي هو تعبیر الرؤيا ﴾، والله غالب على أمره ﴿ أي إذا أراد شيئاً فلا يرد، ولا يمانع، ولا يخالف بل هو الغالب لما سواه، قال سعيد بن جبیر : أي فعال لما يشاء، وقوله: ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول: لا يدرون حكمته في خلقه وتلقفه وفعله لما يريد. وقوله: ﴿ وَلَا يَبْلُغْ ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿ أَشَدَّهُ ﴾ أي استكمل عقله وتم خلقه، ﴿ أَتَيْنَاهُ حَكَمًا وَعِلْمًا ﴾ يعني النبوة، حباه بها بين أولئك الأقسام، ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي إنه كان محسناً في عمله عاملاً بطاعة الله تعالى، وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة، وعن ابن عباس: بضع وثلاثون، وقال الضحاك: عشرون، وقال الحسن: أربعون سنة، وقيل غير ذلك^(١)، والله أعلم.

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها بإكرامه، فراودته عن نفسه أي حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبت حباً شديداً لجمالها وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها ﴿ وقالت هيت لك ﴾، فامتنع من ذلك أشد الامتناع ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾، وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير، أي إن بعلك ربي أحسن مثواي أي منزلي، وأحسن إليّ فلا أقابله بالفاحشة في أهله، ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾، وقد اختلف القراء في قوله: ﴿ هيت لك ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الباء وفتح التاء، قال ابن عباس ومجاهد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها، وقال البخاري، قال عكرمة: ﴿ هيت لك ﴾، أي هلم لك بالحرانية، هكذا ذكره معلقاً، وكان الكسائي يحكي هذه القراءة يعني ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ويقول: هي لغة لأهل حوران، وقتت إلى أهل الحجاز، ومعناها: تعال، وقال أبو عبيدة: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها، واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر^(٢):

أبلغ أمير المؤمن بين أذى العراق إذا أتينا
إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا

(١) قال عكرمة: خمس وعشرون، وقال السدي: ثلاثون سنة، وقال سعيد بن جبیر: ثمانون سنة، ولعل ما ذهب إليه الحسن البصري هو الأرجح.

(٢) قالها لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

يقول: فتعال واقترِب، وقرأ آخرون: ﴿هَتُّ لَكَ﴾ بكسر الهاء والهمزة وضم التاء، بمعنى تهيأت لك، من قول القائل: هتت بالأمر بمعنى تهيأت لك. قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة، وقال آخرون: ﴿هَيْتُ لَكَ﴾ بكسر الهاء وإسكان الباء وضم التاء.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^ط وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ^ج كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ^ح إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢﴾

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، فقيل: المراد بهمه بها خطرات حديث النفس، حكاية البغوي عن بعض أهل التحقيق؛ ثم أورد البغوي هنا حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا همَّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن همَّ بسينة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جراي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها^{١٢}»، وقيل: همَّ بضربها، وقيل: تمنأها زوجة؛ وقيل: همَّ بها لولا أن رأى برهان ربه، أي فلم يهمَّ بها^{١٣}، وأما البرهان الذي رآه فقيه أقوال أيضاً، قيل: رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على إصبعه بضمه؛ وقيل: رأى خيال الملك يعني سيده، وقال ابن جرير عن محمد ابن كعب القرظي قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت: ﴿لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً﴾؛ وقيل: ثلاث آيات من كتاب الله: ﴿إن عليكم لحافظين﴾ الآية، وقوله: ﴿وما تكون في شأن﴾ الآية، وقوله: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾، قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه أي آية من آيات الله ترجعه عما كان همَّ به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق، كما قال الله تعالى، وقوله: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ أي كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره، ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ أي من المجتنبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

وَأَسْتَبْقَىٰ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصُورُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْأَبِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي^ط وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَبِصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلِي فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنْ كَانَ قَبِصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ

(١) هذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة منها هذا، قاله ابن كثير.

(٢) حكاية ابن جرير وغيره فكان في الآية تقديمًا وتأخيرًا: أي لولا أن رأى برهان ربه لمهمَّ بها، فلم يقع الهمُّ لوجود البرهان وهو عصمة الله عز وجل له. وانظر ما حققناه في كتابنا (النبوة والأنبياء) صفحة (٧٨) حول هذا البحث فإنه دقيق ونفيس فقد أوردنا عشرة وجوه على عصمته عليه السلام.

قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه، فقدته قدماً فظليعاً، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هارباً ذاهباً، وهي في إثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿ما جزء من أراد بأهلك سوءاً﴾ أي فاحشة، ﴿إلا أن يسجن﴾ أي يجبس، ﴿أو عذاب أليم﴾ أي يضرب ضرباً شديداً موجعاً، فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق، وتبرأ مما رمت به من الخيانة، و﴿قال﴾ بارأ صادقاً: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾، وذكر أنها اتبعته بمحبته إليها حتى قلدت قميصه، ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ إن كان قميصه قد من قبل أي من قدماه ﴿فصدقت﴾ أي في قولها إنه راودها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره فقدت قميصه فيصح ما قالت، ﴿وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وطلبت، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدت قميصه من ورائه، وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف، فقال ابن عباس: كان من خاصة الملك وكان رجلاً ذا لحية، وقال زيد بن أسلم والسدي: كان ابن عمها، وقال العوفي عن ابن عباس: كان صبيّاً في المهد، وكذا روي عن الحسن وسعيد بن جبير والضحاك: أنه كان صبيّاً في الدار، واختاره ابن جرير. وقد ورد فيه حديث مرفوع، رواه ابن جرير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار». فذكر فيهم شاهد يوسف، ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم». وقوله: ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿قال إنه من كيدكن﴾ أي إن هذا البهت واللطف الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿إن كيدكن عظيم﴾، ثم قال آمراً ليوسف عليه السلام بكتان ما وقع: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ أي اضرب عن هذا صفحاً أي فلا تذكره لأحد، ﴿واستغفري لذنبك﴾ يقول: لا امرأته، وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه علنها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: استغفري لذنبك أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿إنك كنت من الخاطئين﴾.

* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنَّا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَعًا وَهَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

يخبر تعالى أن خير يوسف وامراً العزيز شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس، وقال نسوة في المدينة ﴿نساء الكبراء والأمراء ينكرون على﴾ امرأة العزيز ﴿وهو الوزير ويعين ذلك عليها﴾ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه: أي تدعوه إلى نفسها، ﴿قد شغفها حباً﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه، قال الضحاك عن ابن عباس: الشغف الحب القاتل، والشغف دون ذلك، والشغاف حجاب القلب، ﴿إنا لراها في ضلال مبين﴾ أي في صنعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه، ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾، قال بعضهم: بقولهن ذهب الحب بها. وقال محمد بن إسحاق: بلغهن حسن يوسف فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أرسلت إليهن﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وأعدت لهن متكأ﴾، قال ابن عباس: هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه، ولهذا قال تعالى: ﴿وأتت كل واحدة منهن سكيناً﴾، وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته، وقالت أخرج عليهن ﴿وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر﴾، ﴿فلما﴾ خرج و ﴿رأينته أكبرنه﴾ أي أعظمن شأنه وأجلن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد أنهن حزنن أيديهن بها، قاله غير واحد، وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن ثم وضعت بين أيديهن أترجاً وأتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن أخرج إليهن، فلما رأينته جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومديراً، فرجع وهن يحزنن في أيديهن، فلما أحسن بالأم، جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا، فكيف ألأم أنا؟ ﴿وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾، ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريباً منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة قال: «فاذا هو قد أعطي شطر الحسن». ، ﴿قالت فذلكن الذي لمتني فيه﴾ تقول: هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي فامتنع، قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن وهي العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده: ﴿ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكونا من الصاغرين﴾، فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن، و ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ أي من الفاحشة، ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾ أي إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ولا أملك لها ضرراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي ﴿أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه﴾ الآية، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة وحماه، فامتنع منها أشد

الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال، أنه من شبابه وجماله وكمالهِ تدعوه سيده وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه. ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»، وعدّ منها «ورجل دعه امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله»، الحديث.

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنَهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين أي إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءة وظهرت الآيات، وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إياهاً أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك، ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج، حتى تبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه. وذكر السدي: أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه ويبرأ عرضه فيفضحها.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه، قال السدي: كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سعه في طعامه وشرابه، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة، وصدق الحديث، وكثرة العبادة، ومعرفة التعبير، والإحسان إلى أهل السجن، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تألفا به وأجابه حباً شديداً، وقال له: والله لقد أحبيناك حباً زائداً، قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد إلا دخل عليّ من محبته ضرر، أحببني عمتي فدخل عليّ الضرر بسببها، وأحبني أبي فأوذيت بسببه، وأحببني امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناماً، فرأى الساقى أنه يعصر خمرًا، يعني عبناً، قال الضحاك في قوله: ﴿إني أراني أعصر خمرًا﴾ يعني عبناً، قال: وأهل عمان يسمون العنب خمرًا، وقال عكرمة: قال له إني رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبة من عنب فنبتت، فخرج فيها عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم يخرج فتسقيه خمرًا، وقال الآخر وهو الخباز: ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله﴾ الآية، والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره. وقال ابن جرير عن عبد الله ابن مسعود قال: ما رأى صاحباً يوسف شيئاً إنما كانا تحالماً ليجر با عليه.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا عَلَيْنَا رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَنُفُورٌ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي لِبَرَاهِمٍ لَمْ يَسْتَحِقُّوا وَيَعْقُوبُ مَا

كَانَ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما رأيا في منامهما من حلم، فإنه عارف بتفسيره، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامُ تَرْزُقَانِهِ إِلَّا نَبَاتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾، قال مجاهد، يقول: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامُ تَرْزُقَانِهِ﴾ في يومكما ﴿إِلَّا نَبَاتِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾، وكذا قال السدي، وهذا إنما هو من تعليم الله إياي، لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، ويقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويعمله إماماً يقتدى به في الخير وداعياً إلى سبيل الرشاد، ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾، هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي أوحاه إلينا وأمرنا به، ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾.

يَصْحَبِي السَّجْنِ ۖ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ ۚ الْأَمْرُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيتين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي الذي ذل كل شيء لمرجلاله وعظمته سلطانه، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو تسمية من تلقاها أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند عند الله، ولهذا قال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشقة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي هذا الذي أَدْعُوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فلهذا كان أكثرهم مشركين، ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ جعل سؤالهما له سبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجينهما من قبول الخير، والإقبال عليه والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال:

يَصْحَبِي السَّجْنِ ۖ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَتِيقَنِي رَبُّهُ عَمْرَأً ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ

الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

يقول لهما : ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرًا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا ولكنه لم يعينه لتلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله : ﴿وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت. قال الثوري : لما قال ما قالاً، وأخبرهما قالاً : ما رأينا شيئاً، فقال : ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ .

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ أَن يَكُونَهُ فَلَاحَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقى ناج، قال له يوسف خفية عن الآخر : ﴿اذكرني عند ربك﴾ يقول : اذكر قصتي عند ربك وهو الملك فمني ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك وكان من جملة مكاييد الشيطان لتلا يطعم نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله : ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ عائذ على الناجي، كما قاله مجاهد وغير واحد، ويقال إن الضمير عائذ على يوسف عليه السلام، رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضاً، وأما البضع فقال مجاهد وقادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع، وقال وهب بن منبه : مكث أيوب في البلاء سبعاً، ويوسف في السجن سبعاً .

وَقَالَ أَمْلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا أَمْلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءُوسِهِ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَمِنْ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْمِلُونِ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ ﴿٤٩﴾

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معزاً مكرماً وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهااته، وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكبار دولته وأمرأه، فقص عليهم ما رأى وسأهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتبروا إليه بأنها ﴿أضغاث أحلام﴾ أي أخطاط أحلام اقتضته رؤياك هذه، ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ أي لو كانت رؤيا صحيحة من أخطاط

لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها؛ وعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك القتين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿ بعد أمة ﴾ أي مدة، فقال للملك: ﴿ أنا أنبتكم بتأويله ﴾ أي بتأويل هذا المنام ﴿ فأرسلون ﴾ أي فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال: ﴿ يوسف أيها الصديق أفنتا ﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما أوصاه به ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً بما تأكلون ﴾: أي مهما استغلتم وهذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذي تأكلونه، ولكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتنتفخوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السماء، لأن سني الجذب يؤكل فيها ما جمعه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات؛ وأخبرهم أنهم لا يبنن شيئاً وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿ يأكلن ما قدمتم هن إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يفاث الناس ﴿ أي يأتيهم الغيث وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت وسكر ونحوه .

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ^{٥٠}
إِنَّ رَبِّي يَبْعِدُهُنَّ عِلِمٍ ﴿٥١﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودَتْهُنَّ يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ^{٥٢}
قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ائْتِنِي حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا وَرُودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٣﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ
أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٤﴾ * وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا
مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه فقال: ﴿ ائتنوني به ﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن كان ظلماً وعدواناً، فقال: ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ الآية، وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبية على فضله وشرفه وعلو قدره، ففي المسند والصحاحين عنه عليه السلام: « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي^{٥١} ». وفي لفظ لأحمد عنه عليه السلام في قوله: ﴿ فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾

فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر»، وعن عكرمة قال، قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبته حتى أشرط أن يخرجوني، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له، حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر»^(١) وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاودْتَنِي﴾ يوسف عن نفسه ﴿إِخْبَارَ عَنِ الْمَلِكِ حِينَ جَمَعَ النِّسَاءَ اللَّائِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ عِنْدَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ﴾ فقال مخاطباً لمن كلهن وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز، قال الملك: ﴿مَا خَطْبُكَ﴾ أي ما شأنك وخبرك ﴿إِذْ رَاودْتَنِي﴾ يوسف عن نفسه ﴿بِعَنِي يَوْمَ الضِّيَافَةِ﴾ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴿أَيَّ قَالَتِ النِّسَاءُ جَوَاباً لِلْمَلِكِ﴾ حاش لله أن يكون يوسف متهماً والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾، قال ابن عباس: الآن تبين الحق وظهر وبرز، ﴿أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي في قوله ﴿هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾، ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أنني بريئة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ وما أبرئ نفسي، تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتمنى، ولهذا راودته، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي إلا من عصمه الله تعالى ﴿إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام^(٢)، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ فِي زَوْجَتِهِ بِالْغَيْبِ﴾ الآيتين، أي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ فِي زَوْجَتِهِ﴾ بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴿الآية﴾، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه. قال ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن هل راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴿الآية﴾، قال يوسف: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ فقال له جبريل عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به؟ فقال: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ الآية، وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والسدي، والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك.

وَقَالَ أَلَمْ لِكُ أَتُونِي بِهِ أَتَخْلِصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه قال: ﴿إِثْنُونِي بِهِ أَتَخْلِصَهُ لِنَفْسِي﴾ أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتني، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله

(١) رواه عبد الرزاق عن عكرمة وهو حديث مرسل.

(٢) حكاها الماوردي في تفسيره وانتدب لنصره الإمام ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة.

وبراعته وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي إنك عندنا ذا مكانة وأمانة ، فقال يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة، وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي خازن أمين، ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه، وقال شيبه بن نعام: حفيظ لما استودعني، علم بسني الجدب^(١)، وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له، ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦) ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧)

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر، ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ﴾ قال السدي: يتصرف فيها كيف يشاء، وقال ابن جرير: يتخذ منها مثلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى أخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عز وجل النصر والتأييد، ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة، أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر (الريان بن الوليد) الوزارة في بلاد مصر، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام قاله مجاهد.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٨) ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٥٩) ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ﴾ (٦٠) ﴿قَالُوا سُرُدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (٦١) ﴿وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٢)

ذكر السدي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين، أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السنين المخصصة، ثم تلتها السبع السنين المجدة، وعم القحط بلاد مصر بكماها ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه، ولا يأكل

هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحسدة في وسط النهار، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر، والفرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بشمه، فأخذوا معهم بضاعة، يعتاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه (بنيامين) شقيق يوسف عليه السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس في أبيته ورياسته وسيادته عرفهم حين نظر إليهم ﴿وهم له منكرون﴾، أي لا يعرفونه، لأنهم فارقه وهو صغير حدث وباعوه للسيارة ولم يلدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم، فذكر السدي وغيره، أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالنكر عليهم: ما أقدمكم بلاد؟ فقالوا: أيها العزيز قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإتزالهم وإكرامهم، ﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم قال: اتئوني بأخيكم هذا الذي ذكرتكم لأعلم صدقكم فيما ذكرتكم، ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المتزين؟﴾ يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة، ﴿ولا تقرّبون﴾ قالوا سناود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴿أي سنحرص على محبته إليك بكل ممكن ولا نبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه﴾ وقال لفتياناه ﴿أي غلماناه﴾ ﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿في رحالهم﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿لعلهم يرجعون﴾ بها، قيل خشي أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها، وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم ترححاً وتورعاً، لأنه يعلم ذلك منهم، والله أعلم.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أٰبِيَئِهِمْ قَالُوا يٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَمِنُكُمْ عَلَيْهِ ۖ ؕ اَلَا كَمَا ءَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَآلَهُ خَيْرٌ حٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى عنهم إنهم رجعوا إلى أبيهم: ﴿قالوا يا أبانا منع منا الكيل﴾ يعنون بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا آخانا (بنيامين)، فأرسله معنا نكتل ﴿وإنا له لحافظون﴾ أي لا نخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون﴾ ولهذا قال لهم: ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل؟ أي هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تعيونه عني وتحولون بيني وبينه؟﴾ ﴿فآله خير حافظاً﴾، ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ أي هو أرحم الراحمين في وسيرهم كبري وضعفي ووجدي بولدي وأرجو من الله أن يرده عليّ ويجمع شملتي به، إنه أرحم الراحمين.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَآئِعَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يٰٓأَبَانَا مَا تَبِعُنِي ۖ هٰذِهِ ۖ بِضَآئِعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَنَانَا وَزَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ ۖ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَّسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۢ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مِن مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ بِهِ ۖ

إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكَرِّ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَاقُولٍ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، هي التي كان أمر يوسف فتياته بوضعها في رحالهم، ولما وجدوها في متاعهم ﴿قالوا يا أبانا ما نبني﴾ أي ماذا نريد، ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾، كما قال قتادة: ما نبني وراء هذا إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل، ﴿ونغير أهلنا﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿ونحفظ أخانا وترداد كيل بعير﴾، وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير، ﴿ذلك كيل يسير﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيه ما يعدل هذا، ﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾ أي تحلفون بالعهد والمواثيق، ﴿لأتأني به إلا أن يحاط بكم﴾، إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرن على تخليصه، ﴿فلما آتوه موثقهم﴾ أكد عليهم، ﴿قال الله على ما نقول وكيل﴾، قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها فبعثه معهم.

وَقَالَ يَبْنِي لَأَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ إِنَّ الْحَكْمَ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام: أنه أمر بني له لما جهزهم مع أخيه (بنيامين) إلى مصر أن لا يدخلوا من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه - كما قال ابن عباس والسدي وغير واحد - خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يبصيهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستترل الفارس عن فرسه، وقوله: ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ أي أن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع، ﴿إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكمل المتوكلون﴾ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوه ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاه، قالوا: هي دفع إصابة العين لهم ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾، قال قتادة: لذو علم بعلمه، وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه (بنيامين) وأدخلهم دار كرامته ومترل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطف والإحسان، واختل بأخيه، فأطلعه على شأنه وما جرى له وعرفه أنه أخوه وقال له: ﴿لا تبتئس﴾ أي لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقية عنده معزراً مكرماً معظماً.

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْنَاهَا أَلْعَبُ إِنَّا نَسْرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صَوْاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

لما جهزهم وحمل معهم أبعرتهم طعاماً أمر بعض فتيانه أن يضع ﴿السقاية﴾ وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس ومجاهد، وعن ابن عباس: ﴿صواع الملك﴾ قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع (بنيامين) من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أتينا العير إنكم لسارقون﴾، فالتفتوا إلى المنادي، وقالوا: ﴿ماذا تفقدون﴾. قالوا نفقد صواع الملك ﴿أي صاعه الذي يكيل به﴾، ولمن جاء به حمل بعير ﴿وهذا من باب الجمالة﴾، وأنا به زعيم ﴿وهذا من باب الضمان والكفالة﴾.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَاجِزْؤُهُ إِن كُنتُمْ كَذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جِزْؤُهُ مِنْ وَجَدِي فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جِزْؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة قال لهم إخوة يوسف: ﴿تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ أي لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، إنا ﴿ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ أي ليست سجاياتنا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿فاجزؤوه﴾ أي السارق إن كان فيكم ﴿إن كنتم كاذبين﴾ أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿قالوا جزؤوه من وجد في رحله فهو جزؤوه كذلك نجزي الظالمين﴾، وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي فتنها قبله تورية، ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزامهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة، وقوله: ﴿ما كان يأخذ أخاه في دين الملك﴾ أي لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، وإنما كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿ترفع درجات من نشاء﴾، كما قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم﴾ الآية، ﴿وفوق كل ذي علم علم﴾. قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل. عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله، فوق كل ذي علم علم، فقال ابن عباس: بش ما قلت، الله العليم فوق كل عالم^(١)، يكون هذا أعلم من هذا وهذا أعلم من هذا، والله فوق

كل عالم، وقال قتادة: ﴿وفوق كل ذي علم علم﴾ حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدئ وتعلمت العلماء وإليه يعود .

* قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا ۖ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ يتصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام . قال قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره، وقوله: ﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾ يعني الكلمة التي بعدها وهي قوله: ﴿أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ أي تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبدها لهم، وهذا من باب الإيضاح قبل الذكر، وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة، قال ابن عباس: ﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾ قال: أسر في نفسه ﴿أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ .

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدهُ ۖ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٧٩﴾

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم ﴿فقالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ يعنون وهو يحبه حباً شديداً ويتسلى به عن ولده الذي فقده، ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ أي بدله يكون عندك عوضاً عنه، ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير، ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ أي كما قلتم واعتزتم، ﴿إنا إذا لظالمون﴾ أي إن أخذنا بريئاً بـمـذنب .

فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ۖ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسِعِلْ الْقَرْيَةَ إِلَيْنَا ۖ كُنَّا فِيهَا وَالْغَيْرِ إِلَيْنَا ۖ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

يغبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يشوا من تخلص أخيه بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه وعاهدوه على ذلك فامتنع عليهم ذلك ﴿خلصوا﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿نجياً﴾ يتناجون فيما بينهم، ﴿قال كبيرهم﴾ وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله قال لهم: ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم مَوْثِقًا من الله﴾

لتردنه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه، ﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي لن أفارق هذه البلدة ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني، ﴿أو يحكم الله لي﴾ بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾، ثم أمرهم أن يخبروا آباهم بصورة ما وقع حتى يكون علماً لهم عنده، وبتصلوا إليه ويبرأوا مما وقع بقولهم، وقوله: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾، قال قتادة: ما علمنا أن ابنك سرق، ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ قبل المراد مصر، وقيل غيرها: ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ أي التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وإننا لصادقون﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخنوه بسرقة.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَافُ عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُونَ تَذَكُّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قال لهم، كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم، فظن أنها كفعلتهم يوسف، قال: ﴿بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة يوسف وأخاه بنيامين وروبير الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية، ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ إنه هو العليم ﴿أي العلم بحالي﴾، ﴿الحكيم﴾ في أفعاله وقضائه وقدره، ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف﴾ أي أعرض عن بنيه، وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول ﴿يا أسفا على يوسف﴾ جدد له حزن الإبنين الحزن الدفين، قال سعيد بن جبير: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام: ﴿يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، قاله قتادة وغيره، وقال الضحاك ﴿فهو كظيم﴾ كتيب حزين، فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿تالله تفتنوا تذكر يوسف﴾ أي لا تفارق ﴿حتى تكون حرَضاً﴾ أي ضعيف القوة، ﴿أو تكون من الهالكين﴾، يقولون: إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف، ﴿قال إنما أشكو بني وحزني إلى الله﴾ أي أجابه عما قالوا بقوله: ﴿إنما أشكو بني وحزني﴾ أي هي وما أنا فيه ﴿إلى الله﴾ وحده، ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي أرجو منه كل خير. وعن ابن عباس في الآية يعني رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لا بد أن يظهرها، وقال العوفي عنه: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأنني سوف أسجد له.

يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَبَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، و (التحسس) يكون في الخير، و (التجسس) يكون في الشر، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا يئاسوا ﴿من روح الله﴾ أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه فإنه لا يقطع الرجاء ولا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون، وقوله ﴿فلما دخلوا عليه﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر ودخلوا على يوسف، ﴿قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر﴾ يعنون الجذب والقحط وقلة الطعام، ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن، وقال ابن عباس: الرديء لا ينفق، وفي رواية عنه: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان، وقال الضحاك: كاسدة لا تنفق، وأصل الإجزاء الدفع لضعف الشيء، وقوله إخباراً عنهم: ﴿فأوف لنا الكيل﴾ أي أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، قال ابن جريج: ﴿وتصدق علينا﴾ برد أخينا إلينا، وقال سعيد بن جبير والسدي: يقولون تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة وتجوز فيها .

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَكُنْ لَّيُوسُفَ قَالاً أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتْيَ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِطِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجذب، وتذكر أباه، وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورافة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء، فتعرف إليهم، والظاهر - والله أعلم - أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق فعند ذلك قالوا: ﴿أنتك لأنت يوسف؟ والاستفهام يدل على الاستعظام، أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من ستين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أنتك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي﴾، وقوله ﴿قد مَنَّ الله علينا﴾ أي بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة، ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ قالوا تالله لقد أثرك الله علينا الآية، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق والسعة والملك وأفروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه، ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾ يقول أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة، فقال: ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ قال السدي: اعتلوا إلى يوسف فقال: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ يقول:

لا أذكر لكم ذنبكم ، وقال ابن إسحاق والثوري : أي لا تأنب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ، ﴿ يغفر الله لكم ﴾ أي يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ .

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفْنِدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

يقول : اذهبوا بهذا القميص ﴿ فالقوه على وجه أبي يأت بصيرًا ﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء ، ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ أي بجميع بني يعقوب ، ﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي خرجت من مصر ، ﴿ قال أبوهم ﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه : ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفنلون ﴾ تنسبوني إلى القند والكبر ، قال ابن عباس ومجاهد : تسفهون ، وقال مجاهد أيضاً والحسن : تهزمون ، وقولهم : ﴿ إنك لفي ضلالك القديم ﴾ قال ابن عباس : لفي خطئك القديم ، وقال قتادة : أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لبني الله ﷺ ، وكذا قال السدي وغيره .

* فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

قال ابن عباس : ﴿ البشير ﴾ البريد ، وقال السدي ^(١) : هو يهوذا بن يعقوب وإنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب ، فأحب أن يغسل ذلك بهذا ، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيرًا ، وقال لبنيه عند ذلك : ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أعلم أن الله سيرده إلي ، فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفين له : ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ قال سوف أستغفر لكم ربّي إنه هو الغفور الرحيم ﴿ أي من تاب إليه تاب عليه ، قال ابن مسعود : أرجأهم إلى وقت السحر ، وقال ابن جرير : كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول : اللهم دعوتي فأجبت ، وأمرتني فأطعت ، وهذا السحر فاغفر لي ، قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار (عبد الله بن مسعود) فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيهِ إلى السحر بقوله ﴿ سوف أستغفر لكم ربّي ﴾ ^(٢)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ مُجْتَبًى وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَانِ تَوَلَّيْتُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي

مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدُونِ^٤ بَعْدَ أَنْ تَرَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي^٥ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ^٦
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

يغفر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام وقدمه بلاد مصر، لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله (يعقوب عليه السلام)، ويقال إن الملك خرج أيضاً لتلقيه وهو الأشبه، وقوله: ﴿أَوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ﴾ قال السدي: إنما كان أباه وخالته وكانت أمه قد ماتت قديماً، قال ابن جرير: ولم يبق دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها، وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ﴾، قال ابن عباس: يعني السرير أي أجلسهما معه على سريره، ﴿وَخَرُوا لَهُ سَجْدًا﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً، ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي التي كان قصها على أبيه من قبل، وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجلون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره، وفي الحديث: «لو كنت امرأةً لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها»^(١)، وفي حديث آخر: ان سلمان لقي النبي ﷺ في بعض المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ، فقال: «لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحمي الذي لا يموت». والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خروا له سجداً فعندها قال يوسف: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أي يوم القيامة بأنهم ما وعدوا به من خير وشر، وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي صحيحة صدقاً، يذكر نعم الله عليه، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدُونِ﴾ أي البادية، قال ابن جريج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية، ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ إن ربِّي لطيفٌ لما يشاء، أي إذا أراد أمراً قيض له أسباباً وقدره ويسره ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده. قال محمد بن إسحاق: ذكروا - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانين سنة، وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه، وقال عبدالله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً صغيرهم وكبيرهم، وذكروهم وأثناهم، وخرجوا منها وهم ستائة ألف ونيف.

* رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا

(١) الحديث في الصحاح وسببه أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجلون لأساقفتهم، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ سجد له، فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجلون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله ﷺ فقال له ﷺ.

وَالْآخِرَةُ تُوَفِّيْ مُسْلِمًا وَالحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه و إخوته، وما من الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل أن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى» ثلاثاً؛ ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللاحق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره، لا أنه سأل ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره أمانك الله على الإسلام، ويقول الداعي: اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين؛ ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة: لما جمع الله شمله وأقر عينه وهو يومئذ مغفور في الدنيا وملكمها ونضارتها اشتاق إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام. ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا لما في الصحيحين: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعقب، ولكن ليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ولا يدع به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون قد وثق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمله إلا خيراً»، وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به، وأما إذا كان فتنه في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهديمهم بالقتل: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾. وقالت مريم عليها السلام: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْهَا﴾ لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت ووضعت. وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي: «وإذا أردت بقوم فتنه فاقبضني إليك غير مفتون»، فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة فقال: اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وشموئي، وقال البخاري رحمه الله: لما وقعت له تلك الفتنة وجرى له مع أمير خراسان ما جرى قال: اللهم توفني إليك، وفي الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبر - أي في زمان الدجال - فيقول يا ليتني مكانك» لما يرى من الفتن والزلازل والأمور المائلة التي هي فتنة لكل مفتون.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا سَأَلْتَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك

والحكم، مع ما أراحوا به من سوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿نوحه إليك﴾ ونعلمك به يا محمداً فيه من العبرة لك والاعتاظ لمن خالفك، ﴿وما كنت لديهم﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾ أي على إلقائه في الحب، ﴿وهم يمحرون﴾ به، ولكننا أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك كقوله: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ الآية، يقول تعالى: إنه رسوله وإنه قد أطلعته على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم وديانهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، وقال: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾، وقوله: ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والرشد من أجر أي من جمالة ولا أجرة، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً لخلقه، ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله، ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السماوات والأرض من كواكب زاهرات وأفلاك دائرات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وحيوان ونبات، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات، المنفرد باللواء والبقاء والصلدية للأسماء والصفات، وقوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السماوات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله وهم مشركون به^(١). وفي الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. وفي صحيح مسلم: أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: «قد قد» أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا، وقال الله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾. وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك، يعني في قوله تعالى: ﴿يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٢)، وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادي مناد من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»^(٣). وقال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا:

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاز الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا، فانظروا هل يحملون عندهم جزاء؟». وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي قال، قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي، قال: «قل اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه»، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ الآية، أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيتهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾؟ وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أو أمن أهل القرى أن يأتيتهم بأسنا ضحى وهم يلبعون؟ أفأمنوا مكر الله؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون؟

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن أمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي طريقته ومسلكه وستته، وهي الدعوة إلى شهادة أن «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه، وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي وأثره الله وأجله وأعظمه وأقدس عن أن يكون له شريك أو نظير أو عدل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

* وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من (الرجال) لا من (النساء) وهذا قول جمهور العلماء، وزعم بعضهم أن (سارة) امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ويقول: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام، ويقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾، وهذا القدر حاصل لمن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، ويبقى الكلام في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرد أم لا؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة - وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن الأشعري عنهم - أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن (صديقات)^(١)، كما قال تعالى مخبراً عن (مريم بنت عمران): ﴿وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام فهي صديقة بنص القرآن، وقال الضحاك عن ابن عباس في الآية: أي ليسوا من (١) هذا هو القول الفصل في الموضوع: أنه ليس في النساء نبية، والأنبياء جميعهم من الرجال لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ الآية، وبهذا تسقط دعوى ابن حزم أن من النساء نبيات.

أهل السماء كما قلت، وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين﴾، وقوله: ﴿من أهل القرى﴾ المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً، وقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم المكذبة للرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ الآية، فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿ولدار الآخرة خير للذين اتقوا﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خير لهم من الدنيا بكثير، وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: ﴿ولدار الآخرة﴾ كما يقال: صلاة الأولى ومسجد الجامع .

* حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

يذكر تعالى أن نصره يتزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوال الأوقات إليه، كقوله تعالى: ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ الآية. وفي قوله: ﴿كذبوا﴾ قراءتان إحداهما بالتشديد ﴿قد كُذِّبُوا﴾، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرأها، قال البخاري عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ قال، قلت: أكذبوا أم كُذِّبُوا؟ قالت عائشة: كُذِّبُوا، قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: ﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا؟﴾ قالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت فما هذه الآية؟ قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقهم فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ من كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبهم، جاءهم نصر الله عند ذلك^(١). والقراءة الثانية بالتخفيف واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس في قوله: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا﴾ قال: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبهم جاءهم النصر على ذلك، ﴿فنجي من نشاء﴾، وقال ابن جرير، عن إبراهيم بن أبي حمزة الجزري قال، سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال: أخبرنا أبا عبد الله كيف هذا الحرف؟ فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا﴾ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، فقال الضحاك ابن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلاً يدعى إلى علم فينلكأ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً^(٢). ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتقه، وقال: فرج الله عنك كما فرجت عني. وأما ابن مسعود فقال ابن جرير، عن تميم بن حزم، قال: سمعت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير . (٢) أخرجه ابن جرير الطبري .

عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية: ﴿حتى إذا استأَسَّ الرسل﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظن قومهم حين أبطل الأمر أنهم قد كذبوا بالتخفيف، فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس والله أعلم.

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۖ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عبرة لأولي الأبواب﴾ وهي العقول، ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ أي وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي يكذب ويخلق، ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ أي من الكتب المتصلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ﴿وتفصيل كل شيء﴾ من تحليل وتحريم وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المستقبلية المجملية والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتترهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ تهدي به قلوبهم من النقي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويتفنون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة يوسف عليه السلام ، والله الحمد والمنة وبه المستعان .

(١٢) سُورَةُ الرَّحْمَنِ
وَأَيُّهَا ثَلَاثٌ وَارْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمْرُ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا: أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: ﴿والذي أنزل إليك﴾ أي يا محمد ﴿من ربك الحق﴾، وقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ كقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ أي مع هذا البيان والجللاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق، والعناد، والنفاق.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ط وَخَرَّ الشَّمْسُ ط وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفْضِلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظم سلطانه، أنه الذي يأذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد، بل يأذنه وأمره وتسخيرها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسمااء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء، من جميع نواحيها وجهاً وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وهكذا إلى السابعة، وفي الحديث: «ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش المجيد كذلك الحلقة في تلك الفلاة». وفي رواية: «العرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل». وجاء عن بعض السلف: أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوته حمراء، وقوله: ﴿بغير عمد ترونها﴾ السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ فعلى هذا يكون قوله: ﴿ترونها﴾

تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القلدة^(١)، وقوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف، وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً، وقوله: ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾، وقيل: المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش، وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأخرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لا تسجلوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾، مع أنه قد صرح بذلك بقوله: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾، وقوله: ﴿يفصل الآيات لعلكم تلبقوا﴾ أي بوضع الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْنِي عَنْهُ الْبَلَّ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صُنَّانٌ وَغَيْرُ صُنَّانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وهو الذي مَدَّ الأرض﴾ أي جعلها متمدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجدال والعيون، لیسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿يغشي الليل النهار﴾ أي جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان ﴿أعنا﴾ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿أي في آلاء الله وحكمه ودلائله، وقوله: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ أي أراض يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً، ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو، وقوله: ﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون ﴿زرع ونخيل﴾ مرفوعين؛ ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة

(١) وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن أنهم قالوا: لما عمد ولكن لا ترى فتكون جملة (ترونها) صفة لـ (عمد) أي بغير عمد مرئية، وهذا التأويل خلاف الظاهر المتبادر وقد أشار ابن كثير رحمه الله لضعف هذا القول .

بها الذين لا يؤمنون بها»، وقال: ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قسطاً من الآيات، أي عقابنا وحسابنا، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم، يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله، قال الله تعالى: ﴿وقد دخلت من قبلهم المثلثات﴾ أي قد أوقفنا نعمنا بالأمم الخالية، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم؛ ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لمعاجلهم بالعقوبة كما قال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وإن ربك لن ذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وسر للناس، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فإن كذبوك قتل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾، وقال: ﴿إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وإن ربك لن ذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وبما نزلت من آيات الله العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد»^(١).

❖ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين إنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ الآية، قال الله تعالى: ﴿إنما أنت منذر﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، و﴿ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقوله: ﴿ولكل قوم هاد﴾ قال ابن عباس: أي ولكل قوم داع، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: أنت يا محمد منذر وأنا هادي كل قوم^(٢) عن مجاهد ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي نبي كقوله: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾، وقال يحيى بن رافع: ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي قائد، وعن عكرمة: ﴿ولكل قوم هاد﴾ هو محمد ﷺ، وقال مالك: ﴿ولكل قوم هاد﴾: يدعوهم إلى الله عز وجل.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

الْكَافِرُ الْمُنْتَعَالِ ﴿٩﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل الإناث، كما قال تعالى: ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أي ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كقوله تعالى: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾ أي خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وغير واحد.

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ . وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه وعمره وعمله وشقي أو سعيد » ، وفي الحديث الآخر : « فيقول الملك أي رب ! أذكر أم أنسى ! أشقي أم سعيد ؟ فالرزق ؟ فالأجل ؟ فيقول الله ويكتب الملك » .

وقوله تعالى : ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ ، قال البخاري ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ، لا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » ، وقال ابن عباس : ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ يعني السقط ﴿ وما تزداد ﴾ ، يقول ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً ، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومن تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد في الحمل ، ومنهن من تنقص ، فلذلك الغيظ والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك يعلمه تعالى ، وعنه : ما نقصت من تسعة وما زاد عليها ، وقال الضحاك : وضعتني أمي وقد حملتني في بطني سنتين ، وولدتني وقد نبتت ثنيتي ، وقال ابن جريج ، عن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل ، وقال مجاهد : ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ قال : ما ترى من الدم في حملها وما تزداد على تسعة أشهر^(١) ، وقال مجاهد أيضاً ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ : إراقة الدم حتى ينحس الولد ، ﴿ وما تزداد ﴾ إن لم تهرق الدم تم الولد وعظم ، وقال مكحول : الجنين في بطن أمه لا يحزن ولا يغم ، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها فن لم لا تحبض الحامل ، فإذا وقع إلى الأرض استهل ، واستهله استنكاره لمكانه ، فإذا قطعت سرتة حوّل الله رزقه إلى ثديي أمه ، حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغم ، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله ، فإذا هو بلغ قال : هو الموت أو القتل أني لي بالرزق ؟ فيقول مكحول : يا ويحك ، غذاك وأنت في بطن أمك ، وأنت طفل صغير ، حتى إذا اشتدت وعقلت قلت : هو الموت أو القتل أني لي بالرزق ؟ ثم قرأ مكحول : ﴿ والله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ الآية ، وقال قتادة : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ أي بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلاً معلوماً ، وفي الحديث الصحيح : ان إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت ، وأنها تحب أن يحضره ، فبعث إليها يقول : « إن الله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فروها فلتصبر ولتحتسب » الحديث بتمامه ، وقوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد وبما يغيب عنهم ولا يخفى عليه منه شيء ﴿ الكبير ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء ، ﴿ المتعال ﴾ أي على كل شيء ، ﴿ قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً .

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُمْ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ

يَدِيهِ وَمَنْ خَلَقَهُ يُحَفِّظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾

يغفر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله: ﴿وإن يجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾، وقال: ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾، وقوله: ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾ أي مختف في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿وسارب بالنهار﴾ أي ظاهر ماش في بياض النهار وضياؤه، فإن كلاهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: ﴿الآحين يستغشون ثيابهم﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾، وقوله: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل، وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فائنان عن اليمين والشمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكتابان، كما جاء في الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديث، وفي الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكروهم»، وقال ابن عباس: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه، وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريد به إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه.

وقال الإمام أحمد رحمه الله، عن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «وإياي، ولكن الله أعاني عليه فلا يأمرني إلا بخير»^(١). وقوله: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، قاله ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبیر، وقال قتادة ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ يحفظونه بأمر الله، وقال كعب الأحبار: لو تجلى لابن آدم كل سهل وكل حزن لرأى كل شيء من ذلك شيئاً يقيه، ولولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذا تخطفتكم، قال أبو أمامة: ما من آدمي إلا ومعه ملك ينود عنه حتى يسلمه للذي قدر له. وقال أبو مجلز: جاء رجل إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي، فقال: احترس، فإن ناساً يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جنة حصينة. وقال بعضهم: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله أرأيت رقباً نسترق بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»، وقال ابن أبي حاتم: «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها

إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون»، ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾^(١)

* هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْبِغُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ۚ وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ ۚ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب، ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، قال قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله. ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة ماؤها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد: السحاب الثقال: الذي فيه الماء، ﴿وَيَسْبِغُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾، كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغُ بِحَمْدِهِ﴾، وكان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»^(٢). وعن أبي هريرة رفعه، أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده»، وعن عبد الله ابن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض^(٣) وروى الطبراني عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله، فإنه لا يصيب ذا كراً»، وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يرسلها نعمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان؛ كما قال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من صنع قبلكم الغداة؟ فيقولون: صنع فلان وفلان وفلان».

وقد روي في سبب نزولها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: «اذهب فادعه لي»، قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: من رسول الله؟ وما الله؟ أم من ذهب هو، أم من فضة هو، أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي: كذا وكذا. فقال لي: «ارجع إليه ثانية»، فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك؛ فقال: «ارجع إليه فادعه»، فرجع إليه الثالثة قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يكلمه إذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه فرعدت، فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية^(٤). وعن مجاهد قال: جاء يهودي فقال: يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو؟ من نحاس هو؟ أم من لؤلؤ، أو ياقوت؟ قال، فجاءت

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي موقوفاً، وقد ورد نحوه في حديث مرفوع رواه ابن أبي شيبة.

(٢) رواه الترمذي والنسائي والحاكم وأحمد، وأخرجه البخاري في كتاب الأدب.

(٣) رواه مالك في الموطأ والبخاري في كتاب الأدب.

(٤) رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي وابن جرير عن أنس رضي الله عنه وأخرجه الحافظ البزار بنحوه.

صاعقة فأخذته، وأنزل الله: ﴿ويرسل الصواعق﴾ الآية، وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً أنكر القرآن، وكذب النبي ﷺ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته، وأنزل الله: ﴿ويرسل الصواعق﴾ الآية، وذكروا في سبب نزولها قصة (عامر بن الطفيل) و (أريد بن ربيعة) لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر، فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله: أما والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً، ورجلاً مردأً، فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله عليك ذلك وأبناء قبيلة» يعني الأنصار، ثم أتياها هماً بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقته من ورائه، فحماه الله تعالى منهما وعصمه، فخرجا من المدينة، فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام، فأرسل الله على (أريد) سحابة فيها صاعقة فأحرقتة، وأما (عامر بن الطفيل) فأرسل الله عليه الطاعون، فخرجت فيه غدة عظيمة، فجعل يقول: يا أهل عامر غدة كغدة البكر، وموت في بيت سلوية، حتى ماتا لعنهما الله، وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله﴾^(١)، وقوله: ﴿وهم يجادلون في الله﴾ أي يشكون في عظمته وأنه لا إله إلا هو ﴿وهو شديد المحال﴾. قال ابن جرير: شديدة بماحلته في عقوبة من طغى عليه، وعتا وتمادى في كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ فانظر كيف كان عاقبة مكروهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين، وعن علي رضي الله عنه: ﴿وهو شديد المحال﴾ أي شديد الأخذ، وقال مجاهد: شديد القوة.

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَبَسِطَ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾

﴿له دعوة الحق﴾ التوحيد، لا إله إلا الله^(٢) والذين يدعون من دونه ﴿أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله﴾ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿كباسط كفيه﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً، وقيل: المراد كقباض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد

ومعنى هذا الكلام أن الذي يسط يده إلى الماء إما قابضاً، وإما متناولاً له من بعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

(١) روى هذه القصة الحافظ الطبراني عن عطاء بن يسار عن ابن عباس مفصلة أكثر من هذا.

(٢) قاله ابن عباس وقاتدة.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً من الكافرين، ﴿وظلالهم بالغصو﴾ أي البكور، ﴿والأصال﴾ وهو آخر النهار، كقوله تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله﴾ الآية .

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيفَهُ فَتَشَبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وهو ربها ومدبرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعبديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً ، أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة ، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه ؟ ولهذا قال : ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وعماثله في الخلق ، فخلقوا كخلقهم فتشابه الخلق عليهم ، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره ، أي ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ، ولا ند له ولا عدل ، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة ، ﴿تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً﴾ ، فأنكر تعالى عليهم ذلك ، حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ ، ﴿وكم من ملك في السموات﴾ الآية ، وقال : ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾ ، فإذا كان الجميع عبيداً فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان ؟ بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع فحققت عليهم كلمة العذاب لا محالة ، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقاؤه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه ، فقال تعالى : ﴿أنزل من السماء ماء﴾ أي مطراً ، ﴿فسالت أودية بقلدرها﴾ أي أخذ كل واد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير وسع بقلدره ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علماً كثيراً ، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ ، أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عالٍ عليه ، هذا مثل ، وقوله : ﴿ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع﴾ الآية ؛ هذا هو المثل

الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ابتغاء حلية﴾ أي ليجعل حلية أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه، ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾، أي إذا اجتماعاً لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء﴾ أي لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾، كقوله تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾. وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله تعالى يقول: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾، قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فأما الزبد﴾ وهو الشك ﴿فيذهب جفاء﴾ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴿وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك. وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة، ﴿ومما يوقدون عليه في النار﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والجديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأثبتت فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق، جاء من عند الله فن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكينة ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جوده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأثبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وروعوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فلم يعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به.

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۖ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَائِ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَا قَتَدُوا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَهُمْ فِيهَا يَمُوتُونَ ﴿١٣٥﴾

يعبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء: ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ أي أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿الحسنى﴾ وهو الجزء الحسن كقوله تعالى: ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً

فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ﴿١٩﴾ وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أي لم يطيعوا الله، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي في الدار الآخرة، لو أنه يمكنهم أن يفتلوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتلوا به، ولكن لا يتقبل منهم، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صراحاً ولا عدلاً ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي في الدار الآخرة، أي يناقشون على النقيض والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب، ولهذا قال: ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبُنَى الْمَهَادِ﴾.

* أَفَن يَعْلَمُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۖ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أنزل إليك﴾ يا محمد ﴿من ربك﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، فأخبره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يبتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، وقال هنا: ﴿أَفَن يَعْلَمُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ أي أفهذا كهذا؟ لا استواء. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر أولو العقول السليمة الصحيحة؛ جعلنا الله منهم .

* الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ ﴿٢٣﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٤﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن انصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا اتسمن خان ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف، ﴿ويخشون ربهم﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ أي عن المحارم والمآثم فقطموا أنفسهم عنها لله عز وجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ﴿وأقاموا الصلاة﴾ بخلودها ومواقينها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم، من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سراً وعلانية﴾ أي في السر والجهر، لم يمنهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار، ﴿ويدرؤون﴾

بالحسنة السيئة ﴿ أي يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعتواً ، كقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ ، ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين هؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ جنات عدن ﴾ والعدن : الإقامة ، أي جنات إقامة يخللون فيها . وقال الضحّاك في قوله : ﴿ جنات عدن ﴾ مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء ، وأئمة الهدى والناس حولهم بعد والجنات حولها ، وقوله : ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله ، وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته ، كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ الآية . وقوله : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من هنا ومن هنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تهنّد عليهم الملائكة مسلمين مهشين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة في دار السلام ، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : اتهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول : إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء - قال - فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ » ، ورواه أبو القاسم الطبراني ، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « أول ثلّة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره ، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهي في صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول : أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوفوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب ، وتأتي الملائكة فيسجلون ويقولون : ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ونقدس لك ، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل : هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي ، وأوفوا في سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ » ، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ ، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان .

وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾

هذا حال الاشقياء وصفاتهم وذكر مآلهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ﴿ كما ثبت في الحديث: « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان » ولهذا قال: ﴿ أولئك لهم اللعنة ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿ ولم سوء الدار ﴾، وهي سوء العاقبة والمآل ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾. وقال أبو العالية: هي ست خصال في المنافقين، وإذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أؤتمنوا خانوا .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَمَعَةٌ ﴿٢٦﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ويقتصر على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً كما قال: ﴿ أبحسبون أننا نغدهم به من مال وبين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾، ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخر تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾، كما قال: ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فيها ﴾، وقال: ﴿ بل توترون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾، وقال الإمام أحمد، عن المستورد أخني بني فهر قال، قال رسول الله ﷺ: « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع »، وأشار بالسبابة ^(١)، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك ميت، والأسك الصغير الأذنين، فقال: « والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه » ^(٢)

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَاصِبُ ﴿٢٧﴾
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَقَابِ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن المشركين قولهم ﴿ لولا ﴾ أي هلا، ﴿ أنزل عليه آية من ربه ﴾، كفولهم: ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا؛ ﴿ قل إن الله يضل من يشاء، ويهدي إليه من أناب ﴾ أي هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإصلاح ليس منوطاً بذلك، كما قال: ﴿ وما تنغي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾، وقال: ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن

أكثرهم يجهلون»، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ أَنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي ويهدي إليه من أناب ﴿أي من أتى الله رجوعاً إليه واستعان به وتضرع لديه﴾ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴿أي تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي هو حقيقي بذلك، وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَجْرُهُمْ﴾ قال ابن عباس: فرج وقرّة عين، وقال عكرمة: نعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وقال قتادة: يقول الرجل: طوبى لك، أي أصبت خيراً، وقيل: حسنى لهم، ﴿وحسن ما أب﴾ أي مرجع، وهذه الأقوال لا منافاة بينها، وروى السدي عن عكرمة: طوبى لهم هي الجنة، وبه قال مجاهد.

وروى ابن جرير، عن شهر بن حوشب قال: طوبى شجرة في الجنة كل شجر الجنة منها أغصانها، وهكذا روى غير واحد من السلف أن طوبى شجرة في الجنة في كل دار منها غصن منها، وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن. وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا»، قال: فحدثت بها النعمان بن أبي عياش الزرقى فقال: حدثني أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ الْجَوَادُ الضَّمَرُ السَّرِيعُ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَزَلْ مَمْلُودٌ﴾ قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا».

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَلْتَؤُلُوا عَلَيْهِمُ الْآلِيَةُ أَوْحِينَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُورَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿١٠﴾

يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لتلؤلؤا عليهم﴾ أي تبغضهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بـ ﴿الرحمن الرحيم﴾ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم^(١). وفي صحيح مسلم: «إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عِبَادَةُ اللَّهِ وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ». ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي في جميع أموري، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي إليه أرجع وأنيب فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحلون له، ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه مشتق من الجمع، وفي الحديث الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدابته أن تسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه»^(١)، والمراد بالقرآن هو الزبور، وقوله: ﴿أفلم يأنس الذين آمنوا﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة، أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس، من هذا القرآن الذي لو أنزله الله عز وجل على جبل لرأيت حاشعاً متصدعاً من خشية الله، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» معناه أن معجزة كل نبي انقضت بموته وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشع منه العلماء.

وروي أن المشركين قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تسرع فنحرق فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال﴾^(٢). وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم، وقوله: ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ قال ابن عباس: أي لا يصنع من ذلك إلا ما شاء ولم يكن ليفعل. وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿أفلم يأنس الذين آمنوا﴾ أفلم يعلم الذين آمنوا، وقوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿أفلا يرون أننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾، قال الحسن: ﴿أو تحل قريباً من دارهم﴾: أي القارعة، وهذا هو الظاهر من السياق، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿تصيبهم بما

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن أبي حاتم، وبه قال ابن عباس والشعبي وقاتادة وغير واحد في سبب نزول هذه الآية.

صنعوا قارعة ﴿ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم ﴾ ﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ يعني نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم، وقال عكرمة في رواية عنه ﴿ قارعة ﴾: أي نكبة، ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ يعني فتح مكة، وقال الحسن البصري: يوم القيامة، وقوله: ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة: ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۖ ﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك ﴾ أي فلك فيهم أسوة، ﴿ فأملت للذين كفروا ﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أخذه راية فكيف بلغك ما صنعت بهم وكيف كان عقابي لهم ؟ كما قال تعالى: ﴿ وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير ﴾ . وفي الصحيحين: « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

﴿ أَفَنُؤْفِقُكُمْ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ۖ ﴾

يقول تعالى: ﴿ أفنؤفقكم على كل نفس بما كسبت ﴾ أي حفيظ علم رقيب على كل نفس منقوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ولا يخفى عليه خافية ﴿ ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾، وقال: ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾، وقال: ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾، وقال: ﴿ وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾، أفن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تكشف ضراً عنها ولا عن عابديها ؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان، ﴿ قل سموهم ﴾ أي أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال: ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ أي لا وجود له، لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ أم يظاھر من القول ﴾، قال مجاهد: بظن من القول، وقال الضحاك وقتادة: يبطل من القول، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتوها آلهة، ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾، ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ قال مجاهد: قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كقوله تعالى: ﴿ وقبضنا لهم قرآنا فزينا لهم ﴾ الآية، ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه صلوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿ ومن يضلل الله فإله من هاد ﴾، كما قال: ﴿ ومن يرد الله فتنته فلا تملك له من الله شيئاً ﴾، وقال: ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين ﴾ .

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾ * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار ، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك : ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ أي بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً ، ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿ أشق ﴾ أي من هذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة » ، وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه : فإن عذاب الدنيا له انقضاء ، وذلك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً ، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته ، كما قال تعالى : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴿ ولهذا قرن هذا بقوله : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي صفتها ونعتها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي سارحة في أرجائها وجوانبها ، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً ، أي يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا ، كقوله : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء . وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف ، وفيه قالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكت ، فقال : « إني رأيت الجنة - أو أريت الجنة - فتناولت منها عبقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » . وقال الحافظ أبو يعلى ، عن جابر قال : بينما نحن في صلاة الظهر ، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا ، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر ، فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب : يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه ، فقال : ﴿ إني عرضت عليّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة ، فتناولت منها قطعاً من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه ، ولو آتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه » .

وروى الإمام أحمد والنسائي عن زيد بن أرقم قال : جاء رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم ، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال : « نعم » ، والذي نفس محمد بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة » ، قال : إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة الأذى ، قال : « تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه » ، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال ، قال لي رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فيخبر بين يديك مشوياً » ، وجاء في بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان ياذن الله تعالى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ ، وقال : ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ ، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى : ﴿ لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظللاً ظليلاً ﴾ . وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها » ثم قرأ : ﴿ وظل ممدود ﴾ وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذر من النار ، ولهذا لما ذكر صفة الجنة

بما ذكر قال بعده: ﴿تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾، كما قال تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون﴾.

وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهٌ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِدُ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ وهم قائلون بمقتضاه ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة، كما قال الله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا - إلى قوله - إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ أي إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة وكائناتاً وقوله: ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ أي ومن الطوائف من يكذب بعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد ﴿ومن الأحزاب﴾: أي اليهود والنصارى ﴿من ينكر بعضه﴾ أي بعض ما جاءك من الحق، وهذا كما قال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ الآية، ﴿قل إنما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾، أي إنما بعث بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، ﴿إليه أَدْعُو﴾ أي إلى سبيله أَدْعُو الناس، ﴿وإليه مآبٌ﴾ أي مرجعي ومصيري، وقوله: ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وقوله: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ أي آراءهم ﴿بعد ما جاءك من العلم﴾ أي من الله سبحانه، ﴿ما لك من الله من وليٍّ ولا واقٍ﴾، وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبيل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية، والمحجة الحميدة على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنا منكم، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقوله: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق، إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿لكل أجل كتاب﴾ أي لكل مدة مضرورة كتاب مكتوب بها وكل شيء عنده

بمقدار، ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾. وكان الضحك يقول: ﴿لكل أجل كتاب﴾: أي لكل كتاب أجل، يعني لكل كتاب أنزل من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ منها ﴿ويثبت﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ اختلف المفسرون في ذلك: فقال الثوري، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت. وفي رواية ﴿يمحو الله ويثبت﴾ قال: كل شيء إلا الموت والحياة، والشقاء والسعادة، فإنه قد فرغ منهما^(١)، وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: أرايت دعاء أحدنا، يقول: اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبتته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامححه عنهم، واجعله في السعداء، فقال: حسن، ثم لقينته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ الآيتين، قال: يقضى في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو معصية، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير، وقال الأعمش عن أبي وائل: إنه كان كثيراً يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبنا أشقياء فامححه، وكتبنا سعداء، وإن كنت كتبنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب^(٢)، وقال ابن جرير، عن أبي عثمان الهندي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويكي: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامححه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة.

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب بصييه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»^(٣) وثبت في الصحيح أن صلة الرحم يزيد في العمر، وفي حديث آخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض». وقال الكلبي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، وقال العوفي عن ابن عباس: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو؛ والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿وعنده أم الكتاب﴾، وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب، وقال مجاهد: قالت كفار قريش لما نزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث في كل رمضان، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم. وقال الحسن البصري ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ قال: من جاء أجله يذهب ويثبت الذي هو حي يجري إلى

(١) وهذا قول مجاهد أيضاً حيث قال: إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتغيران.

(٢) أخرجه ابن جرير.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.

أجله، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله، وقوله: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ قال: الحلال والحرام، وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله، وقال ابن جريج عن ابن عباس: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ قال: الذكر.

وإِن مَّا تُرِيْنَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ مَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

يقول تعالى لرسوله: ﴿وإما نرينك﴾ يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزري والكنال في الدنيا، ﴿أو نتوفيك﴾ أي قبل ذلك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد فعلت ما أمرت به ﴿وعلىنا الحساب﴾ أي حسابهم وجزاؤهم كقوله تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم﴾ ثم إن علينا حسابهم. وقوله: ﴿أولم يروا أننا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قال ابن عباس: أولم يروا أننا نفتح ل محمد ﷺ الأرض بعد الأرض، وقال مجاهد وعكرمة: ﴿ننقصها من أطرافها﴾ قال: خرابها، وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين، وقال: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض، وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك^(١)، ولكن تنقص الأنفس والثمرات، وقال ابن عباس في رواية: خرابها يموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها. وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء، وأنشد أحمد بن نزال:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها متى يموت عالم منها يموت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها وإن أبى عاد في أكنافها التلف

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قربة بعد قربة، كقوله: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلَّمُ الْكَفْرُ لِمَن عُقِبِيَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ يرسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ وقوله: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كل عامل بعمله، ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبي الدار﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل، كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة والله الحمد والمنة.

* وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى: يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لست مرسلًا﴾ أي ما أرسلك الله، ﴿قل كفى بالله شهيداً

(١) الحُشَّ والحِش: البستان، قال في القاموس: الحُشُّ مثلثة: المخرج لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين.

يُني ويُنكم ﴿أي حسي الله هو الشاهد عليّ وعليكم﴾، شاهد عليّ فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان، وقوله: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ قيل نزلت في عبد الله بن سلام، وهذا القول غريب، لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة، والأظهر في هذا ما قاله ابن عباس: هم من اليهود والنصارى، وهو يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذين يحملونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾، وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة .

[تمّ تفسير سورة الرعد ، والله الحمد والمنة] .



(١٤) سُورَةُ الْاٰزِمِ مَكِّيَّةٌ
وَاٰيَاتُهَا ثِنْتَانِ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَلرَّكِيْبُ اَنْزَلْنَاهُ اِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ اِلَى النُّوْرِ بِاِذْنِ رَبِّهِمْ اِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيْزِ الْحَمِيْدِ ﴿١﴾
اَللّٰهُ الَّذِيْ لَهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ وَّوَيْلٌ لِلْكَٰفِرِيْنَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيْدٍ ﴿٢﴾ الَّذِيْنَ يَسْتَحِبُّوْنَ
اَلْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْاٰخِرَةِ وَيَصُدُّوْنَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ وَيَبْغُوْنَهَا عَوْجًا اُولٰٓئِكَ فِى ضَلٰلٍ بَعِيْدٍ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿ كتاب أنزلناه إليك ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو (القرآن العظيم) الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم، ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي، إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: ﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ ياذن ربهم ﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره، يهديهم ﴿ إلى صراط العزيز ﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿ الحميد ﴾ أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعته وأمره ونهيه، الصادق في خبره، ﴿ الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ بالجر على الاتباع صفة للجلالة، كقوله تعالى: ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض ﴾ الآية. وقوله: ﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ أي ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي يقدمونها ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم. ﴿ ويصلون عن سبيل الله ﴾ وهي اتباع الرسل، ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عاتلة، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق لا يرجي لهم والحالة هذه صلاح.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيْزُ
الْحَكِيْمُ ﴿٤﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغه قومه». وقوله: ﴿يفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يفضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿وهو العزيز﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿الحكيم﴾ في أفعاله يفضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا. قال مجاهد: هي التسع الآيات، ﴿أن أخرج قومك﴾ أي أمرناه قائلين له: ﴿أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان، ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ أي بأباده ونعمه عليهم^(١)، في إخراجهم إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائهم إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم الغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد. وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهن، لعبرة لكل ﴿صبار﴾ أي في الضراء، ﴿شكور﴾ أي في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له».

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَبِيدٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا

(١) ورد تفسير ﴿أيام الله﴾ بالنعم في حديث مرفوع في المسند عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ قال: بنعم الله، قال ابن كثير: وورد موقوفاً وهو أشبه.

يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنتقمهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال: ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل ﴿ بلاء ﴾ أي اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا، وهذا - والله أعلم - كقوله تعالى: ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾، وقوله: ﴿ وإذ تأذن ربكم ﴾ أي أذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وإلى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى: ﴿ وإذ تأذن ربك ليعنن عليهم إلى يوم القيامة ﴾. وقوله: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿ ولئن كفرتم ﴾ أي كفرتم النعم وسترتموها وحدثتموها، ﴿ إن عذابي لشديد ﴾ وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء الحديث: « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه ». وقوله تعالى: ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ أي هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره .

الرَّيَا تَكْرُ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ

مريب ٤

قص الله علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددهم إلا الله عز وجل، ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات، وقوله: ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ اختلف المفسرون في معناه، قيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمر ونهم بالسكوت عنهم لما دعواهم إلى الله عز وجل، وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم، وقال مجاهد وقتادة: معناه أنهم كذبوا وردوا عليهم قولهم بأفواههم، ويؤيد قول مجاهد: تفسير ذلك بنام الكلام ﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ فكان هذا - والله أعلم - تفسير لمعنى: ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾، وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به الآية، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به فإن عندنا فيه شكاً قوياً .

* قَالَتْ رُسُلُهُمْ أِنِّي إِلَهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ٥ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ٦ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ

عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

يغبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أمهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أفي الله شك﴾، أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصول إلى وجوده، ولهذا قالت الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه: ﴿فاطر السموات والأرض﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحوادث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلا اله ومليكه، وقالت لهم رسلهم: ﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي في الدار الآخرة، ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي في الدنيا، فقالت لهم الأمم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾ أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة، ﴿فأتونا بسلطان مبين﴾ أي خارق تقترحه عليكم، ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ أي صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية، ﴿ولكن الله يمين على من يشاء من عباده﴾ أي بالرسالة والنبوة، ﴿وما كان لنا أن تأتیک بسلطان﴾ على وفق ما سألتهم ﴿إلا بإذن الله﴾، أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي في جميع أمورهم. ثم قالت الرسل: ﴿وما لنا أن لا نتوكل على الله﴾ أي وما يمنعنا من التوكل عليه؟ وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، ﴿ولنصبرنَّ على ما آذيتُمونا﴾ أي من الكلام السيء والأفعال السخيفة، ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِّنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَجْعَلُهُ لَآيِكَادُ يُسِفُّهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۚ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

يغبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولن آمن به: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ الآية، وكما قال قوم لوط: ﴿أخرجوا آل لوط من قريتنكم﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين. ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾، كما قال تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾، وقال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقال تعالى: ﴿وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾، وقال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾، وقوله: ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ أي وعيدي، هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي وهو مخوفني وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فأما من طغى وأثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾،

وقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، وقوله: ﴿واستفتحوا﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومهم^(١)، وقال ابن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسهم، كما قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، ويحتمل أن يكون هذا مراداً، وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم﴾ الآية، ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ أي متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد، منع للخير معتد مريب﴾. وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد» الحديث، وقوله: ﴿من ورائه جهنم﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾، وكان ابن عباس يقرؤها: وكان أمامهم ملك، أي من وراء الجبار العنيد جهنم، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غداً وعشياً إلى يوم التناد، ﴿ويسقى من ماء صديد﴾ أي في النار ليس له شراب إلا من حمم وغساق، كما قال: ﴿هذا فليذوقوه حمم وغساق وآخر من شكله أزواج﴾، وقال مجاهد: الصديد من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر فقد خالط القيح والدم، وفي حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ابن السكن قالت، قلت: يا رسول الله ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار»، وفي رواية: «عصارة أهل النار»، وقال الإمام أحمد، عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾ قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره»، يقول تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً قطع أمعاءهم﴾، ويقول: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ الآية^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يتجرعه﴾ أي يتغصصه ويتكرهه، أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى يضره الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿ولهم مقامع من حديد﴾، ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع، ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ أي يألم له جميع بدنه من كل عظم وعصب وعرق، وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره، وقال ابن عباس: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه، لو كان يموت، ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾، ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه، اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليدخل في دوام العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾، وقوله: ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿فإنهم لا يكلون منها فالثون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوباً من حمم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في

(٢) أخرجه الإمام أحمد وابن جرير .

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

شرب حميم ، وتارة يردون إلى جحيم ، عياداً بالله من ذلك ، وهكذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأُنْثَى ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ هَذَا فَلْيُنُقَوْهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم ، وتكراره وأنواعه وأشكاله ، مما لا يحصى إلا الله عز وجل ، جزاء وفاقاً ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

هذا مثل ضرب به الله تعالى لأعمال الكفار ، الذين عبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت فقال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربههم أعمالهم ﴾ أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى ، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء ، فلم يجدوا شيئاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ في يوم عاصف ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية ، فلم يقدرُوا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا ، كقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح في صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فقله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا ﴾ ، ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة ، حتى فقلوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ يَسْأَلُ يَذْهَبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ، أفليس الذي قنر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها ، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد ، وأوتاد وبراري وصحارى وقفار وبحار وأشجار ، ونبات وحيوان ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ ، وقوله : ﴿ إن يسأله يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ . وما ذلك على الله بعزيز ﴿ أي بعظيم ولا منتهى ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَا لَكُم سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ ﴿٢١﴾

يقول تعالى : ﴿ وبرزوا ﴾ أي برزت الخلائق كلها ، برها وفاجرها لله الواحد القهار ، أي اجتمعوا له في براز

من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً، ﴿فقال الضعفاء﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿لللذين استكبروا﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، قالوا لهم: ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أي مهما أمرتمونا اتبعنا وفعلاً، ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعلوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين، ﴿سواء علينا أجزنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه. قال عبد الرحمن بن أسلم: إن أهل النار قالوا: تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببيكانهم وتضرعهم إلى الله عز وجل، تعالوا نبك وتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا أنه لا ينفعهم، قالوا: إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ الآية. قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وإذا يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾، وقال ﴿حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أحرهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون، وقال تعالى: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً﴾، وأما نخاصهم في المحشر فقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين﴾.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغناً إلى غبنهم وحسرة إلى حسرتهم فقال: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ أي على السنة رسله ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غوراً﴾ ثم قال: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به، ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فلا تلوُموني﴾ اليوم، ﴿ولوُموا أنفسكم﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتهم الحجج، واتبعتوني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿ما أنا بمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بنافعكم ومنقذكم

ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وما أنتم بمصرخي﴾ أي بنافمي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال قتادة: أي بسبب ما أشركتموني من قبل، قال ابن جرير: يقول إني جمحت أن أكون شريكاً لله عز وجل، وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين، وقال: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾. وقوله: ﴿إن الظالمين﴾ أي في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم، والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا، قال الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول تعالى لعيسى بن مريم: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟﴾ قال: ويقوم إبليس لعنه الله فيقول: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ الآية، ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس عطف بمآل السعداء، فقال: ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا، ﴿خالدين فيها﴾ ما كين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿يأذن ربهم نحتهم فيها سلام﴾، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا جاؤوها وفُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾، وقال تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾، وقال تعالى: ﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثِّلَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَأْلَها مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

قال ابن عباس: قوله: ﴿مثل كلمة طيبة﴾: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كشجرة طيبة﴾ وهو المؤمن ﴿أصلها ثابت﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وفرعها في السماء﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وقال البخاري عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم، لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، قال ابن عمر: فوق في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلن، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلن أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتما أحب إلي من كذا وكذا. وعن ابن عباس: ﴿كشجرة طيبة﴾ قال: هي شجرة في الجنة. وقوله: ﴿تؤتي أكلها كل حين﴾ قيل: غدوة وعشياً، وقيل: كل شهر، وقيل كل شهرين، وقيل غير ذلك. والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمرة في كل وقت، من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آتاء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿بإذن ربها﴾ أي كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم

يتذكرون ﴿١﴾. وقوله تعالى: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، مشبه بشجرة الحنظل^(١)، وقوله: ﴿اجتثت﴾ أي استؤصلت ﴿من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شيء.

* يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ

مَا يَشَاءُ ﴿٢﴾

روى البخاري، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾^(٣). وقال الإمام أحمد، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فأتينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال: «استعينوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان - قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها يعني على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى يتنوها به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتى ينهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عِلين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: «ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي كنت يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجه

(١) روي هذا في حديث مرفوع أن الشجرة الخبيثة هي الحنظلة، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

(٢) ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة.

معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر، ثم يحيى ملك الموت، فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب - قال - فتفرق في جسده فينتزع كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأتنت ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصلعون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِ الْخِيَاطِ﴾، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طراحاً - ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له ما دينك؟ فيقول هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب عبيدي، فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت تعد، فيقول: ومن أنت فوجهك الوجه يحيى بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - قال - ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمريته، فينطلق به إلى ربه عز وجل فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن كان الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد - وذكر من تنها، وذكر مقتاً ويقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ربطة كانت عليه على أنفه هكذا. وقال ابن حبان في صحيحه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قبض أته ملائكة الرحمة بحريرة يضاء فيقولون: اخرجي إلى روح الله، فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونهم حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان، فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غم، فيقول: قد مات أما أتاكم، فيقولون: ذهب إلى أمه الهاوية، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأتنت ريح جيفة، فيذهب به إلى الأرض».

وروى العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا مع جنازته، ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ، فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فيوسع له في قبره مد بصره . وأما الكافر فتتزل عليه الملائكة فيسطلون أيديهم، والبسط هو الضرب ﴿ يضرِبون وجوههم وأدبارهم ﴾ عند الموت، فإذا أدخل قبره أقعد ، فقيل له : من ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئاً ، وأنساه الله ذكر ذلك ، وإذا قيل : من الرسول الذي بعث إليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً ﴿ كذلك يضل الله الظالمين ﴾ . وقال ابن أبي حاتم ، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ الآية ، قال : إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره ، فيقال له : من ربك ؟ فيقول : الله ، فيقال له : من نبيك ؟ فيقول : محمد بن عبد الله ، فيقال له : ذلك مرات ثم يفتح له باب إلى النار ، فيقال له : أنظر إلى متارك من النار لو زغت ، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له : انظر إلى متارك من الجنة إذا ثبت . وإذا مات الكافر أجلس في قبره فيقال له : من ربك ؟ من نبيك ؟ فيقول : لا أدري ، كنت أسمع الناس يقولون ، فيقال له : لا دريت ، ثم يفتح له باب إلى الجنة ، فيقال له : انظر إلى متارك إذا ثبت ، ثم يفتح له باب إلى النار ، فيقال له : انظر إلى متارك إذ زغت ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ . وقال عبد الرزاق : عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ﴾ قال : لا إله إلا الله ﴿ وفي الآخرة ﴾ : المسألة في القبر ، وقال قتادة أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿ وفي الآخرة ﴾ : في القبر . وكذا روي عن غير واحد من السلف ، وعن عثمان رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل »^(١) .

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٨﴾
وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٢٩﴾

قال البخاري : قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ ، ألم تعلم ، كقوله ﴿ ألم تر كيف ﴾ ، ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا ﴾ . البوار : الهلاك ، بار بيور بوراً ، ﴿ قوماً بوراً ﴾ هالكين . حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء سمع ابن عباس : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هم كفار أهل مكة . والمعنى جميع الكفار ، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس ، فن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل النار . وقال ابن أبي حاتم : قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : ألا أحد يسألني عن القرآن ؟ فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني وإن كان من وراء البحار لأتيته ، فقام عبد الله بن الكواء ، فقال : مَنْ ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ ؟ قال : مشركو قريش أنهم نعمة الله الإيمان ، فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . وقال سفيان الثوري ، عن عمر بن الخطاب في قوله ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هم الأفجرا من قريش : بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفبتهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فتموا إلى حين . وكذا رواه حمزة الزيات عن عمرو بن مرة قال ، قال ابن عباس لعمر

ابن الخطاب: يا امير المؤمنين هذه الآية: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار﴾ قال: هم الأفجرون من فريش أخوالي وأعمامك، فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين. وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر؛ وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع عن ابن عمر. وقوله: ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله﴾، أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى: مهتدأ لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا فهما يكن من شيء ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ أي مرجعكم وموتلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿نعمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾. وقال تعالى: ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾.

✽ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾

يقول تعالى آمراً عباده بطاعته، والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة، وأن ينفقوا مما رزقهم الله، بأداء الزكوات والتفقه على القربات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإِنْفَاقِ مما رزق في السر، أي في الخفية والعلانية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ وهو يوم القيامة، ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾ أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾. وقوله: ﴿ولا خلال﴾ قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مخاللة خليل فيصبح عن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته، بل هناك العدل والقسط، يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفع صداقة أحد ولا شفاعة أحد، إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكَ وَخَرَلَكَ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَخَرَلَكَ الْأَنْهَارَ ۚ وَخَرَلَكَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَخَرَلَكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَآسَلٍ مِّمَّوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٢﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً، ﴿وأنزله من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً بكم﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، مجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها

من إقليم إلى إقليم آخر جلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقاً للعباد، ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ أي يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾، ﴿يفشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصّر، ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار﴾، وقوله: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ يقول: هيا لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم بما تسألونه بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، وقوله: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أنقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسا تائبين. وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا». وقد روي في الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم. وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها، وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة مني لها لغة تتني عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أبلغ في الإحسان والمنن

وَمَا ذَكَرَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ قَدْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة، إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه آهلة تبرا ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾، وقد استجاب الله له فقال تعالى: ﴿أو لم يروا أننا جعلنا محرماً آمناً﴾ الآية. وقال في هذه القصة: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ فعرّفه لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق﴾، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، وقوله: ﴿واجنّبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلافت من الناس، وأنه تبرا ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا بمجوز وقوع ذلك. قال عبد الله بن وهب، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رب إنهم أضلّلني كثيراً من الناس﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ الآية، ثم رفع يديه ثم قال: «اللهم أمّتي، اللهم أمّتي، وبكى، فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك

أعلم؛ وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سرضيك في أمتك ولا نسوؤك.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿عند بيتك المحرم﴾. وقوله: ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ أي إنما جعلته محرماً ليمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾، قال ابن عباس^(١): لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿من الناس﴾ فاختص به المسلمون. وقوله: ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجيبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام (مكة) شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربِّي لسميع الدعاء﴾ أي أنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد، ثم قال: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة﴾ أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿ومن ذريتي﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها^(٢)، ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ أي فيما سألتك فيه ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي﴾، وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عدوانته لله عز وجل ﴿وللمؤمنين﴾ أي كلهم ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

(١) وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما.

(٢) يعني بذريته: بني إسماعيل الذين تناسلت فيهم عرب الحجاز. وقيل أيضاً عرب اليمن، وذريته اثنا عشر رجلاً وامراً.

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٦﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْقَدْتُهُمْ هَوَاءً ﴿٤٧﴾

يقول تعالى: ولا تحسبن الله - يا محمد - غافلاً عما يعمل الظالمون، أي لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم، مهمل لم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعدّه عليهم عدلاً، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي من شدة الأحوال يوم القيامة: ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عَوَجَ لَهُ﴾. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً﴾ الآية، وقوله: ﴿مُقْنِي رُءُوسِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مدبمون النظر، لا يطفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم عياداً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَفْقَدْتُهُمْ هَوَاءً﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجع والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفقدتهم خالية، لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: هي خراب لا تمي شيئاً لشدة ما أخبر به تعالى عنهم، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ:

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ۖ أُولَٰئِكَ تَكُونُوا أَقْسَمُ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ۖ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ۖ وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ۖ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قبل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾، كقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلَوْا أَمْوَالَكُمْ﴾ الآيتين، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمَجْرُمُونَ نَاكسُوا رُءُوسَهُمْ﴾ الآية، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بَيَّاتٍ رَبَّنَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا﴾ الآية، قال تعالى راداً عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمُ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء فنوقوا هذا بذلك، قال مجاهد وغيره: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾: أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ مِثْلِهِ﴾ الآية، ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأنام المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فينا أوقعتنا بهم لكم مزدجر ﴿حِكْمَةً بَالِغَةً فَا تَغْنِي النَّذْرُ﴾. وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ

مكرهم لتزول منه الجبال ﴿١٧﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم، ويشبه هذا قول الله تعالى: ﴿١٨﴾ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴿١٩﴾، والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿٢٠﴾ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴿٢١﴾ يقول: شركهم كقوله: ﴿٢٢﴾ تكاد السموات والأرض يتفطرن منه ﴿٢٣﴾ الآية، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

﴿٢٤﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٢٥﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكداً ﴿٢٤﴾ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴿٢٥﴾ أي من نصرته في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراد به ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحدته، ﴿٢٦﴾ فويل يومئذ للمكذبين ﴿٢٧﴾، ولهذا قال: ﴿٢٨﴾ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴿٢٩﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، كما جاء في الصحيحين، عن سهل بن سعد قال، قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد»، وقال الإمام أحمد، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿٣٠﴾ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴿٣١﴾ قالت، قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط»^(١). وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء خبر من أحبار يهود فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد بصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي»، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيئاً إن حدثتك؟» فقال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل»، فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»، قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: «فقراء المهاجرين»، فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون»، قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم نور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها»، قال: فما شراهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلاً»، قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: «أينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني، قال جئت أسألك عن الولد، قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة كان ذكراً بإذن الله تعالى، وإذا علا مني المرأة مني الرجل كان أنثى بإذن الله»، قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به».

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى أبو جعفر بن جرير الطبري، عن عمرو بن ميمون يقول: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي حفاة عراة كما خلقوا، قال، أراه قال قياماً حتى يلجمهم العرق، وعن عمرو بن ميمون عن عبد الله عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة»^(١). وقال الربيع، عن أبي بن كعب قال: تصوير السماوات جنائناً. وقال الأعمش، عن عبد الله بن مسعود: الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها ترى أكوأها وكواعها، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى ترشح في الأرض قلعه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب، قالوا: مم ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال لما يرى الناس ويلقون. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن كعب في قوله: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ قال: تصوير السماوات جنائناً ويصير مكان البحر ناراً وتبدل الأرض غيرها. وقوله: ﴿وبرزوا لله﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الواحد القهار﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب وخضعت له الأبواب.

وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿١٤﴾ سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانَ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿١٥﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ وتبرز الخلائق لديانها ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجزوا بكفرهم وفسادهم، ﴿مقرنين﴾ أي بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾، وقال: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾، وقال: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾، وقال: ﴿والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ والأصفاد هي القيود^(٢)، قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا ، بالثياب وبالسايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله تعالى: ﴿سرابيلهم من قطران﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تنهأ به الإبل، أي تظلي، قال قتادة: وهو ألصق شيء بالنار، وكان ابن عباس يقول: القطران هو النحاس المذاب^(٣)، أي من نحاس حار قد انتهى حره، وقوله: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾، كقوله: ﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحنون﴾، وقال الإمام أحمد، عن أبي مالك الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والظعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»^(٤)، وقوله: ﴿ليجزى الله كل نفس ما كسبت﴾ أي يوم

(١) رواه الحافظ أبو بكر البزار .

(٢) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد .

(٣) وهو مروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير و قتادة .

(٤) أخرجه مسلم والإمام أحمد في المسند .

القيامة ﴿ليجزى الذين أساموا بما عملوا﴾ الآية، ﴿إن الله سريع الحساب﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز، لأنه يعلم كل شيء ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سريع الحساب﴾ إحصاء، ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين والله أعلم.

هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ الآية، ﴿وليُنذروا به﴾ أي ليتعظوا به، ﴿وليَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿وليَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ذوو العقول.

[آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والحمد لله رب العالمين] .



(١٥) سِيَرَةُ الْخَيْرِ وَمَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا تَسْبُحُ وَتُسَبِّحُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ① رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرَهُمْ يَا كَلُوا
وَيَسْتَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③

لقد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله تعالى: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين، ونقل السدي عن ابن عباس، أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين، وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً، وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾، وقال بعضهم: يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعملون في الدنيا، قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾^(١). وقال مجاهد: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك قال الله: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فعند ذلك قوله: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة، فقال الحافظ الطبراني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: ﴿لا إله إلا الله﴾ وأنتم معنا في النار؟ فيغضب الله لهم، فيخرجهم فيلقونهم في نهر الحياة، فيبرؤون من حرهم، كما يبرأ القمر من خسوفه، ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين».

(الحديث الثاني): عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل

(١) روى هذا القول ابن جرير عن ابن عباس وأنس بن مالك وقال: كانا يتأولان الآية: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ بذلك التأويل.

النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا - قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مَبِينٍ﴾ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴿١٥﴾. وقوله: ﴿ذُرِّمُوا يَأْكُلُونَ وَيَسْمَعُونَ﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَتَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مَجْرُمُونَ﴾، ولهذا قال: ﴿وَيَلْهَمُهُمُ الْأَمْلَ﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿فسوف يعلمون﴾ أي عاقبة أمرهم.

* وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَهِيَ كَآبٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦﴾ مَا تَسْقِي مِنْ أَمَةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَفْعِرُونَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدهم، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشادهم، إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك.

وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١٨﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٢٠﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٢١﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي الذي تدعي ذلك، ﴿إنك لمجنون﴾ أي في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا، ﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾ أي هلا، ﴿تأتينا بالملائكة﴾ أي يشهدون لك بصحة ما جئت به كما قال فرعون: ﴿فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾، وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً، وكذا قال في هذه الآية: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾: بالرسالة والعذاب، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٢﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٣﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٤﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش، إنه أرسل من قبله من الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزؤا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا

واستكبروا عن اتباع الهدى، قال أنس والحسن البصري: ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾: يعني الشرك، وقوله: ﴿قد خلقت سنة الأولين﴾: أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ١٤ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ ١٥

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك بل قالوا: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾ قال مجاهد والضحاك: سدت أبصارنا، وقال قتادة عن ابن عباس: أخذت أبصارنا. وقال العوفي عن ابن عباس: شبه علينا وإنما سحرنا، وقال الكلبي: عمت أبصارنا.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ ١٦ ﴿وَخَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَآنٍ رَّجِيمٍ﴾ ١٧ ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ ١٨ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ ١٩ ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِئَةٍ مَّعَدَّةً وَمِنْ لَّدُنَّا بِرَازِقِينَ﴾ ٢٠

يلكو تعالى خلقه السماء في ارتفاعها، وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات، لمن تأمل وكرر النظر فيها يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه، ولهذا قال مجاهد وقاتدة: البروج ههنا هي الكواكب وهذا كقوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ الآية. ومنهم من قال: البروج هي منازل الشمس والقمر، ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومدّه إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة، وقال ابن عباس: ﴿من كل شيء موزون﴾: أي معلوم^(١)، ومنهم من يقول: مقدر بقدر، وقال ابن زيد: من كل شيء يوزن ويقدر بقدر، وقوله: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ المعايش وهي جمع معيشة، وقوله: ﴿ومن لستم له برازقين﴾، قال مجاهد: هي الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

﴿وَلَا مَن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ٢١ ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ ٢٢ ﴿وَلَا نَأْتِيهِمْ لَيْلٌ وَنَحْنُ نَحْمِيءُ وَنُحْيِي وَيَمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ ٢٣ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ

مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

يغير تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ كما يشاء وكما يريد، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده، لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة. قال ابن مسعود في قوله: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ ما عام بأكثر مطراً من عام، ولا أقل، ولكنه يحطر قوم، ويحرم آخرون بما كان في البحر، قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت^(١)، وقوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ أي تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر، فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردتها ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج، وقال أعمش، عن عبد الله ابن مسعود في قوله: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ قال: ترسل الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تمر مر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة^(٢)، وقال الضحاك: يبعث الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء، وقال عبيد بن عمير اللبثي: يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قمأً، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾.

وقوله تعالى: ﴿فأسقيناهم كموه﴾ أي أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ كما نبه على ذلك في قوله تعالى: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون﴾ أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المتزلون. لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون، وقوله: ﴿وما أنتم له بمجازين﴾، قال سفيان الثوري: بمانعين؛ ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً وحفظه في العيون والآبار والأنهار، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم. وقوله: ﴿وإنا لنحن نحيي ونميت﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم، ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر تعالى بأنه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون. ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم فقال: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم﴾ الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمتأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله. وقال ابن جرير، عن مروان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء، فأنزل الله: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المتأخرين﴾^(٣).

وروى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر عن أبيه أنه سمع عون بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المتأخرين﴾ وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب:

(١) رواه ابن جرير عن عبد الله بن مسعود. (٢) وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي والضحاك.

(٣) قال ابن كثير: ورد فيه حديث غريب جداً رواه أصحاب السنن وفيه نكارة شديدة وهو أنه كانت تصلي خلف النبي ﷺ امرأة حسناء، وكان بعض المسلمين إذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم فقتلت الآية. وقد نبه رحمه الله إلى نكارة هذه الرواية وضعفها.

ليس هكذا ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ : الميت والمقتول ، ﴿ والمستأخرين ﴾ من يخلق بعد ، ﴿ وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾ ، فقال عون بن عبد الله : وفقك الله وجزاك خيراً .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ﴿٢٧﴾

قال ابن عباس : المراد بالصلصال التراب اليابس ، كقوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ . وعن مجاهد : (الصلصال) المتن ، وتفسير الآية بالآية أولى ، وقوله : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ أي الصلصال من حمأ وهو الطين ، والمسنون الأملس ، وروي عن ابن عباس أنه قال : هو التراب الرطب ، وعن ابن عباس ومجاهد : أن الحمأ المسنون هو المتن ، وقيل : المراد بالمسنون ههنا المصبوب . وقوله : ﴿ والجآن خلقناه من قبل ﴾ أي من قبل الإنسان ، ﴿ من نار السوم ﴾ قال ابن عباس : هي السوم التي تقتل ، وعن ابن عباس : أن الجآن خلق من لب النار ، وقد ورد في الصحيح : « خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجآن من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم »^(١) ، والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام ، وطيب عنصره وطهارة محتده .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَبْنَئُ بَلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَئِنْ أَكُنْ لَآتِجِدُ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾

يذكر تعالى تنبيهه بذكر آدم في ملائكته ، قبل خلقه له وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس علوه عن السجود له حسداً وكفراً ، وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل ، ولهذا قال : ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ ، كقوله : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ .

قَالَ فَأَخْرِجْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأُظْهِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس بالخروج من المنزل التي كان فيها من الملائكة الأعلى ، وأنه رجم أي مرجوم ، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة ، وعن سعيد بن جبير أنه قال : لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صور الملائكة ، ورن رنة ، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها^(٢) . وأنه لما تحقق الغضب الذي

(١) رواه مسلم وأحمد عن عائشة .

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير .

لا مرد له سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله قال ما قصّه الله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣٩) ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٤٠) ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٤١) ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَكَلِمَةٍ لَّعَلَّهُمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (٤٢) ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤٣) ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ (٤٤)

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعته أنه قال للرب : ﴿ بما أغويتني ﴾ أي بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿ لأزينن لهم ﴾ أي لذرية آدم عليه السلام، ﴿ في الأرض ﴾ أي أحب إليهم المعاصي وأرعبهم فيها، ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ أي كما أغويتني وقدرت علي ذلك، ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾، كقوله : ﴿ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾، ﴿ قال ﴾ الله تعالى له متهدداً ومتوعداً، ﴿ هذا صراط عليّ مستقيم ﴾ أي مرجعكم إليّ فأجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فأخير وإن شراً فأشر، وقيل : طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي^(١)، كقوله : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾، وقوله : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ أي الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ استثناء منقطع، ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس كما قال عن القرآن، ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب^(٢) ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ أي قد كتب لكل باب منها جزء من اتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه أجازنا الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله ويستقر في درك بقدر عمله، وعن علي بن أبي طالب أنه قال : إن أبواب جهنم هكذا أطباق بعضها فوق بعض، وعن هبيرة بن أبي مریم عن علي رضي الله عنه قال : أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول ثم الثاني ثم الثالث، حتى تمتلئ كلها. وقال عكرمة : سبعة أبواب سبعة أطباق، وقال ابن جريج : سبعة أبواب أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية^(٣)، وقال قتادة ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ : هي والله منازل بأعمالهم، وقال الترمذي، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمي - أو قال على أمة محمد - »^(٤). وقال ابن أبي حاتم، عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ قال : « إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حيزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازلهم بأعمالهم، فذلك قوله : ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ » .

(١) قاله مجاهد والحسن وقتادة .

(٢) في اللباب : أخرج الثعلبي : أن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ قر ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل، فحجى به إلى النبي ﷺ ؟ فقال : يا رسول الله، أنزلت هذه الآية ؟ فالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي، فأنزل الله : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ . (٣) روى الضحاك عن ابن عباس نحوه، وكذلك روي عن الأعمش

(٤) رواه الترمذي وقال : لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَذْخُلُوها سَلَامًا ۖ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ * نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون. وقوله: ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي سألين من الآفات مسلم عليكم، ﴿أمين﴾ أي من كل خوف وفرع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء. وقوله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. عن أبي أمامة قال: لا يدخل الجنة مؤمن حتى يتبرع الله ما في صدره من غل حتى يتبرع منه مثل السبع الضاري، وهذا موافق لما في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار فيجسسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة». وقال ابن جرير: دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأياك من الذين قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. وعن أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعدما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأياك من الذين قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ قال: ورجلان جالسان إلى ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخواناً، فقال علي رضي الله عنه: قوما أبعد أرض وأسحقها، فمن هم إذاً إن لم أكن أنا وطلحة؟ وفي رواية: فقام رجل من همدان فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فصاح به علي صيحة، فظننت أن القصر تدهده لها، ثم قال: إذا لم تكن نحن فمن هم؟ وقال سفيان الثوري: جاء (ابن جرموز)، قاتل الزبير، يستأذن على علي رضي الله عنه فحجبه طويلاً، ثم أذن له: فقال له: أما أهل البلاء فتجفؤهم، فقال علي: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. وقال الحسن البصري، قال علي: فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. وقال الثوري في قوله: ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾ قال، هم عشرة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين، وقوله: ﴿متقابلين﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض، وفيه حديث مرفوع.

قال ابن أبي حاتم، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾ في الله ينظر بعضهم إلى بعض^(١). وقوله: ﴿لا يمسهم فيها نصب﴾ يعني المشقة والأذى، كما جاء في

(١) في الباب: أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين: أن هذه الآية: ﴿ونزعنا ما في صدورهم...﴾ نزلت في أبي بكر، وعمر، قيل: وأي غل؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تميم وبني عدي وبني هاشم كانوا أعداء، فلما أسلموا تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل على يسخن يده فيكدها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

الصحيحين: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب». وقوله: ﴿وما هم منها بمخرجين﴾، كقوله تعالى: ﴿خالدين فيها لا يغيغ عنها حولاً﴾، وقوله: ﴿نبئ عبادي أنني أنا الغفور الرحيم﴾. وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴿أي أخبر يا محمد عبادي أنني ذو رحمة وذو عذاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف، وذكر في سبب نزولها ما رواه ابن جرير عن ابن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه فقال: «لا أراكم تضحكون» ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع علينا القهقري فقال: «إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله يقول: لم تقنط عبادي؟» ﴿نبئ عبادي أنني أنا الغفور الرحيم﴾. وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴿. وقال قتادة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه».

وَنَبِّئَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أُبَشِّرُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بِشْرْنِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْطُ مِّن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضيف إبراهيم﴾، والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر، وكيف ﴿دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيد، ﴿قالوا لا توجل﴾ أي لا تخف، ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ أي إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة هود، ثم ﴿قال﴾ متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿أبشروني على أن مسني الكبر فم تبشرون﴾، فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، ﴿قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين﴾، فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

قَالَ فَاصْطَبِرْ كَرَاهِيَا أَلْمُوسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ ثَجَرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروح وجاءته البشري، إنه شرع يسألهم عما جاءوا له فقالوا: ﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الهالكين، ولهذا قالوا: ﴿إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ أي الباقين المهلكين.

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَّتَكُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه فدخلوا عليه داره قال: ﴿إنكم قوم منكرون﴾ قالوا بل جئتكم بما كانوا فيه يمترون ﴿يعتون بعبادهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم وحلوله بساحتهم﴾، وأتيناك بالحق ﴿كقوله تعالى: ﴿ما نزل الملائكة إلا بالحق﴾، وقوله: ﴿وإنا لصادقون﴾ تأكيداً لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه.

* فَأَسِرْ بِاهْلِكَ يِقْطِيعَ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَذْبَرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم؛ وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو يزجي الضعيف ويحمل المنقطع، وقوله: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال، ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل، ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ أي وقت الصباح، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إن موعدهم الصبح ليس الصبح بقريب﴾.

وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أُولَئِكَ نَهْجَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين ﴿قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون﴾ واتقوا الله ولا تخزون، وهذا إنما قاله لم قبل أن يعلم أنهم رسل الله، كما قال في سورة هود، وأما هنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله وعطف بذكر مجيء قومه ومحااجة لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أو لم نهك عن العالمين﴾ أي أو ما نهيتك أن تضيف أحداً؟ فأرشدهم إلى نساءهم وما خلق لهم ربه منهن من الفروج المباحة، هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء، وما إذا يصبحهم من العذاب المستقر. ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لعمرك إنهم لفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض. قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إنهم لفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١)، وقال قتادة: ﴿في سكرتهم﴾ أي ضلالتهم، ﴿يعْمَهُونَ﴾ أي يلعبون، وقال ابن عباس: ﴿لعمرك﴾ لعيشك، ﴿إنهم لفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يترددون.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٢﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّصِمْ ﴿٧٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام على السجيل في هود بما فيه كفاية، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: المتفرسين. وعن ابن عباس والضحاك: للناظرين، وقال قتادة: للمتعبين، وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتأملين. وقال ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد مرفوعاً قال، قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾^(١). وفي رواية عن ابن عمر: «اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»^(٢). وروى الحافظ البزار عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالنُّوْمِ». وقوله: ﴿وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّصِمْ﴾ أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب والقفذ للحجارة حتى صارت بحيرة متنتة خبيثة، بطريق مهيج مسالكة مستعمرة إلى اليوم، كقوله: ﴿وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾، وقال مجاهد والضحاك: ﴿وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّصِمْ﴾ قال: معلم، وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار، وإيجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسوله.

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مِّبِينٍ ﴿٧٨﴾

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، قال الضحاك: الأيكة: الشجر الملتف، وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلمة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مِّبِينٍ﴾ أي طريق مبين. قال ابن عباس: طريق ظاهر، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في إنذاره إياهم: ﴿وَمَا قَوْمَ لُوطَ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٠﴾ وَكَانُوا يُخَيِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨١﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٢﴾ فَاغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٣﴾

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبياً عليه السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع

(١) رواه الترمذي وابن جرير، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه. (٢) رواه ابن جرير.

المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْنُوبٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾، وذكر تعالى أنهم: ﴿كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْتًا أَمِينٍ﴾ أي من غير خوف ولا احتياج إليها بل أشراً ويطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ، وهو ذاهب إلى تبوك، فقتع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فبأكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»^(١). وقوله: ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ﴾ أي وقت الصباح من اليوم الرابع، ﴿فَأَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لكلا تضيق عليهم في المياه، فادفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الْجَمِيلُ
 ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ أي بالعدل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾، ثم أخبر نبيه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: ﴿فَاصْصَبْ عَنْهُمْ قُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وقال مجاهد وقتادة: كان هذا قبل القتال^(٢)، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض كقوله: ﴿أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

وَلَقَدْ أَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: كما أتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لفتنتهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك، ﴿وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أُن لم جانبك، كقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

(١) الحديث في الصحيح والسنن.

(٢) قال ابن كثير: وهو كما قال، فإن الآية مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة.

عزیز علیہ ما عنہم حریص علیکم بالمؤمنین رؤوف رحیم ﴿٩٣﴾ وقد اختلف في السبع المثاني ما هي ؟ فقال ابن مسعود وابن عباس: هي السبع الطوال، يعنون « البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس »^(١)، وقال سعيد: بين فيهن الفرائض والحلود والقصص والأحكام، وقال ابن عباس: بين الأمثال والخبر والعبر، ولم يعطهن أحد إلا النبي ﷺ، وأعطى موسى منهن ثنتين، (والقول الثاني) : انها الفاتحة وهي سبع آيات. قال ابن عباس: والبسلة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها، وقال قتادة: ذكر لنا أنها فاتحة الكتاب وأنها بثنيتين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع؛ واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد أورد البخاري رحمه الله ههنا حديثين: (أحدهما) عن أبي سعيد بن المولى قال: مرّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي فعداني، فلم آتته حتى صليت فاتيته، فقال: « ما منعك أن تأتيني ؟ » فقلت: كنت أصلي، فقال: « ألم يقل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد ؟ » فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال: « الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته ». (الثاني) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم »، فهذا نص في الفاتحة هي (السبع المثاني) والقرآن العظيم، ولكن لا يتاني وصف غيرها من السبع الطوال بذلك لما فيها من هذه الصفة، كما لا يتاني وصف القرآن بكاله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تتاني، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة والله أعلم. وقوله: ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ أي استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. ومن ههنا ذهب ابن عينة إلى تفسير الحديث الصحيح: « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » إلى أنه يستغنى به عما عداه، وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير، وقال ابن أبي حاتم عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: ضاف النبي ﷺ ضيف، ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: « يقول لك محمد رسول الله أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب »، قال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: « أما والله إني لأمين من في السماء، وأمين من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه »، فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾ إلى آخر الآية، كأنه يعزیه عن الدنيا. قال ابن عباس ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه. وقال مجاهد: ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ هم الأغنياء.

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقَسِّمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩٠﴾ فَوَرِّكَ

لَنَسَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٩﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

(١) وهو قول ابن عمر ومجاهد وسعيد بن جبیر والضحاك وغيرهم.

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إني أنا النذير المبين﴾ بين النذارة، نذير للناس من عذاب ألم، كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام، وقوله: ﴿المقتسمين﴾ أي المتحالفين، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح إتهم: ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبينه وأهله﴾ الآية، أي تقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾، ﴿أهلؤا الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ فكأنهم لا يكذبون بشيء من الدنيا إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين. قال عبد الرحمن بن زيد: المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبينه وأهله، وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدبلوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»، وقوله: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أي جزأوا كتبهم المترلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، قال البخاري عن ابن عباس: ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ قال: هم أهل الكتاب جزأوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه^(١). وقال عكرمة: العضه، السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضهة، وقال مجاهد: عضوه أعضاء قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين، وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر، وقالوا: مجنون، وقالوا: كاهن، فذلك العضين.

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن عباس: إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا يختلفوا فيكذب بعضهم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم قولوا لأسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن، قالوا: فنقول مجنون، قال ما هو بمجنون، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، قالوا: فإذا تقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر، ففترقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أصنافاً: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ أولئك النفر الذين قالوا لرسول الله . وقال ابن عمر في قوله: ﴿نسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: عن ﴿لا إله إلا الله﴾^(٢)، وقال ابن مسعود: والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، فيقول: ابن آدم ماذا غرك مني بي؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ وقال أبو جعفر، عن أبي العالية في قوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعملون، وعماذا أجابوا المرسلين، وقال ابن عيينة: عن عمكك وعن مالك، وقال ابن أبي حاتم، عن معاذ بن جبل قال، قال رسول الله

(١) وروي عن مجاهد والحسن والضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير نحو ذلك .

(٢) ورد فيه حديث مرفوع رواه الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ قال: عن ﴿لا إله إلا الله﴾ .

ﷺ: « يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعه، فلا ألفيك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك ». وقال ابن عباس في قوله: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾، ثم قال: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا؟

فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى أمراً رسول الله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإفاده والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾: أي أمضه؛ وفي رواية (افعل ما تؤمر). وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وعن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه، وقوله: ﴿ وأعرض عن المشركين » إنا كفيناك المستهزين ﴿ ٩٥ ﴾ أي بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ ولا تخفهم، فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فإبلاغ رسالته والله يعصمك من الناس ﴾. وعن أنس مراً رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم، فجاء جبريل - أحسبه قال: فغمزهم - فوقع في أجسادهم كهية الطعنة فقاتلوا ﴿ ٩٦ ﴾. وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزين خمسة نفر، وكانوا ذوي أستان وشرف في قومهم، من بني أسد بن عبد العزى (أبو زمعة) كان رسول الله ﷺ فيها بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: « اللهم أعم بصره وأكله ولده »، ومن بني زهرة (الأسود ابن عبد يغوث)، ومن بني مخزوم (الوليد بن المغيرة)، ومن بني سهم (العاص بن وائل)، ومن خزاعة (الحارث ابن الطلائع). فلما تهادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » إنا كفيناك المستهزين - إلى قوله - فسوف يعلمون ﴿ ٩٩ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴾ تهديد شديد ووعد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر. وقوله: ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ أي وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض، فلا يضيقك ذلك، ولا يشينك عن إبلاغك رسالة الله وتوكل عليه، فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة. ولهذا قال: ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. وقوله: ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾، قال البخاري عن سالم بن عبد الله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ قال:

الموت^(١). والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ حتى أتانا اليقين^(٢). وفي الصحيح: «أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير»^(٣). ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»، ويستدل بها على تحطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا - هم وأصحابهم - أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه، والله الحمد والمنة.

[آخر تفسير سورة الحجر ، والحمد لله رب العالمين] .



(١) وهكذا روي عن مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد وغيرهم أنهم فسروا اليقين بالموت .
 (٢) قاله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، فقالت أم العلاء : رحمة الله عليك ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدرك أن الله أكرمه » الحديث .

(١٦) سُورَةُ النَّجْمِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الْمَأْمُونُونَ وَمَارِئَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها، معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾، وقال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾، وقوله ﴿فلا تستعجلوه﴾ أي قرب ما تباعد فلا تستعجلوه، والضمير يعود على العذاب، كقوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون﴾، فإنهم استعجلوا العذاب قبل كونه استبعاداً وتكذيباً، ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة^(١)، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾

يقول تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح﴾ أي الوحي كقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾، وقوله: ﴿على من يشاء من عبادهم﴾ وهم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾، وقال: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾، وقال: ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عبادهم﴾، وقوله: ﴿أن أنذروا﴾ أي لينذروا ﴿أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ أي فاتقوا عقوبي لمن خالف أمري وعبد غيري.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السماوات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للبعث بل ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾، ثم نزه نفسه عن شرك

(١) في الباب: أخرج ابن مردويه: لما نزلت ﴿أتى أمر الله﴾ وغمر أصحاب رسول الله حتى نزلت ﴿فلا تستعجلوه﴾ فسكتوا - وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد: لما نزلت ﴿أتى أمر الله﴾ قاموا، فنزلت: ﴿فلا تستعجلوه﴾.

من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ؛ فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له ، ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿ من نطفة ﴾ أي مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله ، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدّاً كقوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ . وقوله : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ . وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن بشر بن جحاش قال : بصق رسول الله ﷺ في كفه ، ثم قال : « يقول الله تعالى : ابن آدم ! أتني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين يديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلت أتصدق ، وأتني أوان الصدقة ؟ »^(١)

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٧﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴿٨﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾

يؤمن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي (الإبل والبقر والغنم) وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ، ويأكلون من أولادها وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة ، ولهذا قال : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون ﴾ ، وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى ، فإنها تكون أمدّه خواصر وأعظمه ضروراً وأعلاه أسنمة ، ﴿ وحين تسرحون ﴾ أي غلوة حين تبعثونها المرعى ، ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ، ﴿ إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل كقوله تعالى : ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ . ولكم فيها منافع وتلبغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ ، ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم : ﴿ إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ أي ربكم الذي قبض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كقوله : ﴿ وذلّلناها لهم فنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ ، وقال : ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ ، قال ابن عباس : ﴿ لكم فيها دِفْءٌ ﴾ أي ثياب ، ﴿ ومنافع ﴾ ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة ، ومنافع نسل كل دابة . وقال مجاهد : ﴿ لكم فيها دِفْءٌ ﴾ أي لباس ينسج و ﴿ منافع ﴾ مركب ولحم ولبن . وقال قتادة : دِفْءٌ ومنافع يقول : لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة ، وكذا قال غير واحد من المفسرين بالفاظ متقاربة .

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده ، يمتن به عليهم وهو ﴿ الخيل والبغال والحمير ﴾ التي جعلها للركوب والزينة بها وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر ، استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها ، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه

من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير ، وهي حرام ، كما ثبتت به السنة النبوية ، وذهب إليه أكثر العلماء . وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس : أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير ، وكان يقول : قال الله تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فهذه للأكل ، ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ فهذه للركوب ، ويستأنس لهذا بحديث رواه الإمام أحمد عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ، ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال : نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل ، وعن جابر قال : ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير ، فهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ، ولم ينهنا عن الخيل ^(١) ، وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة فهذه أدل وأقوى وأثبت ، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف والله أعلم .

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١﴾

لما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صلورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه ، فيبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرُقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ، وقال : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ، قال مجاهد في قوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ ، قال : طريق الحق على الله . وقال السدي : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ الإسلام ، وقال ابن عباس : وعلى الله البيان أي يبين الهدى والضلالة ^(٢) . وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق ، لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه ، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق ، وهي الطريق التي شرعها ورضيها ، وما عداها مسلوذة والأعمال فيها مردودة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أي حائد مائل زائل عن الحق . قال ابن عباس وغيره : هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، وقرأ ابن مسعود : ﴿ مِنْكُمْ جَائِرٌ ﴾ ، ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ الآية .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٢﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والنبات ، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء - وهو العلو - ما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال : ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ أي جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شربه ولم يجعله ملحا أجابا ، ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي وأخرج لكم منه شجرا ترعون فيه أنعامكم ، كما قال ابن

عباس^(١٧) : ﴿ تسمون ﴾ أي ترعون ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي . روى ابن ماجة أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس. وقوله: ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطوعها وألوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ﴾ ، ثم قال تعالى :

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾
وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٨﴾

ينبّه تعالى عباده على آياته العظام، ومنه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثابت والسيارات في أرجاء السماوات، نوراً وضياءً ليهتدى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدره لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله كقوله: ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ ولهذا قال: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه. وقوله: ﴿ وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ﴾ لما نبه تعالى على معالم السماء نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

* وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَنَا كُلًّا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَنَسَخَّرِجُوا مِنْهُ حُلِيَةً تَلْبُسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَانِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٩﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْيًا أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ وَسْبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَنِي ط وَالنَّجْمَ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾

يغفر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وما يخلقه فيه من اللؤلؤ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه، وقيل: تمخر الرياح وكلاهما صحيح، الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك إرثاً عن نوح عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن وجيلاً بعد

جبل، يسرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، لجلب ما هناك من الأرزاق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي نعمه وإحسانه؛ ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد، أي تضطرب بما عليها من الحيوانات، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا﴾ وقال الحسن: لما خلقت الأرض كانت تميد فقالوا: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال؟ وقال سعيد، عن قيس بن عباد: إن الله لما خلق الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحت صبحاً وفيها رواسيها^(١). وقوله: ﴿وَأَنْهَاراً وَسَبَلاً﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد ينبع في موضع، وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة وجنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وكذلك جعل فيها ﴿سَبَلاً﴾ أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سَبَلاً﴾ الآية. وقوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون برأ وبحراً إذا ضلوا الطرق. وقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي في ظلام الليل، قاله ابن عباس، ثم نبه تعالى على عظمتهم وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون، ولهذا قال: ﴿أَفَنُبْخَلَقُ كَمَا لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال: ﴿وَإِنْ تَعْلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي يتجاوز عنكم ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لمعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضغفتم وتركتكم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم يغفر الكثير ويجازي على السير. وقال ابن جرير: يقول: إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ﴾ ١٩ ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ٢٠ ﴿أَمْ مَوْتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ٢١

يعبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْنَتُونَ؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿أَمْ مَوْتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها فلا نسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يرجي عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرجي ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء.

(١) وفي رواية ابن جرير عن علي قال: لما خلق الله الأرض فضت وقالت: أي ربّ يجعل عليّ بني آدم يعملون الخطايا ويعملون =

* إِنَّهُمْ كَافِرُونَ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾، وقوله: ﴿وهم مستكبرون﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم التوحيد. كما قال: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿لا جرم﴾ أي حقاً، ﴿أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾.

* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى: وإذا قيل هؤلاء المكذبين ﴿مآذآ أنزل ربكم قالوا﴾ معرضين عن الجواب ﴿أساطير الأولين﴾ أي لم يتزل شيئاً إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيل﴾ أي يفترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق فهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم المسمى بالوليد بن المغيرة لما ﴿فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ أي ينقل، ويحكى: فتفرقوا عن قوله ورأيه قبهم الله، قال الله تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾، أي إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك لينحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي يصير عليهم خطيئة ضلالتهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»، روى العوفي عن ابن عباس في الآية: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ إنها كقوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾، وقال مجاهد: يحملون أثقالهم، ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عن أطاعهم من العذاب شيئاً.

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَنَسَ مِنْ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَهِيمٍ وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ

حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ قال: هو النمرود الذي بنى الصرح، وقال زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض النمرود، وقال آخرون: بل هو بختنصر، وقال آخرون: هذا من المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ الآية. وقوله: ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ أي اجتنه من أصله وأبطل عملهم، كقوله تعالى: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾، وقوله: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾، وقال الله ههنا: ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يُخْزِيهِمْ﴾ أي يظهر فضائحهم وما كانت تجتبه ضمايرهم فيجعله علانية كقوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي تظهر وتشتبر، كما في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال: هذه غدره فلان بن فلان». وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مفعراً لهم وموخيّاً: ﴿أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم؟﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ ﴿هل ينصرونكم أو يتنصرون؟﴾، ﴿فأله من قوة ولا ناصر﴾، فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة: وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار، ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، ﴿إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه.

* الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ أَمْلَكُ ظِلْمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِيسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فألقوا السلم﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾، كما يقولون يوم المعاد: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، قال الله مكذباً لهم في قلوبهم ذلك: ﴿بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبس مَثْوًى المتكبرين ﴿أي بشس القيل والمقام، والمكان، من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم﴾ لا يقضى عليهم فيموتوا

ولا يخفف عنهم من عذابها ﴿٢٩﴾، كما قال الله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾.

* وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ قالوا: معرضين عن الجواب، لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا: خيراً أي أنزل خيراً، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيها أنزله على رسله، فقال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة﴾ أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير، أي من الحياة الدنيا والجزء فيها أتم من الجزء في الدنيا، كقوله: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾، وقال تعالى: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾، ثم وصف الدار الآخرة فقال: ﴿ولنعم دار المتقين﴾، وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من دار المتقين، أي لهم في الآخرة جنات عدن أي مقام يدخلونها، ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي بين أشجارها وقصورها، ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾، كقوله تعالى: ﴿وفيها ما تشبه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾، وفي الحديث: «إن السحابة لثمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شراهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليه، حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أتراباً فيكون ذلك»، ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾، أي كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون، أي مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ الآية.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَاصْبِرْ لَهُمْ سَاعَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم، قاله قتادة، ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال. وقوله: ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين، حتى ذاقوا بأس

الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وما ظلمهم الله﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله، وإنزال كتبه، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به؛ فهذا أصابهم عقوبة الله على ذلك، ﴿وحاق بهم﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم، ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله فهذا يقال لهم يوم القيامة ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَنَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ
كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الاشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ونحن ولا آبأؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ أي من البحائر والسواب والوصائل وغير ذلك، ثم كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم يتزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما أمكننا منه، قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي ليس الأمر كما ترعون أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ونهاكم عنه أكد التهي، وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعث الله إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشرق والمغرب. ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾؟ فشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله؛ وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرأ فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فهذا قال: ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي أسألو عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق، كيف ﴿دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾، فقال: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾، ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كقوله تعالى: ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾، وقال نوح لقومه: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل﴾. كما قال الله: ﴿من يضل الله فلا هادي له

وينذرهم في طفولتهم يعمهون ﴿٣٨﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أي شأنه وأمره، ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يَضِلُّ﴾ أي من أضله، ﴿فَنَظَرَ بَصَرًا لَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي لا أحد ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي ينقلونه من عذابه ووثاقه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ
نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤١﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله ﴿جهد أيمانهم﴾ أي اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان أنه لا يبعث الله من يموت، أي استبعدوا ذلك وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم: ﴿بَلَى﴾ أي بلى سيكون ذلك، ﴿وعداً عليه حقاً﴾ أي لا بد منه، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي فليجهلهم بخالفون الرسل ويقعون في الكفر. ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال: ﴿ليبين لهم﴾ أي للناس، ﴿الذي يختلفون فيه﴾ أي من كل شيء، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴿أي في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت﴾. ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء كقوله ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، وقال: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ أي انه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به فإنه تعالى لا يمانع، ولا يخالف، لأنه الواحد القهار، العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَآجِرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾
صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه، وقد وعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، قال ابن عباس: المدينة، وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد، ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع، فإن الله مكن لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكاماً وكل منهم للممتين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال: ﴿ولأجر الآخرة أكبر﴾ أي مما أعطيتهم في الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله، ولهذا كان عمر

ابن الخطاب رضي الله عنه إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿لَيَبْتَغِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قال ابن عباس: لما بعث الله محمدًا ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله: ﴿أَكُنَ لِلنَّاسِ عِجَاباً أَنْ أُوحِيَآ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا، هل كان أنبيأؤهم بشراً أو ملائكة، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب، قاله ابن عباس ومجاهد ، والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبه. وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي من ربهم لعلكم بمعنى ما أنزل الله عليكم، وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلاق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل والمراد بأهل الذكر أهل الكتاب^(١)، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيفتنون فيفوزون بالنجاة في الدارين .

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَآمَهُمْ بِمُعْجِزَيْنِ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكَ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أي من حيث لا يعلمون عجيته إليهم، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾، وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ

في قلبهم ﴿٤٨﴾ أي في قلبهم في المعاش واشتغالهم بها في أسفار ونحوها من الأشغال الملهية، قال قتادة والسدي: قلبهم أي أسفارهم، وقال مجاهد والضحاك: ﴿٤٩﴾ في قلبهم في الليل والنهار، كقوله: ﴿٥٠﴾ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴿٥١﴾، وقوله: ﴿٥٢﴾ فإنا هم بمعجزين ﴿٥٣﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه، وقوله: ﴿٥٤﴾ أو يأخذهم على تخوف ﴿٥٥﴾ أي أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد، ولهذا قال ابن عباس: ﴿٥٦﴾ أو يأخذهم على تخوف ﴿٥٧﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك^(١). ثم قال تعالى: ﴿٥٨﴾ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴿٥٩﴾ أي حيث لم يعايلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيتهم »، وقال تعالى: ﴿٦٠﴾ وكأي من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير ﴿٦١﴾.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَّهِ رُءُوسَ الْعِشَامِ وَالشَّمَايِلِ مُجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٦٢﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٣﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوِّهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها، جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفأ ذات اليمين وذات الشمال، أي بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل، وقوله: ﴿٦٥﴾ وهم داخرون ﴿٦٦﴾ أي صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجد كل شيء فيؤه، وأمواج البحر صلاته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم، فقال: ﴿٦٧﴾ والله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة ﴿٦٨﴾، كما قال: ﴿٦٩﴾ والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴿٧٠﴾، وقوله: ﴿٧١﴾ والملائكة وهم لا يستكبرون ﴿٧٢﴾ أي تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته، ﴿٧٣﴾ يخافون ربهم من فوقهم ﴿٧٤﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، ﴿٧٥﴾ ويفعلون ما يؤمرون ﴿٧٦﴾ أي مثابرين على طاعته تعالى وامثال أوامره، وترك زواجه.

* وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَفُوا إِنِّي بَصُرْتُ مَا كَانَ خَلْفَ ظُهُورِكُمْ فَمَا رَأَيْتُكُمْ مُنْجِبِينَ إِلَى النَّارِ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَآتُوا اللَّهَ عَنَّا رُوْحًا مُّخْفِئَةً مِّنْ يَّمِينِنَا فَذَرُونَا هُتَاتٍ ذَاتِ الْعُنْتِ فَإِنَّهُمْ لَكَ الْمَغْلُوبُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا الْأَنْجِلِيَّةَ فَأُتِيَتْ بِفَرَأَوْنَاهُ فِي عِصْيَانِهِ إِنَّهُ يُدْعَى الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا الْأَنْجِلِيَّةَ فَأُتِيَتْ بِفَرَأَوْنَاهُ فِي عِصْيَانِهِ إِنَّهُ يُدْعَى الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا الْأَنْجِلِيَّةَ فَأُتِيَتْ بِفَرَأَوْنَاهُ فِي عِصْيَانِهِ إِنَّهُ يُدْعَى الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا الْأَنْجِلِيَّةَ فَأُتِيَتْ بِفَرَأَوْنَاهُ فِي عِصْيَانِهِ إِنَّهُ يُدْعَى الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٨١﴾

(١) وكذا روي عن مجاهد وقاتادة والضحاك وغيرهم.

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، فإنه مالك كل شيء وخالفه وربه ﴿ وله الدين واصباً ﴾ ، قال ابن عباس ومجاهد : أي دائماً ، وعن ابن عباس أيضاً : أي واجباً ، وقال مجاهد : أي خالصاً له ، أي له العبادة وحده ممن في السماوات والأرض ، كقوله : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ ، ثم أخبر أنه مالك النفع والضرر ، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم ، وإحسانه إليهم ، ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو ، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه ، وتسالونه وتلجئون في الرغبة إليه مستغيثين به ، كقوله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يربهم يشركون • ليكفروا بما آتيناكم ﴾ قيل : اللام ههنا لام العاقبة ، وقيل : لام التعليل بمعنى قبضنا لهم ذلك ليكفروا أي يستروا ويحذلوا نعم الله عليهم ، مع أنه المسدي إليهم النعم ، الكاشف عنهم النقم ، ثم توعدهم قائلاً : ﴿ فتمتعوا ﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي عاقبة ذلك .

* وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ ۚ أَيَسْكَبُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ ۚ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله ، فقالوا : ﴿ هذا لله يزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ أي جعلوا لأنفسهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه ، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألهم عن ذلك الذي افتروه واتفكوه ، وليقابلهم عليه وليجازيهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال : ﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ ، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة إناثاً وجعلوها بنات الله ، فقبلوها معه ، فنسبوا إليه تعالى الولد ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما قال : ﴿ ألستم الذكور وله الأنثى ؟ تلك إذا قسمة ضيزى ﴾ ، وقوله ههنا : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ أي عن قولهم وإفكهم ، ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولن ولد الله وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ ما لكم كيف تحكمون ﴾ ، وقوله : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور ويألفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . فإنه ﴿ إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً ﴾ أي كتيباً من الهم ﴿ وهو كظيم ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن ، ﴿ يتوارى من القوم ﴾ أي يكره أن يراه الناس ، ﴿ من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ﴾ أي إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها ، ويفضل أولاده الذكور عليها ، ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ أي يثدها وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون في الجاهلية ، أفن يكرهونه هذه الكراهة ويألفون لأنفسهم أن يجعلونه لله ؟ ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ أي بشس ما قالوا ،

وبش ما قسموا، وبش ما نسبوه إليه ، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَشَرٌ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ، وقوله ههنا: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أي النقص إنما ينسب إليهم ﴿ والله المثل الأعلى ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ دَآئِبَةً وَلَٰكِنْ يُّؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَلِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفِخِرُونَ سَاعَةً ۚ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۚ ﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦١﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي لأهلك دواب الأرض ومعهم بنو آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر، وينظر إلى أجل مسمى أي لا يعاجلهم بالعقوبة إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقي أحداً. وفي الحديث: «إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر»^(١). وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أي من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده وهم بأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله، وقوله: ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، كقوله: ﴿ وَلَنْ أَذِقَنَّهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءِ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَنْ رَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنْ لِيَ عِنْدَ اللَّهِ الْحُسْنَىٰ ﴾ ، وقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۚ ﴾ فجمع هؤلاء بين عمل السوء، وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل، يعملون السيئات ويجزون الحسنات ؟ أيجتنى من الشوك العنب ؟ ولهذا قال تعالى رداً عليهم في تنبيه ذلك: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي حقاً لا بد منه، ﴿ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ أي يوم القيامة، ﴿ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ ، قال مجاهد وسعيد بن جبير وقادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ وعن قتادة أيضاً ﴿ مُفْرَطُونَ ﴾: أي معجلون إلى النار من الفرط وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أي يخللون.

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٣﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٤﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة فلا يهمنك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإتباع حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء مرفوعاً .

فعلوه. ﴿فهو وليهم اليوم﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريح لهم ولم عذاب ألم، ثم قال تعالى لرسوله إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، ﴿وهدى﴾ أي للقلوب، ﴿ورحمة﴾ أي لمن تمسك به، ﴿لقوم يؤمنون﴾، وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿إن في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه.

وَمَنْ لَّكَرْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكَّرَ مَا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَرٍ لِّبَنَاءٍ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ يَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى: ﴿وإن لكم﴾ أيها الناس ﴿في الأنعام﴾ وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿لعبرة﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه، ﴿نسقيكم﴾ مما في بطونه ﴿الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات، أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى﴾ مما في بطونها ﴿ويجوز هذا وهذا، كما في قوله:﴾ كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره، ﴿وقوله:﴾ من بين قرن ودم لبناً خالصاً أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته، من بين قرن ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولين إلى الضرع، ويول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به. وقوله: ﴿لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ أي لا يغض به أحد، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرباً للناس سائغاً ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعنب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا أمّن به عليهم فقال: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعنب يتخذون منه سكرًا﴾، قال ابن عباس: السكر ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما، وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله، يعني ما ييس منها من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ ناسب ذكر العقل هنا فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقلها وقال الله تعالى: ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾ ؟

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

المراد بالوحي هنا (الإلهام) والهداية والإرشاد للنحل، أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى

مذلة لها أي مهسلة عليها حيث شاعت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنتها، وتقيء العسل من فيها، ثم تصبح إلى مراعيها. وقوله تعالى: ﴿فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ أي فاسلكيها مذلة لك، نص عليه مجاهد، وقوله تعالى: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر، وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلاها منها، وقوله: ﴿فيه شفاء للناس﴾ أي في العسل شفاء للناس، أي من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء، ولكن قال: فيه شفاء للناس^(١)، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشئ يداوى بضده. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده استطلاقاً. قال: «اذهب فاسقه عسلاً»، فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ، «صدق الله وكذب بطن أخيك»، اذهب فاسقه عسلاً، فذهب فسقاه عسلاً فبرئ^(٢). قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت فأسرعت في الاندفاع، فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فزاد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي».

وقال البخاري، عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم خير: ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوى». وفي الحديث: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن»^(٣)، وعن علي بن أبي طالب أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحيفة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه كذلك فإنه شفاء، أي من وجوه: قال الله تعالى ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾، وقال: ﴿وأنزّلنا من السماء ماء مباركاً﴾، وقال: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾، وقال في العسل: ﴿فيه شفاء للناس﴾، وقوله: ﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ أي إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامه والاجتماع من سائر الثّار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العلم الكريم الرحيم.

(١) روي عن مجاهد وابن جرير في قوله: ﴿فيه شفاء للناس﴾ أن المراد به القرآن وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر هنا من سياق الآية، فإن الآية ذكر فيها العسل فالضمير يعود إليه والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود مرفوعاً، قال ابن كثير: وإسناده جيد.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْأِلُ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عبادته، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم. وقد روي عن علي رضي الله عنه ﴿أردل العمر﴾: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم، ولهذا قال: ﴿لكي لا يعلم بعد علم شيئاً﴾ أي بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من القند والخرف، ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكلل والهرم وأردل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة الحيا والممات».

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَبِالَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَّادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

يبين تعالى للمشركين جاهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تلييتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فقال تعالى منكرًا عليهم: أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم؟ قال ابن عباس في هذه الآية: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟ فذلك قوله: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾. وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟ وقال مجاهد: هذا مثل الآلهة الباطلة. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن يتره منك، وقوله: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ أي كيف جحدوا نعمته وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: (واقنع برزقك من الدنيا فإن الرحمن فضل بعض عبادته على بعض في الرزق، بلاه يبتلي به كلا، فيبتلي من بسط له كيف شكره الله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله).^(١)

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَلَيْسَ الْبَاطِلُ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

يلدكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع

آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين، عن ابن عباس: ﴿بنين وحفدة﴾ هم الولد وولد الولد، وقال مجاهد: ﴿بنين وحفدة﴾ ابنه وخادمه، وقال طاووس وغير واحد: الحفدة الخدم. وعن عكرمة أنه قال: الحفدة من خدمتك من ولدك وولد ولدك، قال الضحاك: إنما كانت العرب تخدمها بنوها. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الأصهار، قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحفدة وهو الخدمة، ومنه قوله في القنوت: (وإليك نسعى ونحفد) ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار فالنعمة حاصلية بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾، قلت: فن جعل ﴿وحفدة﴾ متعلقاً بأزواجكم فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد أو الأصهار، لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة، فإنهم يكونون غالباً تحت كف الرجل وفي حجره وفي خدمته، وأما من جعل الحفدة الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي جعل لكم الأزواج والأولاد خدماً، وقوله: ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي من المطاعم والمشارب، ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾؟ وهم الأنداد والأصنام ﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾؟ أي يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٤﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً﴾ أي لا يقدر على إزلال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ أي لا يجعلوا له أنداداً وأشياءاً وأمثالاً ﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأنتم تجهلون تشركون به غيره.

* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هو المؤمن، وقال مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهل إلا كل غبي قال الله تعالى: ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكُرُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كل﴾ أي عيال وكلفة على مولاه ﴿أينما يوجهه﴾ أي يبعثه ﴿لا يأت بخير﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هل يستوي﴾ من هذه صفاته ﴿ومن يأمر بالعدل﴾ أي بالقسط فقله حق وفعاله مستقيمة ﴿وهو على صراط مستقيم﴾، وقال ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم: وقال ابن جرير: نزلت في رجل من قريش وعبدته يعني قوله: ﴿عبداً مملوكاً﴾ الآية، وفي قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكُرُ - إلى قوله - وهو على صراط مستقيم﴾ قال: هو عثمان بن عفان، قال: والأبكم الذي أينما يوجه لا يأت بخير قال: هو مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما^(١)

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾
وَاللَّهُ أَتَجَرَّكُمْ مِنْ بَطُونٍ أَمْهَاتِكُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْعًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَيِّسُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السماوات والأرض واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون كما قال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ أي فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير﴾، ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المراتب، والأفئدة وهي العقول، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده، وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا

(١) ذكر السهيلي: أن الأبكم، هو أبو جهل لعنه الله، واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة. والذي يأمر بالعدل: هو عمار بن ياسر العنسي المذحجي، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام، ويعذب أمه سمية، وكانت مولاة لأبي جهل، وقد طعنها بالرمح في قلبها، فانت، فهي أول شهيدة في الإسلام.

أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن دعاني لأجيبنه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه . فعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا الله ، ولا يبصر إلا الله أي ما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل مستعيناً بالله في ذلك كله . ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح : « في يسمع وبني يبصر وبني يبطش وبني يمشي » ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ ، كقوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ ، ثم تبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء ما يملكه هناك إلا الله بقرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخر الهواء يحملها ، وبسير الطير كذلك كما قال تعالى في سورة الملك : ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يسكنهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

❖ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَىٰ حِينٍ ۖ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِبُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها ، ويستترون بها ويتشفون بها بسائر وجوه الانتفاع . وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً ، أي من الأدم يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر . ولهذا قال : ﴿ تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها أي الغنم ، وأوبارها أي الإبل ، وأشعارها أي المعز ، والضمير عائد على الأنعام ﴾ أثنائاً أي تتخذون منه أثنائاً ، وهو المال وقيل : المتاع ، وقيل : الثياب ، والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك ، ويتخذ ما لا وتجارة . وقوله : ﴿ إلى حين ﴾ أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم . وقوله : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴾ ، قال قتادة ، يعني الشجر ﴿ وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾ أي حصوناً ومعاقل كما ﴿ جعل لكم سراويل تقيكم الحر ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿ وسراويل تقيكم بأسكم ﴾ كالدرع من الحديد المصفح والزرذ وغير ذلك ، ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ، ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ أي من الإسلام ، وقوله : ﴿ فإن تولوا ﴾ أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان فلا عليك منهم ، ﴿ فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ وقد أدبته إليهم ، ﴿ يعرفون نعمته الله ثم ينكرونها ﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا

ينكرون ذلك ويعلمون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ، عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بَيْنِكُمْ سَكَنًا﴾ فقال الأعرابي: نعم، قال: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا﴾ . الآية، قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه كل ذلك، يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ: ﴿كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾ فولى الأعرابي، فأنزل الله: ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾^(١) الآية .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يُؤْمِدُ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها، يشهد عليها بما أجبته فيها بلغها عن الله تعالى: ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ أي في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ ، فهذا قال: ﴿ولا هم يستعتبون﴾ . وإذا رأى الذين ظلموا أي الذين أشركوا العذاب فلا يخفف عنهم أي لا يفر عنهم ساعة واحدة ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، ثم أخبر تعالى عن تبری آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك﴾ . فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون أي قالت لهم الآلهة كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ وقوله: ﴿وآلقوا إلى الله يومئذ السلم﴾ قال: قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع. وكقوله: ﴿أنمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ الآية، وقال: ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ أي خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت . وقوله: ﴿وآلقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير، ثم قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصلوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً﴾ الآية، أي عذاباً على كفرهم وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق، وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ يعني أمتك، أي اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾، وقوله: ﴿وزللنا عليك الكتاب تبيناً لكل شيء﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام. وقول ابن مسعود أمم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم، ﴿وهدى﴾ أي للقلوب، ﴿ورحمة وبشرى للمسلمين﴾.

* إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ فن عفا وأصلح فأجره على الله، وقال: ﴿والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل. وقال ابن عباس: ﴿إن الله يأمر بالعدل﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته، وقوله: ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ أي يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾، وقوله: ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر ﴾، فالفواحش الحرمات والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها، ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾، وأما البغي فهو العدوان على الناس. وقد جاء في الحديث: « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم »، وقوله: ﴿ يعظكم ﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿ لعلكم تذكرون ﴾. وقال الشعبي، عن ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ الآية^(١)، وقال قتادة: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيء كانوا يتعابرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها، وفي الحديث: « إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها ». وقال الحافظ أبو يعلى عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال: بلغ أكرم بن صيفي مخرج النبي

ﷺ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَهِى فَبَسَى قَوْمَهُ أَنْ يَدْعُوهُ وَقَالُوا: أَنْتَ كَبِيرْنَا لَمْ تَكُنْ لَتُخَفِ إِلَيْهِ، قَالَ: فَلْيَأْتِهِ مَنْ يَبْلُغُهُ عَنِّي وَيُبَلِّغُنِي عَنْهُ، فَانْتَدَبَ رَجُلَانِ، فَأَتَا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَا: نَحْنُ رَسُلُ أَكْثَمَ بْنِ صَيْفِي، وَهُوَ يَسْأَلُكَ مِنْ أَنْتَ وَمَا أَنْتَ؟ فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: «أَمَّا مَنْ أَنَا فَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَمَّا مَا أَنَا فَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»، قَالَ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الْآيَةَ، قَالُوا: رَدَدْنَا عَلَيْكَ هَذَا الْقَوْلَ، فَارْتَدَّ عَلَيْهِمْ حَتَّى حَفَظُوهُ، فَأَتَا أَكْثَمُ فَقَالَا: أَبَى أَنْ يَرْفَعَ نَسَبَهُ، فَسَأَلْنَا عَنْ نَسَبِهِ فَوَجَدْنَاهُ زَاكِي النِّسَبِ وَسَطًا فِي مَضَرٍّ - أَيِّ شَرِيفًا - وَقَدْ رَمَى إِلَيْنَا بِكَلِمَاتٍ قَدْ سَمِعْنَاهَا، فَلَمَّا سَمِعْنَاهُ أَكْثَمُ قَالَ: إِنِّي أَرَاهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَيَنْهَى عَنْ مَلَائِمِهَا، فَكُونُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ رُؤُوسًا وَلَا تَكُونُوا فِيهِ أَذْنَابًا. وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا إِذْ شَخَّصَ بَصَرَهُ فَقَالَ: «أَتَانِي جَبْرِيلُ فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَعُ هَذِهِ الْآيَةَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾»^(١)، الْآيَةَ.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكُنَّا تَخَذُونُ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْتَلُواكُمُ اللَّهُ بِهِ ۖ وَلِبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

هذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾، ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ الْآيَةَ، وبين قوله تعالى: ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم﴾ أي لا تركوها بلا كفارة، وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»، وفي رواية: وكفرت عن يميني، لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة هنا وهي قوله: ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾، لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ يعني الحلف، أي حلف الجاهلية. ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال، قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وإما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة»^(٢)، ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه. وقال ابن جرير، عن بريدة في قوله: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام، ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام. وقوله: ﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. وقوله: ﴿ولا تكونوا كآلتي نقضت غزها من بعد

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند. (٢) رواه أحمد ومسلم عن جبير بن مطعم مرفوعاً.

قوة إنكاثاً ﴿٩٣﴾ قال السدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه، وقال مجاهد وقتادة: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر، سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا، وقوله: ﴿٩٤﴾ أنكاثاً أي أنقاضاً، ﴿٩٥﴾ تتخلون أيمانكم دخلاً بينكم أي خديعة ومكرًا ﴿٩٦﴾ أن تكون أمة هي أربى من أمة أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنتوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فهمي الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى، قال ابن عباس ﴿٩٧﴾ أن تكون أمة هي أربى من أمة: أي أكثر، وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجلون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك، وقوله: ﴿٩٨﴾ إنما يلوكم الله به ﴿٩٩﴾ قال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿١٠٠﴾ وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم تختلفون ﴿١٠١﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِنَسْلُكَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَحْزِنُوا أَيَمَنَّكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السَّوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَسْتُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَ كُرٍ يَنْفُذُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

يقول الله تعالى: ﴿٩٣﴾ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴿٩٤﴾ أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافًا ولا تباعض ولا شحنة، ﴿٩٥﴾ ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿٩٦﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على القليل والثير والقطمير؛ ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً: أي خديعة ومكرًا لئلا تزل قدم ﴿٩٧﴾ بعد ثبوتها ﴿٩٨﴾ مثل لمن كان على الاستقامة فحاده عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحائثة، المشتعلة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: ﴿٩٩﴾ وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴿١٠٠﴾ ثم قال تعالى: ﴿١٠١﴾ ولا تستروا بعهد الله تمناً قليلاً أي لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به، وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده، ولهذا قال: ﴿١٠٢﴾ إن كنتم تعلمون ما عندكم ينفذ ما عندكم ينفذ أي يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل معدود، ﴿١٠٣﴾ وما عند الله باق أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿١٠٤﴾ ولنجزين الذين صبروا أجراً أحسن ما كانوا يعملون ﴿١٠٥﴾ قسم من الرب تعالى مؤكداً باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم أي ويتجاوز عن سيئها.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، من ذكر أو أنثى من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فسرها بالقناعة. وقال ابن عباس: إنها هي السعادة، وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة، وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا. والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذ كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه». وفي رواية: «قد أفلح من هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به»^(١). وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام عن يحيى عن قتادة عن أنس ابن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً»^(٢).

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ، إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قلنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسطة في أول التفسير والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وقال آخرون كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾، ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾. قال مجاهد: يطعمونه، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله وهم به مشركون، أي أشركوه في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ تَزَلَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لَبِئْسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَدَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم وأنه لا يتصور منهم الإيمان، وقد كتب عليهم الشقاوة وذلك أنهم إذا رأوا تغير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقال مجاهد: ﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾: أي ورفعتها وأثبتنا

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه أحمد ومسلم في صحيحه.

غيرها. وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ الآية، فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿ قُلْ نَزَلَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أي جبريل ﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالصدق والعدل، ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً وتثبيت له قلوبهم، ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ۖ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك: ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أي القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التسامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي إسرائيل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل. قال محمد بن إسحاق كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له (جبر) عبد لبعض بني الحضرمي، فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾. وعن عكرمة وقاتدة كان اسمه (يعيش)، وقال ابن جرير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قتيلاً بمكة، وكان اسمه بلعام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رسوله في الدنيا ولم عذاب أليم موجه في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتري ولا كذاب لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ من الكفرة والملحدتين المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس، وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً، وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه لا يشك في ذلك أحد منهم، بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد، ولهذا قال هرقل ملك الروم، لأبي سفيان: (فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل) .

* مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا

فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَّاجِرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

أخبر تعالى عن كفر به بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر ، واطمأن به ، أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدوهم عنه ، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة ، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا ، ولم يهد الله قلوبهم ويشبههم على الدين الحق ، فطبع على قلوبهم ، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم ، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ، فهم غافلون عما يراد بهم ، ﴿ لا جرم ﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ، ﴿ أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة - وأما قوله : ﴿ إلا من أكره ﴾ وقلبه مطمئن بالإيمان ﴿ فهو استثناء من كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى وقلبه يأبى ما يقول ، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . وقد روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في (عمار بن ياسر) حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ ، فوافقهم على ذلك مكرهاً ، وجاء معتزلاً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية . وقال ابن جرير : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه ، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان ، قال النبي ﷺ : « إن عادوا فعد » ، وفيه أنه سب النبي ﷺ ، وذكر آلهتهم بخير ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان ، فقال : « إن عادوا فعد » ، وفي ذلك أنزل الله : ﴿ إلا من أكره ﴾ وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولهذا اتفق العلماء على أن المكروه على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغبط لكم منها لقلتها ، رضي الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع ، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك .

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله ؛ كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة (عبد الله بن حذافة السهمي) أحد الصحابة أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم فقال له : تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجه ابنتي ، فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طريقة عين ما فعلت ، فقال : إذا أقتلك ، فقال أنت وذاك ، قال : فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقلع من نحاس ، فأحميت وجاء بأسير من المسلمين ، فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح ، وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقى فيها فرغ في البكرة ليلقى فيها ، فبكى ، فطمع فيه ودعاه ، فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في

هذه القلر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شجرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حل لي، ولكن لم أكن لأشمتك بي، فقال له الملك: فقبل رأسي، وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين، قال: نعم، فقبل رأسه، فأطلقه، وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله ابن حذافة، وأنا أبدأ، فقام فقبل رأسه رضي الله عنهما.

* ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقهم على الفتنة، إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهلهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظمو في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا، فأخبر تعالى أنه من بعدها أي تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور هم رحم بهم يوم معادهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ أي تحتاج ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ ليس أحد يحتاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ أي من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزداد على ثواب الشر ولا يظلمون تقيراً.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة؟ فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾، أي هيناً سهلاً، ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ فكفرت بأنعم الله ﴿أَيَّ جَحَدَتْ آلاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا وَأَعْظَمَهَا بِعَثَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصِلُونَهَا وَبَشَ الْقَرَارِ﴾ ولهذا بدلم الله بحالهم الأولين خلافتها فقال: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أي البسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليها ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك أنهم استمعوا على رسول الله ﷺ، وأبوا إلا خلافة، فدعا عليهم بسبع كسبج يوسف، فأصابهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز، وهو وبر يخلط بدمه إذا نحروه. وغوله: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم في دمار

وصفال، حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم وامتن به عليهم في قوله: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ الآية. وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة والزهرى رحمهم الله.

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ لِيَاءَهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِتِيرِ وَمِمَّا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك، فإنه النعم المتفضل به ابتداء، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير، ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي ذبح على غير اسم الله ومع هذا، ﴿فمن اضطر إليه﴾ أي احتاج من غير بني ولا عدوان، ﴿فإن الله غفور رحيم﴾. وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته والله الحمد. ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا، بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه وابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشبهه، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة؛ أما في الدنيا فتنازع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نعتهم قليلاً ثم تضطرمهم إلى عذاب غليظ﴾، وقال: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾. متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون.

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعته قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرَج فقال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ أي في سورة الأنعام، ﴿وما ظلمناهم﴾ أي فيما ضيقنا عليهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، أي فاستحقوا ذلك، كقوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾، ثم أخبر تعالى تكراً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه فقال: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ثم تابوا من

بعد ذلك وأصلحوا ﴿١٢٠﴾ أي أقبلوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿١٢١﴾ إن ربك من بعدها ﴿١٢٢﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿١٢٣﴾ لغفور رحيم ﴿١٢٤﴾ .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويورثه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿١٢٥﴾ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ﴿١٢٦﴾ ، فأما الأمة: فهو الإمام الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿١٢٧﴾ ولم يك من المشركين ﴿١٢٨﴾ ، قال عبدالله بن مسعود: الأمة معلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله. وقال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم. وقال مجاهد ﴿أمة﴾ أي أمة وحده، والقانت: المطيع. وعنه كان مؤمناً وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار، وقال قتادة: كان إمام هدى، والقانت: المطيع لله، وقوله: ﴿١٢٥﴾ شاكراً لأنعمه ﴿١٢٦﴾ أي قائماً بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: ﴿١٢٧﴾ وإبراهيم الذي وفى ﴿١٢٨﴾ أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به. وقوله: ﴿١٢٩﴾ اجتنابه ﴿١٣٠﴾ أي اختاره واصطفاه كقوله: ﴿١٣١﴾ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴿١٣٢﴾ ، ثم قال: ﴿١٣٣﴾ وهده إلى صراط مستقيم ﴿١٣٤﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى. وقوله: ﴿١٣٥﴾ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴿١٣٦﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة، ﴿١٣٧﴾ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴿١٣٨﴾ . وقال مجاهد في قوله: ﴿١٣٩﴾ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴿١٤٠﴾ أي لسان صدق، وقوله: ﴿١٤١﴾ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴿١٤٢﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿١٤٣﴾ أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴿١٤٤﴾ ، كقوله في الأنعام: ﴿١٤٥﴾ قل إني هادي ربي إلى صراط مستقيم ﴿١٤٦﴾ دينا قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴿١٤٧﴾ ، ثم قال تعالى منكرأ على اليهود :

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٤٨﴾

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده، ويقال إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه، واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فالزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به، وأن يحافظوا عليه مع أمره بإمامه بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذ موافقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿١٤٩﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿١٥٠﴾ ، قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب

من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد»^(١)

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَاتِيَ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى أمرأ رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة، أي بما فيه من الزواجر والقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن يرفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾ الآية، فأمره تعالى تعالى بلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فقلوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾. وقوله: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ الآية، أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هدام إنما أنت نذير، عليك البلاغ وعلينا الحساب، ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، ﴿ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

وَأَن عَاقِبْتُمْ فَاقْبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق، قال ابن سيرين: إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله، وكذا قال مجاهد والحسن البصري واختاره ابن جرير، وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب، فنزلت هذه الآية ثم نسخ ذلك بالجهاد. قال عطاء بن يسار: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها، نزلت بالمدينة، بعد أحد حين قتل حمزة رضي الله عنه ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: «لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن أظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثله أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله: ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به﴾ إلى آخر السورة، وقال الحافظ أبو بكر البزار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه، أو قال لقلبه، فنظر إليه وقد مثل به، فقال: «رحمة الله عليك، إن كنت ما علمتك إلا وصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى

يحشر الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك »، فتزل جبريل على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ: ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ يعني عن يمينه وأمسك عن ذلك^(١). وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾، ثم قال: ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾، الآية. وقال: ﴿ والجروح قصاص ﴾، ثم قال: ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾، وقال في هذه الآية: ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾، ثم قال: ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانتة، وحوله وقوته، ثم قال تعالى: ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾، أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك، ﴿ ولا تك في ضيق ﴾ أي غم، ﴿ مما يمكرون ﴾ أي مما يجهلون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم، وقوله: ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾، أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه .

[آخر تفسير سورة النحل ، والله الحمد والمنة]



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه ، ﴿الذي أسرى بعبد﴾ يعني محمداً ﷺ ، ﴿ليلاً﴾ : أي في جنح الليل، ﴿من المسجد الحرام﴾ : وهو مسجد مكة ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ (١) وهو بيت المقدس الذي يبلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى ﴿الذي باركنا حوله﴾ : أي في الزروع والثمار، ﴿لنريه﴾ : أي محمداً ﴿من آياتنا﴾ : أي العظام، كما قال تعالى : ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ ، ﴿إنه هو السميع البصير﴾ أي السميع لأقوال عباده البصير بهم، فيعطي كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة .

« ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء »

قال الإمام البخاري، عن أنس بن مالك، يقول : ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة، إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم، فقال

(١) قال الحافظ السهلي : قوله عز وجل ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ : يعني بيت المقدس . وهو إيليا، ومعنى إيليا - بيت الله - ﴿وباركنا حوله﴾ - يعني الشام - والشام بالسريانية : الطيب، فسميت بذلك لطيبها وخصبها، وبيت المقدس بناه سليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام قد ابتدأ مبناه فأكملاه ابنه سليمان عليه السلام، واسمه : إيلياء، وتفسيره بالعربية : بيت الله، ذكره البكري، وقال الطبري : كان داود عليه السلام قد همّ ببنائه فأوحى الله تعالى إليه «إنما بينه ابن لك طاهر اليد من الدماء»، وفي الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت الحرام، بأربعين سنة، وهذا يدل على أنه قد كان بني أيضاً في زمن إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام .

آخرهم: خلوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرمهم، حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه، فوضعه عند بشر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه، ففسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاديدته - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه، ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب باباً من أبوابها فتاداه أهل السماء من هذا؟ فقال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: فرحباً به وأهلاً، يستبشر به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم، فوجد في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلم عليه ورد عليه آدم، فقال: مرحباً وأهلاً بابني، نعم الابن أنت، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان، فقال: «ما هذان النهران يا جبريل؟» قال: هذان النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك، ثم عرج به إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى من هذا؟ قال جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحباً به وأهلاً. ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السادسة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السابعة، فقالوا له مثل ذلك، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالى، فقال موسى: رب لم أظن أن ترفع علي أحداً.

ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة، ثم هبط به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: يا محمد، ماذا عهد إليك ربك؟ قال: «عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة». قال إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشير في ذلك، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس، فقال وهو في مكانه: «يا رب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا»، فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس، فقال: يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يا رب إن أمتي ضعفاء، أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم، فخفف عنا، فسال الجبار تبارك وتعالى: يا محمد ا قال: «ليبك وسعديك»، قال: إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك، فرجع إلى موسى، فقال: كيف فعلت؟ فقال: «خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها»، قال موسى: قد والله راودت بني إسرائيل على

أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً، قال رسول الله ﷺ: «يا موسى قد والله استحييت من ربي عز وجل مما اختلف إليه». قال فاهبط باسم الله. قال واستيقظ وهو في المسجد الحرام، هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد.

وقد قال الحافظ البيهقي: في حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل، يعني قوله: ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى. قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصبح. وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق، فإن أبا ذر قال: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه». وفي رواية: «رأيت نوراً» أخرجه مسلم، وقوله: ﴿ثم دنا فتدلى﴾ إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا.

وقال الإمام أحمد، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة، أبيض، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة، قال: ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بنخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بي ودعوا لي بنخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بنخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بنخير، ثم يقول تعالى ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بنخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بنخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سدره المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيتها من أمر الله ما غشيتها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها، قال: فأوحى الله إليّ ما أوحى، وقد فرض عليّ في كل يوم وليلة، خمسين صلاة، فترلت حتى انتهيت إلى موسى، قال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي فقلت: أي رب خفف عن أمتي، فحط عني خمساً، فترلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال: ما فعلت، فقلت: قد حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فلم أزل أرجع إلى ربي وبين موسى، ويحط عني خمساً خمساً حتى قال: يا محمد من خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت عشرًا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فترلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت».

عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها حركت ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق فوالله ما ركبك مثله، وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقال: «ما هذه يا جبريل؟» قال: سر يا محمد. قال، فسار ما شاء الله أن يسير فإذا شيء يدعوها متتبعاً عن الطريق، فقال: هلم يا محمد، فقال له جبريل: سر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، قال فلقيه خلق من خلق الله، فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يا محمد، فرد السلام، ثم لقيه الثانية، فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس، فعرض عليه الخمر والماء واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولوشربت الماء لفرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك، ثم بعث له آدم فن دونه من الأنبياء عليهم السلام، فأمرهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذي أراد أن تميل إليه فذاك علو الله إبليس أراد أن تميل إليه، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام^(١).

(رواية عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة)

قال الإمام أحمد، عن أنس بن مالك: أن مالك بن صعصعة حدثه، أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم - وربما قال قتادة في الحجر - مضطجعاً إذ أتاني آت، فجعل يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة، قال: فأتاني فتش ما بين هذه إلى هذه»، أي من ثغرة نحره إلى شعرته، «فاستخرج قلبي، قال: فأثبت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة، فغسل قلبي ثم حشا ثم أعيد، ثم أثبت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض». قال، فقال الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟

(١) أخرجه ابن جرير ورواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة، وفي بعض ألفاظه غرابة.

قال: نعم يقع خطوه عند أقصى طرفه، قال: « فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا فيه آدم عليه السلام، قال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا عيسى ويحيى وهما ابنا الخالة، قال: هذان يحيى وعيسى فسلم عليهما، قال: فسلمت فردا السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت إذا يوسف عليه السلام، قال: هذا يوسف، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً بك ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فلما خلصت فإذا هارون عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا أنا بموسى عليه السلام، قال: هذا موسى عليه السلام فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: فلما تجاوزته بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، قال: ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوقد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إبراهيم عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى، قال: وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهرا في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، قال: ثم رفع إلي البيت المعمور .

قال قتادة: وحدثنا الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألفاً ثم لا يعودون فيه، ثم رجع إلى حديث أنس، قال: « ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل قال: فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك، قال: ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم،

قال: فترلت حتى أتيت موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قال، قلت: خمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإني قد خبرت الناس قبلك، وعاجلت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعاجلت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً آخر، فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت، فقلت: أمرت بثلاثين صلاة، قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعاجلت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بعشرين صلاة كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع العشرين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعاجلت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع العشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعاجلت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت، فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعاجلت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك، قال، قلت: قد سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم. فنفذت، فنادى مناد قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي^(١)

(رواية أنس عن أبي ذر)

قال البخاري، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئاً حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد ﷺ، فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسمة بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، ثم عرج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال له الأول ففتح»، قال أنس: فذكر أنه قد وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مر جبريل والنبي ﷺ بإدريس، قال: مرحباً بالنبي الصالح

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والشيخان من حديث قتادة بنحوه.

والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ قال: إدريس، ثم مر بموسى فقال: مرحباً: بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا، قال: هذا موسى، ثم مررت بعبسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى، ثم مررت بإبراهيم، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم، قال الزهري: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حية الأنصاري كانا يقولان، قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام». قال ابن حزم وأنس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: «ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال موسى: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها، فقال ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعت فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك، قلت قد استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سكرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبات اللؤلؤ وإذا ترابها المسك»^(١).

عن جابر بن عبد الله، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»^(٢) عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس لقي فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتى بقدرحين قدح من لبن وقدح من خمر، فنظر إليهما ثم أخذ قدح اللبن، فقال جبريل: أصبت هديت للفقرة، لو أخذت الخمر لغوت أمتك، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة فأخبر أنه أسري به فافتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه، وقال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهز - أو كلمة نحوها - ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس، ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة. فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنأ أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء، قال أبو سلمة: فيها سمي أبو بكر الصديق. قال أبو سلمة: فسمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يحدث، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»^(٣).

(رواية شداد بن أوس)

روى الإمام الترمذي، عن جابر بن نفير، عن شداد بن أوس قال، قلنا: يا رسول الله، كيف أسري بك؟ قال: «صليت لأصحابي صلاة العتمة بمكة معتماً، فأتاني جبريل عليه السلام بدابة أبيض - أو قال بيضاء -

(١) هذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة، وزواه مسلم في كتاب الإيمان بنحوه.

(٢) رواه أحمد وأخرجه الشيخان. (٣) أخرجه البيهقي عن سعيد بن المسيب.

فوق الحمار ودون البغل ، فقال : اركب ، فاستصعب علي ، فرازها بأذننها ، ثم حملني عليها ، فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث انتهى طرفها حتى بلغنا أرضاً ذات نخل فأنزّلني ، فقال صلّ ، فصليت ، ثم ركبت ، فقال : أتدري أين صليت ؟ قلت : الله أعلم ، قال : صليت بيثرب ، صليت بطيبة ، فانطلقت تهوي بنا ، يقع حافرها عند منتهى طرفها ، ثم بلغنا أرضاً ، قال : انزل ، ثم قال : صلّ ، فصليت ، ثم ركبنا ، فقال : أتدري أين صليت ؟ قلت : الله أعلم ، قال : صليت بمدين عند شجرة موسى ، ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها ، ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصور ، فقال : انزل فترلت ، فقال : صلّ ، فصليت ، ثم ركبنا ، فقال : أتدري أين صليت ؟ قلت : الله أعلم ، قال : صليت ببيت لحم ، حيث ولد عيسى بن مريم ، ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها البائني ، فأتى قبلة المسجد فربط فيه دابته ودخلنا المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر ، فصليت من المسجد حيث شاء الله ، وأخذني من العطش أشد ما أخذني ، فأتيت بئاناء في أحدهما لبن وفي الآخر عسل أرسل إليّ بهما جميعاً ، فعدلت بينهما ثم هداني الله عزّ وجلّ فأخذت اللبن فشربت حتى عرقت به جبيني ، وبين يدي شيخ منكئ على مئذنة له ، فقال : أخذ صاحبك الفطرة إنه ليهدي ، ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة فإذا جهنم تنكشف عن مثل الروابي ، قلت : يا رسول الله كيف وجدتها ؟ قال : وجدتها مثل الحمة السنخة ، ثم انصرف بي فررنا بغير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بغيراً لهم قد جمعه فلان فسلمت عليهم ، فقال بعضهم : هذا صوت محمد ، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة ، فأتاني أبو بكر رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمسك في منامك ، فقد علمت أنك أتيت بيت المقدس الليلة ، فقال يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي ، قال : ففتح لي صراط كأنني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته ، فقال أبو بكر : أشهد أنك لرسول الله ، وقال المشركون : انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة ! قال ، فقال : إن من آية ما أقول لكم أنني مررت بغير لكم في مكان كذا وكذا ، وقد أضلوا بغيراً لهم فجمعه لهم فلان ، وإن سيرهم يتزلزلون بكذا ثم بكذا ، ويأتونكم يوم كذا وكذا ، يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان ، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حين كان قريباً من نصف النهار ، حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ^(١)

قال البيهقي ، عن قتادة عن أبي العالية ، قال : حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام مربع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس » ، وأري مالكاً خازن جهنم ، والدجال في آيات أراهن الله إياه ، قال : ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ ، فكان قتادة يفسرها أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام ، ﴿ وجعلناه هدى لبني إسرائيل ﴾ قال : جعل موسى هدى لبني إسرائيل^(٢) عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : « لما كان ليلة أسري بي فأصبحت بمكة ، عرفت أن الناس مكذبني » . ففقد معتزلاً حزينا ، قرّ به

(١) رواه الترمذي والبيهقي وقال : إسناده صحيح ، قال ابن كثير : وهذا الحديث مشتمل على ما هو صحيح كما قال البيهقي ، وعلى ما هو منكر كالصلاة في بيت المقدس ، وسؤال الصديق عن نعمت بيت المقدس .

(٢) رواه البيهقي ومسلم وأخرجاه عن قتادة مختصراً .

عَلَّوْا اللَّهُ أَبُو جَهْلٍ، فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستزئى: هل كان من شيء؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: وما هو؟ قال: «إني أسري بي الليلة»، قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس». قال: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟! قال: «نعم»، قال: فلم ير أن يكذبه مخافة أن يمحذ الحديث إن دعا قومه إليه، قال: رأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال: يا معشر بني كعب ابن لؤي، قال، فانفضت إليه المجالس وجأوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدث قومك بما حدثني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة»، فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال: «نعم». قال، فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب، قالوا: وتستطيع أن تتعت لنا المسجد؟ وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «فازلت أنت حتى التيس علي بعض النعت، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل، فنتعه وأنا أنظر إليه، قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه، قال، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه»^(١)

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «حين أسري بي لقيت موسى عليه السلام - فنتعه فإذا رجل حسبه قال: مضطرب، رجل الرأس، كأنه من رجال شنوءة، قال: ولقيت عيسى - فنتعه النبي ﷺ قال: ربة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني حمام، قال: ولقيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به، قال: وأتيت يثاءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربت، فقيل لي: هديت الفطرة، - أو أصبت الفطرة - أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك». وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله إلي أنظر إليه، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس شبيهاً به عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبيهاً به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد هذا مالك خازن جهنم، فالتفت إليه فبداني بالسلام»^(٢)

قال ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي لما انتهيت إلى السماء السابعة، فنظرت فوق، فإذا رعد وبرق وصواعق، قال: وأتيت على قوم بطونهم كالببوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء آكلو الربا، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا بهرج ودخان وأصوات، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم لا يتفكرون في ملكوت السماوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب»^(٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه .

(١) أخرجه أحمد والبيهقي والنسائي .

(٣) ورواه الإمام أحمد وابن ماجه .

فصل

وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، قال الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة والحق أنه عليه السلام أسري به (يقظة) لا (مناماً) من مكة إلى بيت المقدس راكباً على البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقيه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز مترلتيهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر، بما هو كائن، ورأى سدارة المنتهى وغشيتها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستائة جناح، ورأى رفرقاً أخضر قد سد الأفق. ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أهمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه يبيت المقدس ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق، لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع به هو وإخوته من النبيين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم اختلف الناس هل كان الإسراء بيدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثر من العلماء على أنه أسري بيدنه وروحه بقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً ثم رآه بعد ذلك يقظة لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سبحان لذي أسرى عبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾. فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة مما كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقد قال: ﴿أسرى عبده ليلاً﴾. وقال تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم^(١). وقال تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾، والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضاً فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براق لها لمعان وإنما يكون هذا للبدن لا للروح لأنها

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه والله أعلم . وقال آخرون : بل أسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن .

فكائنة

وقد ذكر حديث الإسراء، من طريق أنس، وقد تواترت الروايات في حديث الاسراء، عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة، وأسماة رضي الله عنهم أجمعين، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ .

وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿١﴾ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٢﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبد محمد ﷺ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة، ﴿وجعلناه﴾ أي الكتاب، ﴿هدى﴾ أي هادياً ﴿لبنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أَلَّا يَتَّخِذُوا أَي لئلا يتخذوا، ﴿من دُونِي وَكِيلًا﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دُونِي، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبد وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح ! فيه تهيج وتنبيه على المنة، أي يا سلالة من نجبنا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ، وقد ورد في الأثر: أن نوحاً عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فلهذا سمي عبداً شكوراً. قال الطبراني، عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمي نوح عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله. وفي الحديث: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها»^(١). وفي حديث الشفاعة، عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: «فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً فاشفع لنا إلى ربك»^(٢).

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقَ كَبِيرًا ﴿٣﴾ فَلَمَّا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي .

(٢) أخرجه البخاري في حديث الشفاعة عن أبي هريرة مرفوعاً

الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنْتَ أَحْسَنُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عُلِّقُوا نَتِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلمون علواً كبيراً، أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ أي تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به. وقوله: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي أولى الإفسادتين ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد، أي قوة وعدة وسلطنة شديدة، ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي بينها ووسطها ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً، ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾. وقد اختلف المفسرون في هؤلاء المسلمين عليهم من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه (جالوت) وجنوده سلط عليهم أولاً ثم أدبلوا عليه بعد ذلك؛ وقتل داود جالوت، ولهذا قال: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ الآية. وعن سعيد بن جبير وعن غيره أنه (بختنصر) ملك بابل. وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأظلم وقهرهم، جزاءً وفاقاً ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾، فإنهم كانوا قد تمردوا، وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء. وقد روى ابن جرير، عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام فخرّب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغطي على كبا، فسألم ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن. وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب وهذا هو المشهور. وأنه قتل أشrafهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقاً كثيراً أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائف يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي فعلها، كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾، وقوله: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي الكرة الآخرة، أي إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ليستعوا وجوهكم﴾: أي يهينوكم ويقهروكم، ﴿وليَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي بيت المقدس ﴿كما دخلوه أول مرة﴾: أي في التي جاسوا فيها خلال الديار، ﴿وليتبرأوا﴾: أي يدمروا ويخربوا ﴿ما علوا﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿تتبرأ﴾. عسى ربكم أن يرحمكم: أي فيصرفهم عنكم، ﴿وإن عدتم عدنا﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد عدنا إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ أي مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد عنه. قال ابن عباس ﴿حصيراً﴾ أي سجنأ. وقال الحسن: فراشاً ومهاداً، وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي محمد ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يدهم صاغرون.

(١) قال مجاهد: بعث عليهم بختنصر في الآخرة، كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿عباداً لنا﴾ قال ابن عباس وقتادة: =

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجراً كبيراً أي يوم القيامة، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة: أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة، أن لهم عذاباً أليماً، أي يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾

يغير تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر، أي بالموت أو الهلاك والدمار واللعة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ الآية. وكذا فسره ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقد تقدم في الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها»^(١) وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته، ولهذا قال تعالى: ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾.

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّبَنَاتِنَا فَضَلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

يمنن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل ويتشروا في النهار للمعاش والصنائع والأعمال والأسفار، وليلعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الأجل المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك، ولهذا قال ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾: أي في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك، ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾، فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء؟ أفلا تسمعون﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾، وقال تعالى: ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾، وقال: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فالتق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾، ثم إنه تعالى جعل الليل آية، أي علامة يعرف بها، وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النور وطلوع

= بعث الله عليهم جالوت، أخرجه ابن أبي حاتم. وفي المعجائب للكرماني: قيل هم (سحاريب) وجنوده. وقيل: العمالقة، وقيل: قوم مؤمنون.

(١) أخرجه أبو داود عن جابر، بتغيير وزيادة.

الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾، وقال تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ الآية. قال ابن جريج عن عبد الله بن كثير في قوله ﴿فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ قال: ظلمة الليل وسدف النهار، وعن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل. وقال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار، فحونا آية الليل السواد الذي في القمر. وقال قتادة: كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة أي منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم، وقال ابن عباس ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله عز وجل.

وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾، وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: من خير وشر، ويلزم به ويجازى عليه، ﴿فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾، وقال تعالى: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾، وقال: ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، وقال الإمام أحمد عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لطائر كل إنسان في عنقه». وقوله: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ أي نجمع له عمله كله في كتاب، يعطاه يوم القيامة، إما يمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقيماً ﴿منشوراً﴾ أي مفتوحاً بقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ أي إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي، وقوله: ﴿ألزمناه طائره في عنقه﴾ إنما ذكر العنق لأنه عضو لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه، عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يحتم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا عبدك فلان قد حبسته، فيقول الرب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت»^(١)، وقال معمر عن قتادة ﴿ألزمناه طائره في عنقه﴾ قال: عمله، ﴿ونخرج له يوم القيامة﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كتاباً يلقاه منشوراً﴾ قال معمر: وثلا الحسن البصري ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كرماني أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عتبة بن عامر وإسناده قوي جيد كذا قال ابن كثير .

عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿اقرأ كتابك﴾ الآية. فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك، هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله .

مِّنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه، ﴿ومن ضل﴾ أي عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: ﴿ولا تزر وزرة وزر أخرى﴾^(١) أي لا يحمل أحد ذنب أحد؟ ولا يجني جان إلا على نفسه. كما قال تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء﴾، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾، وقوله: ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده، وكذا قوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، بإرسال الرسول إليه كقوله تعالى: ﴿كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا ﴿الآية﴾، وقوله: ﴿وقال لهم خزنتها: ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟﴾ قالوا: بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴿﴾، وقال تعالى: ﴿أو لم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فلو قوموا للظالمين من نصير﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

مسألة

بقي ههنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديماً وحديثاً، هي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ماذا حكمهم ! وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوته. وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه، ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان . (فالحديث الأول) : رواه الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة. فأما الأصم فيقول رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول : رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبرع، وأما الهرم فيقول لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول. فيأخذ موثقهم ليطيعنه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً» .

(١) أخرجه ابن عبد البر بسند ضعيف عن عائشة قالت: سألت خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: هم من آبائهم، ثم سأله بعد ذلك، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ثم سأله بعد ما استحکم الإسلام فترلت الآية: ﴿ولا تزر وزرة وزر أخرى﴾ وقال: هم على الفطرة - أو قال في الجنة - كما في الباب .

(الحديث الثاني) : عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين ، قال : « هم مع آبائهم » ، وسئل عن أولاد المشركين فقال : « هم مع آبائهم » ، فقيل : يا رسول الله ما يعملون ؟ قال : « الله أعلم بهم »^(١) . (الحديث الثالث) : عن ثوبان أن النبي ﷺ عظم شأن المسألة قال : « إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوزارهم على ظهورهم فيسألهم ربهم فيقولون : ربنا لم ترسل إلينا رسولا ، ولم يأتنا لك أمر ، ولو أرسلت إلينا رسولا لكننا أطوع عبادك ، فيقول لهم ربهم : رأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيقولون : نعم ، فيأمرهم أن يعملوا إلى جهنم فيدخلوها ، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها نغيظاً وزفيراً ، فرجعوا إلى ربهم ، فيقولون : ربنا أخرجنا أو أخرجنا منها ، فيقول لهم : ألم تزعموا أي إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيأخذ على ذلك موافقهم ، فيقول : اعملوا إليها فادخلوها ، فينطلقون ، حتى إذا رأوها فرقوا منها ورجعوا ، وقالوا : ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها ، فيقول : ادخلوها داخرين » ، فقال نبي الله ﷺ : « لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً »^(٢) . (الحديث الرابع) : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » ، وفي رواية قالوا : يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيراً ، قال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » ، وروى الإمام أحمد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم عليه السلام » . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل أنه قال : « إني خلقت عبادي حنفاء » . (الحديث الخامس) : عن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « كل مولود يولد على الفطرة » ، فناداه الناس : يا رسول الله وأولاد المشركين ، قال : « وأولاد المشركين »^(٣) . وقال الطبراني عن أبي رجاء عن سمرة قال : سألت رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال : « هم خدم أهل الجنة » . (الحديث السادس) : عن خنساء بنت معاوية ، من بني صريم قالت : حدثني عمي قال ، قلت : يا رسول الله من في الجنة ؟ قال : « النبي في الجنة ، والشهيد في الجنة ، والمولود في الجنة ، والوئيد في الجنة »^(٤) . فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث ، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان ، فقال له جبريل : هذا إبراهيم عليه السلام وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ قال : « نعم ، وأولاد المشركين » . ومنهم من جزم لهم بالنار ، لقوله عليه السلام : « هم مع آبائهم » . ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات ، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ، ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة . وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها . وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض . وهذا القول الذي حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة ، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في « كتاب الاعتقاد » . وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد . وقد ذكر الشيخ ابن عبد البر أن أحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة ، وأهل العلم ينكرونها لأن الآخرة دار جزاء وليست

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي .

(٢) أخرجه الحافظ البزار في مسنده .

(٣) رواه الحافظ البرقاني في المستخرج على البخاري .

(٤) أخرجه الإمام أحمد .

بدار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار، وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

(والجواب) عما قال: ان أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها . وأما قوله: إن الدار الآخرة دار جزاء فلا شك أنها دار جزاء ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار كما حكاها الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال . وقد قال تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود﴾ الآية . وقد ثبت في الصحيح وغيرها أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفحة الواحدة طبقاً واحداً، كلما أراد السجود خر لقفاه . وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها، أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى: يا ابن آدم ما أغدرك ! ثم يأذن له في دخول الجنة، وأما قوله: فكيف يكلفهم الله دخول النار وليس ذلك في وسعهم، فليس هذا بمنع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحب حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أظم وأعظم . وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار فإنه يكون عليه برداً وسلاماً، فهذا نظير ذلك؛ وأيضاً فإن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عماية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم .

فصل

إذا تقرر هذا، فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال، (أحدها): انهم في الجنة، واحتجوا بحديث سمرة أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين، (والقول الثاني): انهم مع آبائهم في النار: واستدل عليه بما روي عن عبدالله بن أبي قيس، أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفار فقالت، قال رسول الله ﷺ: «هم تبع لآبائهم». فقلت: يا رسول الله بلا أعمال؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(١). (والقول الثالث): التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وهو في الصحيحين، ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف، وهذا القول يرجع إلى من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة، لأن الأعراف ليس دار قرار، ومآل أهلها إلى الجنة، كما تقدم تقرير ذلك في سورة الأعراف، والله أعلم، وليعلم أن

هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء أنهم من أهل الجنة، وهذا هو المشهور بين الناس وهو الذي نقطع به إن شاء الله عز وجل.

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ١٦ ﴾

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿ أَمَرْنَا ﴾، فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، ف قيل معناه: أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ففسقوا فيها أَمْرًا قَدْرِيًّا، كقوله تعالى: ﴿ أَنَاهَا أَمَرْنَا لِيلاً أَوْ نَهَارًا ﴾ ﴿ قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ الْفِتْنَةَ لَا يُغْنِي عَنْهُ كُفْرُكُمْ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ قالوا معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب، وقيل معناه: أَمَرَّم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة^(١). وقال ابن جرير: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ جَعَلْنَاهُمْ أَمْرًا، قلت: إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾، قال ابن عباس قوله ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، وهو قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مَجْرِمِينَ ﴾ الآية، وعنه قال: أَكْثَرْنَا عَدَدَهُمْ.

﴿ وَكَرَّاهُكَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ١٧ ﴾ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ١٨

يقول تعالى منكرًا كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ، بأنه قد أهلك أمة من المكذبين للرسول بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله ابن عباس. كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ١٩ ﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ٢٠

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ يَصْلَاهَا ﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه، ﴿ مَذْمُومًا ﴾ أي في حال كونه مذمومًا على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار القاني على الباقي، ﴿ مَدْحُورًا ﴾ مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً. وفي الحديث: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»^(٢)، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾

(١) روي هذا القول عن سعيد بن جبير وابن عباس وهو قول حسن ورأي سديد.

(٢) أخرجه أحمد عن عائشة مرفوعاً.

وما فيها من النعم والسرور ﴿وسعى لها سعيها﴾ أي طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿وهو مؤمن﴾ أي قلبه مؤمن، أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ .

كَلَّا تُمِذُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ﴿كلا﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نخدمهم فيما فيه ﴿من عطاء ربك﴾ أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة، ولهذا قال: ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي لا يمنعه أحد ولا يرده راد، قال قتادة ﴿محظوراً﴾، أي منقوصاً، وقال الحسن وغيره: أي ممنوعاً، ثم قال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ أي في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقيبح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾: أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء»، ولهذا قال تعالى: ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ .

* لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فتقعُدَ مَذْمُومًا﴾ أي على إشراكك به ﴿مخذولاً﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكللك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك ضراً ولا نفعاً، عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله . فيوشك الله له برزق عاجل، أو أجل»^(١).

* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمْهُمَا ۖ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر. قال مجاهد ﴿وقضى﴾ يعني

وصى، ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأمر بالوالدين إحساناً، كقوله في الآية الأخرى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾، وقوله: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف﴾ أي لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيء، ﴿ولا تنهرهما﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء ﴿ولا تنهرهما﴾ أي لا تنفض يدك عليهما، ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ أي لبناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم، ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي تواضع لهما بفعلك، ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ أي في كبرهما وعند وفاتهما. وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، (منها) الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره أن النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال: «آمين آمين آمين»، قيل: يا رسول الله علام أمنت؟ قال: «أتاني جبريل، فقال: يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك، قل آمين، فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل آمين فقلت آمين، ثم قال: رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخله الجنة، قل آمين، فقلت آمين»^(١). (حديث آخر): روى الإمام أحمد عن أبي مالك القشيري قال، قال النبي ﷺ: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه»^(٢). (حديث آخر): روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف: رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عنده الكبر ولم يدخل الجنة». (حديث آخر): عن مالك بن ربيعة الساعدي قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله هل بقي علي من بر أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: «نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما»^(٣). (حديث آخر): عن معاوية بن جهمه السلمي، أن جهمه جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أردت الغزو، وجئتك أستشيرك، فقال: «فهل لك من أم؟» قال: نعم، قال: «فالزمها فإن الجنة عند رجلها»^(٤). (حديث آخر): قال الحافظ البزار في مسنده عن سليمان ابن بريدة، عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل ﷺ هل أدبت حقها؟ قال «لا، ولا بزفرة واحدة»^(٥).

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا ۝٢٥٠﴾

قال سعيد بن جبیر: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به، وفي رواية لا يريد إلا الخير بذلك، فقال: ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين﴾، وقوله: ﴿فإنه كان للأوابين غفوراً﴾

(١) أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة .

(٢) ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة وفيه زيادات أخر .

(٣) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

(٤) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه .

(٥) قال ابن كثير: في سننه الحسن بن أبي جعفر وهو ضعيف .

قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة، وعن ابن عباس: المطيعين المحسنين. وعن ابن المسيب: الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون، وعن عطاء بن يسار، وسعيد ابن جبير، ومجاهد: هم الراجعون إلى الخير. وعن عبيد بن عمير قال: كنا نعد الأواب من يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال هو الثابت من الذنب، الرجاء من المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه، وهذا الذي قاله هو الصواب، لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: أب فلان إذا رجع، قال تعالى: ﴿إِنْ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «أيون تائبون عابدون لربنا حامدون».

وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أَبَتْغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا ﴿٢٨﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، وفي الحديث: «أملك وأباك ثم أدناك أدناك»، وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب». وفي الحديث: «من أحب أن ييسر له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه». وقوله: ﴿وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا﴾ لما أمر بالإففاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ الآية، ثم قال متفرقاً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾: أي أشباههم في ذلك، قال ابن مسعود: التبذير الإففاق في غير حق، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً. وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق والفساد، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾: أي في التبذير والسهو، وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾: أي جحوداً، لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته، وقوله: ﴿وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أَبَتْغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية: أي إذا سألك أقاربك ومن أمرك بإعطائهم وليس عندك شيء وأعرضت عنهم فقد نفقتهم ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَّسُورًا﴾: أي عدهم وعداً بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله ^(١)

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

يقول تعالى أمراً بالاقتصاد في العيش، ذاماً للبخل، ناهياً عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تكن بخيلاً منوعاً لا تعطي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله (بداً الله مغلولاً) أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب، وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي ولا تسرف في الإففاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾، وهذا من باب اللف والنشر، أي فتقعده إن

(١) هكذا فسر مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقاتدة فسروا القول الميسور بالوعد.

بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه^(١) فتكون كالחסير، وهو الدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير. وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ أي كليل عن أن يرى عيباً، وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت، أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانة وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع^(٢)». وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر قالت، قال رسول الله ﷺ: «أنفقي هكذا وهكذا وهكذا، ولا نوعي فيوعي الله عليك، ولا نوكي فيوكي الله عليك»، وفي لفظ: «ولا تحصي فيحصي الله عليك». وفي صحيح مسلم، قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك». وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»، وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما نقص مالٌ من صدقة، وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله». وفي حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا^(٣)». وروى البيهقي عن الأعمش، عن أبيه قال، قال رسول الله ﷺ: «ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحي سبعين شيطاناً». وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»، وقوله: ﴿إن ربك يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء ويفقر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: ﴿إنه كان عباده خبيراً بصيراً﴾ أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر. كما جاء في الحديث: «إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه». وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة عباداً بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ رِزْقٌ وَإِيَّاكُمْ إِن قَتَلْتُمْ كَانَ خَطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١)

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه نهى عن قتل الأولاد، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لثلاث تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشيَةً إِمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ رِزْقٌ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي خوف أن تقتروا في ثاني الحال، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾. وفي الأنعام: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إِمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ رِزْقٌ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي من فقر ﴿نحن نرزقهم وإياهم﴾، وقوله: ﴿إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾ أي ذنباً عظيماً، وفي الصحيحين عن عبد الله

(١) فسر ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج الآية بأن المراد هنا البخل والسرف.

(٢) هذا لفظ البخاري في الزكاة.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود والحاكم عن ابن عمرو.

ابن مسعود، قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن يجعل الله نداً وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك».

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا، وعن مقاربتة، ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة﴾ أي ذنباً عظيماً، ﴿وساء سبيلاً﴾ أي وبئس طريقاً ومسلكاً، روى الإمام أحمد، عن أبي أمامة، أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال: «أذنه»، فدنا منه قريباً، فقال: «اجلس» فجلس، فقال: «أتجبه لأملك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال: «أفتجبه لابتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أفتجبه لأختك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتجبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»، قال: «أفتجبه لخالتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه»، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء^(١). وعن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له»^(٢).

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة». وفي السنن: «لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم». وقوله: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾: أي سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه، إن شاء قتله قوداً، وإن شاء عفا عنه على البدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك، وقوله: ﴿فلا يسرف في القتل﴾ أي فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل، وقوله: ﴿إنه كان منصوراً﴾: أي إن الولي منصور على القاتل شرعاً وقدرًا.

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٥﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٦﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند. (٢) أخرجه ابن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي مرفوعاً.

يقول تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ أي لا تنصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة، ﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾. وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «يا أبا ذر إني أراك ضميماً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم». وقوله: ﴿وأوفوا بالعهد﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس، والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه، ﴿إن العهد كان مستولاً﴾ أي عنه. وقوله: ﴿وأوفوا الكيل﴾ ذا كلم ﴿أي من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ﴿وزنوا بالقسطاس﴾ وهو الميزان، قال مجاهد هو العدل بالرومية، وقوله: ﴿المستقيم﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا اضطراب: ﴿ذلك خير﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وأحسن تأويلاً﴾ أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم، قال قتادة: أي خير ثواباً وأحسن عاقبة، وكان ابن عباس يقول: يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال. وهذا الميزان.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣١)

قال ابن عباس: لا تقف، وقال العوفي: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم، وقال قتادة: لا تقف رأيت ولم تر، وصمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله، ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾. وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». وفي سنن أبي داود: «بش مطية الرجل زعموا». وفي الحديث الآخر: «إن أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه ما لم تريا». وفي الصحيح: «من تحلم حلماً كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل». وقوله: ﴿كل أولئك﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كان عنه مسئولا﴾ أي سيأال العبد عنها يوم القيامة، وتساءل عنه.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٢) ﴿كُلِّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٣)

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبختر في المشية: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي متبختراً متبائلاً مشي الجبارين، ﴿إنك لن تخرق الأرض﴾ أي لن تقطع الأرض ممشيك، ﴿ولن تبلغ الجبال طولا﴾: أي بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازي فاعل ذلك بتقيض قصده، كما ثبت في الصحيح: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، وفي الحديث: «من تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير»، ورأى البخاري العابد رجلاً من آل (علي) يمشي وهو يخطر في مشيته، فقال له: يا هذا! إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته، قال: فتركها الرجل بعد. ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته، فقال: إن للشياطين إخواناً، وقال رسول الله ﷺ: «إذا مشيت أمتي المطيطاء

وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض^(١). وقوله: ﴿كُلٌّ ذَلِكَ كَانَ سِئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾، أي كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلى هنا، (فسئته) أي فقيبحه مكروه عند الله.

ذَلِكَ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۖ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

يقول تعالى هذا الذي أمرك به من الأخلاق الجميلة، ونهيته عن الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أي تلومك نفسك، ويلومك الله والخلق ﴿مَدْحُورًا﴾: أي مبعداً من كل خير، قال ابن عباس وقتادة: مطروداً، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

أَفَاصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ ۖ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين - عليهم لعائن الله - أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطأوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَفَاصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ﴾ أي خصصكم بالذكور ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ أي واختار لنفسه على زعمكم البنات، ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي في زعمكم أن الله ولدنا ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكن لكم وربما قتلتموهن بالوادة، فتلك إذا قسمة ضيزى، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۚ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۚ

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾: أي صرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيانات والمواعظ؛ فيترجون عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي عن الحق وبعداً عنه.

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآبْتَغُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه

زلفاً: لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويتبنون إليه الوسيلة والقرية، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه، ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون﴾ أي هؤلاء المشركون المعتنون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿علواً كبيراً﴾: أي تعالياً كبيراً، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى تقدسه السماوات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات، وتزهره وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبته وإلهيته:

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي لا تفهمون تسبيحهم لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لمن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم^(١). وقال الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لم يرواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخنوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبتها، وأكثر ذكراً لله منه». وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: نقيها تسبيح. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحاً عليه السلام قال لابنه: يا بني أمرك أن تقول سبحان الله فإنها صلاة الخلق، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق». قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: الأسطوانة تسبح، والشجرة تسبح، وقال بعض السلف: صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه.

وقال آخرون: إنما يسبح من كان فيه روح من حيوان ونبات، قال قتادة في قوله ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه، وقال الحسن والضحاك: كل شيء فيه الروح. وقد يستأنس

(١) قال ابن كثير: وهو حديث مشهور في المسانيد.

(٢) أخرجه ابن جرير، قال ابن كثير: في إسناده ضعف.

لهذا القول بحديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ مرّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتره من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»، ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»^(١)، قال بعض من تكلم عن هذا الحديث من العلماء، إنما قال ما لم ييبسا: لأنهما يسبحان ما دام فيها خضرة فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَكُنْ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية. وقال: ﴿وَكَأَنَّ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾: الآيتين، ومن أقطع عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ﴾ الآية. وقال ههنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ كُلَّ يَوْمٍ أَجْرًا لَمَا كَانَ إِلَّا خَسَارًا﴾ إلى آخر السورة.

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿٤٦﴾ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّاعًا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن^(١)، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً، قال قتادة وابن زيد: هو الأكنة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾: أي مانع حائل أن يصل إلينا بما تقول شيء. وقوله: ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ بمعنى ساتر، وقيل مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى. عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنها قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يُدَا أُمِّي لَهَبٌ﴾ جاءت العوراء أم جميل، ولها ولولة وفي يدها فهر، وهي تقول: مذمماً أبيتنا، ودينه قلينا، وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآناً اعتصم به منها: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾، قال، فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تر النبي ﷺ، فقالت يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك هجاني، فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت، ما هجاك، قال فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أنني بنت سيدها^(٢). وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾

(١) أخرجه الشيخان عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن المنذر عن ابن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا القرآن على مشركي قريش ودعاهم إلى الكتاب قالوا - يهزؤون به - : قلوبنا في أكِنَّةٍ مما تدعوننا إليه، وفي آذاننا وقْر، ومن بيننا وبينك حِجَاب. فأُتِيَ رسول الله ﷺ في ذلك من قوله:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ الآية.

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أسماء بنت أبي بكر.

وهي جمع كنان: الذي يغشى القلب ﴿أَنْ يَفْقَهُوه﴾: أي لثلاث يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذي يمنهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي إذا وحدت الله في تلاوتك وقلت: لا إله إلا الله ﴿وَلَوْ﴾ أي أدبروا راجعين ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نَفَوْرًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ الآية، قال قتادة: إن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكروا ذلك المشركون وكبروا عليهم فضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها ويعليها وينصرها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فليج، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَدْعُونَنَا إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

يغفر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سرّاً من قومهم بما قالوا: من أنه رجل مسحور له رأي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً، قال محمد بن إسحاق في السيرة: إن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رأيكم بعض سفهاكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاود لا نعود. فتعاودوا على ذلك ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كقرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فنتى نترك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصده، قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفْنًا أَأَنْتَ لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ

هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ۖ وَتَقُولُونَ إِنَّا لَنُتِمُّ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبدين وقوم المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم إنكارهم عن ذلك: ﴿أئذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ أي تراباً، ﴿أئذا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي يوم القيامة بعد ما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر، كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يقولون أئنا لمدودون في الحافرة﴾ أئذا كنا عظاماً تحرة. قالوا تلك إذا كرة خاسرة، وقوله تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ الآية، فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم، فقال: ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات، ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت، وعن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية لو كنتم موتى لأحييتكم^(١)، ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أَرَادَهُ. وقال مجاهد ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾: يعني السماء والأرض والجبال، وفي رواية: ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم، وقوله تعالى ﴿فيقولون من يعيدنا﴾: أي من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾ أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿فسيغضون إليك رؤوسهم﴾. قال ابن عباس وقادة: يحركونها استهزاء، والإنفاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، يقال غضت سنه: إذا تحركت وارتفعت من منبتها. وقال الرازي ونغضت من هرم أسنانها

وقوله: ﴿ويقولون متى هو﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك كما قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾، وقال تعالى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾، وقوله: ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ أي احذروا ذلك فإنه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت قريب، وقوله تعالى: ﴿يوم يدعوكم﴾ أي الرب تبارك وتعالى، ﴿إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾: أي إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يخالف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾، وقوله ﴿إنما هي زجرة واحدة﴾ فإذا هم بالهامة: أي إنما هو أمر واحد باتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾: أي تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته، قال ابن عباس ﴿فتستجيبون بحمده﴾: أي بأمره، وقال قتادة: بمعرفته وطاعته، وقال بعضهم ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾: أي وله الحمد في كل حال، وقد جاء في الحديث: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، كأنني بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون لا إله إلا الله». وفي رواية يقولون: «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن»^(٢)، وقوله تعالى ﴿وتظنون﴾: أي يوم يقومون من قبوركم، ﴿إن لبئس﴾ أي في الدار الدنيا، ﴿إلا قليلاً﴾ كقوله تعالى:

(١) وكذلك قال سعيد بن جبير والحسن وقادة والضحاك وغيرهم.

(٢) الرواية الثانية: أخرجها الطبراني عن ابن عمر.

﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾. وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾.

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾
يأمر تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة فإن الشيطان يترغ في يده وربما أصابه بها، ففي الحديث: « لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن يترغ في يده فيقع في حفرة من النار »^(١). وفي الحديث: « المسلم آخر المسلم لا يظلمه ولا يخذله، التقوى ههنا »، قال حماد: وقال بيده إلى صدره: « وما تواد رجلان في الله ففرق بينهما إلا حدث يحدثه أحدهما، والمحدث شر، والمحدث شر، والمحدث شر »^(٢).

* رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَسَاءَ رَحْمَتُكَ أَوْ إِنْ يَسَاءَ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

يقول تعالى: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أيها الناس، أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق، ﴿ إِنْ يَسَاءَ رَحْمَتُكَ ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإجابة إليه، ﴿ أَوْ إِنْ يَسَاءَ يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أي إنما أَرْسَلْنَاكَ نَذِيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية، ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾، وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « لا تفضلوا بين الأنبياء »، فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾. وفي الشورى في قوله: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾، ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام على المشهور، وقد بسطناه بدلائله في غير هذا الموضع والله الموفق. وقوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ تنبيه على فضله وشرفه، عن النبي ﷺ قال: « خفف على داود القرآن فكان يأمر بلوابة فتسرج فكان يقرؤه قبل أن يفرغ »^(٣) يعني القرآن.

(١) رواه أحمد وأخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق.

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ﴿٥٦﴾ قل ﴿٥٦﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ﴿٥٦﴾ ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴿٥٦﴾ من الأصنام والأنناد فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿٥٦﴾ لا يملكون كشف الضر عنكم ﴿٥٦﴾ أي بالكلية، ﴿٥٦﴾ ولا تحويلاً ﴿٥٦﴾ أي بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر، قال ابن عباس: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة، والمسيح وعزيراً، وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود في قوله ﴿٥٦﴾ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴿٥٦﴾ قال ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا، وفي رواية قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم. وقال قتادة، عن ابن مسعود في قوله ﴿٥٦﴾ أولئك الذين يدعون ﴿٥٦﴾ الآية قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجن فأسلم الجنيون. والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وفي رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن فذكره، وقال ابن عباس: هم عيسى وعزير والشمس والقمر، وقال مجاهد: عيسى والعزير والملائكة، واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله ﴿٥٦﴾ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴿٥٦﴾ وهذا لا يعبر به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة، وقال: والوسيلة هي القرية، كما قال قتادة، ولهذا قال: ﴿٥٦﴾ أيهم أقرب ﴿٥٦﴾، وقوله تعالى ﴿٥٦﴾ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴿٥٦﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات، وقوله تعالى: ﴿٥٦﴾ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴿٥٦﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله عياداً بالله منه.

وَأِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿٥٨﴾ عذاباً شديداً ﴿٥٨﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضية: ﴿٥٨﴾ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴿٥٨﴾، وقال تعالى: ﴿٥٨﴾ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرًا ﴿٥٨﴾، وقال: ﴿٥٨﴾ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴿٥٨﴾ الآيات.

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ آتَانَا مِصْرَةَ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ

بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيلًا ﴿٥٩﴾

عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذبياً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن يأتيهم الذي سألو، فإن كفروا هلكوا، كما هلك من كان

قبلهم من الأمم. قال: « لا، بل استأن بهم »، وأنزل الله تعالى: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾^(١) الآية. وعن ابن عباس قال، قالت قريش للنبى ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، وتؤمن بك، قال: « وتضعلون؟ » قالوا: نعم، قال، فدعا فأتاه جبريل، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، فقال: « بل باب التوبة والرحمة ».

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتک الأقرین ﴾ صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس: « يا آل عبد مناف إني نذير » فجاءته قريش فحذروهم وأنذروهم، فقالوا: ترعم أنك نبي يوحى إليك وإن سليمان سخر له الريح والجبال، وإن موسى سخر له البحر، وإن عيسى كان يحيى الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً فتتخذ محارث فتزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيى لنا موتانا لنكلهمم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك ترعم أنك كهيتهم. قال، فبينما نحن حوله إذ نزل عليه الوحي فلما سري عنه قال: « والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتهم، ولو شئت لكان، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة فلا يؤمن منكم أحد. فاخترت باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين »، ونزلت: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾، وقرأ ثلاث آيات، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ﴾ أي نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ما سألوها، وجرت ستتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال تعالى في المائدة: ﴿ قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾، وقال تعالى عن ثمود حين سألوا الناقة: ﴿ قال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾: أي دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله ﴿ فظلموا بها ﴾ أي كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلمهم يعتبرون، ويذكرون ويرجعون^(٢)، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه، فقال:

(١) أخرجه أحمد والنسائي عن ابن عباس .

(٢) أخرج أبو يعلى عن أم هانئ: أنه ﷺ، لما أسري به أصبح يحدث نقرأ من قريش يستهزئون به، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس وذكر لهم قصة العير، فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر، فأنزل الله: ﴿ وما جعلنا الرؤيا ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن الحسن نحوه. وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي: أن رسول الله ﷺ أصبح يوماً مهموماً، فقيل له: ما لك يا رسول الله؟ لا تهم فإن رؤياك فتنة لم فأنزل الله: ﴿ وجعلنا ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير من حديث سهل بن سعد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عمرو بن العاص، ومن حديث يعلى بن قرة، ومن مرسل سعيد بن المسيب نحوه. قال السيوطي: وأسانيدنا ضعيفة .

يا أيها الناس إن ربكم يستعبدكم فأعتبوه، وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات، فقال عمر أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن، وفي الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آياتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره» - ثم قال - يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا آرَءِيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَعْلُومَةُ فِي الْقُرْآنِ وَنَحْوُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ محضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس فإنه القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلته. قال مجاهد والحسن وقتادة في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي عصمك منهم. قال البخاري، عن ابن عباس ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، ﴿والشجرة المعلونة في القرآن﴾ شجرة الزقوم. ﴿إلا فتنة﴾: أي اختباراً وامتحاناً، وأما الشجرة المعلونة فهي شجرة الزقوم^(١)، لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك، حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله: هاتوا لنا تمراً وزبداء، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: ترقموا فلا تعلم الزقوم غير هذا^(٢)، وكل من قال إنها ليلة الإسراء فسرّه كذلك بشجرة الزقوم، واختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة المعلونة هي شجرة الزقوم، قال لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أي في الرؤيا والشجرة، وقوله ﴿ونحوهم﴾: أي الكفار، بالوعيد والعذاب والنكال، ﴿فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾: أي تمادياً فيها هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا آلِدِي كَرَّمْتَ عَلَى لَيْنٍ أَتَحَرَّنِي إِيَّايَوْمَ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَكِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

يذكر تبارك وتعالى عداء إبليس لعنه الله لآدم وذريته وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له، افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿قال أسجد لمن خلقت طيناً﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، وقال أيضاً: أرايتك، يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم وينظر ﴿قال أرايتك هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ الآية، قال

(١) أخرجه البخاري والإمام أحمد .

(٢) أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: لما ذكر الله هذا الزقوم، خوف به هذا الحي من قريش، قال أبو جهل: هل تدرون ما هذا الزقوم الذي خوفكم به محمد ؟ قالوا: لا . قال: التريد بالزبد، أما لئن أمكننا منها لتزقمنا زقماً، فأنزل الله تعالى: ﴿والشجرة المعلونة﴾ الآية، وأنزل: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ .

(٣) روي ذلك عن ابن عباس ومسروق والحسن البصري وغير واحد .

ابن عباس ﴿لأحتكن﴾ يقول : لأستولين على ذريته إلا قليلاً . وقال مجاهد : لأحتون ، وقال ابن زيد : لأضلهم ، وكلها متقاربة ، والمعنى أرايتك هذا الذي شرفته وعظمته عليّ ، لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم .

قَالَ أَذْهَبَ فَنَنْبَعَكَ مِنْهُمْ فَلَمَّا جَهَنَّمَ جَزَاءُ وَكَرَّ جَزَاءُ مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزَزَ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له ﴿أذهب﴾ فقد أنظرتك ، كما قال في الآية الأخرى ﴿فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ ، ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿قال أذهب فننبعك منهم فإن جهنم جزأكم﴾ أي على أعمالكم ﴿جزاء موفوراً﴾ قال مجاهد : وافراً ، وقال قتادة : موفوراً عليكم لا ينقص لكم منه ، وقوله تعالى : ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قيل : هو الغناء . قال مجاهد : باللغو والغناء ، أي استخفهم بذلك ، وقال ابن عباس في قوله ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قال : كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل ، واختاره ابن جرير ، وقوله تعالى : ﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ، فإن الرجل جمع راجل ، كما أن الركب جمع راكب ، ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه ، وهذا أمر قلدي ، كقوله تعالى : ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾ أي ترعجهم إلى المعاصي إزعاجاً وتسوقهم إليها سوقاً . وقال قتادة : إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه ، تقول العرب : أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه ، ومنه نهى في المسابقة عن الجلب والجنب ، ومنه اشتقاق الجلبة ، وهي ارتفاع الأصوات ، وقوله تعالى : ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ قال ابن عباس ومجاهد : هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى ، وقال عطاء : هو الربا ، وقال الحسن : هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام ، والآية تم ذلك كله ، وقوله : ﴿والأولاد﴾ يعني أولاد الزنا^(١) ، وقال ابن عباس : هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم ، وقال الحسن البصري : قد والله شاركهم في الأموال والأولاد ، مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام ، وجزأوا من أموالهم جزءاً للشيطان ، وقال أبو صالح عن ابن عباس : هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنثى عصي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به ، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه لأن الله لم يخصص بقوله : ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ معنى الشركة فيه ، بمعنى دون معنى ، فكل ما عصي الله فيه أو به ، أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة ،

وهذا الذي قاله متجه . وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة ، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً » ، وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول ، إذا حصحص الحق يوم يفضى بالحق : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً . وفي الحديث : « إن المؤمن لينضي شياطينه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر »^(١) ينضي أي يأخذ بناصيته ويقهره .

﴿ رَبُّكَ الَّذِي يُرِيحُ لَكَرُّ الْفُلْكِ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾^(٢)

يغير تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده ، لا يتغاثم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا تَجَنَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾^(٣)

يغير تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيين إليه مخلصين له الدين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا ﴾ أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى ، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هارباً فركب في البحر ليدخل الحشبة فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه ، والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد فلاأجدنه رؤوفاً رحيماً ، فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَنَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ أي نسيت ما عرقت من توحيد الله في البحر ، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ أي سجيته هذا ، ينسى النعم ويحدها إلا من عصم الله .

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾^(٤)

يقول تعالى أفأمنتم بخروجكم إلى البر ، أمنت من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصباً ، وهو المطر الذي فيه حجارة^(٥) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ ، وقال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أي ناصراً يرد ذلك عنكم وينقذكم منه .

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٢) قاله مجاهد وغير واحد من السلف .

* أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَ كَرَفِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

يقول تبارك وتعالى: أم أمنتم أيها المعرضون عنا، بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر، أن يعيدكم في البحر مرة ثانية، ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ أي يقصف الصواري ويفرق المراكب، قال ابن عباس وغيره: القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها، وقوله ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾: أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى، وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾، قال ابن عباس: نصيراً، وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أي يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

يعبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي يمشي قائماً منتصباً على رجله، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله ويستفيع به، ويفرق بين الأشياء وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية، ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ أي على الدواب من الأنعام والخيول والبغال، وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ويحلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة. عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ: يَا رَبَّنَا! أُعْطِيَ بَنِي آدَمَ الدُّنْيَا، يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَيَلْبَسُونَ، وَنَحْنُ نَسْبَحُ بِحَمْدِكَ وَلَا نَأْكُلُ وَلَا نَشْرَبُ وَلَا نَلْهَوُ، فَكَمَا جَعَلْتَ لَهُمُ الدُّنْيَا فَاجْعَلْ لَنَا الْآخِرَةَ، قَالَ: لَا أَجْعَلُ صَالِحَ ذُرِّيَةٍ مِنْ خَلْقَتِ يَدَيَّ كَمَنْ قُلْتَ لَهُ كُنْ فَكَانَ»^(١)

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِنِّهِمْ قَدْ أَتَىٰ كِتَابُهِمْ بَيِّنَاتٌ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

يعبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم، وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بنيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ الآية، وقال بعض

(١) رواه الحافظ الطبراني وأخرجه عبد الرزاق عن زيد بن مسلم موقوفاً وابن عساكر عن أنس بن مالك مرفوعاً.

السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث، لأن إمامهم النبي ﷺ، وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم واختاره ابن جرير، وروي عن مجاهد أنه قال: بكتبهم، فيحتمل أن يكون أراد ما روي عن ابن عباس في قوله ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي بكتاب أعمالهم^(١)، وهذا القول هو الأرجح، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ قُرْآنَ الْمَجْرُمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ الآية، ويحتمل أن المراد ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أي كل قوم بمن يأتمون به، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام، وأهل الكفر ائتموا بآئمتهم، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾. وفي الصحيحين: «لَتَنبُغَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَيَتَّبِعَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاعِيتِ الطَّوَاعِيتُ» الحديث، وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وهذا لا ينافي أن يحياء بالنبي إذا حكم الله بين أئمة، فإنه لا بد أن يكون شاهداً على أئمة بأعمالها، كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَادَةُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾، ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أَوَّيَّ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته، كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوَّيَّ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾ الآيات، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْناً﴾ القتل: هو الخيط المستطيل في شق النواة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، قال: «يَدْعُو أَحَدُهُمْ فَيُعْطَى كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ، وَيَمْدُ لَه فِي جِسْمِهِ، وَيَبْيِضُ وَجْهُهُ، وَيَجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ يَتَلَأَلُ، فَيَنْطَلِقُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيُرُونَهُ مِنْ بَعِيدٍ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ أَتْنَا بِهَذَا، وَبَارَكْ لَنَا فِي هَذَا، فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ لَهُمْ: أَبْشَرُوا فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا، وَأَمَّا الْكَافِرُونَ فَيَسْوَدُ وَجْهُهُ وَيَمْدُ لَه فِي جِسْمِهِ، وَيَرَاهُ أَصْحَابُهُ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا أَوْ مِنْ شَرِّ هَذَا، اللَّهُمَّ لَا تَأْتِنَا بِهِ، فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ اخْزِهِ، فَيَقُولُ: أَبْعِدْكُمْ اللَّهُ فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا»^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿أَعْمَى﴾ أي عن حجة الله وآياته وبيناته، ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ أي كذلك يكون ﴿وَأَضَلَّ سَبِيلَهُ﴾ أي وأضل منه كما كان في الدنيا، عابداً بالله من ذلك.

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شِقْبًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَا ذِقْنَكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه وثيبته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه ونأواه في مشارق الأرض ومغاربها ﷺ تسليماً كبيراً إلى يوم الدين.

(١) وهو قول أبي العالبة والحسن والضحاك. (٢) أخرجه الحافظ أبو بكر البزار.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح ، وفي صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون »^(١) . وقال عبد الله بن مسعود : يجتمع الحرسان في صلاة الفجر ، فيصعد هؤلاء ويقم هؤلاء . وقوله تعالى : ﴿ ومن الليل تهجد به ناظلاً لك ﴾^(٢) أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة ، كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : « صلاة الليل »^(٣) ، ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد ما كان بعد نوم^(٤) ، وهو المعروف في لغة العرب ، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد بعد نومه ، وقال الحسن البصري : هو ما كان بعد العشاء ، ويحمل على ما كان بعد النوم ، واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ ناظلاً لك ﴾ ، فقيل : معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحسبك ، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة ، رواه العوفي عن ابن عباس واختاره ابن جرير ، وقيل : إنما جعل قيام الليل في حقه ناظلاً على الخصوص ، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره من أمته إنما يكفر عن صلواته النوافل الذنوب التي عليه

وقوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به لتقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً ، يحمذك فيه الخلائق كلهم ، وخالفهم تبارك وتعالى ، قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل ، ذلك هو المقام الذي يقرمه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم ، عن حذيفة قال : يجمع الناس في صعيد واحد يسمعونم الداعي ، وينفذهم البصر ، حفاة عراة كما خلقوا ، قياماً لا تكلم نفس إلا بإذنه ، ينادى : يا محمد « فيقول : ليك وسعديك ، والخير في يديك ، والشر ليس إليك ، والمهدي من هديت ، وعبدك بين يديك ومنك وإليك ، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت » . فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عز وجل ، وقال ابن عباس : المقام المحمود مقام الشفاعة ، وكذا قال مجاهد والحسن البصري ، وقال قتادة : هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود . قلت : لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لا يساويه فيها أحد ، فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكباً إلى المحشر ، وله اللواء الذي آدم فن دونه تحت لوائه ، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكل يقول : لست لها ، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول : « أنا لها ، أنا لها » ، كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع إن شاء الله تعالى ، ومن ذلك ، أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها ، وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته ، وأولهم إجازة على الصراط بأمته ، وهو أول شفيع في الجنة ، وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم ، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له ، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة

(١) أخرجه البخاري ومسلم . (٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة .

(٣) قاله علقمة والأسود وإبراهيم النخعي وغير واحد .

شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك. ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وبالله المستعان .

روى البخاري، عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً. وفي رواية: «إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فيبناهم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لست بصاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقه باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم. وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»^(١) وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر»^(٢)

حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك، فيقولون: لو شفّعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناك، ويذكر ذنبه الذي أصاب، فيستحيي ربه عز وجل من ذلك، ويقول: ولكن اثنوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً، فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن اثنوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتوه، فيقول: لست هناك، ولكن اثنوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة، فيأتون موسى فيقول: لست هناك، ويذكر لم النفس التي قتل بغير نفس، فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن اثنوا عيسى، عبد الله وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناك، ولكن اثنوا محمداً غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني - قال الحسن هذا الحرف - فأقوم فأمشي بين سماطين من المؤمنين، قال أنس: حتى استأذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما يشاء الله أن يدعني، قال، ثم يقال: ارفع محمد، قل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه الثانية، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، قال: ثم أعود الثالثة، فإذا رأيت ربي وقعت - أو خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فقال: يا رب ما بقي إلا من حبسه القرآن . فحدثنا أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: «فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله

(١) أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي بن كعب .

إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة»^(١)

(الثاني) حديث كعب بن مالك رضي الله عنه: عن كعب بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمني على تل، ويكسوني ربي عز وجل حلة خضراء، ثم يؤذن لي، فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود»^(٢)

(الثالث) حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: عن أبي الدرداء، قال، قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى ما بين يدي فأعرف أمني من بين الأمم، ومن خلقي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك»، فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غر محجلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم»^(٣)

(الرابع) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أني رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهش منها نشة ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعون الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أتم فيه مما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم عليه السلام، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله قط، وإنه قد كان لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليه من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها،

(١) أخرجه في الصحيحين ورواه أحمد وأحمد واللفظ له .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن كعب بن مالك .

(٣) أخرجه أحمد أيضاً عن أبي الدرداء .

نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى؛ فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهدي صبيّاً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ؛ فيأتون محمداً ﷺ، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فتأتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربى عز وجل، ثم يفتح الله علي ويلهني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحني على أحد قبلى، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يارب، أمتي يارب، أمتي يارب؟ فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسى محمد بيده، إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى^(١)

وفي صحيح مسلم رحمه الله، قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة، وأول شافع وأول مشفع». وعن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال: «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه». وفي الحديث: «إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه» - قال النبي ﷺ - فأكون أول من يدعى وجبريل عن يمين الرحمن تبارك وتعالى - والله ما رآه قبلها - فأقول: أي رب إن هذا أخبرني أنك أرسلته إلي، فيقول الله عز وجل صدق، ثم أشفع فأقول يارب عبادك عبدوك في أطراف الأرض، قال فهو المقام المحمود^(٢)

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأُخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾، وقال الحسن البصري: إن كفار أهل مكة لما اتهموا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله عز وجل: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ الآية. وقال قتادة: ﴿أدخلني مدخل صدق﴾ يعني المدينة ﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ يعني مكة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد، وهذا القول هو أشهر الأقوال، وهو اختيار ابن جرير، وقوله: ﴿واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾ قال الحسن البصري: وعده ربه ليتزعن ملك فارس وعز فارس، وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له. وقال قتادة: إن نبي

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وهو حديث مرسل.

الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولقراض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله، جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديد ضعيفهم، قال مجاهد: ﴿سلطاناً نصيراً﴾ حجة بينة، واختار ابن جرير الأول، لأنه لا بد مع الحق من قهر، لمن عاداه ونأواه، ولهذا يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات - إلى قوله - وأنزلنا الحديد﴾ الآية. وفي الحديث: «إن الله لينع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع، وقوله: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه، ولا قبل لهم به، وهو ما بعث الله به من القرآن والإيمان، والعلم النافع وزهق باطلهم: أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾. عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»^{٨٢}. وقال الحافظ أبو يعلى، عن جابر رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلثة وستون صنماً تُعبد من دون الله، فأمر بها رسول الله ﷺ فأُكبت على وجوهها، وقال: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوشَافَةً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^{٨٣}

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين، أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق، وشرك وزيف وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة، يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدق، واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك؛ فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وكفراً، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾. وقال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون، قال قتادة: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ولا يزيده الظالمين إلا خساراً﴾: أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾^{٨٤} قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾^{٨٥}

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته، ونأى بجانبه. قال مجاهد:

بَعْدَ عَنَا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾، وَبَأنَهُ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ وَهُوَ الْمَصَائِبُ وَالْحَوَادِثُ وَالنَّوَائِبُ ﴿كَانَ يَتُوسَّأُ﴾ أَيُّ قَنْطُ أَنْ يَعُودَ، يَحْصُلُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوسُ كُفُورًا وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَةٍ، لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَلَى نَاحِيَّتِهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: عَلَى حَدِّثِهِ وَطَبِيعَتِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: عَلَى نِيَّتِهِ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: عَلَى دِينِهِ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى، وَهَذِهِ الْآيَةُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - تَهْدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَوَعِيدٌ لَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ الْآيَةُ. وَهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أَيُّ مَنْهُ وَمَنْكُمْ، وَسَيَجْزِي كُلٌّ عَامِلٌ بِعَمَلِهِ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أُمَشِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَرْثٍ فِي الْمَدِينَةِ وَهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَصِيْبٍ، فَرَفَعُوا مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تَسْأَلُوهُ، قَالَ: فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ مَا الرُّوحُ؟ فَا زَالَ مُتَوَكِّئًا عَلَى الْعَصِيْبِ، قَالَ: فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوحِي إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قَالَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَدْ قَلْنَا لَكُمْ لَا تَسْأَلُوهُ^(١). وَهَذَا السِّيَاقُ يَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَدْنِيَّةٌ، وَأَنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ سَأَلَهُ الْيَهُودُ عَنْ ذَلِكَ بِالْمَدِينَةِ، مَعَ أَنَّ السُّورَةَ كُلَّهَا مَكِّيَّةٌ. وَقَدْ يَجِبُ عَنْ هَذَا بَأنَهُ قَدْ تَكُونُ نَزَلَتْ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً، كَمَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ قَبْلَ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ بِأَنَّهُ يُجِيبُهُمْ عَمَّا سَأَلُوهُ بِالْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ إِتْرَاهَا عَلَيْهِ، وَهِيَ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾، وَمَا يَدُلُّ عَلَى نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَكَّةَ، مَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُودٍ: أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلَ عَنْهُ هَذَا الرَّجُلَ، فَقَالُوا سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَسَأَلُوهُ فَتَرَلَتْ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قَالُوا: أَوْتَيْنَا عِلْمًا كَثِيرًا، أَوْتَيْنَا التَّوْرَةَ، وَمَنْ أَوْتِيَ التَّوْرَةَ فَقَدْ أَوْتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، قَالَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكُلَّمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ الْآيَةُ. وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرَمَةَ قَالَ: سَأَلَ أَهْلَ الْكِتَابِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرُّوحِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الْآيَةَ، فَقَالُوا: تَرَعَمُ أَنَا لَمْ تَوْتَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا وَقَدْ أَوْتَيْنَا التَّوْرَةَ وَهِيَ الْحِكْمَةُ ﴿وَمَنْ يُوْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أَوْتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. قَالَ: فَتَرَلَتْ: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَّارٍ قَالَ: نَزَلَتْ بِمَكَّةَ ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَنَاهُ أَجْبَارُ يَهُودَ، وَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! أَلَمْ يَلْقُنَا عَنْكَ أَنْتَ تَقُولُ ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَفَمُنِينَا أَمْ عَنِيتَ قَوْمَكَ؟ فَقَالَ: «كَلَّا قَدْ عَنِيتُ»، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَتْلُو أَنَا أَوْتَيْنَا التَّوْرَةَ، وَفِيهَا تِبْيَانٌ كُلُّ شَيْءٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ فِي عِلْمِ اللَّهِ قَلِيلٌ وَقَدْ أَنَا كُمْ اللَّهُ مَا إِنْ عَمَلْتُمْ بِهِ انْتَفَعْتُمْ». وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال : (أحدها) أن المراد أرواح بني آدم ، عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي ﷺ أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء ، فأنابه جبريل فقال له : ﴿ قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ . فأخبرهم النبي ﷺ بذلك . فقالوا : من جاءك بهذا ؟ قال : « جاءني به جبريل من عند الله » ، فقالوا له : والله ما قاله لك إلا علونا ، فأنزل الله : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصداقاً لما بين يديه ﴾ ، وقيل : المراد بالروح ههنا جبريل ، قاله قتادة ، وقيل : المراد به ههنا ، ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها .

وقوله تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ : أي من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء بآرك وتعالى ، والمعنى أن علمكم في علم الله قليل ، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى . وسبأني إن شاء الله في قصة موسى والخضر ، أن الخضر قال : يا موسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ . وقال السهلي ، قال بعض الناس : لم يجهم عما سألو لأنهم سألو على وجه التعت ، وقيل أجابهم ، ثم ذكر السهلي : الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها ، وقرر : أنها ذات لطيفة كالهواء سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر ، وحاصل القول : إن الروح هي أصل النفس ومادتها ، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن ، فهي هي من وجه ، لا من كل وجه ، وهذا معنى حسن ، والله أعلم .

وَلَيْنَ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِن فَضَّلَهُ
كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ، ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تتريبل من حكيم حميد ، ثم نيه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يستطيع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال ولا عدل ؟ وقوله : ﴿ ولقد صرّفنا للناس ﴾ الآية ، أي بينا لهم الحجج ، والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهم الحق وشرحنه وبسطناه ، ومع هذا ﴿ فابى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ أي جحدوا للحق ، وردوا للصواب .

وَقَالُوا لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن تَحْتِهَا نَاجِيَةٌ ﴿٩١﴾ وَنَحْبِلُ عِرْبٍ فُتَجِرَ الْأَنْهَارُ
خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِفَاً أَوْ تَأْتِيَ بِلَهُ وَالْمَلَكِ قَبِيلًا ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ

بَيْتٍ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزِّلَ عَلَيْكَ كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٨٦﴾

قال ابن جرير عن ابن عباس : إن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، وأبا البختری، والوليد ابن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعدوا إلى محمد فكلوه وخصاموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلوك، فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بدءاً، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جثت بهذا الحديث تطلب به ما لا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رثياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن الرقي - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. فقال رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً، ولا أقل مالا، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليسط لنا بلادنا، وليجّر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا، منهم (قصي بن كلاب) فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألك عما تقول حتى هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا، كما تقول، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتساله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتبس المعاش كما تلتسمه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم! فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك»، فقالوا: يا محمد! أما علم ربك أنا سنجلس معك،

ونسألك عما سألتك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم تقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل بالهامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا تؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعدرنا إليك يا محمد، أما والله لا تركك وما فعلت بنا حتى نهلك أو تهلكنا .

فلما قالوا ذلك، قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر ابن مخزوم، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوكم لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوكم أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء مسلماً ثم ترفق فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وإيم الله لو فعلت ذلك لظننت أنني لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزناً أسفاً، لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ولما رأى من مبادئهم إياه^(١). ولو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرةً وعناداً، فقبل لرسول الله ﷺ: إن شئت أعطيتناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: « بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة » .

وقوله تعالى: ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ النبوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله ولأجابههم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴾ . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم. وقوله تعالى: ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت ﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهب وتبدل أطرافها فبعجل ذلك في الدنيا، وأسقطها كسفاً، أي قطعاً، كذلك سأل قوم شعيب فقالوا: ﴿ أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾، فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم، وأما نبي الرحمة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد لا يشرك به شيئاً، وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى (عبدالله بن أبي أمية) الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً وأناناب إلى الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد: هو الذهب، أي يكون لك بيت من ذهب، ﴿ أو ترفق في السماء ﴾ أي تصعد في سلم، ونحن ننظر إليك، ﴿ ولن تؤمن لرقيق حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾، قال مجاهد: أي مكتوب فيه، إلى كل واحد واحد صحيفة، هذا كتاب من الله لفلان بن فلان تصبح موضوعة عند رأسه، وقوله تعالى: ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ أي سبحانه وتعالى وتقديس، أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل، وعن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: « عرض علي ربي عز وجل ليجعل لي بطحاء مكة

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ذنباً، فقلت: لا يارب ولكن أشيع يوماً وأجوع يوماً - أو نحو ذلك - فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك ﴿٩٤﴾

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُّونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۚ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وما منع الناس ﴾ أي أكثرهم، ﴿ أن يؤمنوا ﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً كما قال تعالى: ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ ؟ وقال تعالى: ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا ﴾ الآية. وقال فرعون وملؤه: ﴿ أتؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ ؟ وكذلك قالت الأمم لرسلهم: ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾، والآيات في هذا كثيرة، ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده، أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسلاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ﴾ أي كما أنتم فيها ﴿ لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ أي من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة .

﴿ قُلْ كُنْ لِلَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبيراً بَصيراً ۚ ﴾

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى العجبة على قومه، في صدق ما جاءهم به إنه شاهد على وعليكم، عالم بما جتكم به، فلو كنت كاذباً عليه لاتنقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿ ولو نقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾. وقوله ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾: أي علماً بهم، بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، بمن يستحق الشقاء والإضلال والإزاعة، ولهذا قال:

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَوْلاً مَّهْتَدٍ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ نجدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وبُكماً وَصَحَّ مَاوَتْهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً ۚ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له، ومن يضل فلن نجد لهم أولياء من دونه، أي يهودهم، كما قال: ﴿ من يهد الله فهو المهتد، ومن يضل فلن نجد له ولياً مرشداً ﴾، وقوله: ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾، عن أنس بن مالك: قيل يا رسول الله كيف يحشر

الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»^(١). وعن حذيفة بن أسيد، قال، قام أبو ذر فقال: يا بني غفار قولوا ولا تحلفوا فإن الصادق المصدوق حدثني: أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج، فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار^(٢). وقوله ﴿عَمِيًّا﴾ أي لا يبصرون ﴿وَبَكَاءٍ﴾ يعني لا ينطقون ﴿وَصَمًّا﴾ لا يسمعون، وهذا يكون في حال دون حال، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا، بكاء وعمياً وصماً عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه، ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ كلما خبت ﴿قال ابن عباس: سكنت، وقال مجاهد: طفئت ﴿زدناهم سعيراً﴾ أي لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فدنقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾.

ذَلِكَ جَزَاءُ هُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِبَيِّنَاتٍ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفُنَا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّارِيبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

يقول تعالى هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه، لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي بأدلتنا وحجتنا، واستبعدوا وقوع البعث، ﴿وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾، أي بالية نخرة ﴿أَتُنَا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه، من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض، نعاد مرة ثانية؟ فاتحج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السماوات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾، وقال: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض، ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى﴾ الآية، وقال: ﴿أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾، وقال ههنا: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، كما بدأهم، وقوله: ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وما يؤخره إلا لأجل معدود﴾، وقوله: ﴿فأبى الظالمون﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿إلا كفوراً﴾: إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

* قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، قل لهم يا محمد: لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق، قال ابن عباس: أي الفقر، أي خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً،

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

لأن هذا من طابعكم وسجاياكم، ولهذا قال: ﴿وكان الإنسان قتوراً﴾ قال ابن عباس وقتادة. أي بخيلاً منوعاً، وقال الله تعالى: ﴿أم لم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أي لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهده، فإن البخل والجزع والملع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين﴾ ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه. وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يفيض ما في يمينه» ١٩.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَعَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَزَلُ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَا بِرُوْنِي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مَنْ بَعْدَهُ لِبَنِيِّ إِسْرَءِيلَ أَاسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

يغيب تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه، فيما أخبر به عن أرسله إلى فرعون، وهي «العصا، واليد، والسنين، والبحر، والظوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم» آيات مفصلات، قاله ابن عباس، وقال محمد بن كعب: هي اليد والعصا والخمس في الأعراف والطمس والحجر، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد: (هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والظوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم)، وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي، وجعل الحسن البصري: السنين ونقص الثمرات واحدة؛ وعنده أن التاسعة هي تلفف العصا ما بأفكون، ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجعلوها بها، واستيقظتها أنفسهم ظلاماً وعلواً وما نجعت فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى - وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات - ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ قيل: بمعنى ساحر، والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة ههنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ - إِلَى قَوْلِهِ فِي تِسْعِ آيَاتٍ - إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، فذكر هاتين الآيتين العصا واليد، وبين الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصلها، وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة: منها ضربه الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتي به بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم، فخالقوها وعاندوها كفراً وجحوداً.

ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ أي حججاً وأدلة

على صدق ما جئتكم به، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي هالكا، قاله مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس: ملعوناً، وقال الضحاك ﴿مَثْبُورًا﴾: أي مغلوباً^(١)، والهالك كما قال مجاهد، يشمل هذا كله. ويدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا واليد والسنين ونقص من الثمرات والظوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود القاعل المختار الذي أرسله، وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَ مِنْ الْأَرْضِ﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾، وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية، نزلت قبل الهجرة وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِنُواكَ مِنَ الْأَرْضِ لِخُرُوجِكَ مِنْهَا﴾ الآيتين، ولهذا أورد الله رسوله مكة فدخلها عنوة وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورد الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأمواهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: كذلك وأورثناها بني إسرائيل، وقال ههنا: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لغيفاً﴾ أي جميعكم أنتم وعدوكم، قال ابن عباس: ﴿لغيفاً﴾ أي جميعاً^(٢)

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكَّةٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد، إنه بالحق نزل، أي متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أي متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه، وقوله ﴿وبالحق نزل﴾ أي ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً، لم يشب بغيره ولا زيد فيه، ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى، وقوله: ﴿وما أرسلناك﴾ أي يا محمد ﴿إلا مبشراً ونذيراً﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين، وقوله: ﴿وقرآنًا فرقناه﴾ بالتخفيف، ومعناه فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفزلاً منجماً في ثلاث وعشرين سنة، قاله ابن عباس، وعن ابن عباس ﴿فرقناه﴾ بالتشديد أي أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً، ولهذا قال ﴿لتقرؤه على الناس﴾ أي لتبلغه الناس وتلوه عليهم ﴿على مكث﴾ أي مهل ﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ شيئاً بعد شيء .

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ﴿١٠٩﴾

(١) وهو قول لابن عباس أيضاً .

(٢) وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك .

يقول تعالى لبيته محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم ﴿أَمِنُوا﴾ به أو لا تؤمنوا ﴿أَيُّ سِوَاهُ أَمِنْتُمْ بِهِ أَمْ لَا﴾ فهو حق في نفسه أنزله الله، ونوره بذكره في كتبه المنزل على رسله، ولهذا قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من صالح أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا بَتُلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه ﴿سَجْدًا﴾ أي لله عز وجل، شكرًا على ما أنعم به عليهم، ولهذا يقولون ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، وقوله: ﴿يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ﴾ أي خضوعًا لله عز وجل، وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله، ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي إيمانًا وتسليمًا، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَامَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَرَادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن، ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي لا فرق بين دعائكم له باسم ﴿اللَّهُ﴾ أو باسم ﴿الرحمن﴾ فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، يسبح له ما في السموات والأرض ﴿الآية﴾. وقد روى مكحول أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده: «يا رحمن يا رحيم»، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية، وكذا روي عن ابن عباس رواهما ابن جرير^(١)، وقوله ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوار بمكة، ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا﴾: قال كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به، قال، فقال الله تعالى لبيته ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾: أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن، ﴿وَلَا تَخَافُوهَا﴾: عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٢). وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي، استرق

(١) أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: نزلت ورسول الله مخفف بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه ورفع صوته بالقرآن، فكان المشركون إذا سمعوا القرآن سيوه ومن أنزله ومن جاء به فترلت. وأخرج البخاري أيضاً عن عائشة: أنها نزلت في الدعاء، وأخرج ابن جرير مثله، ثم رجح الأول لأنها أصح سنداً، وكذا رجحها النووي وغيره، وقال الحافظ ابن حجر: لكن يحتمل الجمع بينهما بأنها نزلت في الدعاء داخل الصلاة. وأخرج ابن جرير والحاكم عن عائشة: أنها نزلت في التشهد، وهي مبينة لمرادها في الرواية السابقة.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عباس

السمع منهم دونهم فرقاً منهم، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع، فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله ﷻ ولا تجهر بصلاتك ﷻ فيتفرقوا عنك ﷻ ولا تخافت بها أي فلا يسمع من أراد أن يسمع فينتفع به، ﷻ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﷻ .

قال ابن جرير، عن محمد بن سيرين، قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر لم تصنع هذا؟ قال: أناجي ربي عز وجل وقد علم حاجتي، فقيل: أحسنت، وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان وأوقف الوسنان، قيل: أحسنت، فلما نزلت: ﷻ ولا تجهر بصلاتك ﷻ ولا تخافت بها ﷻ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﷻ قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً. وقال عكرمة، عن ابن عباس: نزلت في الدعاء، وقوله: ﷻ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﷻ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائص، فقال: ﷻ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﷻ ولم يكن له شريك في الملك ﷻ، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ﷻ ولم يكن له ولي من الدال ﷻ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي، أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له، قال مجاهد في قوله: ﷻ ولم يكن له ولي من الدال ﷻ: لم يحالف أحداً، ولم يبتغ نصر أحد، ﷻ وكبره تكبيراً ﷻ أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

[آخر تفسير سورة الإسراء ، والله الحمد والمنة]



(١٨) سُورَةُ الْكَهْفِ مَكِّيَّةٌ وَأَيُّهَا عِشْرَةٌ وَمِائَتُهُ

« ذكر ما ورد في فضلها وأنها عصمة من الدجال »

عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال »^(١)، طريق أخرى: قال الإمام أحمد، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنه الدجال ». ورواه مسلم أيضاً والنسائي، وفي لفظ النسائي: « من قرأ عشر آيات من الكهف » فذكره. حديث آخر: عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجال »^(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّكِينٍ فِيهِ أَبَدٌ ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

قد تقدم في أول التفسير، أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة، عند فواتح الأمور وخواتمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم، محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيف، بل يهدي إلى صراط مستقيم، واضحاً بيناً جلياً، نذيراً للكافرين بشيراً للمؤمنين، ولهذا قال: ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيفاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً، ولهذا قال: ﴿ قَيِّمًا ﴾ أي مستقيماً، ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ أي لمن خالفه وكذبه، ولم يؤمن به، ينذر بأساً

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي .

(٢) أخرجه النسائي في سننه .

شديداً عقوبة عاجلة في الدنيا، وآجلة في الأخرى، ﴿من لدنه﴾ أي من عند الله، ﴿ويشير المؤمنين﴾ أي بهذا القرآن، الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أن لم أجراً حسناً﴾ أي مثوبة عند الله جميلة، ﴿ما كثر في ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه﴾ أبداً، دائماً، لا زوال له ولا انقضاء، وقوله: ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب، في قولهم نحن نعبد الملائكة، وهم بنات الله ﴿ما لم به من علم﴾، أي بهذا القول الذي افتروه واتفكوه، ﴿ولا لآبائهم﴾ أي لأسلافهم، ﴿كبرت كلمة﴾ كبرت كلمتهم هذه، وفي هذا تبشيع لمقاتلتهم واستعظام لإفكهم. ولهذا قال: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافترائهم، ولهذا قال: ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس قال: بعث قريش (النضر ابن الحارث) و (عقبة بن أبي معيط) إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجوا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالوا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاجعوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! أخبرنا، فسألوهم عما أمروهم به، فقال لهم رسول ﷺ: «أخبركم غداً عما سألتكم عنه»، ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك حياً، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من خبر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عز وجل ﴿ويسألونك عن الروح؟ قل الروح﴾ الآية.

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آلِهِمْ ۖ إِنَّ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا ۖ ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۖ ﴿٨﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾، وقال: ﴿ولا تحزن عليهم﴾، وقال: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾، باخع: أي مهلك نفسك بحزنك عليهم، ولهذا قال: ﴿فعللك باخع نفسك على آثامهم﴾.

إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴿٩﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿١٠﴾ أَسْفًا ﴿١١﴾ يَقُولُ: لَا تَهْلِكْ نَفْسَكَ أَسْفًا، قَالَ قَتَادَةُ: قَاتِلْ نَفْسَكَ غَضَبًا وَحُزْنًا عَلَيْهِمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: جَزَعًا، وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبُ أَيْ: لَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ بَلْ أبلغهم رسالة الله فَمَنْ اهْتَدَى فَلنفسه، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَلَا تَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارًا قَائِمَةً مَزِينَةً بِزِينَةٍ زَائِلَةٍ، وَإِنَّمَا جَعَلَهَا دَارَ اخْتِبَارٍ لَا دَارَ قَرَارٍ، فَقَالَ: ﴿١٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿١٣﴾. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوهٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرُ مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ». ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِزَوَالِهَا وَفَنَائِهَا وَذَهَابِهَا، وَخَرَابِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿١٤﴾ وَإِنَّا لِلْجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرْزًا ﴿١٥﴾ أَيْ وَإِنَّا لَمُصِيرُوهَا بَعْدَ الزَّيْنَةِ إِلَى الْخَرَابِ وَالذَّمَارِ، فَتَجْعَلُ كُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهَا هَالِكًا ﴿١٦﴾ صَعِيدًا جُرْزًا ﴿١٧﴾ لَا يَنْبِتُ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَهْلِكُ كُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهَا وَيَبِيدُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ ﴿١٨﴾ صَعِيدًا جُرْزًا ﴿١٩﴾ بَلَقَاءً. وَقَالَ قَتَادَةُ: الصَّعِيدُ الْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَجَرٌ وَلَا نَبَاتٌ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الصَّعِيدُ الْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿٢٠﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ؟

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٢٢﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿٢٣﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿٢٥﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ﴿٢٢﴾ أَمْ حَسِبْتَ ﴿٢٣﴾ يَعْنِي يَا مُحَمَّدُ ﴿٢٤﴾ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٢٥﴾ أَيْ لَيْسَ أَمْرُهُمْ عَجِيبًا فِي قُدْرَتِنَا وَوَسْطَانِنَا فَإِنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَسْخِيرَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ، وَلَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ - أَعْجَبَ مِنْ إِخْبَارِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ: قَدْ كَانَ مِنْ آيَاتِنَا مَا هُوَ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الَّذِي آتَيْتُكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالسَّنَةِ وَالْكِتَابِ أَفْضَلَ مِنْ شَأْنِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: مَا أَظْهَرَتْ مِنْ حُجْجِي عَلَى الْعِبَادِ أَعْجَبَ مِنْ شَأْنِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ، وَأَمَّا الْكَهْفُ: فَهُوَ الْغَارُ فِي الْجَبَلِ، وَهُوَ الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ الْمَذْكُورُونَ، وَأَمَّا الرَّقِيمُ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ وَادٍ قَرِيبٌ مِنْ أَيْلَةَ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَمَّا الْكَهْفُ فَهُوَ غَارُ الْوَادِي، وَالرَّقِيمُ اسْمُ الْوَادِي، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الرَّقِيمُ كِتَابُ بَنِيَانِهِمْ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ هُوَ الْوَادِي الَّذِي فِيهِ كَهْفُهُمْ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الرَّقِيمُ الْجَبَلُ الَّذِي فِيهِ الْكَهْفُ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: الرَّقِيمُ لَوْحٌ مِنْ حِجَارَةٍ كَتَبُوا فِيهِ قِصَصَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ثُمَّ وَضَعُوهُ عَلَى بَابِ الْكَهْفِ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: الرَّقِيمُ الْكِتَابُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿٢٦﴾ كِتَابَ مَرْقُومٍ ﴿٢٧﴾ وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ، قَالَ الرَّقِيمُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَرْقُومٌ، كَمَا يُقَالُ لِلْمَقْتُولِ قَتِيلٌ وَلِلْمَجْرُوحِ جَرِيحٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: اجْتَمَعَ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَأَبُو جَهْلٌ بْنُ هِشَامٍ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ =

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لثلاث يفتنهم عنه فهربوا منهم فلبجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ، ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أي اجعل عاقبتنا رشداً ، كما جاء في الحديث : « وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً . » وفي المسند عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو : « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » ، وقوله : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي من رقدتهم تلك ، وخرج أحدهم بدارهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه كما سيأتي بيانه وتفصيله ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لَنَعْلَمَ أَيِ الْحِزْبَيْنِ ﴾ أي المختلفين فيهم ﴿ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ قيل : عدداً ، وقيل : غاية .

ثُمَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ قَسْرًا ظَلُمْ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾

من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها ، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب ، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً . وأما المشايخ من قريش فعاتمهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل ، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً . وقال مجاهد : بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة ، يعني الحلق ، فآلمهم الله رشدهم ، وآتاهم تقواهم فآمنوا بربهم ، أي اعترفوا له بالوحدانية وشهدوا أنه لا إله إلا هو ، ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها على زيادة الإيمان وتفاضله ، وأنه يزيد وينقص ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ ، كما قال : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَلَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ ، وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقول تعالى : وصبرناهم على مخالفة قومهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وساداتهم ، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون في ظاهر البلد ، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها ، وكان لها ملك جبار عنيد يقال له (دقيانوس) وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه ، فلما خرج الناس لمجتمعهم

= قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه ، وإنكارهم ما جاء به من الفضيلة ، فأحزنه حزناً شديداً ، فأنزل الله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ الآية .

ذلك وخرج هؤلاء الفتنه مع آباؤهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السماوات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز عنهم، وانخلوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ۖ وَلَنْ لِنُفِي التَّائِيدِ: أَي لَا يَقَعُ مِنْ هَذَا أَبَدًا لَأَنَا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَكُنَّا بَاطِلًا، وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أَي بَاطِلًا وَكَذِبًا وَهَتَانًا، ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ آلِهَةٍ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ﴾ أَي هَلَا أَقَامُوا عَلَى صِحَّة مَا ذُهِبُوا إِلَيْهِ دَلِيلًا وَاضِحًا صَحِيحًا، ﴿فَنَظُنُّهُمْ أَفْهَى مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يَقُولُونَ: بَلْ هُمْ ظَالِمُونَ كَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ ذَلِكَ، فَيَقَالُ إِنَّ مَلِكَهُمْ تَهْدِيهِمْ وَتَوَعَّدُهُمْ وَأَمَرَ بِتَرْجُلِهِمْ وَأَجْلَهُمْ لِيَنْظُرُوا فِي أَمْرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنْ دِينِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ هَذَا مِنْ لَطْفِ اللَّهِ بِهِمْ فَإِنَّهُمْ تَوَصَّلُوا إِلَى الْهَرَبِ مِنْهُ وَالْفِرَارِ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَ وَقْعِ الْفِتْنِ فِي النَّاسِ أَنْ يَفِرَ الْعَبْدُ مِنْهُمْ خَوْفًا عَلَى دِينِهِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالٍ أَحَدِكُمْ غَنًا يَتَّبِعُ بِهَا شُعْفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتْنِ»^(١)، فَفِي هَذِهِ الْحَالِ تَشْرَعُ الْعِزْلَةُ عَنِ النَّاسِ وَلَا تَشْرَعُ فِيهَا عِدَاهَا، لَمَّا يَفُوتُ بِهَا مِنْ تَرْكِ الْجَمَاعَاتِ وَالْجَمْعِ، فَلَمَّا وَقَعَ عَزْمُهُمْ عَلَى الذَّهَابِ وَالْهَرَبِ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَاخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ ذَلِكَ وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ اعْتَرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾: أَي وَإِذْ فَارَقْتُمُوهُمْ وَخَالَفْتُمُوهُمْ بِأَدْيَانِكُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ، فَفَارَقُوهُمْ أَيْضًا بِأَدْيَانِكُمْ، ﴿فَأَوَّوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾: أَي يَسْطِطُ عَلَيْكُمْ رَحْمَةً يَسْتَرْكُمُ بِهَا مِنْ قَوْمِكُمْ ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ، ﴿مَرْفَقًا﴾ أَي أَمْرًا تَرْتَفِقُونَ بِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجُوا هَرَبًا إِلَى الْكَهْفِ، فَأَوَّوْا إِلَيْهِ فَفَقَدَهُمْ قَوْمُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ وَتَطْلُبُهُمُ الْمَلِكُ، فَيَقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِهِمْ، وَعَمَّى اللَّهُ عَلَيْهِ خَبْرَهُمْ كَمَا فَعَلَ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصَاحِبِهِ الصَّدِيقِ حِينَ لَجَأَ إِلَى (غَار ثَوْر).

* وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ^ط وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ^ط وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا^(١٧)

أخبر تعالى أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ذات اليمين، قال ابن عباس: ﴿تزاور﴾: أي تميل، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، ولهذا قال: ﴿وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابيه وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب. وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالاً؛ ولو كان من جهة الغرب لما

دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه والله الحمد. وقال ابن عباس ومجاهد: ﴿تقرضهم﴾ تركهم، وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم نخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه، فقد قال ﷺ: «ما تركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به». فأعلمنا تعالى بصفته ولم يعلمنا بمكانه فقال: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم﴾، قال مالك: تميل، ﴿ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه﴾ أي في متسع منه داخلاً، بحيث لا نصيبهم، إذ لو أصابهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس، ﴿ذلك من آيات الله﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك من آيات الله﴾ ثم قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ أي هو الذي أرشد هؤلاء القتية إلى الهداية من بين قومهم فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

وَنَحْسِبُهُمْ أَيَقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِثْتَ مِنْهُمْ رُجْبًا ﴿١٨﴾

ذكر أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم لثلا يسرع إليها البلى، وقوله تعالى: ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾، قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين، قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض، وقوله: ﴿وكلبهم بامط ذراعيه بالوصيد﴾ الوصيد الفناء، وقال ابن عباس: بالباب، قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب، وهذا من سجيته وطبيعته حيث يرفض بياهم، كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، كما ورد في الصحيح، ولا صورة ولا جنب، وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه فائدة صعبة الأخبار فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخير وشأن، وقوله تعالى: ﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملثت منهم رجباً﴾ أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم لما ألبسوا من المهابة والذعر، لثلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لا مس، حتى يبلغ الكتاب أجله، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة الواسعة.

* وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَّسَأَلُوا يَتْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَذِبْنَاهُمْ قَالُوا لَبِئْسَ يَوْمٌ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِكِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُسْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعْدُوْكُمْ فَمِنْ مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم، وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهياتهم شيئاً، وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم ﴿كم لبئتم﴾ أي كم رقدتم؟ ﴿قالوا لبئس يوماً أو بعض يوم﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار، ولهذا استدركوا فقالوا:

﴿أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبستم﴾ أي أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم﴾ أي فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها، فلهذا قالوا ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم﴾ هذه إلى المدينة ﴿أي مدينتكم التي خرجتم منها﴾ فليظروا أيها أزكى طعاماً ﴿أي أطيب طعاماً، كقوله: ﴿ما زكى منكم من أحد أبداً﴾، وقوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾، ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره. وقوله ﴿وليتلطف﴾ أي في خروجه وإيابه، يقولون وليخفف كل ما يقدر عليه، ﴿ولا يشعروا﴾ أي ولا يعلمن ﴿بكم أحداً﴾. إنهم إن يظهروا عليكم يرجوكم ﴿أي إن علموا بمكانكم﴾ يرجوكم أو يعيدوكم في ملتهم ﴿يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونكم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوكم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن وافقتهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولن تفلحوا إذا أبداً﴾.

وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ﴿وكذلك أعزنا عليهم﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ﴿ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ ذكر غير واحد من السلف، أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك، وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لم يأكلوه، تنكر وخرج عثماني في غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه، ويقول إن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام فدفع إليه ما معه من النقفة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم، ويقولون لعل هذا وجد كتر، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النقفة، لعله وجدها من كثر، ومن أنت؟ فجعل يقول أنا من أهل هذه البلدة، وعهدي بها عشية أمس، وفيها دقيانوس فسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولي أمرهم، فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال لهم دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل، فيقال إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال: بل دخلوا عليهم ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتقهم، وكان مسلماً فيما قيل، واسمه يندوسيس، ففرحوا به وآسوه بالكلام، ثم ودعوه وسلموا عليه وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله عز وجل، فالله أعلم. وقوله ﴿وكذلك أعزنا عليهم﴾: أي كما أرقدناهم وأيقظناهم ببياتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴿أي في أمر

القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لم وعليهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾. حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين (أحدهما) : أنهم المسلمون منهم، و (الثاني) : أهل الشرك منهم، فإله أعلم .

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۚ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، ولما ضعف القولين الأولين^(١) بقوله ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي قولاً بلا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد . ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله ﴿وَتَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر، وقوله : ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا، وقوله ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ : أي من الناس. قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جرير عن عطاء أنه كان يقول: عدتهم سبعة. فكانوا لي لهم ونهارهم في عبادة الله، ويكون ويستغيثون بالله . قال تعالى : ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي سهلاً هيناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ : أي فانهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، أي من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاعلك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

وَلَا تَقُولُوا لِنَا إِلَٰهَ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوم، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « قال سليمان ابن داود عليهما السلام لأطوف الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له - وفي رواية قال له الملك : قل إن شاء الله، فلم يقل، فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ - والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنت وكان دركاً لحاجته . » وفي رواية: « ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون . » وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول

(١) القائلون بالثلاثة: اليهود، والقائلون بالخمسة: النصارى، كما ذكره السدي .

النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أجيكم»، فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقوله ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾: قيل معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثنى عند ذكره له^(١)، وقال ابن عباس في الرجل يحلف، له أن يستثنى ولو إلى سنة، وكان يقول ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ ذلك، ومعنى قول ابن عباس أنه يستثنى ولو بعد سنة أي إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله وذكر ولو بعد سنة فالسنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسنة الاستثناء، حتى ولو كان بعد الحث. قاله ابن جرير رحمه الله ونص على ذلك، لأن يكون رافعاً لحث البين ومسقطاً للكفارة، وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه والله أعلم. وقال عكرمة ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾: إذا غضبت. وقال الطبراني، عن ابن عباس في قوله ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ أن تقول إن شاء الله. وروى الطبراني أيضاً عنه استثنى إذا ذكرت، وقال هي خاصة برسول الله ﷺ وليس لأحد منا أن يستثنى إلا في صلة من يمينه، ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى، لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر، ولهذا قال ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾. وقوله: ﴿وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك.

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ط
أَبْصُرْ بِهِ وَأَنْصِتْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ، بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله، أعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية. وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة وازدادوا تسعاً، وقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا ﴿الله أعلم بما لبثوا﴾ له غيب السماوات والأرض ﴿أي لا يعلم ذلك إلا هو، ومن أطلعه عليه من خلقه^(٢)﴾. وقوله ﴿أبصر به وأسمع﴾ أي إنه لبصير بهم سميع لهم، قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح كأنه قيل ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم روي عن قتادة في قوله ﴿أبصر به وأسمع﴾: فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقوله ﴿ما لهم

(١) قاله أبو العالية والحسن البصري.

(٢) هذا قول جمهور المفسرين من السلف والخلف، وقال قتادة في قوله: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين﴾ أنه قول أهل الكتاب، «وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿الله أعلم بما لبثوا﴾، والظاهر أنه إخبار من الله لا حكاية عنهم كما قال ابن جرير.

من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴿٢٧﴾ أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير، ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس .

وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٨﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعَمَنْ أَغْنَيْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِ نَاوَاتِبَعِ هُوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا ﴿٢٩﴾

يقول تعالى أمراً رسول الله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس، ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل، وقوله ﴿ ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ قال مجاهد: ﴿ ملتحداً ﴾ ملجأ، وعن قتادة: ولياً ولا مولى، قال ابن جرير: يقول إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾، وقوله: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويحملونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيّاً، من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، يقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعافاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية. عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: أطرده هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ (١)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم، قد بدلت سيئاتكم حسنات » (٢) . وقال الطبراني، عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف، قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية، فخرج يلتمسهم فوجد قوماً يذكرون الله تعالى، منهم ناثر الرأس وجاف الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم، وقال: « الحمد لله الذي جعل في أمي من أمري أن أصبر نفسي معهم »، وقوله: ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة، ﴿ ولا تطعم من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ أي شغل عن الدين وعبادة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المستدرك .

ربه بالدنيا، ﴿وكان أمره فرطاً﴾ أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: ﴿ولا تملن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾.

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: قل يا محمد للناس هذا الذي جئتمكم به من ربكم، هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إنا اعتدنا﴾ أي أرسدنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ناراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي سورها، وعن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لسرادق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة»^(١). وقال ابن عباس ﴿أحاط بهم سرادقها﴾ قال: حائط من نار، وقوله: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ الآية، قال ابن عباس: المهل الماء الغليظ، مثل دردي الزيت، وقال مجاهد: هو كالدّم والقبح، وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حره، وقال الضحاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الذليلة كلها، فهو أسود متن غليظ حار، ولهذا قال ﴿يشوي الوجوه﴾: أي من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه، حتى تسقط جلدة وجهه فيه، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ماء كالمهل، قال: كعكر الزيت فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه»^(٢). وعن النبي ﷺ في قوله ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾ قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا قرب منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، يقول الله تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب﴾»^(٣). وقال سعيد بن جبیر: إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم، فيأكلون منها فاجتشت جلود وجوههم، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿بئس الشراب﴾ أي بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم﴾، وقال تعالى: ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي حارة، كما قال تعالى: ﴿وبين حميم آن﴾ ﴿وساءت مرتفقاً﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقبلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أُولَئِكَ مِنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي

(١) أخرجه أحمد والترمذي في صفة النار وابن جرير في تفسيره.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي.

(٣) أخرجه عبد الله بن المبارك عن أبي أمامة مرفوعاً.

مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجَلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكِينٍ فِيهَا عَلَى الْأَرْأْيِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسَنَتِ مَرْتَفَعًا ﴿٣١﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، نثني بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم جنات عدن، والعدن الإقامة ﴿٣١﴾ تجري من تحتهم الأنهار ﴿٣٢﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم، قال فرعون ﴿٣٣﴾ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴿٣٤﴾ الآية. ﴿٣٥﴾ يجلون ﴿٣٦﴾ أي من الحلية ﴿٣٧﴾ فيها من أساور من ذهب ﴿٣٨﴾ وقال في المكان الآخر ﴿٣٩﴾ ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴿٤٠﴾ وفصله هنا فقال ﴿٤١﴾ ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ﴿٤٢﴾ فالسندس ثياب رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج، وفيه بريق. وقوله: ﴿٤٣﴾ متكين فيها على الأرائك ﴿٤٤﴾ الاتكاء قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس، وهو أشبه بالمراد هنا - ومنه الحديث الصحيح: «أما أنا فلا آكل متكئاً»، والأرائك جمع أريكة وهي السرير تحت الحجلة، عن قتادة ﴿٤٥﴾ على الأرائك ﴿٤٦﴾ قال: هي الحجال، وقال غيره: السرر في الحجال، وقوله ﴿٤٧﴾ نعم الثواب وحسنت مرتفعاً ﴿٤٨﴾: أي الجنة ثواباً على أعمالهم، ﴿٤٩﴾ وحسنت مرتفعاً ﴿٥٠﴾ أي حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار: ﴿٥١﴾ بشس الشراب وساعت مرتفعاً ﴿٥٢﴾ وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿٥٣﴾ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴿٥٤﴾، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿٥٥﴾ خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴿٥٦﴾.

* وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا وَلَمْ تَغْلِمِ مِنْهُ شَيْعًا وَقَجَرْنَا خِلْلَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين، المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً رجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع منمر مقبل في غاية الجودة^(١). ولهذا قال:

(١) نقل السهلي: عن محمد بن الحسن المقرئ: اسم الخير من الرجلين (تمليخاً) واسم الآخر (فوطيس) وأنهما كانا شريكين، ثم اقتسما المال، فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشتري المؤمن منهما عبداً بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثياباً وكسا العراة، وبالألف الثالثة طعاماً وأطعم الجياع، وبنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً - وأما الآخر: فنكح بماله نساء ذات يسار، واشتري دواب وبقراً فاستمتع بها فتمت له نساء مفرطاً، وانجر بياقها فريح حتى فاق أهل زمانه غنى. وأدركت الأول الحاجة فأراد أن يستأجر نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت إلى شريكي وصاحبي فسألته أن يستخذي في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح لي، فجاء فلم يكذب بل وصل إليه من غلظ الحجاب، فلما دخل عليه وعرفه سأله =

﴿ كلنا الجنين آت أكلها ﴾ أي أخرجت ثمرها ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ أي لم تنقص منه شيئاً ﴿ وفجرنا خلأهما نهراً ﴾ أي والأنهار متفرقة فيها ههنا وههنا ﴿ وكان له ثمر ﴾ قيل، المراد به المال، وقيل: الثار، وهو أظهر ههنا، ﴿ فقال ﴾ أي صاحب هاتين الجنتين ﴿ لصاحبه وهو يحاوره ﴾ أي يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس ﴿ أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ أي أكثر خدماً وحشاً وولداً، قال قتادة: تلك والله أمانة الفاجر، كثرة المال، وعزة النفس. وقوله: ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ﴾ أي بكفره وتمرده وتجبره وإنكاره المعاد، ﴿ قال ما أظن أن تبدي هذه أبداً ﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تنفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلته عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي كائنة، ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا المحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾، وقال ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً ﴾ .

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفْثَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَىٰ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً وَهًا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعترار : ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ﴾، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه، وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ الآية، أي كيف مجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، ولهذا قال المؤمن ﴿ لكن هو الله ربِّي ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقاتلك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿ ولا أشرك بربي أحداً ﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله، لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل

= حاجته، قال: ألم أكن قاسمك المال شطرين، فما صنعت بمالك ؟ قال: اشتريت به من الله، ما هو خير منه وأبقى. قال: أئنك لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة، وما أراك إلا سقيماً، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان. أو ما ترى ما صنعت أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن المال ؟ وذلك أني كسبت وسفحت أنت، أخرج عني. ثم كان من قصة هذا الغني ما ذكره الله في القرآن من الإحاطة بشمرها وذهابها أصلاً. وفي عجائب الكرماني، قيل: كانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن اسمه (تمليحاً) وقيل: (يهوداً)، والآخر كافر اسمه (نطروس) وهما المذكوران في سورة الصافات ﴿ قال قاتل منهم إني كان لي قرين • يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ الآية .

منك مالا وولداً ﴿٤٢﴾، هذا تحضيض وحث على ذلك، أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روي فيه حديث مرفوع عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت» ﴿٤٣﴾. وكان يتأول هذه الآية: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾، وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله».

وقال أبو هريرة، قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة تحت العرش؟» قال، قلت: فذاك أبي وأمي، قال: «أن تقول لا قوة إلا بالله». قال أبو بلخ وأحسب أنه قال: «فإن الله يقول أسلم عبدي واستسلم» ﴿٤٤﴾. وقوله: ﴿ففسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾ أي في الدار الآخرة، ﴿ويرسل عليها﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبید ولا تنفی ﴿حساباً من السماء﴾، قال ابن عباس والضحاك: أي عذاباً من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقطع زرعها وأشجارها، ولهذا قال: ﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾، أي بلقاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس: كالجز الذي لا يثبت شيئاً، وقوله ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي غائراً في الأرض وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض. فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى ﴿قل رأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾: أي جار وسائح، وقال ههنا: ﴿أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً﴾، والغور مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه كما قال الشاعر:

تظل جياده نوحاً عليه تقلده أعنها صفواً

بمعنى نائحات عليه.

وَأُحِيطَ بِمَرْهٍ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٨﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٩﴾

يقول تعالى: ﴿وأحيط بشمره﴾ بأمواله وبثماره ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن، من إرسال الحسابان على جنته التي اغتر بها وألته عن الله عز وجل، ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾، وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها، ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ ولم تكن له فئة، أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً﴾. هنالك الولاية لله الحق، أي الموالة لله، أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فلما

يكذبون ويظلمون فن صدقهم بكذبهم ومالأمهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يالثهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، ألا وإن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر من الباقيات الصالحات»^(١) وقال ابن عباس قوله ﴿والباقيات الصالحات﴾ قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام والصلاة والحج والصدقة والعق والجهاد والصلة وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السماوات والأرض، وعنه: هي الكلام الطيب، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها، واختاره ابن جرير رحمه الله.

﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لِّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۚ ۝١٨ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنْوِلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۚ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝١٩﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يوم تمور السماء مورا ۝ وتسير الجبال سيرا﴾: أي تذهب من أماكنها وتزول كما قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا﴾، يذكر تعالى أنه تذهب الجبال وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض قاعاً صفصفاً، أي سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا أمتاً، أي لا وادي ولا جبل. ولهذا قال تعالى ﴿وترى الأرض بارزة﴾ أي بادية ظاهرة، ليس فيها معلم لأحد ولا مكان يوراي أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهد وقتادة ﴿وترى الأرض بارزة﴾: لا حجر فيها ولا غيابة، وقال قتادة: لا بناء ولا شجر، وقوله: ﴿وحشرناهم فلم نغادرهم منهم أحداً﴾ أي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين، فلم تترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً. كما قال ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾، وقال: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾، وقوله: ﴿وعرضوا على ربك صفا﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾، وقوله: ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ هذا تفرغ للمتكبرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: ﴿بل زعمت أن لن نجعل لكم موعداً﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن. وقوله: ﴿وضع الكتاب﴾ أي كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحفير، والقتيل والقطمير، والصغير والكبير، ﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أي من أعمالهم السيئة، وأفعالهم القبيحة، ﴿ويقولون يا ويلتنا﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا، ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً

وإن صغر، إلا أحصاها أي ضبطها وحفظها، وقوله ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ أي من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يوم نحمد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ وفي الحديث: «يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، يقال هذه غدره فلان بن فلان»^(١). وقوله: ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يبور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾ الآية، وقال: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ - إلى قوله - حاسين ﴿والآيات في هذا كثيرة .

روى الإمام أحمد، عن جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ، فاشترت بعيراً ثم شددت عليه رحلاً فسرت عليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا (عبد الله بن أنيس)، فقلت للبواب: قل له جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يظاً ثوبه فاعتقني واعتقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمع، فقال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة - أو قال العباد - عراة غراً بهماً». قلت: وما بهما؟ قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقضيه منه، حتى اللطمة قال: قلنا، كيف وإنما نأتي الله عز وجل حفاة عراة غراً بهماً؟ قال: «بالحسنات والسيئات»^(٢)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى منبأ بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالفه ومولاه، فقال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة﴾ أي لجميع الملائكة كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة ﴿اسجدوا لآدم﴾ أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، وقوله ﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن﴾ أي خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم: (خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)^(٣). وثبه تعالى ههنا على أنه من الجن،

(١) أخرجه في الصحيحين .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(٣) أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

أي على أنه خلق من نار كما قال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن. كما أن آدم عليه السلام أصل البشر^(١). وقوله: ﴿فسق عن أمر ربه﴾ أي فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكامها، وفسقت الفأرة من جحرها، إذا خرجت منه للبعث والفساد، ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه ﴿أفتنتخلونه وذريت أولياء من دوني﴾ أي بدلاً عني، ولهذا قال: ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾، وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها، ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون - إلى قوله - أفلم تكونوا تعقلون﴾.

* مَا أَشْهَدَتْهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

يقول تعالى هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني، عبید أمثالكم لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدي، وليس معي في ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير﴾، ولهذا قال: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ قال مالك: أعواناً.

* وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

يقول تعالى مخبراً عما يخاطب به المشركين يوم القيامة، على رؤوس الأشهاد تقريراً لهم وتوبيخاً ﴿نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ أي في دار الدنيا، ادعوا اليوم يتقنونكم مما أتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾، وقوله: ﴿فدعوا فلم يستجيبوا لهم﴾، كما قال: ﴿وقيل ادعوا شركاءكم فدعوا فلم يستجيبوا لهم﴾ الآية، وقال: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له﴾، وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً﴾. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًا، وقوله: ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال ابن عباس: مهلكاً، وقال قتادة: موبقاً وادياً في جهنم. وقال ابن جرير، عن أنس بن مالك في قوله تعالى ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال: واد في جهنم من قيح ودم، وقال الحسن البصري: موبقاً: عداوة، والظاهر من السياق ههنا أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره، والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير، قال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ وقال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا

مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم ﴿٥٤﴾ ، وقوله ﴿٥٥﴾ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴿٥٦﴾ أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ، فإذا رأى المجرمون النار تحقّقوا لا محالة أنهم مواقعوها ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز ، وقوله ﴿٥٧﴾ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴿٥٨﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ، ولا بد لهم منها . وقال ابن جرير ، عن أبي سعيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها واقعة من مسيرة أربعمئة سنة » .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٩﴾

ويقول تعالى : ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها ، كيلا يضلوا عن الحق ، ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان وهذا الفرقان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل ، إلا ما هدى الله وبصره لطريق النجاة . قال الإمام أحمد ، عن علي بن أبي طالب أخبره أن رسول الله ﷺ طرده وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة ، فقال : « ألا تصليان » ، فقلت : يا رسول الله إنما أنفستا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلي شيئاً ثم سمعته وهو مولٍ يضرب فخذيه ويقول : ﴿٦٠﴾ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴿٦١﴾

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ۚ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٦٢﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۚ وَاتَّخَذُوا آيَاتِنَا هُزُوًا ﴿٦٣﴾

يغبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه ، وتكذيبهم بالحق بين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات ، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً كما قال أولئك لنبيهم : ﴿٦٤﴾ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴿٦٥﴾ ، وآخرون قالوا : ﴿٦٦﴾ اثنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴿٦٧﴾ ، وقالت قريش : ﴿٦٨﴾ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴿٦٩﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك ، ثم قال : ﴿٧٠﴾ إلا أن تأتيتهم سنة الأولين ﴿٧١﴾ من غشيانهم بالعذاب ، وأخذهم عن آخرهم ﴿٧٢﴾ أو يأتيتهم العذاب قبلاً ﴿٧٣﴾ أي يرونه عياناً مواجهة ومقابلة ، ثم قال تعالى : ﴿٧٤﴾ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴿٧٥﴾ أي مبشرين من صدقهم وآمن بهم ، ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم ، ثم أخبر عن الكفار بأنهم ﴿٧٦﴾ يجادلون بالباطل ليدحضوا به ﴿٧٧﴾ أي ليضعفوا به الحق ، الذي جاءتهم به الرسل ، وليس ذلك بحاصل لهم ، ﴿٧٨﴾ واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً ﴿٧٩﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل ، وما أنذروهم وخوفهم به من العذاب ، ﴿٨٠﴾ هزواً ﴿٨١﴾ أي سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم من ذكر آيات الله فأعرض عنها، أي تناساها وأعرض عنها ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالاً ﴿ ونسي ما قدمت يداها ﴾ أي من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم ﴾ أي قلوب هؤلاء ﴿ أكِنَّة ﴾ أي أغطية وعشاة، ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان، ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي صمماً معنوياً عن الرشد، ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً ﴾، وقوله: ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾: أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة، ﴿ لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ﴾، كما قال: ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾، وقال: ﴿ وإن ربك للغو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ والآيات في هذا كثيرة شتى، ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر وربما هدى بعضهم من النفي إلى الرشد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد وتضع كل ذات حمل حملها، ولهذا قال: ﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾: أي ليس لهم عنه محيص ولا مجيد، ولا معدل، وقوله: ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾: أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم فحافظوا عذابي ونذري .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أBRَحْ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ مَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا نَعْدَا نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَيْنِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرَادَا عَالِيًا ثَانِيًا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

سبب قول موسى لفتنه وهو (يوشع بن نون) هذا الكلام، أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحيط به موسى فأحب الرحيل إليه، وقال لفتنه ذلك ﴿ لا أبرح ﴾: أي لا أزال سائراً ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال قتادة وغير واحد: هما (بحر فارس) بمابلي

المشرق و (بحر الروم) مما يلي المغرب ، وقال محمد بن كعب : مجمع البحرين عند طنجة ، يعني في أقصى بلاد المغرب ، قاله أعلم . وقوله : ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ أي ولو أنني أسير حقباً من الزمان ، عن عبد الله بن عمرو أنه قال : الحقب ثمانون سنة ، وقال مجاهد : سبعون خريفاً ، وقال ابن عباس ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ قال : دهرأ ، وقوله : ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه وقيل له متى فقدت الحوت فهو ثمة ، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين ، وكان في مكمل مع يوشع عليه السلام ، وظهر من المكمل إلى البحر ، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتصق بعده ، ولهذا قال تعالى : ﴿ واتخذ سيبله في البحر سرباً ﴾ أي مثل السرب في الأرض ، قال ابن عباس : صار أثره كأنه حجر ، وقال قتادة : سرب من البحر حتى أفضى إلى البحر ، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا صار ماء جامداً ، وقوله : ﴿ فلما جاوزا ﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه ، ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا ﴾ أي الذي جاوزا فيه المكان ﴿ نصباً ﴾ أي تعباً ، ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإني نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ فاتخذ سيبله ﴾ أي طريقه ﴿ في البحر عجباً قال ذلك ما كنا نبغي ﴾ أي هذا هو الذي نطلب ﴿ فارتدا ﴾ أي رجعا ﴿ على آثارهما ﴾ أي طريقهما ﴿ قصصاً ﴾ أي يقصان آثار مشيهم ، ويقفون آثارهما ﴿ فوجدنا عبداً من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلما من لدنا علماً ﴾ ، وهذا هو الخضر عليه السلام ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

روى البخاري ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل أي الناس أعلم ؟ قال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب كيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكمل فحينما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتاً فجعله بمكمل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت في المكمل فخرج منه فسقط في البحر ، فاتخذ سيبله في البحر سرباً ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق . فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ ، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ، قال له فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سيبله في البحر عجباً ﴾ ، قال فكان للحوت سرباً ، ولموسى وفناه عجباً ، فقال : ﴿ ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ ، قال ، فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب ، فلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ؟ فقال : أنا موسى . فقال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يا موسى ، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . فقال موسى : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ﴾ ، قال له الخضر : ﴿ فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ ، فانطلقا يمسيان على ساحل البحر ، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، ففرغوا الخضر ، فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا في السفينة لم ينجيا إلا والخضر قد قلع لوحاً من الواح السفينة بالقدم ، فقال له موسى : قد حملونا

بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتفرق أهلها ! لقد جئت شيئاً إمرأً ﴿٦٦﴾ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ قال : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴿٦٧﴾ . قال ، وقال رسول الله ﷺ وعلى آله - فكانت الأولى من موسى نسياناً ، قال ، وجاء عصفور ، فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين ، فقال له الخضر : ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فينهما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه ، فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له موسى : ﴿ أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴿٦٨﴾ ، قال وهذه أشد من الأولى ، ﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، قد بلغت من لدني عذراً ﴾ . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴿ أي مائلاً فقال الخضر بيده ﴾ فأقامه ﴿ فقال موسى : قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴾ لو شئت لا اتخذت عليه أجراً قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴿٦٩﴾ ، فقال رسول الله ﷺ : « ودنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » . قال سعيد بن جبير : كان ابن عباس يقرأ : ﴿ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً ﴾ ، وكان يقرأ : ﴿ وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين ﴾

وروى الزهري : عن ابن عباس ، أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري ، في صاحب موسى ، فقال ابن عباس : هو خضر ، فر بها أبي بن كعب فدعاه ابن عباس ، فقال : إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى ، الذي سأل السبيل إلى لقيه ، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه ؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بينا موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل ، فقال : تعلم مكان رجل أعلم منك ؟ قال : لا ، فأوحى الله إلى موسى : بلي عبدنا خضر ، فسأل موسى السبيل إلى لقيه ، فجعل الله له الحوت آية ، وقيل له : إذا فقدت الحوت فارجع ، فإنك ستلقاه ، فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر ، فقال فتى موسى لموسى أرأيت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ، قال موسى ﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ فوجدا عبدنا خضراً ، فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه .

* قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا أَتَبَعْنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام ، لذلك الرجل العالم ، وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى ، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر . ﴿ قال له موسى هل أتبعك ﴾ سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار ، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم ، وقوله ﴿ أتبعك ﴾ أي أصحبك وأرافقك ، ﴿ على أن تعلمن مما علمت رشداً ﴾ أي مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح ، فعندها

﴿ قال ﴾ الخضر لموسى ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ أي إنك لا تقدر على مصاحبتى لما ترى منى من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأنى على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتى ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ فأننا أعرف أنك ستنكر عني ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصطلحته الباطنة، التي اطلعت أنا عليها دونك، ﴿ قال ﴾ أي موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ أي على ما أرى من أمورك، ﴿ ولا أعصى لك أمراً ﴾ أي ولا أخالفك في شيء، فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام ﴿ قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء ﴾ أي ابتداء ﴿ حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ أي حتى أبدأك أنا به، قبل أن تسألني. عن ابن عباس قال: سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال: أي رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال فأبي عبادك أفضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: أي رب أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى، قال، أي رب: هل في أرضك أحد أعلم مني؟ قال: نعم، قال: فمن هو؟ قال: الخضر، قال: وأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت، قال، فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله واتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلم كل واحد منهما على صاحبه، فقال له موسى: إني أحب أن أصحبك، قال: إنك لن تطيق صحبتي. قال: بلى، قال: فإن صحبتني ﴿ فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾، قال فسار به في البحر، حتى انتهى إلى مجمع البحرين، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه، قال، وبعث الله الخطاف، فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزاً من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزأ، قال: يا موسى فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء، وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه أو تكلم به، فن ثم أمر أن يأتي الخضر، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك^(١)

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتُهَا لِتُفْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ الرَّاقِلُ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٣﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول، يعني بغير أجره تكرمة للخضر، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولججت، أي دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها، ثم رقعها، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكرأ عليه ﴿ أخرقها لتفرق أهلها ﴾ وهذه اللام العاقبة. لا لام التعليل. كما قال الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب .

﴿ لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ قال مجاهد: منكرأ، وقال قتاده: عجباً، فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط

﴿ أَمْ أَقُلُ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾، يعني وهذا الصنيع فعلته قصدًا، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها، لأنك لم تحط بها خبرًا، ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت، ﴿ قال ﴾ أي موسى ﴿ لا تواخذني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسرًا ﴾: أي لا تضيق علي ولا تشدد علي، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: « كانت الأولى من موسى نسيانًا ».

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَنْتَ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ﴿ فَانْطَلَقَا ﴾ أي بعد ذلك ﴿ حتى إذا لقيَا غلامًا فقتله ﴾، وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم فقتله، وروي أنه اجترأ رأسه، وقيل رضخه بحجر، وفي رواية اقتلعه بيده، والله أعلم. فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال ﴿ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾: أي صغيرة، لم تعمل الحنث، ولا عملت إثمًا بعد، فقتلته ﴿ بغير نفس ﴾: أي بغير مستند لقتله ﴿ لقد جئت شيئًا نكراً ﴾: أي ظاهر النكارة ﴿ قال ألم أقُلْ لك إنك لن تستطيع معي صبرًا ﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فلهذا قال له موسى ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾: أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿ فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾: أي قد أعذرت إلي مرة بعد مرة، قال ابن جرير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: « رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، لكنه قال: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا ».

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما؛ إنيهما ﴿ انطلقا ﴾ بعد المرتين الأولين ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾، روي عن ابن سيرين أنها الإيكة، وفي الحديث: « حتى إذا أتيا أهل قرية لثاماً » أي بخلاء، ﴿ فأبوا أن يضيقوها فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة؛ فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل؛ والافتقار هو السقوط، وقوله ﴿ فأقامه ﴾ أي فرده إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه رده يديه ودعمه حتى رد ميله، وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له ﴿ لو شئت لآخذت عليه أجراً ﴾ أي لأجل أنهم لم يضيقونا كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً ﴿ قال هذا فراق بيني وبينك ﴾ أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك، ﴿ سأنبئك بتأويل ﴾ أي بتفسير ﴿ ما لم تستطع عليه صبراً ﴾.

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾
 هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام وما كان أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها، لأنهم كانوا يعمرون بها على ملك من الظلمة ﴿٧٩﴾ يأخذ كل سفينة ﴿٨٠﴾ صالحة أي جيدة ﴿٨١﴾ غصبًا ﴿٨٢﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعبها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، وقد قيل إنهم أيتام، وروى ابن جريج، أن اسم ذلك الملك، (هدد بن بدد)، وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق.

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٣﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨٤﴾

عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم كافرًا»^(١)، ولهذا قال: ﴿فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا﴾ أي يحملهما حبه على متابعتة على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، وصح في الحديث: «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له»، وقال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم﴾، وقوله: ﴿فأردنا أن يبدلنا ربهما خيرًا منه زكاةً وأقرب رحماً﴾ أي ولداً أذكى من هذا، وهما أرحم به منه، وقال قتادة: أبر بوالديه، وقيل لما قتله الخضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم، قاله ابن جريج.

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴿٨٥﴾ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٦﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة، لأنه قال أولاً ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾، وقال ههنا: ﴿فكان لغلامين يتيمين في المدينة﴾^(٢)، كما قال تعالى: ﴿فكأن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴿يعني مكة والطائف، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة: كان تحته مال مدفون لهما، وهو

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس عن أبي بن كعب.

(٢) قال السهيلي في الغلامين يتيمين: هما أصرم وصريم ابنا كاشع، والأب الصالح الذي حفظ كنزها من أجله كان بينهما وبينه سبعة آباء، وقيل عشرة، ولم يكونا أبويه من صلبه فيما ذكر عن ابن عباس، وذكر السيوطي: أن اسم الملك (هدد بن بدد) واسم أبوي الغلام المقتول (أبرا) وأمه (سهوا) وقد أبدلها الله خيراً منه تجارية ولدت نبياً كان بعد موسى اسمه (شعون).

ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله، وقال ابن عباس: كان تحته كثر علم، وعن الحسن البصري أنه قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله»^(١)، وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء، وكان ناسجاً، وهذا الذي ذكر - وإن صح - لا ينافي قول عكرمة إنه كان مالاً، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل أكثر، كان مودعاً فيه علم وهو حكم ومواعظ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن، ووردت به السنة، قال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحاً، وتقدم أنه كان الأب السابع فآله أعلم. وقوله: ﴿فَارَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَثْرَهُمَا﴾ ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: ﴿فَارَدْنَا أَنْ يَبْلُغَا رَهْمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ وقال في السفينة: ﴿فَارَدْتُ أَنْ أُعْيِيَهَا﴾ فآله أعلم. وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، ووالدي الرجل الصالح، وما فعلته عن أمري، لكنني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعِلْمِنَا مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾، وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً بل كان ولياً، فآله أعلم. وحكي في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولان، ومال النووي وابن الصلاح إلى بقاءه، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾، ويقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه، لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حين لما وسعهما إلا اتباعي»، وأخبر قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل^(٢).

وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتر من تحته خضراء»^(٣) والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس، وهو المشيم من النبات، وقيل المراد بذلك وجه الأرض. وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسر له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿تَسْطِعُ﴾ وقيل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: ﴿فَا

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن الحسن البصري، وورد في حديث مرفوع رواه الحافظ البزار عن أبي ذر بمثله.

(٢) أخرجه البخاري وأحمد ورواه أيضاً عبد الرزاق. (٣) الراجح قول أهل الحديث بموت الخضر للأدلة المذكورة.

استطاعوا أن يظهروه ﴿ وهو الصعود إلى أعلاه ﴾ وما استطاعوا له نقباً ﴿ وهو أشق من ذلك، فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى والله أعلم. فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسباق إنما هو قصة موسى مع الخضر، وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها، أنه (يوشع بن نون) وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۞ إِنَّا مَكَّالُهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۞ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ويسألونك ﴾ يا محمد ﴿ عن ذي القرنين ﴾ أي عن خبره، وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب، يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ، فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية ما يدري ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف. وقد ذكر الأزرق وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وآمن به، وتبعه، وكان وزيره الخضر عليه السلام، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من أخباره في كتاب (البداية والنهاية) بما فيه كفاية والحمد لله. وقال بعض أهل الكتاب: سمي ذا القرنين لأنه ملك الروم وفارس، وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين. وقال سفيان الثوري، عن أبي الطفيل: سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين فقال: كان عبداً ناصحاً لله فناصره، دعا قومه لله فصر به على قرنه فأتاه، فسمي ذا القرنين، ويقال إنه سمي ذا القرنين لأنه بلغ المشرق والمغرب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب. وقوله: ﴿ إِنَّا مَكَّالُهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً، ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحضارات، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾، قال ابن عباس: يعني علماً^(١)، وقال قتادة: منازل الأرض وأعلامها، وقال عبد الرحمن بن زيد، تعلم الألسنة، قال: كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم، وعن حبيب بن حماد قال: كنت عند علي رضي الله عنه، وسأله رجل عن ذي القرنين، كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال: سبحان الله سخر له السحاب وقدر له الأسباب وبسط له اليد^(٢)

﴿ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ۖ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۞ ﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ

(١) وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقاتدة والضحاك وغيرهم.

(٢) ذكره الضياء المقدسي عن سماك بن حرب عن حبيب بن حماد.

عَذَابًا نَّكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

قال ابن عباس ﴿فَاتَّبَعَ سِبْيًا﴾: يعني بالسبب المترل. وقال مجاهد ﴿فَاتَّبَعَ سِبْيًا﴾: مترلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب، وقال قتادة: أي اتبع منازل الأرض ومعالمها. وقال سعيد بن جبير: علماً، وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك. وقوله: ﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾: أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاق زنادقتهم وكذبهم، وقوله ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾: أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة وهو الطين، كما قال تعالى ﴿إني خالق بشراً من حمأ مسنون﴾: أي من طين أملس، وقد تقدم بيانه. وقال ابن جرير: كان ابن عباس يقول ﴿في عين حمأة﴾ ثم فسرها ذات حمأة، قال نافع: وسئل عنها كعب الأحبار فقال: أنتم أعلم بالقرآن مني ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء. وبه قال مجاهد وغير واحد. وعن أبي بن كعب أن النبي ﷺ أقرأه حمئة، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس وجدها تغرب في عين حامية يعني حارة. وكذا قال الحسن البصري، وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب، ولا منافاة بين معنيهما إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل، وحمئة في ماء وطين أسود كما قال كعب الأحبار وغيره. وقوله تعالى ﴿ووجد عندها قوماً﴾: أي أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم^(١)، وقوله ﴿قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حساً﴾ معنى هذا أن الله تعالى مكّنه منهم، وحكّمه فيهم وأظفّره بهم، واختاره إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى، فعرف عدله وإيمانه، فيما أبداه عدله وبيانه في قوله ﴿أما من ظلم﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه ﴿فسوف نعذبه﴾، قال قتادة: بالقتل، وقال السدي: كان يحيي لهم النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا. وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة فتدخل بيوتهم، وتغشاهم من جميع جهاتهم، والله أعلم. وقوله ﴿ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾ أي شديداً بليغاً وجيعاً أليماً، وفي هذا إثبات المعاد والجزاء. وقوله ﴿وأما من آمن﴾ أي تابعا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فله جزاء الحسنى﴾ أي في الدار الآخرة عند الله عزّ وجلّ، ﴿وسنقول له من أمرنا يسراً﴾ قال مجاهد: معروفاً.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

(١) قال السهيلي: هم أهل جابرص، ويقال لها بالسريانية: جرجيا يسكنها قوم من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح.

يقول تعالى: ثم سلك طريقاً فصار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلّبهم ودعاهم إلى الله عز وجلّ، فإن أطاعوه وإلا أذلّهم وأرغم أنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتساخم لهم. وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستائة سنة يحبب الأرض، طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغارب، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى ﴿وجدها تطلع على قوم﴾ أي أمة ﴿لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ أي ليس لهم بناء يكتهم، ولا أشجار تظلمهم وتسترهم من حر الشمس، قال سعيد بن جبیر: كانوا حمراً قصاراً مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك. وقال الحسن في قول الله تعالى ﴿لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ قال: إن أرضهم لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه، فإذا غربت خرجوا يترعون كما ترعى البهائم^(١)، وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم. وقال ابن جرير: لم ينو فيها بناء قط ولم بين عليهم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل. وقوله ﴿كذلك وقد أخطأ بما لديه خيراً﴾ قال مجاهد والسدي: علماً، أي نحن مطلعون على جميع أحواله، وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أمتهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾.

* ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٤﴾ قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ نَجْرًا عَلَىٰ أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٥﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٦﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين ﴿ثم أتبع سبباً﴾ أي ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض، حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين: «أن الله تعالى يقول: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعت بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتا، يأجوج ومأجوج»^(٢) وفي مسند الإمام أحمد، عن سمره أن رسول الله ﷺ قال: «ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»، قال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، وقال، إنما سمي هؤلاء تركاً لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة، وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجيباً في

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي عن الحسن البصري . (٢) أخرجه البخاري ومسلم .

سير ذي القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم. وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك أحاديث غريبة لا تصح أسانيدُها، والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي لاستعجام كلامهم، وبعدهم عن الناس، ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قال ابن عباس: أجزاً عظيماً، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه حتى يجعل بينهم وبينهم سداً، فقال ذو القرنين بعبق وديانة وصلاح وقصد للخير ﴿مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي يجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمَدِّدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ الآية. وهكذا قال ذو القرنين، الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني بقوة، أي بعملكم وآلات البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾. آتوني زبر الحديد والزبر، جمع (زبرة) وهي القطعة منه^(١) وهي كاللينة يقال كل لينة زنة قنطار بالدمشقي أو تزيد عليه ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي وضع بعضه على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً^(٢) ﴿قَالَ انفِخُوا﴾ أي أبعث عليه النار، حتى صار كله ناراً ﴿قَالَ آتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ قال ابن عباس والسدي: هو النحاس^(٣)، زاد بعضهم المذاب، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَيْنَ الْقِطْرِ﴾، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال: «انته لي»، قال كالبرد المحبّر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء، قال: «قد رأيته»^(٤)، وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه وجهاز معه جيشاً سرية لينظروا إلى السد ويعاينوه وينتونه له إذا رجعوا، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن ملك إلى ملك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاق، لا يستطيع، ولا ما حوله من الجبال، ثم رجعوا إلى بلادهم وكانت غيبتهم أكثر من ستين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب، ثم قال الله تعالى :

فَاسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَحَمَّنَهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج، إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاهما يناسبه، فقال: ﴿فَاسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه، فأما الحديث الذي رواه الإمام

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

(٢) قال السيوطي عن الضحاك: هما من قبل أرمينية وآذربيجان أخرجه ابن أبي حاتم .

(٣) وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة .

(٤) أخرجه ابن جرير وهو حديث مرسل .

أحمد، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم، ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، فيستني فيعودون إليه، وهو كهيشته حين تركوه فيحفرونه، ويخرجون على الناس فينشقون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيشة الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً في رقابهم فيقتلهم بها، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتتشكر شكراً من لحومهم ودماهم»^(١)، ففي رفعه نكارة، لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نعبه لإحكام بنائه وصلابته، وشدته ويؤيد ما قلناه، من أنهم لم يتمكنوا من نعبه، ومن نكارة هذا المرفوع، قول الإمام أحمد، عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بأصبعيه السبابة والإبهام»، قلت: يا رسول الله ! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

﴿قال هذا رحمة من ربي﴾ أي لما بناه ذو القرنين ﴿قال هذا رحمة من ربي﴾، أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد ﴿فاذا جاء وعد ربي﴾ أي إذا اقترب الوعد الحق ﴿جعله دكاء﴾ أي ساواه بالأرض، تقول العرب: ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها، وقال تعالى: ﴿فلما تجل ربه للجبل جعله دكاء﴾ أي مساوياً للأرض، وقال عكرمة في قوله ﴿فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء﴾ قال: طريقاً كما كان، ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ أي كائناً لا محالة. وقوله: ﴿وتركنا بعضهم﴾ أي الناس، ﴿يومئذ﴾ أي يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس، ويفسدون على الناس أمواهم، ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي، في قوله ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس، وهذا كله قبل يوم القيامة، وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه عند قوله: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ واقترب الوعد الحق ﴿الآية﴾. وهكذا قال ههنا، ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿ونفخ في الصور﴾ على أثر ذلك ﴿فجمعناهم جمعاً﴾، وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾، قال: إذا ماج الجن والإنس يوم القيامة يختلط الإنس والجن، وقوله: ﴿ونفخ في الصور﴾، والصور كما جاء في الحديث، قرن بنفخ فيه، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وفي الحديث عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، واستمع منى يؤمر»، قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»، وقوله: ﴿فجمعناهم جمعاً﴾ أي أحضرنا الجميع للحساب ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾، ﴿وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً﴾.

(١) وأخرجه ابن ماجة أيضاً والترمذي، وقال الترمذي: إسناده جيد قوي، واختار ابن كثير أن يكون موقوفاً.

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أُعْيُنُهُمْ فِي غَطَاةٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
 سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
 نُزُلًا ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة : أنه يعرض عليهم جهنم ، أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ليكون ذلك أبلغ في تعجيل ألم والحزن لهم ، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله ﷺ : « يوثى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك »^(١) ، ثم قال مخبراً عنهم ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ﴾ أي تغافلوا وتعاموا عن قبول الهدى واتباع الحق ، كما قال ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ ، وقال ههنا ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه ، ثم قال : ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ أي اعتقلوا أنهم يصح لهم ذلك ويتفتنون به ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ
 صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا
 ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَآخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

عن مصعب قال : سألت أبي ، يعني سعد بن أبي وقاص ، عن قول الله : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ أم الحرورية ؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين^(٢) . وقال علي بن أبي طالب والضحَّاك وغير واحد : هم الحرورية ، ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه ، أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم ، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول ، وهو مخطئ وعمله مردود ، كما قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا بربههم أعماهم كسراب بقيعة يحسبه الظلمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ ، وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ قل هل ننبئكم ﴾ أي نخبركم ﴿ بالأخسرين أعمالاً ﴾ ، ثم فسره فقال : ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ، ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء ، وأنهم مقبولون محبوبون ، وقوله ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ﴾ :

(١) أخرجه مسلم عن ابن مسعود . (٢) أخرجه البخاري في صحيحه في باب التفسير .

أي جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام على وحدانيته، وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿فلا تقم لهم يوم القيامة وزناً﴾ أي لا ننقل موازينهم لأنها خالية عن الخير، روى البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة - وقال - اقرأوا إن شئتم: ﴿فلا تقم لهم يوم القيامة وزناً﴾»، وقال ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل الأكل الشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنه»، قال قرأ ﴿فلا تقم لهم يوم القيامة وزناً﴾، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش يخطر في حلة له، فلما قام على النبي ﷺ قال: «يا بريدة هذا ممن لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً»^(١)، وعن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرأوا: ﴿فلا تقم لهم يوم القيامة وزناً﴾^(٢). وقوله ﴿ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم، واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً استهزأوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٥٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٥٨﴾

يعبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيها جاؤوا به، أن لهم جنات الفردوس، قال مجاهد: هو البستان بالرومية، وقال الضحاك: هو البستان الذي فيه شجر الأعناب، وقال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، وقد روي عن النبي ﷺ: «الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها»^(٣). وفي الصحيحين: «إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة»، وقوله تعالى ﴿نُزُلًا﴾ أي ضيافة فإن النزل الضيافة، وقوله ﴿خالدين فيها﴾ أي مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبداً، ﴿لا ييغون عنها حولًا﴾ أي لا يختارون عنها غيرها، ولا يحبون سواها، كما قال الشاعر
فحلّت سويدا القلب لا أنا باغياً سواها ، ولا عن حبها أتحول

وفي قوله تعالى: ﴿لا ييغون عنها حولًا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمل، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً، ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلاً.

قُلْ لَوْ كُنْتِ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكِلْتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٥٩﴾
يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه،

(١) أخرجه الحافظ البزار .

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره .

(٣) أخرجه ابن جرير عن سمرة مرفوعاً .

لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿ولو جئنا بمثله﴾ أي بمثل البحر آخر ثم آخر، وهلم جراً، بحور تمدد ويكتب بها لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾، وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي﴾^(١) يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعم الدنيا أولها وآخرها في نعم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

* قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكِبِ إِلَٰهُ وَاحِدٌ ۚ فَنَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ۚ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿قل﴾ هؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾، فن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألت من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه، وإنما أخبرتكم ﴿أنما إلهكم﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿إله واحد﴾ لا شريك له، ﴿فن كان يرجو لقاء ربه﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ، وقد روي عن طاووس قال، قال رجل: يا رسول الله! إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، حتى نزلت هذه الآية ﴿فن كان يرجو لقاء فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾، وجاء رجل إلى عبادة بن الصامت، فقال أنبئي عما أسألك عنه، أرأيت رجلاً يصلي يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويصوم يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويتصدق يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويحج يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، فقال عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: أنا خير شريك، فن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه.

وروي الإمام أحمد، عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني. سمعت رسول الله يقول: «أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية»، قلت: يا رسول

(١) أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس قال، قالت قريش لليهود: اعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه فترلت: ﴿ويسألونك عن الروح - إلى - وما أوتيت من العلم إلا قليلاً﴾، وقال اليهود: أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فترلت: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ الآية.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن طاووس وهو حديث مرسل.

الله ! أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراؤون بأعمالهم ، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه »^(١) . (حديث آخر) : قال الإمام أحمد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال : « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك » . (حديث آخر) : قال الإمام أحمد ، عن أبي سعيد ابن أبي فضالة الأنصاري ، وكان من الصحابة أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى متاد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك »^(٢) . (حديث آخر) : عن أنس رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ، في صحف مختمة ، فيقول الله : ألقوا هذا واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : يا رب ، والله ما رأينا منه إلا خيراً ، فيقول : إن عمله كان لغير وجهي ، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي »^(٣) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل »^(٤) .

[آخر تفسير سورة الكهف ، والله الحمد والمنة]



(١) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه .

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

(٣) أخرجه الحافظ أبو بكر البزار .

(٤) رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي .

(١٩) سُورَةُ مَرْيَمَ وَأَنبِيَائِهِمْ كَانُوا فَتَنًا

وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة، أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيَّعَ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿ذكر رحمت ربك﴾ أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا، وزكريا يمد ويقصر، قراءتان مشهورتان، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي صحيح البخاري، أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في التجارة، وقوله ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره، حكاه الماوردي، وقال الآخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله، كما قال قتادة في هذه الآية ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾: إن الله يعلم القلب التقى، ويسمع الصوت الخفي، وقال بعض السلف: قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يارب يارب يارب، فقال الله له: ليك ليك ليك ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾ أي ضعفت وخارت القوى ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ أي اضطرم المشيب في السواد. والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة، وقوله: ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك، وقوله: ﴿وإني خفت الموالى من ورائي﴾، قال مجاهد وقتادة والسدي: أراد بالموالي العصابة، ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحي إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من ورائهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من ورائه عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه

دونهم هذا وجهه. (الثاني) أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع ماله ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا. (الثالث) أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركناه صدقة». وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث». وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فهب لي من لدنك ولياً يرثني﴾ على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿ويرث من آل يعقوب﴾ كقوله: ﴿وورث سليمان داود﴾ أي في النبوة. إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والمثل أن الولد يرث أباه، فلولاً أنها وراثه خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويشته ما صح في الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة»، قال مجاهد: كان وراثته علماً وقال الحسن: يرث نبوته وعلمه، وقال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب، وعن أبي صالح في قوله: ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ قال: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره. وقوله: ﴿واجعله رب رضيعاً﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحبيه إلى خلقك في دينه وخلقه.

﴿يَزَكِّرْ يَا إِبْنَا نُبَشِّرْكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (٧)

هذا الكلام يتضمن محنواً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له: ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾، كما قال تعالى: ﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصداقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبيّاً من الصالحين، وقوله: ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾. قال قتادة: أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم^(١)، وقال مجاهد: ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ أي شبيهاً، أخذه من معنى قوله: ﴿هل تعلم له سمياً﴾؟ أي شبيهاً، وقال ابن عباس: أي لم تلد العواقر قبله مثله، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما، ولهذا قال: ﴿أبشركموني على أن مسني الكبر فم تبشرون﴾ مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة.

قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْعًا ﴿٩﴾

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل، وبشر بالولد ففرحاً شديداً وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها^(٢)، ومع أنه

(١) واختار هذا القول ابن جرير رحمه الله.

(٢) ذكر السهيلي: أن امرأته اسمها (إشعاع بنت قافوذ)، وهي أخت حنة بنت قافوذ، قاله الطبري، وحنة هي أم مريم. وقال العيني: امرأة زكريا هي (إشعاع بنت عمران)، فلي هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى على الحقيقة، وعلى القول =

قد كبر وعتا، أي عسا عظمه، ونحل، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع، والعرب تقول للعود إذا يبس: عتا، وقال مجاهد: ﴿عَتِيًّا﴾ يعني تحول العظم، وقال ابن عباس وغيره، عتياً يعني الكبر، والظاهر أنه أخص من الكبر، ﴿قال﴾ أي الملك مجيئاً لتركيبا عما استعجب منه ﴿كذلك قال ربك هو عليّ هين﴾ أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، ﴿هين﴾ أي يسير سهل على الله، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال: ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾، كما قال تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمَحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ قال أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، ﴿قال آيتك﴾ أي علامتك ﴿أن لا تكلم الناس ثلاث ليل سويًّا﴾ أي أن يحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليل، وأنت صحيح سوي، من غير مرض ولا علة، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة. قال زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة، وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثلاث ليل سويًّا﴾ أي متتابعات^(١) وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ثلاث ليل سويًّا﴾ من غير خرس، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿إلا رمزاً﴾ أي إشارة، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿فأوحى إليهم﴾ أي أشار، إشارة خفية سريعة ﴿أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، شكر الله على ما أولاه. قال مجاهد ﴿فأوحى إليهم﴾ أي أشار^(٢). وقال مجاهد: أي كتب لهم في الأرض.

يُحْيِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَلَدَيْهِ وَلَرَّ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً، تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب وهو (التوراة) التي كانوا يتدارسونها بينهم، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره وبما أنعم

= الأول يكون ابن خالة أمه، وفي حديث الإسراء قال عليه السلام: «فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى»، وهذا شاهد للقول الأول.

(١) القول الأول عن ابن عباس وعن الجمهور أصح كما في آل عمران ﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً، واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾.

(٢) وهذا القول أرجح، وبه قال وهب وقتادة.

به عليه وعلى والديه، فقال ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ أي تعلم الكتاب بقوة أي بجهد وحرص واجتهاد ﴿وآتيناه الحكم صبيّاً﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث. قال عبد الله بن المبارك، قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا. وقوله: ﴿وحناناً من لدنا﴾ قال ابن عباس: يقول ورحمة من عندنا. وزاد قتادة: رحم الله بها زكريا، وقال مجاهد: ﴿وحناناً من لدنا﴾ وتعطفاً من ربه عليه، وقال عكرمة: محبة عليه، وقال عطاء بن أبي رباح: تعظيماً من لدنا، والظاهر من السياق أن قوله ﴿وحناناً﴾ معطوف على قوله ﴿وآتيناه الحكم صبيّاً﴾ أي وآتيناه الحكم وحناناً، وزكاة أي وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب: حنت الناقة على ولدها، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، وفي المسند للإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يبقى رجل في النار ينادي ألف سنة يا حنان يا منان». وقد يثنى كما قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبقي بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقوله تعالى ﴿وزكاة﴾ معطوف على ﴿وحناناً﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة الزكاة: العمل الصالح، وقال الضحاك: العمل الصالح الزكي، وقال ابن عباس ﴿وزكاة﴾ قال: بركة ﴿وكان تقياً﴾ طاهراً فلم يذنب، وقوله ﴿وبراً بالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة، وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبة عقوقهما قولاً وفعلًا، أمراً ونهيًا، ولهذا قال: ﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾، ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»^(١)، وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا، فقال له عيسى استغفر لي أنت خير مني، فقال له الآخر: أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني سلمت على نفسي وسلم الله عليك، فعرف والله فضلها.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا ﴿١٧﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢٢﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً، مباركاً،

(١) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: وفي إسناده ضعف.

عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمته سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران. وأنها نذرتها محررة، أي يتخلى عنها بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك^(١) ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نباتاً حساناً﴾ ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدين الناسكات، المشهورات بالعبادة العظيمة والتبذل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾، فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء كما تقدم بيانه في سورة آل عمران، فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام ﴿انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ أي اعترلتهم، وتحت عنهم وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس، عن ابن عباس، قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك ﴿فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً فصلوا قبل مطلع الشمس^(٢). وعنه قال: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصراني المشرق قبلة، لقول الله تعالى: ﴿فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة، وقال قتادة: ﴿مكاناً شرقياً﴾ شامعاً متنجياً، وقوله ﴿فانتبذت من دونهم حجاباً﴾ أي استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي على صورة إنسان تام كامل.

قال مجاهد والضحاك ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾: يعني جبرائيل عليه السلام، وهذا هو ظاهر القرآن، قال تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾، ﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريد لها على نفسها، فقالت ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله، قال أبو وائل: قد علمت أن التقي ذو نية، حين قالت: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ قال إنما أنا رسول ربك ﴿أي فقال لها الملك جيباً لها ومزياً لها حصل عندها من الخوف على نفسها، لست بما تظنين، ولكني رسول ربك أي بعني الله إليك﴾ ﴿لأهب لك غلاماً زكياً﴾، ﴿قالت أنى يكون لي غلام﴾ أي فتعجبت مريم من هذا، وقالت كيف

(١) ذكر السهيلي: أن القرآن لم يذكر امرأة باسمها إلا (مريم ابنة عمران) فإنه ذكر اسمها في نحو من ثلاثين موضعاً، لحكمة ذكرها بعض الأشياخ، وذكر أن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملأ ولا يتنزلون أسماءهن، بل يكونون عن الزوجة بالعرس والأهل والعيال، ولم يصنوا أسماء الإماماء عن الذكر، فصرح الله باسم مريم لما قالت النصراني في مريم تأكيداً لمبوديتها، وإجراء الكلام على عادة العرب من ذكر إمامها، وتكرر ذكر عيسى منسوباً إلى أمه لتشعر القلوب بنفي أبوة الله وبترأه أمه الطاهرة عن مقالة اليهود.

(٢) روى ابن أبي حاتم وابن جرير، وهذه هي العلة في توجه النصراني جهة المشرق.

يكون لي غلام، أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور. ولهذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ والبغي هي الزانية، ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت، إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله، نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْدَأُ الْكَلِمَةَ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته. قال ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال، قالت مريم عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكليني وهو في بطني وإذا كنت مع الناس، سبّح في بطني وكبّر، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقرر في علم الله تعالى وقدره ومشيته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفع في فرجها، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾، قال محمد بن إسحاق: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾: أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره ولم يحك غيره، والله أعلم.

* فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ ۖ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم، انها لما قال لها جبريل ما قال، استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف، أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها، فترلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد، بإذن الله تعالى، فلما حملت به ضاقت ذرعاً، ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما يخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا، وذلك أن زكريا عليه السلام كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم، فقامت إليها فاعتقتها وقالت: أشعرت يا مريم أي حبلى؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أنني حبلى، وذكرت لها شأنها، وما كان من خبرها، وكانوا بيت إيمان وتصديق، قال مالك رحمه الله: بلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك، قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام، لأن الله جعله يحيى الموتى ويرى الأكمه والأبرص^(١). ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام، فالشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر، وقال عكرمة: ثمانية أشهر، وقال ابن جريج، عن ابن عباس، وسئل عن حمل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت^(٢)

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) قال ابن كثير: هذا القول عن ابن عباس غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ =

والمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن . ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها ، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس ، يقال له يوسف النجار ، فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها ، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ، ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يمحوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه ، فحمل نفسه على أن عرض لها في القول ، فقال : يا مريم إني سأثلك عن أمر فلا تعجلي علي ، قالت : وما هو ؟ قال : هل يكون قط شجر من غير حب ؟ وهل يكون زرع من غير بذر ؟ وهل يكون ولد من غير أب ؟ فقالت : نعم ، وفهمت ما أشار إليه ، أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر ، فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر ، وهل يكون ولد من غير أب ، فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم ، فصدقتها ، وسلم لها حالها ، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريية ، انتبذت منهم مكاناً قصباً ، أي قاصياً منهم بعيداً عنهم لئلا تراه ولا يروها . قال محمد بن إسحاق : فلما حملت به وملأت قلبها ورجعت ، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم ، وتغير اللون ، حتى فطر لسانها ، فادخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا وشاع الحديث في بني إسرائيل ، فقالوا : إنما صاحبها يوسف ، ولم يكن معها في الكنيسة غيره ، وتوارت من الناس ، واتخذت من دونهم حجاباً ، فلا يراها أحد ولا تراه .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي فاضطرها وألجأها إلى جذع النخلة ، في المكان الذي نتحت إليه . وقد اختلفوا فيه ، فقال السدي : كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس ، وقال وهب ابن منبه : كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس ، في قرية يقال لها بيت لحم ، وهذا هو المشهور ، الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض ، ولا يشك فيه النصارى أنه بيت لحم ، وقوله تعالى إخباراً عنها : ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِياً مَنْسِياً ﴾ فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها ، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية ، فقالت ﴿ يَا لَيْتَنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا ﴾ أي قبل هذا الحمل ﴿ وَكُنْتُ نَسِياً مَنْسِياً ﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئاً قاله ابن عباس ، وقال قتادة ﴿ وَكُنْتُ نَسِياً مَنْسِياً ﴾ : أي شيئاً لا يعرف ولا يذكر ، ولا يدري الناس من أنا . وقال ابن زيد : لم أكن شيئاً قط ، وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمنى الموت إلا عند الفتنة عند قوله : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَحْقِنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

فَتَادِلْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهَرِي إِلَى الْبَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَعَيْنَا فِيمَا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۝

اختلف المفسرون في المراد بذلك من هو ؟ فقال ابن عباس : ﴿ فناداها من تحتها ﴾ جبريل^(١) ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ، أي ناداها من أسفل الوادي ، وقال مجاهد ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قال : عيسى بن مريم ، وقال الحسن : هو ابنها^(٢) . قال : أو لم تسمع الله يقول ﴿ فأشارت إليه ﴾ ، وقوله ﴿ أن لا تحزني ﴾ أي ناداها قائلاً لا تحزني ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ ، عن البراء بن عازب ، وعن ابن عباس : السري النهر ، وقال الضحاك : هو النهر الصغير بالسرمانية ، وقال قتادة : هو الجلول بلغة أهل الحجاز ، وقال السدي : هو النهر ، واختار هذا القول ابن جرير ، وقال آخرون : المراد بالسري عيسى عليه السلام^(٣) . والقول الأول أظهر ، ولهذا قال بعده : ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة ﴾ أي وخذي إليك بجذع النخلة ، قيل : كانت يابسة قاله ابن عباس ، وقيل : مشرة ، والظاهر أنها كانت شجرة ، ولكن لم تكن في إبان ثمرها ، قاله وهب بن منبه : ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال : ﴿ تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ فكلني واشربي وقرني عينا ﴿ أي طيبي نفساً ، ولهذا قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خبر للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ فإما ترين من البشر أحداً ﴾ أي مهما رأيت من أحد ، ﴿ فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ ، المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك ، لا أن المراد به القول اللفظي ، لئلا ينافي ﴿ فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ ، قال أنس بن مالك في قوله ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ قال : صمتاً ، وكذا قال ابن عباس والضحاك ، وفي رواية عن أنس : صوماً وصمتاً ، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام . روى ابن إسحاق ، عن حارثة قال : كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر فقال : ما شأنك ؟ قال أصحابه : حلف أن لا يكلم الناس اليوم . فقال عبد الله بن مسعود : كلم الناس وسلم عليهم ، فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها ، أنها حملت من غير زوج ، يعني بذلك مريم عليها السلام ، ليكون عندها لها إذا مثلت^(٤) . وقال عبد الرحمن بن زيد : لما قال عيسى لمريم ﴿ لا تحزني ﴾ قالت : وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج ولا مملوكة ، أي شيء عندي عند الناس ؟ ﴿ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ .

فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا حَرِيمٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمراً سَوِياً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْتِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي إِلِكْتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

(١) وهو قول الضحاك والسدي وقاتة وسعيد بن جبیر .

(٢) وهو رواية سعيد بن جبیر واختاره ابن جریر .

(٣) وبه قال الحسن والربيع بن أنس وعدد الرحمن بن زيد ، وهو ضعيف والقول الأول أظهر كما قال ابن كثير .

(٤) رواه ابن إسحاق وابن أبي حاتم وابن جرير .

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يوماً ذلك، وأن لا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكوني أمرها ويقام بحجتها، فسلمت لأمر الله عز وجل واستسلمت لقضائه؛ فأخذت ولدها فأنت به قومها تحمله، فلما رآوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا ﴿يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾ أي أمراً عظيماً، ﴿يا أخت هرون﴾ أي يا شقيقة هارون في العادة، ﴿ما كان أبوك أمراً سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟ قال السدي: قيل لها ﴿يا أخت هرون﴾ أي أخي موسى وكانت من نسله، كما يقال للتيميمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر، وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون^(١)، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة. وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحهم. كما قال الإمام أحمد، عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرايت ما تقرأون ﴿يا أخت هرون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»^(٢).

وقال ابن جرير، عن قتادة قوله ﴿يا أخت هرون﴾ الآية قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به، وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته، وليس بهارون أخي موسى، ولكنه هارون آخر، قال وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يسمون هارون من بني إسرائيل. وقوله ﴿فأشارت إليه﴾ قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيّاً؟ أي أنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها هذا صامعة صامته، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهمين بها ظانين أنها تزدي بهم وتلعب بهم ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبيّاً﴾؟ قال السدي: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها ﴿قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيّاً﴾ أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ ﴿قال: إني عبد الله﴾ أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى ويرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه، وقوله ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ تبرئة لأنفسه مما نسبت إليه من الفاحشة، قال نوف البكالي: لما قالوا لأنفسهم ما قالوا كان يرتضع ثدياً، فترع الثدي من فمه، واتكأ على جنبه الأيسر وقال: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ - إلى قوله - ما دمت حياً.

وقوله تعالى: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾، قال مجاهد: وجعلني معلماً للخير، وفي رواية عنه: نفاعاً، وقوله: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾. وقوله: ﴿وبرأ بالذي﴾ أي وأمرني ببر والدي، ذكره بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾، وقوله: ﴿ولم يجعلني جباراً شقياً﴾

(١) قال السهلي: هارون رجل من عباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تشبه به في اجتهادها، ليس بهارون أخي موسى بن

عمران، فإن بينهما من الدهر الطويل والقرون الماضية والأهم الخالية ما قد عرفه الناس.

(٢) وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

أي ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدني فأشقى بذلك، قال سفيان الثوري: الجبار الشقي الذي يقتل على الغضب، وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقباً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وبراً بوالدني ولم يجعلني جباراً شقياً﴾. وقوله: ﴿والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾ إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿قول الحق الذي فيه يمترون﴾ أي يختلف المبتلون والمحقون ممن آمن به وكفر به، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة، فقال: ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه﴾ أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتنون علواً كبيراً ﴿إذا قضى أمراً﴾ فإما يقول له كن فيكون، أي إذا أراد شيئاً فإما يأمر به، فيصير كما يشاء كما قال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾، وقوله: ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي وما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم، وأمرهم بعبادته فقال ﴿فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم أي قويم من اتبعه رشد وهدي ومن خالفه ضل وغوى، وقوله: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله، على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر، وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله، وقال آخرون: بل هو ابن الله، وقال آخرون: ثالث ثلاثة، وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد روي نحو هذا عن ابن جريج وقادة وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم. أن (قسطنطين) جمعهم في محفل كبير مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفًا، فاختلفوا في عيسى بن مريم عليه السلام اختلافًا متباينًا جداً، فقالت كل شذمة فيه قولاً، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلثائة وثمانية منهم اتفقوا على قول وصمموا عليه فقال إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم ونصرهم وطردهم من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة بل هي الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحرفوا دين المسيح وغيره، فابتنى لهم حيثئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها، بلاد الشام والجزيرة والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثني عشر ألف كنيسة، وقوله: ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ تهديد

ووعيد شديد لمن كذب على الله واقتري، وزعم أن له ولداً، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة، وأجلهم حتماً فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » وقد قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أُمِلَّتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا إِلَيْهَا الْمَصِيرَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾، ولهذا قال ههنا ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي يوم القيامة. وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ».

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ زَرْثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾
يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ يعني يوم القيامة، ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ أي في الدنيا ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك، ثم قال تعالى: ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ أي أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿ إذ قضي الأمر ﴾: أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار، وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، ﴿ وهم ﴾ أي اليوم ﴿ في غفلة ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ أي: لا يصدقون به. عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: « إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال، فيشربون وينظرون ويقولون، نعم هذا الموت، قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال، فيشربون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال، فيؤمر به فيذبح، قال، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت » ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾، وأشار بيده ثم قال: « أهل الدنيا في غفلة الدنيا »^(١).

وقال السدي، عن ابن مسعود في قوله ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، أي بالموت في صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة هذا الموت الذي كان يميم الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في أهل عليين، ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادي مناد: يا أهل النار هذا الموت الذي كان يميم الناس في الدنيا فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادي: يا أهل الجنة هو الخلود أبدي الأبد، ويا أهل النار هو الخلود أبدي الأبد، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا، ويشق

(١) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري واللفظ له وأخرجه الشيخان عن ابن عمر ولفظهما قريب من ذلك .

أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا، فذلك قوله تعالى ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: يقول إذا ذبح الموت^(١٩). وقال ابن عباس: ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحلّده عباده، وقال عبد الرحمن بن زيد، في قوله ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ قال يوم القيامة، وقرأ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّتْ الْأَرْضُ وَمِنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدعي ملكاً ولا نصراً، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٢٠﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِبِ لِرَّ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٢١﴾ يَأْتِبِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٢٢﴾ يَأْتِبِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٢٣﴾ يَأْتِبِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي اتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، خبر إبراهيم خليل الرحمن، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ أي لا بفعلك ولا يدفع عنك ضرراً، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يقول: وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك، لأني ولدتك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، ولا اطلعت عليه ولا جاءك ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي طريقاً مستقيماً موثقاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المهووب، ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، وقوله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾: أي على شركك وعصيانك لما أمرك به ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصر إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿فَزَيْنَ لَمْ يَحْصُرْ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَاقِ يَبْرَاهِيمَ لَنْ تَنْتَهِيَ لَأَرْجُحُكَ وَأَهْجُرُنِي مَلِيًّا ﴿٢٥﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٢٦﴾ وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٢٧﴾

شَقِيًّا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه إنه قال: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾؟ يعني إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانت عنه عن سبها وشتمها وعبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لأرجمنك﴾، قاله ابن عباس^(١)، وقوله: ﴿واهجرني ملياً﴾ قال مجاهد: يعني دهرًا، وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً، وقال السدي: واهجرني ملياً: قال: أبدأ. وقال ابن عباس: ﴿واهجرني ملياً﴾ قال: سوياً سائلاً، قبل أن تصيبك مني عقوبة^(٢)، فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾، كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿سلام عليك لا نبتغي الجاهلين﴾، ومعنى قول إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾ يعني: أما أنا فلا بنالك مني مكروه ولا أذى وذلك لحرمته الأبوة ﴿سأستغفر لك ربي﴾، ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك، ﴿إنه كان بي حفيماً﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أي في أن هداني لعبادته. وقال قتادة ومجاهد: ﴿إنه كان بي حفيماً﴾ قالوا: عوده الإجابة، وقال السدي: الحفي الذي يهتم بأمره، وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في قوله: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾، وقد استغفر المسلمون لقرباتهم وأهلبيهم من المشركين في ابتداء الإسلام، حتى أنزل الله تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبون من دون الله - إلى قوله - إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء﴾ الآية، يعني إلا في هذا القول فلا تنأسوا به، ثم بين تعالى أن إبراهيم أقبل عن ذلك ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه علو لله تبرأ منه أن إبراهيم لأواه حلیم﴾، وقوله: ﴿واعترلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي﴾ أي أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آهنتكم التي تعبدونها من دون الله، ﴿وأدعو ربي﴾ أي وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

فَلَمَّا اعْتَرَضَهُمْ وَمَا يَعْبدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝

يقول تعالى: فلما اعترل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، وهب له إسحاق ويعقوب، يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ويعقوب نافلة﴾، وقال: ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب، أي جعلنا له نسلًا وعقبًا أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وكلا جعلنا

(١) وقاله أيضاً السدي وابن جريج والضحاك وغيرهم.

(٢) وكذا قال الضحاك وقاتدة وأبو مالك، واختاره ابن جرير.

نبياً ﴿ فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبئ في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف. فإنه نبي أيضاً. وقوله: ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾، قال ابن عباس: يعني الثناء الحسن، وقال ابن جرير: إنما قال ﴿ علياً ﴾ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذَيْنَاهُ مِنَ الْجَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم فقال: ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً ﴾ بكسر اللام من الإخلاص في العبادة، وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿ إني اصطفيتك على الناس ﴾، ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار، أولي العزم الخمسة، وهم (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد) صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين، وقوله: ﴿ وناديناه من جانب الطور ﴾ أي الجانب ﴿ الأيمن ﴾ من موسى حين ذهب يتغني من تلك النار جنوة، فرأها تلوح فقصدتها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غريبه عند شاطئ الوادي، فكلّمه الله تعالى وناداه وقربه فناهجه. روى ابن جرير، عن ابن عباس ﴿ وقريناه نجياً ﴾ قال: أذني حتى سمع صريف القلم. وقال السدي ﴿ وقريناه نجياً ﴾ قال: أدخل في السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه، وروى ابن أبي حاتم، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء قال: يا موسى إذا خلقت لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً، وقوله: ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون ﴾، وقال: ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾، ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾، قال ابن عباس: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب نبوته له^(١)

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد. قال ابن جريج لم يعد ربه علة إلا أنجزها، يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها، ووفاهها حقها. وقال ابن جرير، عن سهل بن عقيل، إن (إسماعيل) النبي عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيه،

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم.

فجاء ونسي الرجل فضل به إسماعيل، وبات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من ههنا؟ قال: لا، قال: إني نسيت، قال: لم أكن لأبرح حتى تأتيني، فلذلك ﴿كان صادق الوعد﴾، وقد روى أبو داود في سنته، عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له عليّ بقية، فوعده أن آتيه بها في مكانه ذلك، قال فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك، فقال لي: «يا فتى لقد شققت عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك»، وقال بعضهم: إنما قيل له ﴿صادق الوعد﴾ لأنه قال لأبيه ﴿ستجديني إن شاء الله من الصابرين﴾ فصدق في ذلك، فصدق الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خلفه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾، وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١)، ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب فقال: «حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي»

وقوله تعالى: ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة، وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل» وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه، وقوله: ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عنده مرضياً﴾، هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة والخلة السديدة، حيث كان صابراً على طاعة ربه عز وجل، أمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ الآية. وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء»^(٢). وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»^(٣)

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٦﴾

ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه، بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مرَّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة. وعن ابن عباس: أن إدريس كان خياطاً فكان لا يفرز إبرة إلا قال سبحان الله، فكان يسمي حين يسمي وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه، وقال مجاهد في قوله ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى. وقال سفيان، عن مجاهد ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: السماء الرابعة، وقال الحسن وغيره في قوله ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: الجنة.

(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

(٣) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له.

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ
وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

يقول تعالى: هؤلاء النبيون، وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس، ﴿الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم﴾ الآية. قال السدي وابن جرير رحمه الله: فالذي عني به من ذرية آدم (إدريس)، والذي عني به من ذرية من حملنا مع نوح (إبراهيم)، والذي عني به من ذرية إبراهيم (إسحاق ويعقوب وإسماعيل)، والذي عني به من ذرية إسرائيل (موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم)، قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس، فإنه جد نوح، (قلت): هذا هو الأظهر، أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام، وقد قيل إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذاً من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، ولم يقل والولد الصالح، كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام، وفي صحيح البخاري عن مجاهد: «أنه سأل ابن عباس أي ﴿ص﴾ سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ فنييكم من أمر أن يقتدي بهم، قال وهو منهم يعني داود. وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجلوا لرهبهم خضوعاً واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبكي جمع بك فلماذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لتوالم. قال سفیان الثوري قرأ عمر بن الخطاب رضي عنه سورة مريم فسجد «وقال هذا السجود، فأين البكي؟ يريد البكاء»^(١)

* خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام، ومن اتبعهم من القائمين بحلود الله وأوامره المؤدين فرائض الله التاركين لزواجه، ذكر أنه ﴿خلف من بعدهم خلف﴾ أي قرون أخر، ﴿أضاعوا الصلاة﴾، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهوؤلاء سيلقون غيًّا، أي خساراً يوم القيامة، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ههنا، فقال قائلون المراد بإضاعتها تركها بالكلية، قاله محمد بن كعب القرظي والسدي واختاره ابن جرير، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو مشهور عن الإمام أحمد، إلى تكفير تارك الصلاة للحديث: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»^(٢)، والحديث الآخر: «العهد الذي

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

(٢) الحديث: أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن جابر بلفظ «بين الرجل وبين الشرك والكفر ...» .

بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»، وليس هذا محل بسط هذه المسألة. وقال الأوزاعي: إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً. وقيل لابن مسعود: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾، و﴿على صلاتهم دائمون﴾، و﴿على صلاتهم يحافظون﴾، فقال ابن مسعود: على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال: ذلك الكفر، وقال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهن إضاعتن عن وقتن، وقال الأوزاعي: قرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت، وقال مجاهد: ذلك عند قيام الساعة، وذهب صالح أمة محمد ﷺ يترؤ بعضهم على بعض في الأزقة. وقال ابن جرير، عن مجاهد ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ قال: هم في هذه الأمة، يتراكبون تراكب الأنعام والحرر في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحيون من الناس في الأرض. وقال كعب الأحبار: والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عز وجل: شرابين للقهوات، تراكين للصلوات، لعائين بالكعبات، رقادين عن العتات، مفرطين في الغدوات، تراكين للجماعات، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾، وقال الحسن البصري: عطّلوا المساجد ولزموا الضيعات. وقال أبو الأشهب: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا أثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتي، وقوله: ﴿فسوف يلقون غياً﴾، قال ابن عباس: أي خسراً، وقال قتادة شراً، وقال عبد الله بن مسعود: ﴿فسوف يلقون غياً﴾ قال: وإد في جهنم بعيد القعر حيث الطعم. وقال الأعمش، عن زياد، عن أبي عياض في قوله: ﴿فسوف يلقون غياً﴾ قال: وإد في جهنم من قيح ودم. وقوله: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال: ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾ ذلك لأن التوبة تجب ما قبلها. وفي الحديث الآخر «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١) ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً ولا قولوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها لأن ذلك ذهب هدرأ وترك نسياً، وذهب مجاناً من كرم الكريم وحلم الحليم، وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق - إلى قوله - وكان الله غفوراً رحماً﴾.

* جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُمْ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا ﴿٦٣﴾

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون هي ﴿جنات عدن﴾ أي إقامة ﴿التي وعد الرحمن عباده﴾ بظهر الغيب، أي هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إنه كان

(١) أخرجه ابن ماجة عن ابن مسعود والحكيم الترمذي عن أبي سعيد الخدري .

وعده مأثياً ﴿ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره ، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبده ، كقوله ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾ أي كائنًا لا محالة ، وقوله ههنا ﴿ مأثياً ﴾ أي العباد صاثرون إليه وسيأتونه ، ومنهم من قال ﴿ مأثياً ﴾ بمعنى آتياً ، لأن كل ما أنك فقد آتته ، كما تقول العرب : أنت علي خمسون سنة وأتيت على خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد ، وقوله ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ ، أي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له ، كما قد يوجد في الدنيا ، وقوله ﴿ إلا سلاماً ﴾ استثناء منقطع ، كقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً ﴾ ، وقوله ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلاً ونهاراً ، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضياً بأضواء وأنوار ، كما قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها ، ولا يتغوطون ، آتيتهم وأمشطهم الذهب والفضة ، ويجامرهم الأولوة ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً »^(١) . وعن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ، في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً »^(٢) . وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ قال : مقادير الليل والنهار . وقال ابن جرير ، عن الوليد بن أسلم قال : سألت زهير بن محمد عن قول الله تعالى ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ قال : ليس في الجنة ليل ، هم في نور أبداً ولهم مقدار الليل والنهار ، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب . ويعرفون مقدار النهار ، برفع الحجب وفتح الأبواب . وقال قتادة : فيها ساعتان بكرة وعشياً ، ليس ثم ليل ولا نهار ، وإنما هو ضوء ونور . وقال مجاهد : ليس بكرة ولا عشياً ، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا . وقوله ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين ، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء ، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس ، وكما قال تعالى في سورة المؤمنين : ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ .

وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً ﴿١٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴿١٦﴾

عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ لجبرائيل : « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » قال ، فترلت : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ﴾^(١) . وقال العوفي عن ابن عباس : احتبس جبرائيل عن رسول الله ﷺ ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن ، فأتاه جبرائيل وقال : يا محمد ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ﴾ الآية . وقوله : ﴿ له ما بين أيدينا وما خلفنا ﴾ ، قيل : المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا ، وما خلفنا أمر الآخرة ﴿ وما بين ذلك ﴾ ما بين النفتختين ، وهذا قول عكرمة ومجاهد والسدي ، وقيل ﴿ ما بين أيدينا ﴾ : ما يستقبل من أمر الآخرة ، ﴿ وما خلفنا ﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ورواه أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند . (٣) أخرجه البخاري في باب التفسير ورواه الإمام أحمد .

أي ما مضى من الدنيا، ﴿وما بين ذلك﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة، واختاره ابن جرير، والله أعلم. وقوله: ﴿وما كان ربك نسياً﴾، قال مجاهد والسدي: معناه ما نسيك ربك، وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوليه: ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى﴾، وعن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وما كان ربك نسياً﴾^(١). وقوله: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه، ﴿فاعبدوه واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾ قال ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شيئاً^(٢). وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه.

* وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُنْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُزِئَهُمْ أَجَلَهُمْ بِأَلَدَيْنَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن الإنسان، أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وإن تعجب فاعجب قولم أنذا كنا تراباً أنأنا لفي خلق جديد﴾، وقال: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نقطة فإذا هو خصيم مبين﴾ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، وقال ههنا: ﴿ويقول الإنسان أنذا ما مت لسوف أخرج حياء أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾، يستدل تعالى بالبداة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده؟ وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، وفي الصحيح: «يقول الله تعالى كذبتني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وأذا نبي ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذيبه إياي فقله لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من آخره، وأما أذاه إياي فقله: إن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(٣)، وقوله: ﴿فوربك لنحشرهم والشیاطین﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكریم، أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً، وشیاطینهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثم لنحضرهم حول جهنم جثياً﴾، قال ابن عباس: يعني قعوداً كقوله: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ وقال السدي في قوله ﴿جثياً﴾ يعني قياماً، وروي عن ابن مسعود مثله. وقوله: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ يعني من كل أمة قاله مجاهد، ﴿أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾ قال الثوري عن ابن مسعود قال: يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة أتاها جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، وهو قوله: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾، وقال قتادة: ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر، وكذا قال ابن جرير وغير واحد من السلف، وهذا كقوله تعالى، ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أوراهاهم

(١) رواه ابن أبي حاتم. (٢) وهو قول مجاهد وقتادة وسعيد بن جبیر وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

ربنا هولاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴿١٩﴾، وقوله: ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾، المراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصل بئار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب كما قال في الآية المتقدمة: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَحْنُ الَّذِينَ أَنْتَقُوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٢١﴾

روى الإمام أحمد، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورد، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضهم يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقبت جابر بن عبد الله فقلت له: إنا اختلفنا في الورد، فقال: يردونها جميعاً، وأهوى بأصبعه إلى أذنيه، وقال: صُمْنَا إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا وينذر الظالمين فيها جثياً». وعن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن راحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكت، فبكت امرأته، قال: ما يبكيك؟ قالت: رأيته تبكي فبكيت، قال إني ذكرت قول الله عز وجل ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلا أدرى أنجو منها أم لا، وكان مريضاً^(١). وقال ابن جرير عن أبي إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أُمِّي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها، وعن الحسن البصري قال، قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: فهم الضحك، قال: فما رأي ضاحكاً حتى لحق بالله، وقال عبد الرزاق خاصم ابن عباس نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس: الورد الدخول، فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَتَمَّ لَهَا وَارِدُونَ﴾ وردوا أم لا؟ وقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أوردتهم أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، فضحك نافع. وقال: عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق. فقال له: يا ابن عباس، أرايت قول الله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾، قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا؟

وعن عبد الله بن مسعود ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال رسول الله ﷺ: «يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم»^(٢). وقد رواه أسباط عن السدي، عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مرأ رجل نوره على موضع إبهامي قدميه يمر فيتكفأ به الصراط، والصراط دحض مزلّة، عليه حسك كحسك القتاد، حافاه ملائكة معهم كلاليب من نار يخطفون بها الناس^(٣)، وقال ابن جرير، عن عبد الله قوله

(١) أخرجه عبد الرزاق.

(٢) رواه أحمد والترمذي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون اللهم سلم سلم، ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما. عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة، قالت كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة فقال: «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية»، قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «ثم ننجي الذين اتقوا» الآية، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تحمسه النار إلا تحلة القسم» يعني الورود. وقال قتادة قوله: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ هو الممر عليها. وقال عبد الرحمن بن زيد: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها، وورود المشركين أن يدخلوها، والزالون والزالات يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سماطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلم سلم» وقال السدي، عن ابن مسعود في قوله ﴿كان على ربك حتمًا مقضيًا﴾ قال: قسمًا وأجبًا، وقال مجاهد: حتمًا، قال قضاء، وقوله ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجاوزهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم، وهي مواضع السجود، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا﴾.

وَإِذَا تُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ أَهْلَكَ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تنلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان، أنهم يصرون ويعرضون عن ذلك، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿خير مقامًا وأحسن نديًا﴾ أي أحسن منازل، وأرفع دورًا، وأحسن نديًا، وهو مجتمع الرجال للحديث، أي ناديهم أعمر وأكثر واردة وطارقًا، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل؟ كما قال تعالى مخبرًا عنهم ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه﴾، وقال قوم نوح، ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ وقال تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾؟ ولهذا قال تعالى، رادًا عليهم شبهتهم: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾: أي وكم من أمة وقرن من المكذبين، قد أهلكناهم بكفرهم ﴿هم أحسن أثنا وريثًا﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالًا وأمنعة ومناظر وأشكالًا. قال ابن عباس ﴿خير مقامًا وأحسن نديًا﴾ المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرني: المنظر، وهو كما قال الله تعالى ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم﴾ فالمقام المسكن والنعم، والنسدي: المجلس، والمجمع، الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ والعرب تسمي المجلس النادي، وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة وفيهم

قشافة، فعرض أهل الشرك ما تسمعون ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾، ومنهم من قال في الأثاث هو المال، ومنهم من قال الثياب، ومنهم من قال المتاع، والرئي المنظر كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد. وقال الحسن البصري يعني الصور، وكذا قال مالك ﴿أثاثاً ورثياً﴾ أكثر أموالاً وأحسن صوراً، والكل متقارب صحيح.

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ﴿قل﴾ يا محمد هؤلاء المشركين يربهم، المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل ﴿من كان في الضلالة﴾ أي منا ومنكم ﴿فليمدد له الرحمن مدًّا﴾ أي فليمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقي ربه وينقضي أجله، ﴿إما العذاب﴾ يصيبه، ﴿وإما الساعة﴾ بغتة تأتيه، ﴿فسيعلمون﴾ حيثئذ ﴿من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي، قال مجاهد في قوله: ﴿فليمدد له الرحمن مدًّا﴾ فليدعه الله في طغيانه، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ ﴿٧٦﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه، وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى، كما قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أبكم زادته هذه إيماناً﴾ الآيتين. وقوله: ﴿والباقيات الصالحات﴾ قد تقدم تفسيرها في سورة الكهف ﴿خير عند ربك ثواباً﴾ أي جزاء ﴿وخير مرداً﴾ أي عاقبة ومرداً على صاحبها. عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحط ورقه، ثم قال: «إن قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال لأهللن الله ولاكبرن الله ولأسبحن الله، حتى إذا رأي الجاهل حسب أني مجنون^(١)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِعَاقِبَتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ ائْتَحَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرْتَمِيهِ مَا يَقُولُ وَيَئْتِنَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

روى الإمام أحمد، عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على (العاصم بن ائمل) دين فأتيته أتقاضاه منه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ، حتى تموت ثم

(١) رواه عبد الرزاق وظاهره أنه مرسل ولكن وقع في سنن ابن ماجه عن أبي سلمة عن أبي الدرداء فذكره وهو حديث

تبعث، قال: فإني إذا مت ثم بعثت جنتي ولي ثم مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً - إلى قوله - ويأتينا فرداً﴾^(١)، وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أنقاضها، فذكر الحديث وقال ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: موثقاً.

وروى عبد الرزاق، عن مسروق قال، قال خباب بن الأرت: كنت قيناً بمكة فكنت أعمل للعاص بن وائل، فاجتمعت لي عليه دراهم، فجئت أنقاضها، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، قلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإذا بعثت كان لي مال وولد، قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ الآيات. وقال ابن عباس: إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون (العاص بن وائل) بدين، فأنوه يتقاضونه، فقال: ألسنتم ترعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى، قال: فإن موعدكم الآخرة فوالله لأوتين مالا وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذي جنتم به ففرض الله مثله في القرآن فقال: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا - إلى قوله - ويأتينا فرداً﴾، وقوله: ﴿لأوتين مالا وولداً﴾، قرأ بعضهم بفتح الواو من ﴿ولداً﴾ وقرأ آخرون بضمها وهو بمعناه، وقيل: إن الولد بالضم جمع، والولد بالفتح مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أطلع الغيب﴾ إنكار على هذا القائل ﴿لأوتين مالا وولداً﴾ يعني يوم القيامة، أي أعلم ماله في الآخرة، حتى تألى وحلف على ذلك ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخاري أنه الموثق، وقال ابن عباس: ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: لا إله إلا الله فيرجو بها، وقال القرظي: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾، وقوله ﴿كلاً﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيدها لما بعدها ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي من طلبه ذلك، وحكمه نفسه بما يتمناه وكفره بالله العظيم، ﴿ونمد له من العذاب مداً﴾ أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا، ﴿ونرثه ما يقول﴾ أي من مال وولد، نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى في الدار الآخرة مالا وولداً، زيادة على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿ويأتينا فرداً﴾ أي من المال والولد، قال مجاهد ﴿ونرثه ما يقول﴾: ماله وولده، وقال قتادة ﴿ونرثه ما يقول﴾ قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لأوتين مالا وولداً﴾ ﴿ويأتينا فرداً﴾ لا مال له ولا ولد، وقال عبد الرحمن بن زيد ﴿ونرثه ما يقول﴾ قال: ما جمع من الدنيا وما عمل فيها، ﴿ويأتينا فرداً﴾ قال: فرداً من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير.

وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَسْكُنُوا آلَهُمْ عَزَاءً ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝ ٨٢
تَرَأْنَا أُرْسِلَنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ۖ فَلَا تَعَجَّلْ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۝ ٨٣

يغيب تعالى عن الكفار المشركين برهيم، أنهم اتحلوا من دونه آفة لتكون لهم تلك الآفة ﴿عزاً﴾ يعثرون بها ويستنصرونها، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا، فقال ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾: أي

يوم القيامة ﴿ ويكنون عليهم ضدًا ﴾ أي بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾، وقال السدي ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾: أي بعبادة الأوثان، وقوله ﴿ ويكنون عليهم ضدًا ﴾ أي بخلاف ما رجوا منهم. وقال ابن عباس ﴿ ويكنون عليهم ضدًا ﴾ قال: أعوانًا، قال مجاهد: عونًا عليهم تخاصمهم وتكذبهم، وقال قتادة: قرناء في النار، يلعن بعضهم بعضًا ويكفر بعضهم ببعض، وقال الضحاك ﴿ ويكنون عليهم ضدًا ﴾ قال: أعداء. وقوله: ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًّا ﴾ قال ابن عباس: تغويهم إغواء، وقال العوفي عنه: تحرضهم على محمد وأصحابه، وقال مجاهد: تشليم إشلاء، وقال قتادة: ترعجهم إزعاجًا إلى معاصي الله، وقال سفيان الثوري: تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالًا، وقال السدي: تطفهم طفيانًا، وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين ﴾، وقوله: ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾ أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ أي إنما تؤخرهم لأجل معلود ومضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، كما قال تعالى: ﴿ فسهل الكافرين أمهلهم رويدًا ﴾، ﴿ إنما نعلي لهم ليزدادوا إثماً ﴾، ﴿ نمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾، ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾، وقال السدي: ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ السنين والشهور والأيام والساعات، وقال ابن عباس: ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ قال: نعد أنفاسهم في الدنيا

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنُسَوِّقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله، وصدقوهم فيما أخبروهم وأطاعوهم فيما أمرهم به، واتبعوا عما زجرهم أنه يحشرهم يوم القيامة، وفداً إليه، والوفد هم القادمون ركباناً ومنه الوفود، وركوبهم على نجايب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه، وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم فإنهم يساقون عنفاً إلى النار ﴿ ورداً ﴾ عطاشاً^(١)، وقال ابن أبي حاتم، عن ابن مرزوق ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عملك الصالح وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه، فطالما ركبكت في الدنيا، فهل اركبني فيركبه، فذلك قوله: ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾^(٢). قال ابن عباس: ركباناً. وقال أبو هريرة ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال: على الإبل. وقال الثوري: على الإبل النوق، وقال قتادة ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال: إلى الجنة، عن ابن النعمان بن سعيد قال: كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه، فقرأ هذه الآية ﴿ يوم

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم .

(١) قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد .

نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴿٨٨﴾ قال: لا والله ما على أوجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلاق مثلاً ، عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة ﴿٨٩﴾

وقوله تعالى ﴿٩٠﴾ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴿٩١﴾ أي عطاشاً ، ﴿٩٢﴾ لا يملكون الشفاعة ﴿٩٣﴾ أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿٩٤﴾ فإنا من شافعين ولا صديق حميم ﴿٩٥﴾ ، وقوله: ﴿٩٦﴾ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴿٩٧﴾ هذا استثناء منقطع ، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها . قال ابن عباس: العهد (شهادة إن لا إله إلا الله) ، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عز وجل . وقال ابن أبي حاتم ، عن الأسود بن يزيد ، قال: قرأ عبد الله بن مسعود هذه الآية ﴿٩٨﴾ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴿٩٩﴾ ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً ، فإن الله يقول يوم القيامة: من كان له عند الله عهد فليقيم ، قالوا: يا أبا عبد الرحمن فعلمنا ، قال قولوا: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ، أنك إن تكلني إلى عملي يقربني من الشر ويباعدني من الخير ، وإني لا أتق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إلي يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد . قال المسعودي: وكان يلحق بهن: خائفاً مستجيراً مستغفراً راهباً راعباً إليك .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٩٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٩٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿١٠٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١٠١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿١٠٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٠٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٠٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿١٠٥﴾

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب ، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً فقال: ﴿٩٨﴾ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم في قولكم ، هذا ﴿٩٩﴾ شيئاً إدّاً ﴿١٠٠﴾ ، قال ابن عباس: أي عظيماً ، وقوله: ﴿١٠١﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١٠٢﴾ أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالاً ، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده وأنه لا إله إلا هو ، قال ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله ﴿١٠٣﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿١٠٤﴾ قال: إن الشرك فرغت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه لعظمة الله ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وقال رسول الله ﷺ: «لنقوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة» ، فقالوا: يا رسول الله فمن قالها في صحته ؟ قال: «تلك أوجب وأوجب» ، ثم قال: «والذي نفسي بيده لو جيء بالسماوات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن» ﴿١٠٥﴾ ، وقال

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد: عليها رحائل من ذهب وأزمتها الزبرجد .

(٢) هكذا رواه ابن جرير ويشهد له حديث البطاقة والله أعلم .

الضحاك ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ أي يتشققن فرقاً من عظمة الله . وقال عبدالرحمن بن زيد ﴿ وتنشق الأرض ﴾ أي غضباً له عز وجل ، ﴿ ونحر الجبال هداً ﴾ قال ابن عباس : هدماً ، وقال سعيد بن جبير هداً ينكسر بعضها على بعض متتابعات . عن عون بن عبدالله : قال إن الجبل لينادي الجبل باسمه : يا فلان هل مر بك اليوم ذكر الله عز وجل ؟ فيقول : نعم ويستبشر ، قال عون : لهي للخير أسمع ، أفيسمعن الزور والباطل ، إذا قيل ولا يسمعن غيره ؟ ثم قرأ ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ الآية وعن أبي موسى رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويُجعل له ولد ، وهو يعافيه ويدفع عنهم ويرزقهم ، أخرجاه في الصحيحين . وفي لفظ : « إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيه » . وقوله : ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ أي لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته ، لأنه لا كف له من خلقه ، لأن جميع الخلائق عبيد له ، ولهذا قال : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً » لقد أحصاهم وعدهم عدداً ﴾ أي قد علم عددهم ، منذ خلقهم إلى يوم القيامة ، ذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم ، ﴿ وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ أي لا ناصر ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء ، هو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ولا يظلم أحداً .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ﴿٩٧﴾ وَكَرَّاهِلًا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

يخبر تعالى : أنه يفرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه . فروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه - قال - فيحبه جبريل ، قال : ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبه ، قال فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء ، إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال ، فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض »^(١) وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن العبد ليلتمس مرضاة الله عز وجل ، فلا يزال كذلك ، فيقول الله عز وجل لجبريل إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني ألا وإن رحمتي عليه ، فيقول جبريل : رحمة الله على فلان ، ويقولها حملة العرش ويقولها من حولهم ، حتى يقولها أهل السماوات السبع ، ثم يهبط إلى الأرض »^(٢) وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إني قد أحبيت فلاناً فأحبه فينادي في السماء ثم يترل له المحبة في أهل الأرض ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ إن الذين

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد ، واللفظ لأحمد .

(٣) أخرجه الإمام أحمد .

الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴿١٩﴾ ، وقال ابن عباس: ﴿سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ قال: حبا، وقال مجاهد عنه ﴿سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ قال: محبة في الناس في الدنيا. وقال سعيد بن جبير: يحبهم ويحبهم يعني إلى خلقه المؤمنين، وقال العوفي، عن ابن عباس: الود من المسلمين في الدنيا، والرزق الحسن واللسان الصادق، وقال قتادة ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ إي والله في قلوب أهل الإيمان، وذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم، وقال قتادة: وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ما من عبد يعمل خيراً أو شراً إلا كساه الله عز وجل رداء عمله .

وقوله تعالى: ﴿فإنما يسرناه﴾ يعني القرآن ﴿بلسانك﴾: أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل، ﴿لتبشر به المتقين﴾ أي المستجيبين لله المصدقين لرسوله، ﴿وتنذر به قوماً لداً﴾: أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل، وقال مجاهد ﴿قوماً لداً﴾ لا يستقيمون، وقال الثوري، عن أبي صالح ﴿وتنذر به قوماً لداً﴾: عوجاً عن الحق. وقال الضحاك: الألد الخصم، وقال القرظي: الألد الكذاب، وقال الحسن البصري ﴿قوماً لداً﴾ صماً، وقال غيره: صم آذان القلوب، وقال ابن عباس ﴿قوماً لداً﴾: فجاراً، وكذا روي عن مجاهد، وقال ابن زيد: الألد الظلوم، وقرأ قوله تعالى: ﴿وهو ألد الخصام﴾، وقوله: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾: أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾: أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً. قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة: يعني صوتاً، وقال الحسن وقتادة: هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً، والركز في أصل اللغة: هو الصوت الخفي، قال الشاعر

فتوجست ركز الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها

[آخر تفسير سورة مريم . والله الحمد والمنة]



(٢٠) سُورَةُ طه مَكِّيَّةٌ
وَأَسْمَاُهَا خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ وَابْنُهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذِكْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ
وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الْثَرَى ﴿٦﴾ وَإِن تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾
قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته .

روي عن ابن عباس قال: ﴿طه﴾ يا رجل، وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة والضحاك، وأسند القاضي
عياض في كتابه «الشفاء» عن الربيع بن أنس، قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل وورع الأخرى،
فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ يعني طأ الأرض يا محمد^(١) ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ثم قال: ولا يخفى ما في
هذا من الإكرام وحسن المعاملة، وقوله: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ قال الضحاك: لما أنزل الله القرآن على
رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل
الله تعالى: ﴿طه﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ﴿فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه
العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال، قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به
خيراً يفقهه في الدين». وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ الطبراني، عن ثعلبة بن الحكم، قال، قال رسول الله
ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عبادته، إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم
إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي»^(٢). وقال مجاهد في قوله ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾
هي كقولها: ﴿فاقرأوا ما تيسر منه﴾ وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة. وقال قتادة: لا والله ما جعله

(١) هذا التفسير غريب ولم ينكره ابن كثير رحمه الله ولم يثبت في أحاديث صحيحة عنه ﷺ أنه كان يقوم على رجل واحدة
وإنما ثبت أنه كان يقوم من الليل حتى تفتطرت قدماه، فتفسير (طه) بمعنى طأها مستبعد، والله أعلم .

(٢) قال ابن كثير: إسناده جيد، وثعلبة بن الحكم هو الليثي، نزل البصرة ثم تحول إلى الكوفة .

شقاء ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة ﴿إِلَّا تَذَكُّرَ لِمَن يَخْشَى﴾ أن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكر، ويستفتح رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه، وقوله ﴿تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السماوات العلى في ارتفاعها ولطافتها، وقد جاء في الحديث الذي صححه الترمذي وغيره، أن سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبعد ما بينها، والتي تليها مسيرة خمسمائة عام.

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ المسلك الأسلم طريقة السلف، وهو إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، وقوله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أي الجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيتته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه، وإلهه لا إله سواه، وقوله ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ قال محمد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة، ﴿وإن نجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ أي أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسماوات العلى الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، قال ابن عباس ﴿يعلم السر وأخفى﴾ قال: السر ما أسره ابن آدم في نفسه، ﴿وأخفى﴾ ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك، وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. وقال الضحاك ﴿يعلم السر وأخفى﴾ قال: السر ما تحدث به نفسك، وأخفى ما لم تحدث نفسك به بعد. وقال سعيد بن جبیر: أنت تعلم ما تسر اليوم، ولا تعلم ما تسر غداً، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غداً، وقال مجاهد ﴿وأخفى﴾ يعني الوسوسة، وقال أيضاً ﴿وأخفى﴾ أي ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه، وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾: أي الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة الأعراف والله الحمد والمنة.

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

من ههنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه، وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله: قيل قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدر بزند معه ليوري ناراً كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدر شيئاً ولا يخرج منه شر ولا شيء، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً، أي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشروهم ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي شهاب من نار، وفي الآية الأخرى ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ وهي الجمر الذي معه لهب ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ دل على وجود البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دل على وجود الظلام، وقوله: ﴿أَوْ أَوْجَدَ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي من يهديني الطريق، دل على أنه قد

ناه عن الطريق كما قال ابن عباس في قوله ﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هَدًى﴾ قال : من يهديني إلى الطريق وكانوا شاتين وضلوا الطريق ، فلما رأى النار ، قال : إن لم أجِدْ أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها .

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾

يقول تعالى ﴿ فلما أتاهها ﴾ أي النار واقترب منها ﴿ نودي يا موسى ﴾ ، وفي الآية الأخرى : ﴿ نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ إني أنا ربك ﴾ أي الذي يكلمك ويخاطبك ﴿ فاخلع نعليك ﴾ قيل : كانتا من جلد حمار غير ذكي ^(١) ، وقيل : إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة ، قال سعيد بن جبير : كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة ، وقيل ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير متعل ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم . وقوله ﴿ طوى ﴾ قال ابن عباس : هو اسم للوادي ، وكذا قال غير واحد ، وقيل : عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه ، والأول أصح كقوله ﴿ إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى ﴾ ، وقوله : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ ، كقوله : ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ أي على جميع الناس من الموجودين في زمانه ، وقد قيل : إن الله تعالى قال : يا موسى أتدري لم اختصصتك بالتكليم من بين الناس ؟ قال : لا ، قال : لأنني لم يتواضع إلي أحد تواضعك ، وقوله ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ أي واستمع الآن ما أقول لك ، وأوحيه إليك ﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ ، هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وقوله ﴿ فاعبدني ﴾ أي وحدني وقم بعبادتي من غير شريك ، ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ قيل معناه : صلّ لذكري ، وقيل معناه : وأقم الصلاة عند ذكرك لي ، وبشهاد لهذا الثاني ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قد قال : وأقم الصلاة لذكري » ^(٢) . وفي الصحيحين عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصلّيها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك » ^(٣)

وقوله تعالى : ﴿ إن الساعة آتية ﴾ : أي قائمة لا محالة وكائنه لا بد منها . وقوله ﴿ أكاد أخفيها ﴾ قال ابن عباس : أي لا أطلع عليها أحداً غيري ، وقال السدي : ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا قد أخفى الله تعالى عنه علم الساعة ، وهي في قراءة ابن مسعود : إني أكاد أخفيها من نفسي ، يقول : كتمتها من الخلائق ، حتى لو استطعت أن أكنمها من نفسي لفعلت . قال قتادة : لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ومن الأنبياء والمرسلين ، قلت وهذا كقوله تعالى : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ ، وقال : ﴿ ثقلت في السموات والأرض

(١) قاله علي بن أبي طالب وغير واحد من السلف .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أنس بن مالك .

(٣) أخرجه الشيخان عن أنس أيضاً .

لا تأتیکم إلا بغتة ﴿١٧﴾ أي ثقل علمها على أهل السماوات والأرض. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لنجزی کل نفس بما تسعی﴾ أي أقيمها لا محالة؛ لأجزی کل عامل بعمله ﴿١٨﴾ فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿١٩﴾، وإنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿٢٠﴾، وقوله: ﴿فلا یصدنک عنها من لا یؤمن بها﴾ الآية. المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذ في دنياه وعصى مولاہ، واتبع هواہ، فن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿٢١﴾ فردی: أي تهلك وتعطب، قال الله تعالى: ﴿وما یغني عنه ماله إذا تردى﴾.

وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسِبَ عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَاهَا يَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام، ومعجزة عظيمة وخرق للعادة باهر دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وقوله ﴿وما تلك يمينك يا موسى﴾ قال بعض المفسرين إنما قال له ذلك على سبيل الإناس له؛ وقيل وإنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن، ﴿وما تلك يمينك يا موسى؟ استفهام تقرير،﴾ قال هي عصاي أتوكأ عليها ﴿أي اعتمد عليها، في حال المشي،﴾ وأهش بها على غنمي ﴿أي أهر بها الشجرة لبتساقط ورقها لترعاه غنمي، قال الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن في الفصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش ولا يخط، وقوله: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ أي مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ألقها يا موسى﴾ أي هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها، ﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾ أي صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تسعى﴾ أي تمشي وتضطرب. عن ابن عباس ﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾، ولم تكن قبل ذلك حية، فرت بشجرة فأكلتها، ومرت بالصخرة فابتلعها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها، فولى مدبراً، ونودي أن يا موسى خذها، ثم نودي الثانية أن خذها ولا تخف، فقيل له في الثالثة إنك من الآمنين، فأخذها. وقال وهب بن منبه: ألقاها على وجه الأرض، ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون، يدب يلتمس كأنه يبغي شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة فيلتقمها، ويطنع بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه تتقدان ناراً، وقد عاد المحجن منها عرفاً، فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً ولم يعقب، فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودي يا موسى أن ارجع حيث كنت، فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال ﴿خذها﴾ يمينك ﴿ولا تخف سنعيداها، سيرتها الأولى﴾، وعلى موسى حينئذ مدرعة من صوف، فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها لف طرف المدرعة على يده، ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب، ثم قبض

فإذا هي عصاه التي عهدا وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها، إذا توكأ بين الشعبين ولهذا قال تعالى ﴿سنبعدها سبirtها الأولى﴾ أي إلى حالها التي تعرف قبل ذلك .

وَأَصْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٣٥﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٣٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٣٨﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٣٩﴾ وَأَخْلَلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٤٠﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٤١﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٤٢﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٤٣﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٤٤﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٤٥﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٤٦﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٤٧﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٤٨﴾

وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه، كما صرح به في الآية الأخرى . وههنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿واصمم يدك إلى جناحك﴾، وقال في مكان آخر: ﴿واصمم إليك جناحك من الرهب فذائك برهانان من ربك إلى فرعون وملكه﴾، وقال مجاهد: ﴿واصمم يدك إلى جناحك﴾ كفك تحت عضدك؛ وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تلالاً كأنها فلقه قمر، وقوله ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي من غير برص ولا أذى، ومن غير شين^١، وقال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل، ولهذا قال تعالى: ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾، وقال وهب، قال له ربه: أدنه، فلم يزل يدينه حتى أسند ظهره بجذع الشجرة فاستقر، وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده في العصا وخضع برأسه وعنقه. وقوله ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾: أي اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خرجت فاراً منه وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبنى وآثر الحياة الدنيا ونسي الرب الأعلى. قال وهب بن منبه: قال الله لموسى: انطلق برسالتى فإنك بسمعي وعيني، وقد ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري، فأنت جند عظيم من جندي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر نعمتي وأمن مكري، وغرته الدنيا عني، حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي، وزعم أنه لا يعرفني فأني أقسم بعزتي لولا القدر الذي وضعت بيني وبين خلقي، لبطشت به بطشة جبار، بغضب لغضبه السماوات والأرض والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان عليّ وسقط من عيني، ووسع حلمي واستغفيت بما عندي وحقي، إني أنا الغني لا غني غيري، فبلغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وذكره أيامي، وحذره من تقمتي وبأسي، وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، وأخبره أنني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدي، أفيظن الذي يحاربني أن يقوم لي، أم يظن الذي يعاديني أن يعجزني، أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني^٢

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من كلام وهب بن منبه ، و هو طويل اقتصرنا على بعضه .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم كفراً وأكثرهم جنوداً، وأبلغهم تمرداً، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه فهرب منهم، هذه المدة بكاملها، ثم بعد هذا بعث ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ أي إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري وإلا فلا طاقة لي بذلك ﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدس الحاجة، ولو سأل الجميع لزال ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت. قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي يفصح بالكلام، وقال الحسن البصري ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ قال: حلّ عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي، وقال ابن عباس: شكّا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتل، وعقدة لسانه فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له رداءاً ويتكلم عنه بكثير مما يفصح به لسانه، فأتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه.

وقوله تعالى: ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخِي ﴾، وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له، قال ابن عباس: نبى هارون ساعته حين نبى موسى عليهما السلام. روي عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فترلت ببعض الأعراب فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: لا ندري، قال أنا والله أدري! قالت، فقلت في نفسي في حلفه لا يستثنى، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: (موسى) حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله^(١). وقوله ﴿ اشدّد به أزري ﴾ قال مجاهد: ظهري، ﴿ وأشركه في أمري ﴾ أي في مشاورتي، ﴿ كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وقوله: ﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ أي في اصطفاك لنا وإعطائك إيانا النبوة وبعثك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

قَالَ قَدْ أُوتِيتُ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ آمَاكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْتَابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي آلِيهِ فَلْيُلْقِهِ الَّتِمُّ بِالْإِسْحَاحِ يَا خُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلَهُ ۚ وَالْقُبْتُ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَفَتَلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا

هذه إجابة من الله لوسوله موسى عليه السلام، فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكير له بنعمه السالفة عليه، فيما

كان من أمر أمه، حين كانت ترضعه وتحذر عليه، من فرعون وملكه أن يقتلوه، حيث كانوا يقتلون العلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى، فحكم الله - وله السلطان العظيم والقدرة التامة - أن لا يرسي إلا على فراش فرعون، ويفذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له، ولهذا قال تعالى ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ ۖ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي عدوك جعلته يحبك، قال سلمة بن كهيل ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ قال: حببتك إلى عبادي، ﴿وَلَتَصْنَعُ عَلَيَّ عَيْنِي﴾: تربي بعين الله، وقال قتادة: تغذى على عيني، وقال ابن أسلم: يعني أجعله في بيت الملك ينعم ويترف، وغذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلک الصنعة. وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، وعرضوا عليه المراضع فأبأها، قال الله تعالى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرْضَاعَ مِن قَبْلُ﴾، فجاءت أخته، وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة، فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجزل، ولهذا جاء في الحديث: «مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»، وقال تعالى ههنا: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي عليك، ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعني القبطي ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين، وقوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾.

(حديث الفتون): روى الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي في سننه، عن سعيد بن جبير، قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾، فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا أبا جبير، فإن لها حديثاً طويلاً، فلما أصبحت غلوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أبناء وملكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام، فقال فرعون: كيف ترون؟ فأتهموا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل، فلا يحملون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: ليوشكن أن تقتلوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر واتركوا بناتهم، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثرُوا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكائرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون، وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه العلمان، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون يا ابن جبير، ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به

فأوحى الله إليها أن لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في النهر، فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها أبناؤها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت

باني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إليّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه، فاتهى الماء به حتى أوفى به عند مرفعة مستقى جوارى امرأة فرعون، فلما رأيته أخذته فأردن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهم إن في هذا مالا، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملنه كهيمته لم يخرج منه شيئا، حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأته غلاما، فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليدبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير. فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل، حتى آتت فرعون فاستوبه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بدبحه لم أملك، فأتت فرعون فقالت: قره عين لي ولك، فقال فرعون: يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه، فقال رسول الله ﷺ: «والذي يَحْلِفُ به لو أقر فرعون أن يكون قره عين له كما أقرت امرأته لهذا الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك». فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها، لأن تختار له ظئرا، فجعل كلما أخذته امرأة منهم لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق وجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئرا تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهأ فقالت لأختها: قصي أثره واطليه، هل تسمعين له ذكرا، حي ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد، وهو إلى جنبه، وهو لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظنرات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نصحهم له، هل تعرفينه؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتم في صهر الملك، ورجاء منفعة الملك، قتركوها فانطلقت إلى أمها فأخبرت الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعت في حجرها نزا إلى ثديها، ففصه حتى امتلأ جنبها ربا، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرا، فأرسلت إليها فأنت بها وبه. فلما رأت ما يصنع بها، قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئا حبه قط، قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آله خيرا، فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز وعده، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتا حسنا، وحفظه لما قد قضى فيه. فلم يزل بنو إسرائيل، وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم.

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أزيريني ابني، فوعدها يوما تزيرها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظهورها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة، لأرى ذلك، وأنا باعثة أمينا يحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها بجلته وأكرمه وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحله وليكرمه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون فدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى

الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير . بعد كل بلاء ابتلي به، وأريد به فتوناً، فجاءت امرأة فرعون فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا تريته يزعم أنه يصرعني ويعلونني، فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً يعرف الحق به، اثبت بجمرتين ولؤلؤتين، فقدمهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين، وهو يعقل، ففرد إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين، فانترعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد هم به، وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشده، وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضباً شديداً لأنه تناوله، وهو يعلم مترلته من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره، فوكر موسى الفرعوني فقتله، وليس يراها أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: هذا من عمل الشيطان إنه علو مضل مبين، ثم قال: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾، فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم، فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم، فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبناً إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه، وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم إنك لغوي مبين، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له إنك لغوي مبين، أن يكون إياه أراد ولم يكن أرادته إنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي وقال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقته فتاركا، وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر، حين يقول: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس. فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيتهم، يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاخترع طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تلقوان ﴿يعني بذلك حابستين غنهما، فقال لهما: ما خطبكما معترلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم، وإنما نسقي من فضول حياضهم، فسقى لهما، فجعل يعترف في الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا بفنهما إلى أبيهما وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رب إني لمسا أنزلت

إِلَىٰ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٣٦﴾، واستنكر أبوهما سرعة صدورهما، بغنمهما حقلاً بطاناً، فقال: إن لكما اليوم لشأناً، فأخبرناه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأنت موسى فدعته، فلما كلمه، قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ فاحتلمته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته، وما أمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى نساء، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إليّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنني امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت، فقال له: هل لك أن أنحكك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج، فإن أتممت عشراً فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين، ففعل، فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة، وكانت ستتان عدة ففضى الله عنه عدته فأتمها عشراً. قال سعيد بن جبير: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم، قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدري، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانياً كانت على نبي الله واجبة لم يكن نبي الله ليقص منها شيئاً، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي كان وعده، فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك، قلت: أجل وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى ما يحذر من آل فرعون في القتل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون ليكون له ردهم يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فأثابه الله سؤاله وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون عليه السلام، فانطلقا جميعاً إلى فرعون فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، قال: فمن ربكما؟ فأخبراه بالذي قص الله عليك في القرآن، قال: فما تريدان؟ وذكره القتل فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معنا بني إسرائيل. فأبى عليه، فقال: ائت بآية إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فافتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني من غير برص، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول، فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا له: هذان ساحران يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى، يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع لهما السحرة، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما، فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات، قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحيال والعصي الذي نعمل فما أجرنا إن نحن غلبناه؟ قال لهم: أتم أقاربي وخاصتي وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير فحدثني ابن عباس: أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة

هو يوم عاشوراء . فلما اجتمعوا في صعيد واحد، قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿ فلما نبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ يعنون موسى وهارون، استهزاء بهما ﴿ فقالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ قال بل ألقوا، فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴿، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك، فلما ألقتها صارت ثعباناً عظيماً فاغراً فاه فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جزراً إلى الثعبان تدخل فيه، حتى ما أبقّت عصاً ولا جبلاً إلا ابتلعت، فلما عرف السحرة ذلك قالوا : لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكن هذا أمر من الله عز وجل، آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله ونتوب إلى الله بما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون ﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾، وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فن رآها من آل فرعون ظن أنها ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه وإنما كان حزنها وهما لموسى .

فلما طال مكث موسى بمواعد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده، وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه : الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ويوائقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه أخلف موعده ونكث عهده، حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين، فقتله بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التقي على من بقي بعد من فرعون وأشياعه، فنتسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً لله . فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسى : إنا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال : وعدني ربي إذا أتيت البحر انفلق اثنتي عشرة فرقة، حتى أجازه، ثم ذكر بعد ذلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفلق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه، التقي عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه : إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا تؤمن بهلاكه، فدعاه ربه فأخرجه له بيده حتى استيقنوا بهلاكه .

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لم ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لم إلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه ﴾ الآية : قد رأيتم من العبر، وسمعتم ما يكفيكم، ومضى فأنزلهم موسى منزلاً، وقال : أطيعوا هارون فإنني قد استخلفته عليكم فإني ذاهب إلى ربي، وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه ثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه، ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فضغه، فقال له ربه حين أتاه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذي كان ! قال : يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفي طيب الريح، قال : أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، ارجع فصح عشرين . ثم اثنتي . ففعل موسى عليه السلام ما أمر به، فلما رأى قومه أنه لم

يرجع إليهم في الأجل ساءم ذلك، وكان هارون قد خطبهم، وقال: إنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوار وودائع ولكم فيهم مثل ذلك، فإني أرى أنكم تحسبون مالكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا غارية، ولنا برادين إليهم شيئاً من ذلك. ولا ممسكية لأنفسنا، فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقدفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقته، فقال: لا يكون لنا ولا لهم. وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا. فقصي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فر بهارون، فقال له هارون عليه السلام: يا سامري إني تلقي ما في يدك وهو قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، لا ألقبها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد، فألقاها ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجباً، فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجباً أجوف ليس فيه روح وله خوار! قال ابن عباس: لا والله ما كان له صوت قط إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه، وكان ذلك الصوت من ذلك، ففرق بنو إسرائيل فرقاً؛ فقالت فرقة: يا سامري ما هذا وأنت أعلم به؟ قال هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق، فقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم تكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا، وإن لم يكن ربنا، فإنا نتبع قول موسى، وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان، وليس بربنا، ولا تؤمن ولا تصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل، وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون: ﴿يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾، قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً، ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت، وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه يتبعه.

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده، ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾، فقال لهم: ما سمعتم في القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له وانصرف إلى السامري، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم ﴿فبذتها وكذلك سولت لي نفسي﴾، قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس، وإن لك موعداً لن تخلفه، وانظر إلى إلّك الذي ظلت عليه عاكفاً، لنحرقه ثم لننصفه في الهم نسفاً. ولو كان إلّاً لم يخلص إلى ذلك منه، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فيكفر عنا ما عملنا، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك لا يألو الخير، خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض فاستجيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾؟ وفيهم من كان الله أطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾، فقال: يا رب سألتك التوبة لقومي فقلت إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، هلا أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد، فيقتله

بالسيف ولا يبالي في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي أمرهم على موسى وهارون، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول .

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكنت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمرهم به أن يبلغهم من الوظائف . فنقل ذلك عليهم وأبوا أن يقرأوا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيامهم وهم مصغون، ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقتهم خلق منكر، وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها، فقالوا: يا موسى ! إن فيها قوماً جبارين لا طاقة لنا بهم ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإننا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون: قيل ليزيد هكذا قرأت ؟ قال: نعم من الجبارين آمنا بموسى، وخرجنا إليه، قالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. ويقول أناس: إنهم من قوم موسى، فقال الذين يخافون بنو إسرائيل : ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ، فأغضبوا موسى فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم، حتى كان يومئذ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين، وحرماً عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار، وظلل عليهم الغمام في الليله وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبل ولا تسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عنهم التي يشربون منها فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس^(١)

فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُوسَى ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِعَايَتِي وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى ﴿٤٤﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: إنه لبث مقبلاً في أهل مدين فأرأ من فرعون وملكه، يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والامر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء، ولهذا قال: ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ قال مجاهد: أي على موعد، وقال قتادة: على قدر الرسالة والنبوة، وقوله: ﴿ واصطفتك لنفسي ﴾ أي اصطفتك واجتيتك رسولاً لنفسي، أي كما

(١) أخرجه النسائي في سننه وابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما، قال ابن كثير: وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليل منه وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيع نقله من الإسرائيليات .

أريد وأشاء، روى البخاري عند تفسيرها عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فوجدته مكتوباً عليّ قبل أن يخلفني؟ قال: نعم، فحج آدم موسى»^(١) وقوله ﴿أذهب أنت وأخوك بآياتي﴾ أي بحججي وبراهيني ومعجزاتي ﴿ولا تنبأ في ذكري﴾ قال ابن عباس: لا تبطنأ، وقال مجاهد عن ابن عباس: لا تضعفا، والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له كما جاء في الحديث: «إن عبيدي كل عبيدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه»، وقوله ﴿أذهباً إلى فرعون إنه طغى﴾ أي تمرد وعتا، وتجبر على الله وعصاه، ﴿فقلوا له قولاً لبناً﴾ لعله يتذكر أو يخشى ﴿هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وعو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، وعن الحسن البصري﴾ ﴿فقلوا له قولاً لبناً﴾ أعذرا إليه، قولاً له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة ونارا، والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، وقوله ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يخشى - أي يوجد طاعة من خشية ربه - كما قال تعالى: ﴿لمن أراد أن يذكر أو يخشى﴾ فالتذكر الرجوع عن المحذور، والخشية تحصيل الطاعة، وقال الحسن البصري: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن اعذر إليه.

قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَتِيَاهُ قَوْلًا إِنَّ أَرْسُولًا مِنْ رَبِّكَ فَارْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِغَايَةِ مَن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ أَهْدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام: أنهما قالَا مستجيرين بالله تعالى شاكرين إليه ﴿إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك، قال عبد الرحمن بن زيد ﴿أن يفرط﴾ يعجل، وقال مجاهد: يسلط علينا، وقال ابن عباس ﴿أو أن يطغى﴾ يعتدي ﴿قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى﴾ أي لا تخافا منه فإني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني، وأنا معكم بحفظي ونصري، وتأبيدي. ﴿فأتياه قولا إنا رسولا ربك﴾ قد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس، أنه قال: مكثا على بابه حيناً لا يؤذن لهما، حتى أذن لهما بعد حجاب شديد. وقوله ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ أي بدلالة ومعجزة من ربك، ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ أي والسلام عليك إن اتبعت الهدى، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله «بسم الله الرحمن الرحيم». من محمد رسول الله إلى هرقل

عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤذك الله أجره مرتين، ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾. إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴿أي قد أخبرنا الله فيها أوحاه إلينا من الوحي المعصوم، أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا﴾. فإن الجحيم هي المساوى، وقال تعالى: ﴿فأنذرناكم ناراً تلتظى﴾. لا يصلها إلا الأشقي. الذي كذب وتولى، وقال تعالى ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى﴾ أي كذب بقلبه وتولى بفعله.

* قَالَ فَن رَّبُّكَ يَمُوسَى ﴿٥٥﴾ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥٧﴾ قَالَ عَلَيْهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون، أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق ﴿قال فن ربك يا موسى﴾ أي الذي بعثك وأرسلك من هو ؟ فإني لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيري ﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ قال ابن عباس: يقول خلق لكل شيء زوجة، وعنه: جعل الإنسان إنساناً والحصاة حماراً والشاة شاة. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته، وسوى خلق كل دابة. وقال سعيد بن جبير في قوله ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ قال: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهياً كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في المخلوق والرزق والنكاح، ﴿قال فما بال القرون الأولى﴾ ؟ أصح الأقوال في معنى ذلك، أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله، هو الذي خلق وزرق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي الذين لم يعبدوا الله، أي فما بالهم إذ كان الأمر كذلك، لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره، فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزىهم بعملهم في كتاب الله وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمار، ﴿لا يضل ربِّي ولا ينسى﴾ أي لا يسهو عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئاً، يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتقدس، فإن علم المخلوق يعتره نقصان أحدهما عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فتره نفسه عن ذلك.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَوَسَّلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٩﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٦٠﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٦٢﴾

هذا من تمام كلام موسى فيها وصف به ربه عز وجل، حين سأله فرعون عنه فقال: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهدياً﴾ أي قراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها، وتساغرون على ظهرها، ﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ أي جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها

كما قال تعالى: ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون﴾، ﴿وأزلنا من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ أي من أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو ومر، وسائر الأنواع، ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ أي شيء ل طعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً وبيساً، ﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي لدلالات وحججاً وبراهين، ﴿لأولي النهى﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة، ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ أي من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، وفيها نعيدكم أي وإليها تصيرون إذا متم وبلغتم ومنها نخرجكم تارة أخرى، ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبتم إلا قليلاً﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾، وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر، وقال: منها خلقناكم، ثم أخذ أخرى وقال: وفيها نعيدكم، ثم أخرى وقال: ومنها نخرجكم تارة أخرى، وقوله: ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى﴾، يعني فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعابن ذلك وأبصره فكذب بها وأبأها كفرأ وعناداً وبغياً، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ الآية.

قَالَ أَجِئْنَا لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأَيَّدَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سَوْى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون: أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك وتكاثرتنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك فلا يفرنك ما أنت فيه ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾ أي يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فتعارض ما جئت به بما عندنا من السحر، في مكان معين ووقت معين، فعند ذلك ﴿قال﴾ لم موسى ﴿موعدكم يوم الزينة﴾^(١)، وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماع جميعهم، ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وأن يحشر الناس﴾ أي جميعهم ﴿ضحى﴾ أي ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجل وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويح، ولهذا لم يقل: ليلاً، ولكن نهراً، ضحى، قال ابن عباس: وكان يوم الزينة، يوم عاشوراء، وقال السدي: كان يوم عيدهم. قلت: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده. كما ثبت في الصحيح، وقال وهب ابن منبه، قال فرعون: يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه، قال موسى: لم أؤمر بهذا، إنما أمرت بمناجرتك إن أنت لم تخرج دخلت إليك، فأوحى الله إلى موسى: أن اجعل بينك وبينه أجلاً، وقل له أن يجعل هو، قال فرعون اجعله إلى أربعين يوماً ففعل، وقال مجاهد وقتادة ﴿مكاناً سوى﴾ منصفاً، وقال السدي عدلاً، وقال عبد الرحمن بن زيد: مستو بين الناس، وما فيه لا يكون صوت ولا شيء، يتغيب بعض ذلك عن بعض، مستو حين يرى.

(١) روي عن ابن عباس أنه يوم عاشوراء، أخرجه ابن أبي حاتم.

فَقُولَ فِرْعَوْنُ لَجَمْعَ كَيْدِهِ ۖ ثُمَّ أَنَّى ۖ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ۚ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ۖ ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ۖ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ ۚ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ۖ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ۖ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون: أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معينين، تولى: أي شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافعاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وقال فرعون اتوني بكل ساحر عليم﴾، ثم أتى: أي اجتمع الناس، لملاقات يوم معلوم: وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئاً على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقفت السحرة بين يدي فرعون صفوفاً وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه وهو يعدم ويمنيهم، يقولون ﴿أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين. ﴿قال هم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً﴾ أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وإنها مخلوقة وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتهم على الله. ﴿فيسحتكم بعذاب﴾ أي يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له، ﴿وقد خاب من افترى﴾ فتنازعوا أمرهم بينهم ﴿قيل: معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقاتل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي، وقائل يقول: بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿وأسرُوا النجوى﴾: أي تناجوا فيما بينهم، ﴿قالوا إن هذان لساحران﴾ وهذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ ﴿إن هذين لساحران﴾، والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون موسى وهارون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده فينصرا عليه، ويخرجاكم من أرضكم، وقوله: ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ أي ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلناكم وأخرجاكم من الأرض وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم، وقد تقدم في حديث الفتون أن ابن عباس قال في قوله ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش، وعن علي في قوله ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ قال: يصرفا وجوه الناس إليهما^(١)، وقال مجاهد ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ قال: أولو الشرف والعقل والأسنان. ﴿فأجمعوا كيدكم ثم أتوا صفاً﴾ أي اجتمعوا كلكم صفّاً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وقد أفلح اليوم من استعلی﴾ أي منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك، العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

قَالُوا يَسْمُومَصَّى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ تُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِمَّا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَنْتَ ﴿٦٩﴾ فَالْتَمَسَ السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام أنهم قالوا لموسى ﴿٦٥﴾ إِمَّا أَنْ تُلْقَى: أي أنت أولاً، ﴿٦٦﴾ وإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى: أي أنتم أولاً لئلا نرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلبة أمرهم، ﴿٦٧﴾ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ تُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى: وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿٦٨﴾ قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، وقال تعالى: ﴿٦٩﴾ سَحَرُوا عَيْنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ، وقال ههنا: ﴿٧٠﴾ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ تُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى.

وذلك أنهم أودعوها من الرثيق ما كانت تتحرك بسببه، وتضطرب وتعيد بحيث يخيل للناس أنها تسعى باختيارها، وإمّا كانت حيلة، وكانوا جماعاً غفيراً وجمعاً كثيراً، فألقى كل منهم عصاً وحبلًا حتى صار الوادي ملآن حبات يركب بعضها بعضاً، وقوله: ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى: أي خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم، ويغترون بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة، أن ألق ما في يمينك يعني عصاك فإذا هي تلقف ما صنعوا، وذلك أنها صارت تنيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلقفته وابتلعتها، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهره نهاراً ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان ووقع الحق وبطل السحر، ولهذا قال تعالى: ﴿٦٩﴾ إِمَّا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ، ولا يفلح الساحر حيث أتى، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، ولهذا قال ابن عباس: كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة، قال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً، وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً. قال الأوزاعي: لما سحر السحرة سجداً رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها. قال وذكر عن سعيد بن جبير قوله ﴿٧٠﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدًا: قال: رأوا منازلهم تين لهم وهم في سجودهم.

قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيَاتُ أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِمَّا تَقْضِ هَذِهِ الْحَبْوَةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لَبِغْفَرٍ

لَنَا خَطِيئَاتٌ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه، ومكابرتة الحق بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة، والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم، وغلب كل الغلب، شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة قهدهم وتوعدهم، وقال ﴿آمنتم له﴾ أي صدقتموه ﴿قيل أن أذن لكم﴾ أي وما أمرتكم بذلك، واتفقتم علي في ذلك، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ أي أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علي وعلى رعيتي لتظهروه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إن هذا لمركر مكرنموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾، ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي لأجعلنكم مثله، ولأقتلنكم ولأشهرنكم. ﴿ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى﴾ أي أنتم تقولون إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات﴾ أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿والذي فطرنا﴾ يعنون لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لأنك ﴿فافض ما أنت قاض﴾ أي فافعل ما شئت، وما وصلت إليه يدك ﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ أي إنما لك تسلط في هذه الدار، وهي دار الزوال، ونحن قد رغبتنا في دار القرار، ﴿إنا آمنة بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾ أي ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر، لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالقرماء، وقال علموهم تعليلاً لا يعلمه أحد في الأرض، قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم من الذين قالوا: ﴿آمنة بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر﴾^(١). وقوله: ﴿والله خير وأبقى﴾ أي خير لنا منك ﴿وأبقى﴾ أي أدام ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا، وقال محمد بن كعب القرظي ﴿والله خير﴾: أي لنا منك إن أطيع ﴿وأبقى﴾: أي منك عذاباً إن عصي، والظاهر أن فرعون لعنه الله صمم على ذلك وفعله بهم رحمة لهم من الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسا شهداء بررة.

* إِنَّهُ، مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم

السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد، فقالوا ﴿إنه من بات ربّه مجرماً﴾ أي يلقي الله يوم القيامة وهو مجرم ﴿فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾، كقوله: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور﴾. عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم، فميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً وأذن في الشفاعة جيء بهم ضباطر ضباطر، فبثوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة اقْبِضُوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل»، فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية^(١). وقوله تعالى: ﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات﴾ أي ومن لقي ربّه يوم المعاد، مؤمناً القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ أي الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمات والمساكن الطيبات، عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس^(٢)»، وفي الصحيحين: «إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم - قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء؟ قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»، وفي السنن وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعماء، وقوله: ﴿جنات عدن﴾ أي إقامة وهي بدل من الدرجات العلى ﴿تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ما كثرين أبداً ﴿وذلك جزاء من تركي﴾ أي طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، واتبع المرسلين فيها جاءوا به من خير وطلب.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى ۚ ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَفَشَّيْتُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيْتُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى مغبراً: أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون، وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا دواع ولا حبيب، فغضب فرعون غضباً شديداً، وأرسل من يجمعون له الجند من بلدانه، ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه، ساق في طلبهم فاتبعوهم مشرقين، أي عند طلوع الشمس، ﴿فلما تراءى الجمعان﴾: أي نظر كل من الفريقين إلى الآخر، ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴿ووقف ببني إسرائيل أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿أن اضرب لهم طريقاً في البحر يبساً﴾ فضرب البحر بعصاه، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، أي الجبل العظيم، فأرسل الله الريح على أرض البحر، فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض، فلهذا قال ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً﴾: أي من فرعون ﴿ولا تخشى﴾ يعني من البحر أن يغرق قومك، ثم قال تعالى ﴿فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم﴾: أي البحر ﴿ما غشيهم﴾ وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور كما قال تعالى ﴿والمؤنكة أهوى فغشاها ما غشى﴾.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد والترمذي.

(١) الحديث رواه مسلم والإمام أحمد.

يَنْبِيَّ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَتَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلْوى ﴿٨٠﴾
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي
لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾

يذكر تعالى نعمه - على بني إسرائيل - العظام، ومنته الجسم، حيث أنجاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه، وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾. عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسألم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصومه»^(١)، ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون، جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل، كما يقصه الله تعالى قريباً، وأما المن والسلى فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها، فالمن حلوى كانت تتزل عليهم من السماء، والسلى طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قنر الحاجة إلى الغد لطفاً من الله ورحمة بهم وإحساناً إليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي كلاً من هذا الرزق الذي رزقناكم ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالقوا ما أمرتكم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي أغضب عليكم، ﴿وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ أي فقد شقي، وقوله ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي كل من تاب إلى تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل، وقوله تعالى ﴿تَابَ﴾ أي رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق، قوله ﴿وَآمَنَ﴾ أي بقلبه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي بجوارحه، وقوله ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ عن ابن عباس: أي ثم لم يشكك، وقال سعيد بن جبيرة ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾: أي استقام على السنة والجماعة^(٢)، وقال قتادة ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾: أي لزم الإسلام حتى يموت، و «ثم» ههنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

* وَمَا أَجْعَلُكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفُطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَنْتَرَجَ

(١) الحديث أخرجه الشيخان عن ابن عباس .

(٢) وروى نحوه عن مجاهد والضحك وغير واحد من السلف .

لَهُمْ عِجْلًا جَدًّا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون، وواعد ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشرًا فتمت أربعين ليلة، أي يصومها ليلاً ونهاراً، وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك، فسارع موسى عليه السلام مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ قال هم أولاء على أثري ﴿أي قادمون يتزلون قريباً من الطور﴾، وعجلت إليك رب لترضى ﴿أي لترداد عني رضا﴾، قال فإنما قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري، أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري، وقوله ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا﴾ أي رجع بعد ما أخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحق عليهم، والأسف: شدة الغضب، وقال مجاهد ﴿غضبان أسفا﴾؛ أي جزعاً، وقال قتادة والسدي: أسفاً حزيناً على ما صنع قومه من بعده، ﴿قال يا قوم ألم بعدكم ربكم وعداً حسناً﴾ أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أيادي الله، ﴿أفطال عليكم العهد﴾ أي في انتظار ما وعدكم الله ونسيان ما سلف من نعمه ﴿أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم﴾ «أم» ههنا بمعنى بل، هي للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثاني؛ كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي، قالوا - أي بنو إسرائيل، في جواب ما أنبههم موسى وقرعهم - ﴿ما أخلفنا موعدك بملكنا﴾ أي عن قدرتنا واختيارنا، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر، ﴿فقدنفاها﴾ أي ألقيناها عنا، ودعا السامري أن يكون عجلاً، فكان عجلاً ﴿له خوار﴾ أي صوت، استدراجاً وإمهالاً ومحنة واختباراً ولهذا قال: ﴿فكذلك ألقى السامري﴾ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار .

عن ابن عباس، أن هارون مر بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضرك ولا ينفع، فقال هارون: اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه، ومضى هارون وقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور، فخار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم، وقال السدي: كان يخور ويمشي، فقالوا: أي الضلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه ﴿هذا إليكم وإله موسى فنسي﴾ أي نسيه ههنا وذهب يطلبه، وعن ابن عباس ﴿فنسي﴾ أي نسي أن يذكركم أن هذا إليكم، فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط، قال الله تعالى ردأ عليهم وتقرعاً لهم وبياناً لفصيحته وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً﴾ أي العجل، فلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، أي في دنياهم ولا في آخرهم، قال ابن عباس: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج من فيه فيسمع له صوت، وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهمية أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم، وعبدوا العجل فتورعوا عن الحقير ففعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر، أنه

سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب، يعني هل يصلى فيه أم لا؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: انظروا إلى أهل العراق! قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ، يعني الحسين، وهم يسلون عن دم البعوضة!

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل، وإخباره إياهم إنما هذا فتنة لكم، وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء ققدره تقديراً. ذو العرش المجيد الفعال لما يريد، ﴿فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾: أي فيما أمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه، ﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾: أي لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه وخالفوا هارون في ذلك، وحاربوه وكادوا أن يقتلوه

قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِيَ ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴿٩٤﴾ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٥﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلاً عند ذلك غضباً، وألقى ما كان في بده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يحمله إليه، فقال: ﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن﴾ أي فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع ﴿أف عصيت أمري﴾: أي فيما كنت قدمت إليك، وهو قوله: ﴿اخلقني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾، قال ﴿يا ابن أم﴾ ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ﴿يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي﴾ الآية. هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسم، قال ﴿إني خشيت﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم، ﴿ولم ترقب قولي﴾: أي وما راعبت ما أمرتك به، حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له.

* قَالَ قَبَا خَطْبُكَ يَسْمِعِي ﴿٩٦﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٧﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٨﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٩﴾

يقول موسى عليه السلام للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟

عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل باجر، وكان من قوم يعبدون البقر وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسمه (موسى بن ظفر)، وفي رواية عن ابن عباس أنه كان من كرمات، وقال قتادة: كان من قرية سامرا، ﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾: أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول﴾ أي من أثر فرسه، هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين، أو أكثرهم، وقال مجاهد: من تحت حافر فرس جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع، قال مجاهد: نبذ السامري، أي ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلًا جسدًا له خوار، حفيف الريح فيه فهو خواره. وقال ابن أبي حاتم، عن عكرمة: إن السامري رأى الرسول فألقى في روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها في شيء قفلت له كن فكان، فقبض قبضة من أثر الرسول فبيست أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات، وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلي آل فرعون، فقال لهم السامري: إن ما أصابكم من أجل هذا الحلي، فاجمعوه فجمعوه، فأوقدوا عليه فذاب، فرآه السامري، فألقى في روعه: أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه، قفلت كن فكان، فقذف القبضة وقال: كن فكان عجلًا جسدًا له خوار، فقال: ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾، ولهذا قال ﴿فنبذتها﴾ أي ألقيتها مع من ألقى، وكذلك سولت لي نفسي: أي حسنته وأعجبها إذ ذاك ﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾: أي كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس، أي لا تماس الناس ولا بمسوك، ﴿وإن لك موعداً﴾ أي يوم القيامة ﴿لن تخلفه﴾ أي لا محيد لك عنه. وقال قتادة ﴿أن تقول لا مساس﴾ قال: عقوبة لهم، وبقاياهم اليوم يقولون لا مساس: وقوله ﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ قال الحسن: لن تغيب عنه. وقوله ﴿وانظر إلى إلهك﴾ أي معبودك ﴿الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أي أقمت على عبادته يعني العجل، ﴿لنحرقنه﴾ قال السدي: سحله بالمبارد وألقاه على النار، وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحماً ودماً، فحرقه بالنار، ثم ألقى رماده في البحر، ولهذا قال: ﴿ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾. وقوله تعالى: ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾ يقول لهم موسى عليه السلام: ليس هذا إلهكم إنما إلهكم الله الذي لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه عبده، وقوله: ﴿وسع كل شيء علماً﴾ أي هو عالم بكل شيء، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ والآيات في هذا كثيرة جداً

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَلْيَنْتَحِلْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وقد آتيناك من لدنا﴾ أي من عندنا ﴿ذكرًا﴾ وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من

حكيم حميد، الذي لم يعط نبي من الأنبياء كتاباً مثله، ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن منه، وقوله تعالى: ﴿من أعرض عنه﴾ أي كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى من غيره، فإن الله يفضله ويهديه إلى سواء الجحيم، ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾ أي إثماً، كما قال تعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾، وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: ﴿لأنذرکم به ومن بلغ﴾، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له، وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة، ولهذا قال ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً خالدين فيه﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفضاك، ﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ أي بنس الحمل حملهم.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٦﴾ يَخْخَفُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٧﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٨﴾

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال: «قرن ينفخ فيه». وجاء في الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التزم القرن وحتى جبهته وانتظر أن يؤذن له»، فقالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»، وقوله ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقًا﴾، قيل معناه زرق العيون، من شدة ما هم فيه من الأهوال، ﴿يتخافتون بينهم﴾ قال ابن عباس: يتسارون بينهم، أي يقول بعضهم لبعض ﴿إن لبثتم إلا عَشْرًا﴾ أي في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً عشرة أيام أو نحوها. قال الله تعالى: ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾: أي في حال تناجيهم بينهم، ﴿إذ يقول أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: أي العاقل الكامل فيهم ﴿إن لبثتم إلا يوماً﴾: أي لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد، لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد، وكان غرضهم درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة، ولهذا قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾، وقال تعالى: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فأسأل العادين ﴿ولو كنتم تعلمون لآتوكم الباقي على الفاني ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف﴾.

* وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٩﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١١٠﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١١١﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَعِوَجٍ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١١٢﴾

يقول تعالى ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فقل ينسفها ربي نسفا﴾ أي ينهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي بساطاً واحداً، والقاع

هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل الذي لا نبات فيه، والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللائم، ولهذا قال: ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس وغير واحد من السلف ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾: أي يوم يرون هذه الأحوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيناً أمروا بادرُوا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم كما قال تعالى: ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾، وقال ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ وقال محمد القرظي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوى السماء وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد فينبعث الناس الصوت يؤمونه، فذلك قوله: ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾^(١)، وقال قتادة: لا عوج له لا يميلون عنه، وقال أبو صالح: لا عوج له لا عوج عنه، ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ قال ابن عباس: سكنت، وكذا قال السدي، ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ قال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: يعني وطء الأقدام. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ الصوت الخفي، وقال سعيد بن جبيرة: الحديث وسره، ووطء الأقدام، فقد جمع سعيد كلا القولين، وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر وهو مشبه في سكون وخضوع، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾.

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْرَ آلٍ نَحْلِثَ لَهُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

يقول تعالى ﴿ يومئذ ﴾: أي يوم القيامة ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ أي عنده ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾، كقوله: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾. وقوله: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾، وقال: ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « آتي تحت العرش وآخر لله ساجداً، ويفتح عليّ بمحامد لا أحصيها الآن، فيدعني ما شاء أن يدعني ثم يقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع واشفع تشفع، قال: فيحذلي حذاً فأدخلهم الجنة ثم أعود »، فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء. وقوله: ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي يحيط علماً بالخلاق كلهم ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ كقوله: ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾، وقوله: ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلاق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، وهو قم على كل شيء، يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به. وقوله ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾: أي يوم القيامة فإن الله سيؤذي كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء

(١) قال السبلي: الداعي: هو إسماعيل عليه السلام، وهو المنادي المذكور في سورة (ق) في قوله تعالى: ﴿ واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب ﴾.

من الشاة القراء، وفي الحديث: «يقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم». وقوله: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ لما ذكر الظالمين ووعيدهم ثنى بالمؤمنين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون أي لا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، فالظلم الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

يقول تعالى: ولا كان يوم المعاد والجزاء واقعاً لا محالة أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين ﴿١١٣﴾ وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون ﴿١١٣﴾ أي يتركون المسائم والمحارم والفواحش ﴿١١٣﴾ أو يحدث لهم ذكراً ﴿١١٣﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات، ﴿١١٤﴾ فتعالى الله الملك الحق ﴿١١٤﴾ أي تتره وتقدس الملك الحق، الذي وعده حق ووعيده حق، وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل لثلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، وقوله: ﴿١١٤﴾ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ﴿١١٤﴾، كقوله تعالى: ﴿١١٤﴾ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴿١١٤﴾ وثبت في الصحيح عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية يعني أنه عليه السلام كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة حرصه على حفظ القرآن فأرشدته الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لثلا يشق عليه فقال: ﴿١١٤﴾ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴿١١٤﴾ أي أن يجمعه في صدرك ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً، ﴿١١٤﴾ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴿١١٤﴾، وقال في هذه الآية: ﴿١١٤﴾ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ﴿١١٤﴾ أي بل انصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراء بعده، ﴿١١٤﴾ وقل رب زدني علماً ﴿١١٤﴾ أي زدني منك علماً، ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل، وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم انفعني بما علمتني وعلمي ما ينفعني وزدني علماً والحمد لله على كل حال» (١)

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسِيٍّ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَسْأَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْقِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوْسَوْسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَسْأَدُمُ هَلْ أَتُكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجَبَّهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

(١) الحديث أخرجه ابن ماجة والترمذي والبخاري عن أبي هريرة وزاد البخاري في آخره: وأعوذ بالله من حال أهل النار.

عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فني^(١)، وقال مجاهد والحسن: ترك. وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أي امتنع واستكبر، ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعني حواء عليهما السلام، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ أي إياك أن تسعى في إخراجك منها، فتتعب وتعنى وتشقى في طلب رزقك، فانك ههنا في عيش رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة، ﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ إنما قرن بين الجوع والعري لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر، ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ حر الباطن وهو العطش، والصحى حر الظاهر. وقوله: ﴿فَوَسَّوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَازِلٍ﴾ قد تقدم أنه دلّاهما بغرور ﴿وَقَامَ بِهِمَا إِبْنِي لَكَمَا لِمَنِ النَّاصِحِينَ﴾، وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها. وقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لُهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾، روي أن الله خلق آدم رجلاً طويلاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فناداه الرحمن: يا آدم مني نفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا ولكن استحياء، أرايت إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم، فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّكَ لَمَنْعْتَ الْغَوَّاتِ﴾، قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: يترعان ورق التين فيجعلانه على سواتهما، وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي، روى البخاري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «حاج موسى آدم فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه؟ أتلومني على أمر كرهه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو قدره الله عليّ قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى»، وفي رواية لابن أبي حاتم: «احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى. قال موسى: أنت الذي خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك! قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً، فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى؟ قال: نعم، قال: أقتلوني على أن عملت عملاً كتب الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى»^(٣).

قَالَ أَهْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب مرفوعاً، قال ابن كثير: وهو منقطع وفي رفعه نظر.

(٣) الحديث له طرق في الصحيحين والمسانيد، وهذه الرواية لابن أبي حاتم عن أبي هريرة.

وَلَا يَسْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ إِنْ كُنَّا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس اهبطوا منها جميعاً: أي من الجنة كلكم ﴿﴾ بعضكم لبعض عدو ﴿﴾ آدم وذريته، وإبليس وذريته، وقوله: ﴿﴾ فإما يأتينكم مني هدى ﴿﴾ قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان، ﴿﴾ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴿﴾ قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿﴾ ومن أعرض عن ذكري ﴿﴾ أي خالف أمري وما أنزله على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هدايه، ﴿﴾ فإن له معيشة ضنكاً ﴿﴾ أي ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح ل صدره، بل صدره ضيق حرج لضلالة وإن تنعم ظاهره، وليس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة. قال ابن عباس ﴿﴾ فإن له معيشة ضنكاً ﴿﴾ قال: الشقاء. وعنه: إن قوماً ضللاً أعرضوا عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيسته فذلك الضنك. وقال الضحاك: هو العمل السيء والرزق الخبيث. وروى سفيان بن عيينة، عن أبي سعيد في قوله ﴿﴾ معيشة ضنكاً ﴿﴾ قال: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه.

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن في قبره في روضة خضراء ويفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيم أنزلت هذه الآية ﴿﴾ فإن له معيشة ضنكاً ﴿﴾؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تيناً، أتدرون ما التين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون»^(١). وروى البزار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل ﴿﴾ فإن له معيشة ضنكاً ﴿﴾ قال: «المعيشة الضنك الذي قال الله إنه يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة». وقوله: ﴿﴾ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴿﴾ قال مجاهد والسدي: لا حجة له، وقال عكرمة: عمي عليه كل شيء إلا جهنم، ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً كما قال تعالى: ﴿﴾ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ما أوامهم جهنم ﴿﴾ الآية، ولهذا يقول: ﴿﴾ رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴿﴾؟ أي في الدنيا ﴿﴾ قال كذلك أنتك آياتنا فنسيها وكذلك اليوم تنسى ﴿﴾ أي لما أعرضت عن آيات الله وتناسيتها وأعرضت عنها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك، ﴿﴾ فاليوم نساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴿﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلياً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى، عن سعد بن عباد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من رجل قرأ القرآن فأنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم»^(٢)

(١) الحديث رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً وفي رفعه نظر، قال ابن كثير: رفعه منكر جداً.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد عن سعد بن عباد.

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِعَاقِبَتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۝١٢٧﴾

يقول تعالى : وهكذا نجزي المفسرين ، المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿﴾ لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق ﴿﴾ ، ولهذا قال : ﴿﴾ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴿﴾ أي أشد ألماً من عذاب الدنيا ، وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة » .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ۝١٢٨﴾
 ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۝١٢٩﴾ ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝١٣٠﴾

يقول تعالى : ﴿﴾ أفلم يهد لهم ﴿﴾ هؤلاء المكذبين بما جنتهم به يا محمد ، كم أهلكنا من الأمم المكذبة بالرسول قبلهم ، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر ، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية ، التي خلفهم فيها يمضون فيها ، ﴿﴾ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴿﴾ أي العقول الصحيحة والألباب المستقيمة ، كما قال تعالى : ﴿﴾ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ﴿﴾ ، وقال : ﴿﴾ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ﴿﴾ الآية ؛ ثم قال تعالى : ﴿﴾ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴿﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى هؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة ، ولهذا قال لنتيه مسلماً له : ﴿﴾ فاصبر على ما يقولون ﴿﴾ أي من تكذيبهم لك ، ﴿﴾ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ﴿﴾ يعني صلاة الفجر ﴿﴾ وقبل غروبها ﴿﴾ يعني صلاة العصر ، كما جاء في الصحيحين : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ هذه الآية ، وقال رسول الله ﷺ : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها »^(١) . وفي الحديث الصحيح : « أن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه ، وإن أعلاه منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى في اليوم مرتين »^(٢) . وقوله : ﴿﴾ ومن آناء الليل فسبح ﴿﴾ أي من ساعته قتهجده ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء ، وأطراف النهار ﴿﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿﴾ لعلك ترضى ﴿﴾ ، كما قال تعالى : ﴿﴾ ولسوف يعطيك ربك قرضى ﴿﴾ . وفي الصحيح : « يقول الله تعالى : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : إني أعطيتكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

(١) رواه مسلم وأخرجه الإمام أحمد .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد ورواه أصحاب السنن عن عبد الله بن عمر .

وَلَا تَحْدُثْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لتختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور، وقال مجاهد ﴿أزواجا منهم﴾: يعني الأغنياء، فقد أتاك خير مما آتاهم، ولهذا قال: ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾^(١)، وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعا على رمال حصير، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ^(٢) واهية معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: يا رسول الله إن كسرى وقبصر فيها هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه! فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»، فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت له بنفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئا لغد.

عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا»، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض»^(٣). وقال قتادة والسدي ﴿زهرة الحياة﴾: يعني زينة الحياة الدنيا: وقال قتادة ﴿لنفتنهم فيه﴾: لتبليهم، وقوله: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾. وقوله: ﴿لا نسألك رزقا نحن نرزقك﴾ يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، ولهذا قال: ﴿لا نسألك رزقا نحن نرزقك﴾، وقال الثوري: لا نسألك رزقا: أي لا نكلفك الطلب. وقال ابن أبي حاتم، عن ثابت قال: كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله يا أهلاه صلوا، صلوا. قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة. وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك»^(٤). وعن زيد بن ثابت قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»، وقوله ﴿والعاقبة

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وابن مردويه، عن أبي رافع قال: أضاف النبي ﷺ ضيفا، فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقا إلى هلال رجب، فقال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ وسلم فأخبرته، فقال: أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض، فلم أخرج من عنده حتى نزلت الآية: ﴿ولا تمدن عينيك...﴾ كما في الباب.

(٢) صبرة: مجموعة، قرظ: ورق السلم، وهو شجر شائك يستعمل ورقه في ديبج الجلود.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري مرفوعا.

(٤) الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة.

للتقوى ﴿: أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة وهي الجنة لمن اتقى الله، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « رأيت الليلة كأننا في دار (عقبة بن رافع) وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة، وأن ديننا قد طاب ».

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا أَوْ لَرَأَيْنَاهُمْ بَيِّنَةً مِمَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْذَلَ وَنُخْزَى ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مِثْرَبِصٍّ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم ﴿لولا﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية من ربه ؟ أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله . قال الله تعالى: ﴿أو لم تأتاهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو أمي لا يحسن الكتابة ولم يدرس أهل الكتاب، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أو لم يكن لهم أنا أنزلنا عليك الكتاب بتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »^(١)، وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيتها عليه السلام وهو القرآن ، وإلا فله من المعجزات ما لا يحصى ولا يحصر، ثم قال تعالى: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلنا إليك رسولاً﴾ أي لو أننا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ونزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا ﴿ربنا لولا أرسلنا إليك رسولاً﴾ قبل أن تهلكتنا حتى تؤمن به وتنبهه، كما قال: ﴿فتتبع آياتك من قبل أن نذلل ونخزي﴾ ، يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعتون معاندون لا يؤمنون ﴿ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾، كما قال تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾، وقال: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها﴾ الآيتين، ثم قال تعالى: ﴿قل﴾: أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿كل متربص﴾ أي منا ومنكم، ﴿فتربصوا﴾: أي فانتظروا، ﴿فستعلمون من أصحاب الصراط السوي﴾: أي الطريق المستقيم، ﴿ومن اهتدى﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾، وقال: ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾ .

[آخر تفسير سورة طه . والله الحمد والمنة]

(١) أخرجه البخاري ومسلم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ أَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَقْتَرَبَ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَاءً أَمِنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها، روي عن النبي ﷺ ﴿ في غفلة معرضون ﴾ قال: « في الدنيا »^(١). وقال تعالى: ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾. وقال أبو العتاهية

الناس في غفلاتهم ورحا المنية تطحن

وروي عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿ اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾؛ ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال: ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ أي جديد إنزاله ﴿ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾، كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرقوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يُشَبَّ^(٢). وقوله ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ أي

(١) الحديث أخرجه النسائي عن أبي سعيد الخدري .

(٢) أخرجه البخاري بنحوه ، ومعنى لم يُشَبَّ : أي لم يخلط بغيره من الأباطيل والأضاليل .

قائلين فيما بينهم خفية ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر مثلهم فكيف اختص بالوحي دونهم، ولهذا قال ﴿أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر ، فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب ﴿قال ربي يعلم القول في السماء والأرض﴾: أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السماوات والأرض .

وقوله تعالى: ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعد، وقوله: ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء﴾، هذا إخبار عن تغت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن وحيرتهم فيه وضلالهم عنه؛ فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً﴾، وقوله: ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ يعنون كنانة صالح وآيات موسى وعيسى، وقد قال الله: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون﴾ أي ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيها الرسل آية على أيدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴿هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات، والدلائل البينات على أيدي رسول الله ﷺ، ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَسَاءً وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾، وقال تعالى: ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾. وقال تعالى حكاية عن تقدم من الأمم لأنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أبشر يهودنا﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾، أي اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف، هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ وقوله: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾ أي بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمسكون في الأسواق﴾: أي

(١) أخرج ابن جرير عن قتادة قال، قال أهل مكة للنبي عليه السلام: إن كان ما تقول حقاً ويسرك أن تؤمن، فحول لنا الصفا ذهباً، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان ثم ولم يؤمنوا لم ينظروا، وإن شئت استأنيت بقومك. فترلت الآية: ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها﴾ .

قد كانوا بشراً من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾. وقوله: ﴿وما كانوا خالدين﴾ أي في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه، وقوله: ﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ أي الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين، صدقهم الله وعده وفعل ذلك، ولهذا قال ﴿فأتجيناهم ومن نشاء﴾ أي أتباعهم من المؤمنين، ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ أي المكذبين بما جاءت به الرسل.

لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَكَذَلِكَ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى منبأ على شرف القرآن ومحرضاً لهم على معرفة قدره: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم﴾ قال ابن عباس: شرفكم، وقال مجاهد: حديثكم، وقال الحسن: دينكم ﴿أفلا تعقلون﴾: أي هذه النعمة وتلقونها بالقبول، كما قال تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾، وقوله: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة﴾ هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾، وقال تعالى: ﴿وكانين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها...﴾ الآية، وقوله: ﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ أي أمة أخرى بعدهم، ﴿فلما أحسوا بأسنا﴾ أي تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم ﴿إذا هم منها يركضون﴾ أي يفرون هاربين، ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقتم فيه ومساكنكم﴾ هذا تهكم بهم نزرأ، أي قيل لهم نزرأ لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة، قال قتادة: استهزاء بهم ﴿لعلكم تسألون﴾: أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم. ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فأزالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾: أي ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم هيجراًهم^(١) حتى حصدها حصيداً، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَخَذَ لَهْوًا لَأَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُمْ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض بالحق أي بالعدل والقسط، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾، وقوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ هواءً لا نتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾، قال مجاهد: يعني من عندنا، يقول: ﴿وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً﴾. وقال الحسن وقتادة: ﴿لو أردنا أن نتخذ هواءً﴾ الله: المرأة بلسان أهل اليمن، وقال إبراهيم النخعي: ﴿لا نتخذناه﴾ من الحرور العين. وقال عكرمة والسدي: والمراد بالله ههنا الولد، وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأمصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ فتره نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً ولا سبباً عما يقولون من الإفك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزيز أو الملائكة ﴿سبحان الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾، وقوله ﴿إن كنا فاعلين﴾ قال قتادة والسدي: أي ما كنا فاعلين، وقال مجاهد: كل شيء في القرآن «إن» فهو إنكار. وقوله: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل﴾ أي نبين الحق فيدحض الباطل ولهذا قال: ﴿فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ أي ذاهب مضمحل، ﴿ولكم الويل﴾ أي أيها القائلون لله ولد ﴿بما تصفون﴾ أي تقولون وتفترون. ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وله من في السماوات والأرض ومن عنده﴾ يعني الملائكة ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾: أي لا يستكفون عنها كما قال: ﴿لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾، وقوله ﴿ولا يستحسرون﴾ أي لا يتبعون ولا يعملون، ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه كما قال تعالى: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾. وقال محمد بن إسحاق عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأخبار وأنا غلام، فقلت له: أرايت قول الله تعالى للملائكة: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أما يشغلهم عن التسييح الكلام والرسالة والعمل؟ فقال: من هذا الغلام؟ فقالوا: من بني عبد المطلب، قال: فقبل رأسي ثم قال: يا بني إنه جعل لهم التسييح كما جعل لكم النفس، أليس تتكلم وأنت تتنفس وتمشي وأنت تتنفس؟

أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال: ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾ أي يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي لا يقدرين على شيء من ذلك فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفست السماوات والأرض، فقال: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله﴾ أي في السماوات

والأرض ﴿ففسدتا﴾، كقوله تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون﴾، وقال ههنا: ﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ أي عما يقولون إن له ولداً أو شريكاً. وقوله: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه، وعدله ﴿وهم يسألون﴾ أي وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل﴾ يا محمد ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي دليلكم على ما تقولون، ﴿هذا ذكر من معي﴾ يعني القرآن، ﴿وذکر من قبلي﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، ناطق بأنه ﴿لا إله إلا الله﴾ ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، كما قال: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾؟ فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفترة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.

* وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَسْقُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى راداً على من زعم أن له ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب إن الملائكة بنات الله فقال: ﴿سبحانه بل عباد مكرمون﴾ أي الملائكة عباد الله مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلًا، ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ أي لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم فيما أمرهم به بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾، وقوله ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾، كقوله: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، وقوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ في آيات كثيرة في معنى ذلك ﴿وهم من خشيته﴾ أي من خوفه ورهبته ﴿مشفقون﴾ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴿أي ادعى منهم أنه إله من دون الله أي مع الله﴾، فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴿أي كل من قال ذلك وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه كقوله: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾.

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تُمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم، في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات فقال: ﴿أو لم ير الذين كفروا﴾ أي الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره أو يشرك به ما سواه؟ ألم يروا أن السماوات والأرض ﴿كانتا رتقاً﴾ أي كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصقاً متراكماً بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه فجعل السماوات سبعاً والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأطمرت السماء وأثبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ أي أفلأ يؤمنون؟ أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

عن عكرمة قال، سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: رأيتم السماوات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار. وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عمر: أن رجلاً أتاه يسأله عن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما؟ قال: اذهب إلى ذلك الشيخ، فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك، قال، فذهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: نعم، كانت السماوات رتقاً لا تمطر وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر، قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس في تفسير القرآن فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً، وقال عطية العوفي: كانت هذه رتقاً تمطر فأطمرت وكانت هذه رتقاً لا تنبت فأثبتت، وقال سعيد بن جبير: كانت السماء والأرض ملتزمتين فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه، وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعاً كفصل بينهما بهذا الهواء، وقوله ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ أي أصل كل الأحياء. عن أبي هريرة قال، قلت: يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من ماء» قال، قلت: أنبئني عن أمرٍ إذا عملت به دخلت الجنة؟ قال: «أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام»^(١)

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي﴾ أي جبلاً أرسى الأرض بها وثقلها لئلا تميد بالناس أي تضطرب

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد وإسناده على شرط الصحيحين، وأخرج ابن أبي حاتم بعضه .

وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها، لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء، وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات، ولهذا قال ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾: وقوله ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سِبْلًا﴾ أي نغراً في الجبال يسلكون فيها طرقاً، من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، وقوله ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾: أي على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾، والبناء هو نصب القبة كما قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس» أي خمسة دعائم وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب، ﴿مَحْفُوظًا﴾ أي عالياً محروساً أن ينال، وقال مجاهد: مرفوعاً، وقوله ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مَعْضُومُونَ﴾ كقوله: ﴿وَكُنَّا مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي لا يفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلاها ونهارها، من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله، الذي قدرها وسخرها وسيرها، ثم قال منبهاً على بعض آياته ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر، ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ هذه لها نور ينحصرها وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة، قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

* وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ أَخْلَدًا ۖ أَفَلَا يَمِتُّ فَهُمْ أَخْلَدُونَ ﴿٣١﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ وَنَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك﴾ أي يا محمد ﴿الخلد﴾ أي في الدنيا ﴿بل﴾ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، وقوله: ﴿أفائن مت﴾ أي يا محمد ﴿فهم الخالدون﴾؟ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك! لا يكون هذا بل كل إلى الفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وقد روي عن الشافعي رحمه الله أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي ينبغي خلاف الذي مضى نهياً لأخرى مثلها فكأن قد

وقوله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ أي نخبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر

(١) أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: نعي إلى النبي ﷺ نفسه، فقال: «يا رب، فن لأمتي»، فتزلت: ﴿وما جعلنا لبشر﴾ الآية.

ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، قال ابن عباس: ونبلوكم يقول: نبتليكم بالشر والخير فتنة، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر. والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال، وقوله: ﴿وإلينا ترجعون﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم.

وَإِذَا رَأَوْاكَ أَتَيْنَكَ كَفَرُوا إِنْ يَخِذُّوكَ إِلَّا هَزُؤًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ الْهَيْكَلُ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَفَرُوا ﴿٣٦﴾
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَاقٍ سَؤِيرِكُمْ ءَايَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وإذا رأيك الذين كفروا﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿أن يتخذوك إلا هزوا﴾ أي يستهزئون بك ويتقصونك، يقولون ﴿أهذا الذي يذكركم﴾؟ يعني أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿وهم يذكرون﴾ أي وهم كفرون بالله ومع هذا يستهزئون برسول الله كما قال في الآية الأخرى: ﴿وإذا رأيوك أن يتخذوك إلا هزوا﴾ أهذا الذي بعث الله رسولا؟ وقوله: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ كقوله: ﴿وكان الإنسان عجولا﴾ أي في الأمور، والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هنا، أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ لأنه تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: ﴿سأريكم آياتي﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فلا تستعجلون﴾.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ
النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْةٌ فَتَبَهُتْهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ
يَنْظُرُونَ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟ قال الله تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾، وقال في هذه الآية: ﴿حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي لا ناصر لهم، كما قال: ﴿وما لهم من الله من واق﴾، وقوله: ﴿بل تأتيتهم بغة﴾ أي تأتيتهم النار بغة أي فجأة، ﴿فتبهم﴾

(١) أخرج ابن أبي حاتم: عن السدي قال: مر النبي ﷺ على أبي جهل وأبي سفيان وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك، وقال: ما أراك متبهاً حتى يصيبك ما أصاب من غير عهده، فزلت: ﴿وإذا رأيك الذين كفروا﴾ الآية.

أي تدعهم فيستسلمون لها، حائرين لا يدرون ما يصنعون ﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك، ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ مِّنْ قَبْلِكَ خَافَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَأُكُم بَالِيلٍ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ ثم ذكر تعالى نعمته على عبده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلايته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ أي بدل الرحمن يعني غيره، وقوله تعالى ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ استفهام إنكار وتقرع وتوبيخ، أي ألم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما توهموا، لا، ولا كما زعموا، ولهذا قال: ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ أي هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم، وقوله: ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ قال ابن عباس: أي يجارون. وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخير، وقال غيره: ﴿ يصحبون ﴾ يمتنعون .

بَلْ مَتَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْسِلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال: أنهم متعوا في الحياة الدنيا ونعموا، وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء؛ ثم قال واعظاً لهم: ﴿ أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة الرعد، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾، وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر، والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه ؟ وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين ؟ ولهذا قال: ﴿ أفهم الغالبون ﴾ يعني بل هم المغلوبون الأخسرون الأرذلون، وقوله: ﴿ قل إنما أندرکم بالوحي ﴾ أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال، ليس ذلك

إلا عما أوحاه الله إليّ ولكن لا يجدي هذا عن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: ﴿ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينثرون﴾، وقوله: ﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾، أي ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله، ليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا، وقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه، وقوله: ﴿فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾، كما قال تعالى: ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾، وقال: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾، وقال لقمان: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»^(١)، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يقول: أتتكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يارب، قال: أفلك عذر أو حسنة؟ قال: فبهت الرجل، فيقول: لا يارب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فيقول: أحضروه، فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات وفتلت البطاقة، قال: ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم»^(٢)، وقال الإمام أحمد، عن عائشة، أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأشتتهم فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يحبس ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصص لهم منك الفضل الذي بقي قبلك»، فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «ما له لا يقرأ كتاب الله؟ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين» فقال الرجل: يا رسول الله ما أجدر شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم^(٣)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرُ مَبَارَكٍ أَنزَلْنَاهُ أَقَاتُمْ لَّهُمْ مِّنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾

(١) الحديث أخرجه الشيخان وختم البخاري رحمه الله صحيحه بهذا الحديث الشريف .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب . (٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما وبين كتابيهما ولهذا قال: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾، قال مجاهد: يعني الكتاب، وقال قتادة: التوراة حلالها وحرامها وما فرق الله بين الحق والباطل، وقال ابن زيد: يعني النصر، وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام وعلى ما يحصل نوراً في القلوب، وهداية وخوفاً، وإنابة وخشية، ولهذا قال: ﴿الفرقان وضياء وذكر للمتقين﴾ أي تذكيراً لهم وعظة، ثم وصفهم فقال: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾، كقوله: ﴿من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾، وقوله: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾، ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أي خائفون وجلون، ثم قال تعالى: ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿أفأنتم له منكرون﴾ أي أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور ؟

* وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَالِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى عن خليفه إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه كما قال تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾، والمقصود أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل أي من قبل ذلك، وقوله: ﴿وكنّا به عالمين﴾ أي وكان أهلاً لذلك، ثم قال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التمايل التي أنتم لها عاكفون﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيته من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل، فقال: ﴿ما هذه التمايل التي أنتم لها عاكفون﴾: أي معتكفون على عبادتها، قال ابن أبي حاتم: مرّ علي رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التمايل التي أنتم لها عاكفون ؟ لأنّ يس أحدكم جمرأ حتى يطفأ خير له من أن يمسه، ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنع آباءهم الضلال، ولهذا قال: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ أي الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آفتهم ﴿قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعين﴾ ؟ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقول له لعباً أو محقاً فيه فإننا لم نسمع به قبلك، ﴿قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن﴾ أي ربكم الذي لا إله غيره وهو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات، الذي ابتداء خلقهن وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

وَتَاللَّهِ لَا كِيدَ إِلَّا كِيدَ أَنْ تُؤَلَّوْا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُوعًا لَا كَبِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِتِنَا يَا ابْنِ بَرَاهِيمَ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾

ثم أقسم الخليل قسماً أسمع بعض قومه ليكيدهم أصنامهم، أي ليحرضن على أذاهم وتكسیرهم بعد أن يولوا مدبرين أي إلى عيدهم، وكان لهم عيد يخرجون إليه، قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم، فجعلوا يمرّون عليه وهو صريع فيقولون: مه، فيقول: إني سقيم، فلما جاز عاتمتهم وبقي ضعفاؤهم، قال: ﴿تالله لأكيدهن أصنامكم﴾، فسمعه أولئك. وقال ابن إسحاق، عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم وقد كان بالأمس قال: ﴿تالله لأكيدهن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ فسمعه ناس منهم، وقوله: ﴿فجعلهم جذاً﴾ أي حطاماً كسرهما كلها ﴿إلا كبيراً﴾ يعني إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾، وقوله: ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ ذكروا أنه وضع القلوب في يد كبيرهم لعلهم يعتقلون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها، ﴿قالوا من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين﴾؟ أي حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم، من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها، ﴿قالوا من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين﴾ أي في صنيعه هذا، ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ أي قال من سمعه يحلف إنه ليكيدهنهم ﴿سمعنا فتى﴾ أي شاباً يذكرهم يقال له إبراهيم. عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾. وقوله: ﴿قالوا فاتوا به على أعين الناس﴾ أي على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم، هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام، أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم، في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرراً ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟ ﴿قالوا أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ يعني الذي تركه لم يكسره، ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾، وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد.

وفي الصحيحين، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾، وقوله: ﴿إني سقيم﴾. قال: وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه (سارة) إذ نزل منزلاً. فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاءه، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق

إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي، فلما أن دخلت عليه فرأها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأخذ، فذكر مثل المرتين الأولين، فقال: ادعي الله فلا أضرك، فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابيه فقال: إنك لم تأتني بإنسان ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفلت من صلاته وقال: مَهَيْمٌ^(١)، قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر فأخذهني هاجر^(٢)، قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: تلك أمكم يا بني ماء السماء^(٣)

فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي باللامه، فقالوا ﴿إنكم أنتم الظالمون﴾، أي في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ أي ثم أطرقوا في الأرض فقالوا ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾، قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء فقالوا ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾، وقال السدي ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾: أي في الفتنة، وقول قتادة أظهر في المعنى لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً، ولهذا قالوا له ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون وأنت تعلم أنها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾؟ أي إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر فلم تعبدونها من دون الله؟ ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾؟! أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ الآية .

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا الْمَشْكُوكَ إِن كُنْتُمْ قَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

لما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جناه ملكهم

(١) مَهَيْمٌ: كلمة استفهام معناها: ما الخير، ماذا حدث لك .

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة .

فقالوا: ﴿حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً، قال السدي: حتى إن كانت المرأة تعرض فتندر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في جُوبَةٍ^(١) من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد، فلما ألقوه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، روى البخاري عن ابن عباس أنه قال ﴿حسبي الله ونعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»، وروى الحافظ أبو يعلى، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار، قال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك»، ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، وكان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة .

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فلي . ويروى عن ابن عباس قال: لما ألقى إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله، قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله: ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾، قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفت، وقال كعب الأحبار: لم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه، وقال ابن عباس: لولا أن الله عز وجل قال ﴿وسلاماً﴾ لآذى إبراهيم بردها، وقال أبو هريرة: إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار وجده يرشح جبينه قال عند ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم^(٢) . وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ . وقال الزهري: أمر النبي ﷺ بقتله وسماه فويسقا، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفى النار غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم»، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله^(٣)، وقوله: ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾، أي المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك، وقال عطية العوفي: لما ألقى إبراهيم في النار جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه فأحرقته مثل الصوفة .

﴿وَجَبَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾^(٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا إِتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَبَّيْنَاهُ مِنَ الْقُرَى الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلمه الله من نار قومه وأخرجه من بين أظهرهم، مهاجراً إلى بلاد الشام

(١) حفرة من الأرض . (٢) رواه أبو زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجه ابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وفي بعض الروايات أن امرأة دخلت على عائشة فوجدت عندها رمحاً فقالت: ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: تقتل به الأوزاغ، وذكرت الحديث .

إلى الأرض المقدسة منها، عن أبي بن كعب قال: هي الشام، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة، وقال قتادة: كان بأرض العراق، فأتجاه الله إلى الشام، وكان يقال للشام أعقار دار الهجرة، وما نقص من الأرض يزيد في الشام، وما نقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال هي أرض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وبها يهلك المسيح الدجال، وقوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ النافلة: ولد الولد يعني أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، وقال عبد الرحمن ابن أسلم: سألت واحداً فقال: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة، ﴿وكلا جعلنا صالحين﴾ أي الجميع أهل خير وصلاح، ﴿وجعلناهم أئمة﴾ أي يقتدى بهم ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي يدعون إلى الله بإذنه، ولهذا قال: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ من باب عطف الخاص على العام، ﴿وكانوا لنا عابدين﴾: أي فاعلين لما يأمرهم الناس به، وكان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ فاتاه الله حكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى (سلم) وأعمالها فخالقوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز، ولهذا قال: ﴿ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾.

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه. ﴿فدعا ربه أي مغلوب فانتصر﴾، وقال نوح: ﴿رب لا تنر على الأرض من الكافرين دياراً﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله﴾ أي الذين آمنوا به، كما قال: ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾، وقوله: ﴿من الكرب العظيم﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصلون لأذاه ويتواصلون قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على خلافه، وقوله ﴿ونصرناه من القوم﴾ أي ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾، أي أهلكهم الله بعامته، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد كما دعا عليهم نبيهم.

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۖ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخِصَّكُمْ مِنْ بَاسِكُمْ ۖ فَبَلَّ أَنْتُمْ شُرَكَوَتَ ۖ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ ۚ

إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

قال ابن عباس : النفس الرعي ، وقال قتادة : النفس لا يكون إلا بالليل ، والهمل بالنهار ، وعن ابن مسعود في قوله : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ﴾ قال : كرم قد أنبت عناقيده فأفسدته ، قال : ففضى داود بالغنم لصاحب الكرم . فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم ، فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان ، دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾^(١) وروى ابن أبي حاتم ، عن مسروق قال : الحرث الذي نفشت فيه الغنم إنما كان كرمًا فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته ، فأتوا داود فأعطاهم رقابها ، فقال سليمان : لا ، بل تؤخذ الغنم فيعطاهم أهل الكرم ، فيكون لهم لبنها ونفعها ، ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم ، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم .

وقوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً ﴾ قال ابن أبي حاتم : إن (إياس بن معاوية) لما استقضى آتاه الحسن فبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد بلغني أن القضاة : رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة ، فقال الحسن البصري : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم ، قال الله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ فأنشئ الله على سليمان ولم يذم داود ، ثم قال الحسن : إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً : لا يشترؤا به ثمنًا قليلاً ، ولا يتبعوا فيه الهوى ولا يخشوا فيه أحداً ثم تلا : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ ، وقال : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشوني ﴾ ، وقال : ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ . وفي صحيح البخاري عن عمرو ابن العاص أنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » ، وفي السنن : القضاة ثلاثة قاض في الجنة وقاضيان في النار : رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار ، وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « بينا امرأتان معهما ابناهما إذ جاء الذئب ، فأخذ أحدهما الابنين ، فتحاكما إلى داود ، ففضى به للكبرى ، فخرجتا ، فدعاها سليمان ، فقال : هاتوا السكين أشقها بينكما ، فقالت الصغرى : برحمتك الله هو ابنها لا تشقه ، فقضى به للصغرى »^(٢)

وقوله تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ الآية ، وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور ، وكان

(١) أخرجه ابن جرير ، وكذا روي عن ابن عباس .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما وبُوب له النسائي في كتاب القضاء .

إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويباً، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود»، قال: يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبْرته^(١) لك تحبيراً، وقوله: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحصنكم من بأسكم﴾ يعني صنعة الدروع، قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح وهو أول من سردها حلقاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحديد أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي لا توسع الحلقة فتفلق المسار ولا تغلظ المسار فتقعد الحلقة، ولهذا قال: ﴿لنحصنكم من بأسكم﴾ يعني في القتال، ﴿فهل أنتم شاكرون﴾ أي نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود فعله ذلك من أجلكم، وقوله: ﴿ولسليان الريح عاصفة﴾ أي وسخرنا لسليان الريح العاصفة ﴿بمجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ يعني أرض الشام ﴿وكنّا بكل شيء عالمين﴾، وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فيتزل وتوضع آلاته وحشمه، قال الله تعالى: ﴿فسخرنا له الريح بمجرى بأمره رخاء حيث أصاب﴾، عن سعيد ابن جبير قال: كان يوضع لسليان ستمائة ألف كرسي فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من وراءهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتنزلهم، ثم يأمر الريح فتحملهم ﷺ. وقوله: ﴿ومن الشياطين من يغوصون له﴾ أي في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك، ﴿ويعملون عملاً دون ذلك﴾ أي غير ذلك كما قال تعالى: ﴿والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾، وقوله: ﴿وكنّا لهم حافظين﴾ أي يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء، ولهذا قال: ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾.

* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أُنِى مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَبِيدِينَ ﴿٨٤﴾

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده؛ وذلك أنه كان له من اللواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد كثيرة ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره. وقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة، ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كانا بغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل، حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه السلام: ما أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق^(٢)، قال ابن عباس:

(١) حسنته وزينته.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

(٣) رواه ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك مرفوعاً وفي رفعه نظر، كما قال ابن كثير: رفع هذا غريب جداً.

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة، فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترحوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَسَاهِم فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾، فقام يونس عليه السلام ومجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه حوتاً يشق البحار، حتى جاء فالتقم (يونس) حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك تكون له سجنًا، وقوله: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ يعني الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة، وقوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ قال الضحاك: لقومه ﴿فَظَنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي نفِضْتُ^(١) عليه في بطن الحوت، وقال عطية العوفي: أي نقضي عليه، فإن العرب تقول: قدر وقدر بمعنى واحد. ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي قدر، وقوله: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحمى في قراره، فعند ذلك قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وقيل: مكث في بطن الحوت أربعين يوماً، وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيئين إلينا. قال عليه السلام: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء إلا استجاب له»^(٢). وفي الحديث: «من دعا بدعاء يونس استجيب له»، قال أبو سعيد يريد به ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. وعن سعد بن أبي وقاص: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى» قال، قلت: يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس ابن متى خاصة، ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فاستجبنا له ونجيناه من الغم، وكذلك ننجي المؤمنين»، فهو شرط من الله لمن دعاه به^(٣)

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجَهُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً، ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أي خفية عن قومه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للسألة، قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجَهُ﴾ أي امرأته، قال ابن عباس

(١) هذا التفسير مروى عن ابن عباس ومجاهد وغيرهم واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيَقْضِ مَا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أي ضيق عليه في الرزق.

(٢) هذا الحديث جزء من حديث طويل ذكره الإمام أحمد ورواه الترمذي والنسائي.

(٣) أخرجه ابن جرير عن سعيد بن أبي وقاص مرفوعاً ورواه ابن أبي حاتم بمثله.

ومجاهد وسعيد بن جبير : كانت عاقراً لا تلد فولدت ، وقال عطاء : كان في لسانها طول ، فأصلحها الله ، وفي رواية : كان في خلقها شيء فأصلحها الله ، والأظهر من السياق ؛ الأول ، وقوله : ﴿ إِنْهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ : أي في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ قال الثوري : رغباً فيها عندنا ، ورهباً مما عندنا ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ ، قال ابن عباس : أي مصدقين بما أنزل الله ، وقال مجاهد : مؤمنين حقاً ، وقال أبو العالية : خائفين ، وقال الحسن وقتادة والضحاك ﴿ خَاشِعِينَ ﴾ : أي متذللين لله عز وجل ، وكل هذه الأقوال متقاربة . وروى ابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال : أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله ، وتنشوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله عز وجل أننى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنْهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ .

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام ، مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر أولاً قصة زكريا ، ثم يتبعها بقصة مريم ، لأن تلك مربوطة بهذه ، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن ، ومن امرأة عجوز عاقر ، لم تكن تلد في حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم ، وهي أعجب ، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر ، قال تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ^(١) يعني مريم عليها السلام ، كما قال في سورة التحريم : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، وإعما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وهذا كقوله ﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس في قوله : ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ قال : العالمين الجن والإنس .

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ قُلْ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُتُبُونَ ﴿٩٤﴾

قال ابن عباس ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ يقول : دينكم دين واحد ، أي هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضعت لكم . وقال رسول الله ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » ، يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله ، كما قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جُأً ﴾ ، وقوله ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي اختلفت الأمم على رسلها فن بين مصدق لهم ومكذب ، ولهذا قال ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ أي يوم

(١) يراد من الفرج : فرج القميص : أي لم يعلق بثوبها ربية ، أي أنها طاهرة الأثواب ، قال السهيلي : فلا يذهبن وهلك إلى غير هذا من لطيف الكناية ، لأن القرآن أنزه معنى ، وأوزن لفظاً ، وألطف إشارة ، وأملح عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاهلين ، لاسيما والفتح من روح القدس بأمر القدوس ، فأضعف القدس إلى القدوس ونزه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس .

القيامة فيجازي كل بحسب عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولهذا قال ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن﴾ أي قلبه مصدق وعمل عملاً صالحاً ﴿فلا كفران لسيئه﴾، كقوله ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ أي لا يكفر سيئه وهو عمله، بل يشكر فلا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال ﴿وإنا له كاتبون﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء .

وَحَرَّمَ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بَيُولَٰئِنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى : ﴿وحرّم على قرية﴾ قال ابن عباس : وجب، يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة، وفي رواية عن ابن عباس أنهم لا يرجعون أي لا يتوبون، والقول الأول أظهر والله أعلم، وقوله : ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد (يافث) أي أبي الترك، والترك شذمة منهم، ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد، والحدب هو المرتفع من الأرض^(١). وهذه صفتهم في حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ولا يبنك مثل خبير﴾ هذا إخبار الذي يعلم غيب السماوات والأرض لا إله إلا هو، وقال ابن جرير : رأى ابن عباس صبياناً يتزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس : هكذا يخرج يأجوج ومأجوج، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية، فروى الإمام أحمد، عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس، كما قال الله عز وجل : ﴿وهم من كل حدب ينسلون﴾ فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابساً، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان ههنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة، قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء، قال : ثم يهزأ أحدهم حرته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دماً للبلاء والفتنة، فيبئنا هم على ذلك بعث الله عز وجل دوداً في أعناقهم كنف الجراد الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو، قال : فينحدر رجل منهم محتسباً نفسه قد أوطأها على أنه مقتول فيتزل، فيجدهم موتى بعضهم على بعض، فينادي : يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم، فما يكون لهم رعي إلا لحومهم فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط^(٢)»

وفي حديث الدجال : «فيبئنا هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم عليه السلام أني قد أخرجت

(١) قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري .

عباداً من عبادي لا يدان لك بقتلهم، فحرر عبادي إلى الطور فبيعت الله عز وجل ياجوج ومأجوج، كما قال تعالى: ﴿وهم من كل حذب ينسلون﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون فرساً كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زهمهم ونشهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، قال ابن جابر: فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال: فتطرحهم بالمهيل. قال ابن جابر، فقلت: يا أبا يزيد وأين المهيل؟ قال: مطلع الشمس، قال: «ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة» ويقال للأرض انبتى ثمرك ودرى بركتك، قال: فيومئذ يأكل النفر من الرمانة، فيستظلون بقحفها ويبارك في الرسل، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفي الفخذ، والشاة من النعم تكفي أهل البيت، قال: فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم - أو كما قال مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهاجرون تهاجر الحمر وعليهم تقوم الساعة»^(١)

وقد ثبت في الحديث أن عيسى بن مريم يحج البيت العتيق، وعن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: «ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج ياجوج ومأجوج». وقوله: ﴿واقرب الوعد الحق﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأحوال والزلازل والبلابل أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت، قال الكافرون: هذا يوم عسر، ولهذا قال تعالى: ﴿فإذا هي شاخته أبصار الذين كفروا﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام، ﴿يا ويلنا﴾ أي يقولون يا ويلنا ﴿قد كنا في غفلة من هذا﴾ أي في الدنيا، ﴿بل كنا ظالمين﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَافِرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنْ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى: مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ قال ابن عباس: أي وقودها، يعني كقوله ﴿وقودها الناس والحجارة﴾. وفي رواية قال: ﴿حصب جهنم﴾ يعني حطب جهنم^(٢). وقال الضحاك ﴿حصب جهنم﴾: أي ما يرمى به فيها، والجميع قريب، وقوله ﴿أنتم لها واردون﴾: أي داخلون، ﴿لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها﴾ يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد آلهة صحيحة

(١) أخرجه مسلم وأحمد وأصحاب السنن، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) وهو قول مجاهد وعكرمة وقتادة.

لما وردوا النار وما دخلوها، ﴿وكل فيها خالدون﴾: أي العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون، ﴿لم فيها زفير﴾ كما قال تعالى ﴿لم فيها زفير وشهيق﴾، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾، قال ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود: إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توايت من نار فيها مسامير من نار، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿لم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون﴾، وقوله: ﴿إن الذين سبقتم مننا الحسنی﴾ قال عكرمة: الرحمة، وقال غيره: السعادة ﴿أولئك عنها مبعولون﴾. لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله، وهم الذين سبقتم من الله السعادة وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا كما قال تعالى: ﴿للمن أحسنوا الحسنی وزيادة﴾، وقال: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾، فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله ما بهم وثوابهم ونجاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب، فقال ﴿أولئك عنها مبعولون لا يسمعون حسیها﴾ أي حريقها في الأجساد، عن أبي عثمان ﴿لا يسمعون حسیها﴾ قال: حیات على الصراط تسلمهم، فإذا لسعهم قال حس حس، وقوله: ﴿وهم فيها اشتت أنفاسهم خالدون﴾ فسلمهم من المحنور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب.

قال ابن عباس: ﴿أولئك عنها مبعولون﴾ فأولئك أولياء الله يمشون على الصراط مرأً هو أسرع من البرق، ويبقى الكفار فيها جثاً، فهذا مطابق لما ذكرناه. وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين وخرج منهم عزيز والمسيح كما قال ابن عباس ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أتم لها واردون﴾، ثم استثنى، فقال: ﴿إن الذين سبقتم مننا الحسنی﴾ فيقال: هم الملائكة وعيسى ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل، وقال الضحاک عن ابن عباس في قوله ﴿إن الذين سبقتم مننا الحسنی﴾ قال: نزلت في عيسى بن مريم وعزير عليهما السلام. وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد ﴿أولئك عنها مبعولون﴾ قال: عيسى وعزير والملائكة، وقال الضحاک: عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر. والآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل ليكون ذلك تقريباً وتوبيخاً لعبادها، ولهذا قال: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده؟ وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن (ما) لما لا يعقل عند العرب. وقوله: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ قيل: المراد بذلك الموت، قاله عطاء. وقيل: المراد بالفزع الأكبر النفخة في الصور، قاله ابن عباس واختاره ابن جرير في تفسيره. وقيل: حين يؤمر بالعباد إلى النار، قاله الحسن البصري، وقيل: حين تطبق النار على أهلها، قاله سعيد بن جبیر وابن جريج، وقوله: ﴿وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ أي فأملا ما يسركم.

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾، كما قال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه»^(١) وعن ابن عباس قال: يطوي الله السماوات السبع بما فيها من الخليفة والأرضين السبع بما فيها من الخليفة يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمرتلة خردلة^(٢). وقوله: ﴿كُطِيَ السَّجْلُ لِلْكَتَبِ﴾ قيل: المراد بالسجل الكتاب، وقيل: المراد بالسجل ههنا ملك من الملائكة، والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة؛ فعلى هذا يكون معنى الكلام: يوم نظوي السماء كطي السجل للكتاب، أي على الكتاب بمعنى المكتوب كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم. وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده» قال: يهلك كل شيء كما كان أول مرة.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثته الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾. قال مجاهد: الزبور الكتاب، وقال ابن عباس والحسن: ﴿الزبور﴾ الذي أنزل على داود و﴿الذكر﴾ التوراة، وعن ابن عباس: الذكر القرآن. وقال سعيد بن جبير: الذكر الذي في السماء، وقال مجاهد: الزبور الكتب، والذكر أم الكتاب عند الله، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله، وكذا قال زيد بن أسلم هو الكتاب الأول، وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء، والذكر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك، أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون^(٣). وقال ابن عباس: ﴿أَنَّ

(١) أخرجه البخاري عن ابن عمر مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس

(٣) الحديث أخرجه في الصحيحين ورواه الإمام أحمد عن ابن عباس. (٤) رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس

الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴿١﴾ قال: أرض الجنة، وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون، وقال السدي: هم المؤمنون^(١). وقوله ﴿إِنْ فِي هَذَا لَبَلَاغٌ لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ ﴿لَبَلَاغٌ﴾ لمنفعة وكفاية ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ وهم الذين عبدوا الله فيما شرعه وأحبه ورضيه وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم. وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم، فن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجحدتها خسر الدنيا والآخرة، كما قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلُونَهَا وِثْيسَ الْقَرَارِ﴾.

وقال تعالى في صفة القرآن : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ . وقال مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله ادع على المشركين ، قال : « إني لم أبعث لعناً وإنما بعث رحمة » ، وفي الحديث الآخر « إنما أنا رحمة مهداة »^(١) ، وفي الحديث الذي رواه الطبراني : « إني رحمة بعثني الله ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه ، لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب » . وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد : « إنما رجل سببه في غضبي أو لعنته لعنة ، فإني أنا رجل من ولد آدم ، أغضب كما تغضبون وإنما بعثني الله رحمة للعالمين ، فأجعلها صلاة عليه يوم القيامة »^(٢) ، فإن قيل : فأني رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ قال : من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف .

قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكَبُ إِنَّهُ وَاحِدٌ ۖ قَهْلَ أَتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكَ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ۖ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين ﴿ إِنَّمَا يَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُم إِلَٰهُ وَاحِدٌ فَمَا لَكُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ ؟ أي متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له ، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي تركوا ما دعوتهم إليه ﴿ فَقُلْ أَذْنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أي أعلمتكم أنني حرب لكم كما أنتم حرب لي ، بريء منكم كما أنتم برآء مني ، كقوله : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ أَعْيُنَكُمْ مِنَ اللَّهِ حَتَّىٰ تُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَتُعْصِيُوا أَمْرَهُ وَتُعْزِزُوا حَقَّ الدِّينِ وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ بْعَهِّكُمْ فَلَا بُدَّ لَكُمْ أَلَّا تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) وقال أبو الرداء: الأرض هي الشام، والصالحون: الأمة المحمدية.

(٧) أخرجه الحافظ ابن عساكر عن أبي هريرة مرفوعاً، وسئل البخاري عن هذا الحديث فقال: كان عند حفص بن غياث مرسلًا، وروي عن ابن عمر مرفوعاً: «إن الله بعثني مهادة بعثت برفق قوم وخفص آخرين» .

(۳) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود ولفظه عن حذيفة أن رسول الله ﷺ خطب فقال ... فذكره .

خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴿١٠٨﴾ أي ليكن علمك وعلمهم ينبذ اليهود على السواء وهكذا ههنا ﴿١٠٩﴾ فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء ﴿١١٠﴾ أي أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك، وقوله: ﴿١١١﴾ وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون ﴿١١٢﴾ أي هو واقع لا محالة ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده، ﴿١١٣﴾ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴿١١٤﴾ أي إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في إجهارهم وإسرارهم، وسيجزئهم على ذلك القليل والجليل. وقوله ﴿١١٥﴾ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴿١١٦﴾ أي وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين، قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى^(١)، ﴿١١٧﴾ قال رب احكم بالحق ﴿١١٨﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق، قال قتادة: كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون: ﴿١١٩﴾ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴿١٢٠﴾، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد غزاة قال: ﴿١٢١﴾ رب احكم بالحق ﴿١٢٢﴾، وقوله: ﴿١٢٣﴾ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴿١٢٤﴾ أي على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

[آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام . والله الحمد والمنة]



(١) وحكي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢٢) سُورَةُ الْحَجِّ مَدَنِيَّةٌ
وَأَنبَأْنَاهُمَا إِنَّا وَسَيَكُونُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

يقول تعالى آمراً عباده بقواه ، ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وأحوالها ، وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة ، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ، أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زَلَّالَهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ فيومئذ وقعت الواقعة ﴿ الْآيَةُ ﴾ ، فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة ، عن علقمة في قوله ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ قال : قبل الساعة^(١) . وعن عامر الشعبي قال : هذا في الدنيا قبل يوم القيامة ، وقد أورد الإمام ابن جرير في حديث الصور عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَا فِرْغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، خَلَقَ الصُّورَ فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَىٰ فِيهِ شَاحِصٌ يَبْصُرُهُ إِلَى الْعَرْشِ ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ » . قال أبو هريرة : يا رسول الله ! وما الصور ؟ قال : « قرن » ، قال : فكيف هو ؟ قال : « قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب الصالحين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السماوات وأهل الأرض إلا من شاء الله ، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر ، وهي التي يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَبِيحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ ، فتسير الجبال فتكون تراباً ، وترج الأرض بأهلها رجاً وهي التي يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ ، فتكون الأرض كالسفينة الموقفة في البحر تضربها الأمواج تكفوها بأهلها ، وكالْقَنْدِيلَ المعلق بالعرش ترجحه الأرواح ، فيمتد الناس على ظهرها ، فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها قترجج ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً ، وهي التي يقول الله تعالى :

(١) ذكره ابن جرير وابن أبي حاتم عن إبراهيم عن علقمة .

﴿يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد﴾. فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ورأوا أمراً عظيماً، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالملهل، ثم خسف شمسها وقمرها وانتثرت نجومها ثم كسفت عنهم - قال رسول الله ﷺ : والاموات لا يعلمون بشيء من ذلك «، قال أبو هريرة: فن استثنى الله حين يقول: ﴿ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء﴾ قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ووقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه وهو الذي يقول الله: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾^(١). وهذا الحديث دل على أن هذه الزلزلة كاتبة قبل يوم الساعة، أضيفت إلى الساعة لقرئها منها، كما يقال أشرط الساعة ونحو ذلك والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث:

(الحديث الأول): عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: لما نزلت ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ - إلى قوله - ولكن عذاب الله شديد﴾ قال: نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال: «أتدرون أي يوم ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذلك يوم يقول الله لآدم ابعت النار، قال: يارب وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة»، فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية، قال فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلا كملت من المناققين، وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقعة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير»، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، فكبروا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فكبروا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، فكبروا، ثم قال: «ولا أدري أقال الثلثين أم لا؟»^(٢)

(الحديث الثاني): قال البخاري عند تفسير هذه الآية، عن أبي سعيد الخدري قال، قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يارب وما بعث النار؟ قال: من كل أئف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد﴾ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد، أتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة»، فكبرنا^(٣)

(١) الحديث رواه الطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والإمام أحمد عن عمران بن حصين، وقال الترمذي: حديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي سعيد الخدري.

(الحديث الثالث) : عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال : « إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » ، قالت عائشة : يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ، قال : « يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهجم ذاك »^(١)

(الحديث الرابع) : عن عائشة قالت ، قلت : يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيه يوم القيامة ؟ قال : « يا عائشة أما عند ثلاث فلا ، أما عند الميزان حتى ينقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب إما يعطى يمينه وإما يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فيطوى عليهم ويتغيط عليهم ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد - قال : فينطوي عليهم ويرميهم في غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أرق من الشعر وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذان من شاء الله ، والناس عليه كالبرق وكالطرف وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : يا رب سلم سلم ، فنجاس مسلم ومخدوش مسلم ، ومكور في النار على وجهه »^(٢) والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً لها موضع آخر ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ أي أمر عظيم وخطب جليل ، والزلازل هو ما يحصل للنفس من الرعب والفرع ، كما قال تعالى : ﴿ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ يوم ترونها ﴾ هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسراً له : ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ أي فتشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه تدهش عنه في حال إرضاعها له ، ولهذا قال : ﴿ كل مرضعة ﴾ ولم يقل مرضع ، وقال ﴿ عما أرضعت ﴾ أي عن رضيعها وفطامه ، وقوله : ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول وترى الناس سكارى ﴾ أي من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم فن رأهم حسب أنهم سكارى ﴿ وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٢٢﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ سَعِيرٍ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ أي علم صحيح ، ﴿ ويتبع كل شيطان مريد ﴾ كتب عليه ﴿ قال مجاهد يعني الشيطان ، يعني كتب عليه كتابة قدرية ﴾ أنه من تولاه ﴿ أي اتبعه وقلده ﴾ فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير ﴿ أي يضلّه في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير ، وهو الحار المولم المزعج ، قال السدي : نزلت هذه الآية في النصر بن الحارث ، وروى أبو كعب المكي قال : قال خبيث من خبيثاء قريش : أخبرنا عن ربكم من ذهب هو ، أو من فضة هو ، أو من نحاس هو ؟ فتقعقت السماء قعقة - والقعقة في كلام العرب الرعد - فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه^(٣) .

(١) أخرجه في الصحيحين ورواه الإمام أحمد ، وفي رواية : إن الأمر أعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها . (٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب المكي .

وقال مجاهد: جاء يهودي فقال يا محمد: أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ من در أم من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته.

* يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَلَمَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنَبِّتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي في شك، ﴿مِّنَ الْبَيْتِ﴾ وهو المعاد، وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة، ﴿فَلَمَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ﴾ أي أصل برثه لكم من تراب وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام، ﴿ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ أي ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله فتصير كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقىها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي كما تشاهدونها، ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وتارة تستقر في الرحم لا تلقىها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفخ فيها الروح وسوّاها كما يشاء الله عز وجل، من حسن وقبح وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إِنْ خُلِقَ أَحَدُكُمْ يَجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً نُّطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِّثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِّثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَأَجْلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ».

وروى ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن مسعود قال: النطفة إذا استقرت في الرحم جاءها ملك بكفه، فقال: يا رب مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قيل: غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفها الأرحام دماً، وإن قيل: مخلقة، قال: أي رب ذكر أو أنثى، شقي أو سعيد، ما الأجل وما الأثر؟ وبأي أرض يموت؟ قال، فيقال للنطفة من ربك؟ فتقول: الله، فيقال من رازقك؟ فتقول: الله، فيقال له: اذهب إلى الكتاب فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة، قال: فتخلق فتعيش في أجلها وتأكل رزقها، وتطأ أثرها حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك، ثم تلا عامر

الشعبي: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾^(١)، وقال ابن أبي حاتم، عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين يوماً أو خمس وأربعين فيقول: أي رب أشقي أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان فيقول: أذكر أم أنسى؟ فيقول الله، ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص»^(٢). ﴿ثم نخرجكم طفلاً﴾ أي ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف به ويحن عليه والديه، ولهذا قال ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ أي بتكامل القوى، وبتزايد ويصل إلى غفوان الشباب وحسن المنظر، ﴿ومنكم من يتوفى﴾ أي في حال شبابه وقواه، ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ وهو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر، ولهذا قال: ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة﴾.

وقوله تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة وهي المفحلة التي لا بنبت فيها شيء. وقال قتادة: غرباء مهتمة، وقال السدي: ميتة، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾: أي فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت ﴿أي تحركت بالنبات وحييت بعد موتها، وربت﴾ أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبت ما فيها من ثمار وزروع، وأنشأت النبات في اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ أي حسن المنظر طيب الريح، وقوله ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ أي الخالق المدير الفعال لما يشاء، ﴿وأنه يحيي الموتى﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾، ﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها﴾ أي كاتبة لا شك فيها ولا مرية، ﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رماً ويوجدتهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل شيء عليم﴾ والآيات في هذا كثيرة. وقد روى الإمام أحمد. عن لقيط ابن عامر أنه قال: يا رسول الله أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به؟» قلنا: بلى، قال: فأن الله أعظم، قال، قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررت بوادي أهلك ممحلاً؟» قال: بلى، قال: «ثم مررت به بهتز خضراً» قال: بلى، قال: «فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آية في خلقه»^(٣) وقال ابن أبي حاتم، عن معاذ ابن جبل قال: من علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؛

دخل الجنة^(٤)

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير عن عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه مسلم بنحو معناه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلالة من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ أي بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي والهوى، وقوله ﴿ثاني عطفه﴾ قال ابن عباس: مستكبراً عن الحق إذا دعي إليه، وقال مجاهد وقتادة: لاوي عطفه وهي رقبته يعني يعرض عما يدعى إليه من الحق، وينثي رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان مبين فنولى بركنه﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا تلى عليه آياتنا ولى مستكبراً﴾ الآية، وقوله: ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة لأنه قد لا يقصد ذلك، ثم قال تعالى: ﴿له في الدنيا خزي﴾ وهو الإهانة والذل كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقاه الله المذلة في الدنيا وعاقبه فيها قبل الآخرة، لأنها أكبر همه ومبلغ علمه ﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾. ذلك بما قدمت يدك ﴿أي يقال له هذا تقريباً وتوبيخاً﴾ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿كقوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ إن هذا ما كنتم به تمترون﴾. عن الحسن قال: بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة^(١)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ۚ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

قال مجاهد: ﴿على حرف﴾ على شك، وقال غيره: على طرف، ومنه حرف الجبل أي طرفه، أي دخل في الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر، عن ابن عباس ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً وتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء^(٢). وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب، وعام ولاد حسن قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جلوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا: ما في ديننا هذا خير، فأنزل

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه .

الله على نبيه: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به﴾ الآية. وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية، وقال عبد الرحمن بن زيد: هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر^(١)، وقال مجاهد في قوله ﴿انقلب على وجهه﴾ أي ارتد كافراً، وقوله: ﴿خسر الدنيا والآخرة﴾ أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة، ولهذا قال تعالى ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة، وقوله: ﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه﴾ أي من الأصنام والأنداد يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾، وقوله ﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه﴾ أي ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن، وقوله: ﴿لبئس المولى ولئس العشير﴾ قال مجاهد: يعني الوثن، يعني بشس هذا الذي دعاه من دون الله مولى، يعني ولياً وناصرًا، ﴿وبئس العشير﴾ وهو المخالط والمعاشر، واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب، ﴿من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ وقول مجاهد: إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٤)

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (١٥) وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب أي بحبل إلى السماء ﴿أي سماء بيته﴾، ثم ليقطع ﴿يقول: ثم ليختنق به﴾، وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿فليمدد بسبب إلى السماء﴾، أي ليتوصل إلى بلوغ السماء فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء، ﴿ثم ليقطع﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك، وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم، فإن المعنى: من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى:

(١) في الباب: وكذلك: أخرج ابن مردويه: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده، فتشام بالإسلام، فقال: لم أصب من ديني هذا خيراً، فترلت: ﴿ومن الناس﴾ الآية.

(٢) وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة وغيرهم.

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ الآية، ولهذا قال ﴿فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾ قال السدي: يعني من شأن محمد ﷺ، وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ، وقوله: ﴿وكذلك أنزلناه﴾ أي القرآن ﴿آيات بينات﴾ أي واضحات في لفظها ومعناها حجة من الله على الناس، ﴿وأن الله يهدي من يريد﴾ أي يفضل من يشاء ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك، ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصْرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين^(١)، والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعدوا مع الله غيره فإنه تعالى ﴿يفصل بينهم يوم القيامة﴾ ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم وما تكن ضمائرهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يَنْ يُّنِ اللَّهُ قَالَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء مما يختص به كما قال تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون﴾ وقال ههنا ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض﴾، أي من الملائكة في أقطار السماوات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطيور، ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾، وقوله: ﴿والشمس والقمر والنجوم﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قد عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة، ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ الآية. وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال، قال لي رسول الله ﷺ: «أتلري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت». وفي حديث الكسوف: «إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عز وجل إذا مجلى لشئ من خلقه خشع له»^(٢)

وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب ثم ينصرف حتى يؤذن له

(١) تقدم في سورة البقرة التعريف بهم واختلاف الأقوال فيهم فارجع إليه هناك.

(٢) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

فياخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعها، وأما الجبال والشجر فسجودها بفيء ظلّهما عن اليمين والشمائل. وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدتُ، فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع غني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، قال ابن عباس: قرأ رسول الله ﷺ سجدة، ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة^(١). وقوله: ﴿والدواب﴾ أي الحيوانات، كلها، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور اللواب منابر، فرب مركوبة خير وأكثر ذكراً لله تعالى من راکبها. وقوله ﴿وكثير من الناس﴾ أي يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر، ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾. وقال ابن أبي حاتم: قيل لعلي إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة، فقال له علي: يا عبد الله، خلقت الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء، قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عينك بالسيف، وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد لها اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»^(٢).

* هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ^ط فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يَصْبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ
الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِّنْ حَديدٍ ﴿٢١﴾ كَلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا
مِنْهَا مِّنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر^(٣)، وروى البخاري عن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يجر بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. وقال قتادة في قوله ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبينا، وكتابتنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم فأفلق الله الإسلام على من ناواه، وأنزل: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾. وقال مجاهد في هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث، وقال مجاهد وعطاء في هذه الآية: هم المؤمنون

(١) رواه الترمذي وابن ماجة وابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) هذا لفظ البخاري في كتاب التفسير.

والكافرون . وقال عكرمة ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال : هي الجنة والنار ، قالت النار : اجعلني للعقوبة ، وقالت الجنة : اجعلني للرحمة ، وقول مجاهد وعطاء إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها ، ويتنظم فيه قصة يوم بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل ، وهذا اختيار ابن جرير وهو حسن ، ولهذا قال ﴿ فالذين كفروا قطعتم لهم ثياب من نار ﴾ أي فصلت لهم مقطعات من النار ، قال سعيد بن جبير : من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ يصهر به ما في بطونهم والجلود أي إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة ، وقال سعيد بن جبير : هو النحاس المذاب أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء ، وكذلك تنوب جلودهم .

عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه ، وهو الصهر ثم يعاد كما كان »^(١) . وفي رواية : يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته ، فإذا أدناه من وجهه تكزّره ، قال : فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه ، فيفرغ دماغه ، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه ، فذلك قوله : ﴿ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾ . وقوله ﴿ ولم مقامع من حديد ﴾ ، عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن مقمعا من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض »^(٢) . وروى الإمام أحمد : عن أبي سعيد الخدري قال ، قال رسول الله ﷺ : « لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لفتت ثم عاد كما كان ، ولو أن دلوأ من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا »^(٣) ، وقال ابن عباس في قوله ﴿ ولم مقامع من حديد ﴾ قال : يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور ، وقوله ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ ، قال سلمان : النار سوداء مظلمة لا يضيء لها ولا جمرها ، ثم قرأ : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ ، وقال زيد بن أسلم في هذه الآية : بلغني أن أهل النار في النار لا يتفنون ، وقال الفضيل بن عياض : والله ما طعموا في الخروج ، إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم لها وتردهم مقامعها ، وقوله ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ ، كقول : ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ ، ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولا وفعلًا .

إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار ، وما هم فيه من العذاب والنكال ، والحريق والأغلال ، وما أعد لهم من الثياب من النار ، ذكر حال أهل الجنة فقال : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم .

(٢) رواه ابن جرير والترمذي وقال : حسن صحيح وأخرجه ابن أبي حاتم بنحوه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري . (٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

تجري من تحتها الأنهار ﴿ أي تتخرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها يصرفونها حيث شاموا وأين أرادوا، ﴿ يحلون فيها ﴾ من الحلية، ﴿ من أساور من ذهب ولؤلؤا ﴾ أي في أيديهم، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الضوء ». وقوله: ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير استبرقه وسندسه، كما قال: ﴿ عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ﴾، وفي الصحيح: « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »، وقال عبد الله بن الزبير: من لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾، وقوله: ﴿ وهلوا إلى الطيب من القول ﴾ كقوله تعالى: ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾، وقوله: ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيلاً إلا قليلاً سلاماً ﴾ فهلوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، ﴿ ويلقون فيها تحية وسلاماً ﴾ لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به، يقال لهم: ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾، وقوله: ﴿ وهلوا إلى صراط الحميد ﴾ أي إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم، وأنعم به وأسده إليهم، كما جاء في الحديث الصحيح: « أنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس »، وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿ وهلوا إلى الطيب من القول ﴾ أي القرآن، وقيل: لا إله إلا الله، وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿ وهلوا إلى صراط الحميد ﴾ أي الطريق المستقيم في الدنيا، وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً أَعْلَكُفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِمِ يَظْلَمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى منكرًا على الكفار في صدمه المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه، ﴿ إن الذين كفروا ويصلون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ أي ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصلون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي ويصلون عن المسجد الحرام من أراحه من المؤمنين، الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وقوله: ﴿ الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾ أي يمنعون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله للناس لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾، ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكنائها، كما قال ابن عباس: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام، وقال مجاهد: ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل، وقال قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله، وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً. فذهب رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتوَجَّر، واحتج بحديث الزهري عن أسامة بن زيد قال، قلت: يا رسول الله أنزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: « وهل ترك لنا عقيل من رباع » ثم قال: « لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر »^(١)، وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من (صفوان بن أمية) داراً بمكة فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم، وذهب

(١) هذا الحديث مخرج في الصحيحين .

إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا توجر، وهو مذهب طائفة من السلف، واحتج إسحاق بن راهويه بما روي عن علقمة بن نضلة قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى أسكن^(١). وقال عبد الله بن عمرو: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها، وكان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم. وقال عمر بن الخطاب: يا أهل مكة لا تتخذوا للدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء، وروى الدارقطني عن عبد الله بن عمرو موقوفاً: «من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً»، وتوسط الإمام أحمد فقال: تملك وتورث ولا توجر جمعاً بين الأدلة والله أعلم

وقوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ قال بعض المفسرين: الباء ههنا زائدة، كقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾ أي تنبت الدهن، وكذا قوله: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد﴾ تقديره إلحاداً. والأجود أنه ضمن الفعل ههنا معنى يهيم، ولهذا عاده بالباء فقال: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد﴾ أي يهيم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار، وقوله: ﴿بظلم﴾ أي عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمأثول، وقال ابن عباس: بظلم بشرك، وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله، وكذا قال قتادة وغير واحد. وقال العوفي عن ابن عباس: بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل فتظلم من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم. وقال مجاهد: بظلم يعمل فيه عملاً سيئاً، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازماً عليه وإن لم يوقعه، كما قال ابن مسعود: لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم وهو بعدن أبين لأذاقه الله من العذاب الأليم^(٢). وقال الثوري عن عبد الله بن مسعود قال: ما من رجل يهيم بسيئة فتكتب عليه ولو أن رجلاً بعدن أبين هم أن يقتل رجلاً بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم، وقال سعيد بن جبير: شتم الخادم ظلم فما فوقه، وقال ابن عباس في قول الله: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ قال: نزلت في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، ثم هرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ يعني من لجأ إلى الحرم بإلحاد يعني بميل عن الإسلام. وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب القبل على تخريب البيت أرسل الله عليهم ﴿طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾ أي دمرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراد به سوء، ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش حتى إذا كانوا بيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم» وعن سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير وهو جالس في الحجر فقال: يا ابن الزبير إياك والإلحاد في الحرم، فإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها» قال: فانظر لا تكن هو^(٣)

(١) رواه ابن ماجه عن علقمة بن نضلة .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً .

(٣) أخرجه الإمام أحمد .

وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾
وَلِأَذِّنَ لِلنَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٨﴾

ذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت أي أرشده إليه، وسلمه له وأذن له في بنائه، واستدل به كثير من قال إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق وأنه لم يبن قبله، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنْ أُولَآئِيتِ يَتَذَكَّرُ لِلَّذِينَ بَيَّكْتُ مَبَارَكًا﴾ الآيتين، وقال تعالى: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار بما أغنى عن إعادته هنا، وقال تعالى هنا: ﴿أَنْ لَا تَشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أي ابنه على اسمي وحدي ﴿وطهر بيتي﴾ قال مجاهد: من الشرك ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل بقعة من الأرض سواها ﴿والقائم﴾ أي في الصلاة، ولهذا قال ﴿والرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشران إلا مختصين بالبيت

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلنَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي ناد في الناس بالحج داعياً لهم لحج هذا البيت الذي أمرناك ببنائه فذكر أنه قال: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا يتفهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل على الحجر، وقيل على الصفا، وقيل على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك؛ هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والله أعلم، وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة، وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الآية. قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة همهم وشدة عزمهم، وقال ابن عباس: ما أساء على شيء إلا أني وددت أني كنت حججت ماشياً، لأن الله يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾، والذي عليه الأكثر أن الحج راكباً أفضل اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام. وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ يعني طريق، كما قال: ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾، وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أي بعيد، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾، فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَثَرِ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ النَّفِيرِ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٠﴾

قال ابن عباس ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾، قال: منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبايح والتجارات، وكذا قال مجاهد وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾، وقوله: ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾، قال ابن عباس: الأيام المعلومات أيام العشر، وهو مذهب الشافعي والمشهور عن أحمد بن حنبل، وقال البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء»، وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»، وقال البخاري: وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما، وقد روي عن جابر مرفوعاً أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله: ﴿والفجر وليال عشر﴾؛ وقال بعض السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وأتممناها بعشر﴾.

وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر، وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة، وقد سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال: أحسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية^(١)، ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله، وبالجملة فهذا العشر قد قيل إنه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث، وفضله كثير على عشر رمضان الأخير، لأن هذا بشرع فيه ما يشرع في ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيرها، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه، وقيل ذلك أفضل لاشتائه على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر؛ وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل وليالي ذلك أفضل؛ وبهذا يجتمع شمل الأدلة والله أعلم، (قول ثان) في الأيام المعلومات: قال ابن عباس: الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده؛ وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه. (قول ثالث): عن نافع عن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات المعلومات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعلومات ثلاثة أيام بعد يوم النحر، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس. (قول رابع): إنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده وهو مذهب أبي حنيفة، وقوله: ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ يعني الإبل والبقر والغنم كما فصلها تعالى في سورة الأنعام. وقوله: ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ استدلل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأصاحي، وهو قول غريب والذي عليه الأكثر أن من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها، وقال مالك أحب أن يأكل من أضحيته، لأن الله يقول: ﴿فكلوا منها﴾، وقال سفيان الثوري عن إبراهيم ﴿فكلوا منها﴾ قال: المشركون لا يأكلون من ذبائحهم، فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل. وعن مجاهد في قوله ﴿فكلوا منها﴾ قال: هي كقوله: ﴿فإذا حلتهم فاصطادوا﴾ ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه

وقوله تعالى: ﴿البائس الفقير﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس وهو الفقير المتعفف، وقال مجاهد: هو الذي لا يسيط يده. وقال قتادة: هو الزن. وقال مقاتل: هو الضريع، وقوله: ﴿ثم ليقتضوا نفهم﴾، قال ابن عباس: هو وضع الإحرام من حلق الرأس، ولبس الثياب، وقص الأظافر ونحو ذلك، وقوله: ﴿وليوفوا نذروهم﴾ يعني نحر ما نذر من أمر البدن، وقال مجاهد: ﴿وليوفوا نذورهم﴾ نذر الحج والمهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج، وعنه: كل نذر إلى أجل، وقوله: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ قال مجاهد: يعني الطواف الواجب يوم النحر، وقال أبو حمزة قال، قال لي ابن عباس: أتقرأ سورة الحج، يقول الله تعالى: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾؟ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق^(١)، قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت، وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض، وقوله: ﴿بالبيت العتيق﴾، قال الحسن البصري في قوله: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ قال: لأنه أول بيت وضع للناس، وقال خصيف: إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط. وعن مجاهد: لم يرد أحد بسوء إلا هلك، وفي الحديث: «إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار»^(٢). روي مرفوعاً ومرسلاً.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا بَيَّسَ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۚ حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ ﴿٣١﴾

يقول تعالى هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما يلقي عليها من الثواب الجزيل، ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾ أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه، ﴿فهو خير له عند ربه﴾ أي فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات. قال مجاهد في قوله: ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله﴾ قال: الحرمات مكة والحج والعمرة وما نهي الله عنه من معاصيه كلها، وقوله: ﴿وأحلت لكم الأنعام إلا ما بئس عليكم﴾ أي أحللت لكم جميع الأنعام، وقوله: ﴿إلا ما بئس عليكم﴾ أي من تحريم الميتة والدلم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخقة الآية، قال ذلك ابن جرير وحكاه عن قتادة، وقوله: ﴿فاجتنبوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، أي اجتنبوا الرِّجْسَ الذي هو الأوثان، وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي غير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ ومنه شهادة الزور. وفي الصحيحين عن أبي بكره أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور»؛ فما زال يكررها حتى

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٢) أخرجه الترمذي عن عبد الله بن الزبير مرفوعاً وكذا رواه ابن جرير وقال الترمذي: حديث حسن غريب .

قلنا: ليته سكت. وعن خريم بن فاتك الأسدي قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح فلما انصرف قام قائماً، فقال: « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجل »، ثم تلا هذه الآية: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حَنْفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾^(١)، وقوله ﴿ حَنْفَاءَ اللَّهِ ﴾: أي مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق، ولهذا قال: ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾، ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى، فقال: ﴿ وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي سقط منها، ﴿ فَتَخْطَفُ الطَّيْرُ ﴾ أي تقطعه الطيور في الهواء، ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أي بعيد، مهلك لمن هوى فيه، ولهذا جاء في حديث البراء: أن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصلدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرْحاً من هناك، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ فَتَخْطَفُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾.

ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٣﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى: هذا ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ أي أوامره، ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾، ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال ابن عباس: تعظيمها استئمانها واستحسانها. وقال أبو أمامة عن سهل: كنّا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون^(٢) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « دم غفراء أحب إلى الله من دم سوداوين »، رواه أحمد وابن ماجه، قالوا: والغفراء - هي البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزىء أيضاً لما ثبت في صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين، وفي سنن ابن ماجه عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سميين أقرنين أملحين موجوئين، وعن علي رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وأن لا نضحى بمقابلة ولا مدابرة، ولا شرقاء ولا خرقاء، وعن البراء قال، قال رسول الله ﷺ: « أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والكسيرة التي لا تنقى »^(٣)، وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي، لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزىء التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة كما هو ظاهر الحديث، ولهذا جاء في الحديث: أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف العين والأذن أي أن تكون الهدية أو الأضحية سمينة حسنة ثمينة، كما روى عبد الله بن عمر: أهدى عمر نجيباً فأعطي بها ثلثائة دينار، فأثنى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أهديت نجيباً فأعطينت بها ثلثائة دينار، أفأبيعها وأشتري بشئها بدلاً؟ قال: « لا، إنجرها إياها »^(٤). وقال ابن عباس: البدن من شعائر الله، وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والحلق والبدن من شعائر الله، وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٢) رواه البخاري في صحيحه.

(٣) رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي.

(٤) رواه الإمام أحمد وأبو داود.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي لكم في البدن منافع من لبنها وصفوها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى، قال مجاهد في قوله ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سميت بدنة أو هدياً ذهب ذلك كله^(١)، وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: «اركبها» قال: إنها بدنة، قال: «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة، وفي رواية لمسلم: «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها». وعن علي أنه رأى رجلاً يسوق بدنة ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها، وقوله: ﴿ثُمَّ مَحَلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي محل الهدي وانتهاه إلى البيت العتيق وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هُدًى مِّنْ رَبِّكَ إِلَى الْكَعْبَةِ﴾، وقال: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾. وقال عطاء، كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحَلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسْكَاً لِّبَذْرِ كُتُوبِ أَسْمِ اللَّهِ عَلَى مَارَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ آلِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَبُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى: أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل، قال ابن عباس ﴿مَنَسْكَاً﴾: عيداً، وقال عكرمة: ذبائحاً، وقال زيد بن أسلم في قوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسْكَاً﴾: إنها مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها، وقوله: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتني رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين فسَميَ وكبر ووضع رجله على صفاحهما، وقال الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم قال، قلت أو قالوا: يا رسول الله ما هذه الأصاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم»، قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شجرة حسنة»، قالوا: فالصوف؟ قال: «بكل شجرة من الصوف حسنة»^(٢)، وقوله: ﴿فَالَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَبُوا﴾ أي معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلَبُوا﴾ أي أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته، ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك: المتواضعين، وقال السدي: الوجلين، وقال الثوري: المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له، وأحسن ما يفسر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت منه قلوبهم، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي من المصائب، قال الحسن البصري: والله للصبرن أو لنهلكن، ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أي المؤذين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهلهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله.

﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَنَاعَ ۚ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾

يقول تعالى: تمتاً على عبده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدي إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدي إليه. قال عطاء رضي الله عنه والبدن رضي الله عنه: البقرة والبعر ^(١). وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين: أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح الحديث، ثم جمهور العلماء على أنه يخرى البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة، كما ثبت عن جابر بن عبد الله قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي: البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة ^(٢)، وقوله ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي ثواب في الدار الآخرة، لما روي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض فطيبوها بها نفساً» ^(٣)، وقال سفيان الثوري: كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، وقال مجاهد ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع، وقال إبراهيم النخعي: يركبها ويحلها إذا احتاج إليها، وقوله ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾، وعن جابر بن عبد الله قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحي، فلما انصرف أتني بكيش فذبحه، فقال: «بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعن من أمتي» ^(٤). وروى محمد بن إسحاق عن جابر قال: ضحى رسول الله ﷺ بكشين في يوم عيد فقال حين وجههما: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين» إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك عن محمد وأمته»، ثم سَمَّى وكبر وذبح

وعن علي بن الحسين عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدينة ثم يقول: «اللهم هذا عن أمتي جميعها من شهد لك بالتحديد وشهد لي بالبلاغ». ثم يُؤْتَى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعمهما جميعاً للمساكين ويأكل هو وأهله منهما ^(٥). وقال الأعمش عن ابن عباس في قوله ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ قال: قياماً على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى يقول: باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله، اللهم منك ولك، وقال ليث عن مجاهد: إذا عقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث. وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها فقال: ابعتها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ ^(٦)، وعن جابر

(١) وكذا روي عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصري

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

(٣) رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه .

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

(٥) رواه أحمد وابن ماجه . (٦) أخرجه البخاري ومسلم .

أن رسول الله ﷺ وأصحابه: كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها^(١). وقال العوفي عن ابن عباس **﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾** يعني نحرت، وقال ابن أسلم: **﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾** يعني ماتت؛ وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها، وقد جاء في حديث مرفوع: **«لا تعجلوا النفوس أن ترهق»**، ويؤيده حديث شداد بن أوس في صحيح مسلم: **«إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»**^(٢). وقوله: **﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطَعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرِ﴾** قال بعض السلف: قوله **﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾** أمر بإباحة، وقال مالك: يستحب ذلك، وقال غيره يجب، واختلفوا في المراد بالقانع والمعتز، فقال ابن عباس: القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته، والمعتز الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل، وكذا قال مجاهد، وقال ابن عباس: القانع المتعفف، والمعتز السائل^(٣)، وقال سعيد بن جبير: القانع هو السائل، أما سمعت قول الشماخ

لَمَالُ الْمَرْءِ يَصْلُحُهُ فَيَغْنِي مَفَاوِهُ أَعْفُ مِنَ الْقَنُوعِ

أي: يغني من السؤال، وقال زيد بن أسلم: القانع المسكين الذي يطوف، والمعتز الصديق والضعيف الذي يزور، واختار ابن جرير: أن القانع هو السائل لأنه من أقع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتز من الاعتراء وهو الذي يتعرض لأكل اللحم، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال للناس: **«إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث فكلوا وادخروا ما بدا لكم»**، وفي رواية: **«فكلوا وادخروا وتصدقوا»**.

مسألة

عن البراء بن عازب قال، قال رسول الله ﷺ: **«إن أول ما نبأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر، فمن فعل فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء»**^(٤)، فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء: إن أول وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين، زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء في صحيح مسلم: وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام، وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوها فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر إذ لا صلاة عيد تشرع عنده لهم، وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام والله أعلم. ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده، وقيل: يوم النحر ويوم بعده للجميع، وقيل: ويومان بعده، وبه قال الإمام أحمد، وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعي، لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: **«أيام التشريق كلها ذبح»**^(٥)، وقوله: **﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**، يقول تعالى من أجل هذا **﴿سَخَرْنَاهَا لَكُمْ﴾** أي ذللناها لكم وجعلناها منقاداً لكم خاضعة إن شئتم ركبتكم وإن شئتم حلبتم وإن شئتم ذبحتم **﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**.

(١) رواه أبو داود في سننه. (٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) وهذا قول قتادة وإبراهيم النخعي ومجاهد في رواية عنه.

(٤) أخرجه في الصحيحين. (٥) رواه الإمام أحمد وابن حبان.

عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُذِّنُ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال، زاد أحمد: وهي أول آية نزلت في القتال^(١). وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته كما قال: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ، وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِمُهُمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ والآيات في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وقد فعل، وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمون وهم أقل بقتال الباقيين لثقت عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفاً وعشرين قالوا: يا رسول الله ألا نتميل على أهل الوادي، يعنون أهل منى ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر بهذا»، فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهما يقتله وشردوا أصحابه، فلما استقروا بالمدينة وصارت لهم دار إسلام، ومعقلاً يلجئون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أُذِّنُ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴿قال ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمداً وأصحابه﴾ إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿أي ما كان لهم إساءة ولا ذنب، إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُلَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَتُومِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم، وكيف شرور أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض، ولأهلك القوي الضعيف، ﴿لهدمت صوامع﴾ وهي المعابد للرهبان^(٢)، وقال قتادة: هي معابد الصابئين، وفي رواية عنه: صوامع المجوس، ﴿وبيع﴾ وهي أوسع منها وهي للنصارى أيضاً، وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود، وعن ابن عباس: أنها كنائس اليهود، وقوله: ﴿وصلوات﴾ قال ابن عباس: الصلوات الكنائس، وكذا قال عكرمة والضحاك وقاتادة: إنها كنائس اليهود وهم يسمونها صلوات، وحكى السدي عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى، وقال أبو العالية وغيره: الصلوات معابد الصابئين. وقال مجاهد: الصلوات مساجد لأهل الكتاب، ولأهل الإسلام بالطرق، وأما المساجد فهي للمسلمين. وقوله: ﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾، فقد قيل: الضمير في قوله ﴿يذكر فيها﴾ عائذ إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات، وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها الله كثيراً، وقال ابن جرير: الصواب لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود وهي كنائسهم ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن .

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم .

كثيراً، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب. وقال بعض العلماء: هذا تَرَقَّى من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد، وهي أكثر عُمَاراً وأكثر عِبَاداً، وهم ذوو القصد الصحيح. وقوله: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة؛ فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَمِنَ الْمَنْصُورِينَ وَإِنْ جُنَدُنَا لَمِنَ الْغَالِبِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

قال عثمان بن عفان: فإنا نزلت ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، والله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي^(١). وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقال زيد بن أسلم: ﴿وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا.

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُورُ مَعْطَلَةٌ وَقَصِيرٌ مَشِيدٌ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَكَذَّبَ مُوسَى﴾ أي مع ما جاء به من الآيات والدلائل الواضحات، ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كان إنكارهم عليهم ومعاقبتي لهم؟! وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ وبين إهلاك الله له أربعون سنة، وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ لِيُحِلِّيَ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْ»، ثم قرأ ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾^(٢)، ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي كم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن عثمان رضي الله عنه . (٢) أخرجه البخاري ومسلم .

من قرية أهلكتها ﴿وهي ظالمة﴾ أي مكذبة لرسالتها، ﴿فهي خاوية على عروشها﴾، قال الضحاك: سقوفها، أي قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها، ﴿وبئر معطلة﴾ أي لا يستقى منها ولا يردّها أحد، بعد كثرة واديتها والازدحام عليها، ﴿وقصر مشيد﴾ قال عكرمة: يعني المبيض بالجنس، وقال آخرون هو المنيف المرتفع، وقال آخرون: المشيد المنيع الحصين، وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يحم أهلّه شدة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿أبَنا تَكونوا يَدرِكمُ المَوتَ ولو كُنتُم في بَروجَ مَشيَدةٍ﴾، وقوله: ﴿أَلمَ يَسيروا في الأَرضِ﴾ أي بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، وذلك للاعتبار، أي انظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنتكال، ﴿فَتَكونَ لَهم قُلُوبٌ يَعلَونَ بِها أو أذانٌ يَسمَونَ بِها﴾ أي فيعتبرون بها، ﴿فإنها لا تَعى الأَبصارَ ولكن تَعى القُلُوبَ التي في الصُدُورِ﴾ أي ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ أي هؤلاء الكفار الملحنون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِن كانَ هذا هوَ الحَقُّ مِن عِندِكَ فَأَطرِّعْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أو ائِتنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾، وقالوا ربنا عجل لنا قطنًا قبل يوم الحساب، ﴿وقوله: ﴿ولن يخلف الله وعده﴾ أي الذي قد وعد من إقامة الساعة، والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه، وقوله: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ أي هو تعالى لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإن أجل وأنظر، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وكان من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير﴾. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام»^(١) وعن ابن عباس ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض. وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به: ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾ أي إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب

عليه الشقاوة وهو الفعال لما يشاء، ﴿وَإِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أَيَّ آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَصَدَقُوا إِيمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ﴾ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم، قال القرطبي^(١) : إذا سمعت الله تعالى يقول : ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة، وقوله : ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ قال مجاهد : يشطون الناس عن متابعة النبي ﷺ، وقال ابن عباس ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مراغمين ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وهي النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها أجارنا الله منها

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا (قصة الغرانيق) وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، وخلاصتها عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة «النجم» فلما بلغ هذا الموضع : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ قال : فألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى »، قالوا : ما ذكر أهلكنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا، فأنزله الله عز وجل هذه الآية : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ؛ وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مراسلات ومنقطعات والله أعلم. وقد ساقها البغوي في تفسيره ثم سأل ههنا سؤالاً : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلاة الله وسلامه عليه ؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألفتها : أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك. فتوهوا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان، لا عن رسول الرحمن ﷺ والله أعلم. وقوله : ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلاة الله وسلامه عليه، قال البخاري قال ابن عباس ﴿في أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقى الشيطان ﴿ثم يحكم الله آياته﴾. وقال مجاهد : ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ يعني إذا قال، ويقال أُمْنِيَّتُهُ قراءته ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ يقرؤون ولا يكتبون. قال البغوي : وأكثر المفسرين قالوا : معنى قوله ﴿تَمَنَّى﴾ أي تلا وقرأ كتاب الله ﴿ألقى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل :

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهَا لَأَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

وقال الضحاك ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ : إذا تلا، قال ابن جرير : هذا القول أشبه بتأويل الكلام .

وقوله تعالى : ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ حقيقة النسخ لغة الإزالة والرفع، قال ابن عباس : أي فيبطل

(١) هو محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه .

الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان^(١)؛ وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته، وقوله: ﴿والله عليم﴾ أي بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ﴿حكيم﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة، ولهذا قال: ﴿ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وشرك وكفر ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح من عند الله وإنما كان من الشيطان، قال ابن جريج ﴿للذين في قلوبهم مرض﴾ هم المنافقون، ﴿والقاسية قلوبهم﴾ هم المشركون، وقال مقاتل بن حيان: هم اليهود، ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد أي من الحق والصواب، ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به﴾ أي وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحينا إليك، هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه، وحرصه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب عزيز ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، وقوله: ﴿فيؤمنوا به﴾ أي يصدقوه ويتقوا له ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي تخضع وتذل له قلوبهم، ﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدكم إلى الحق واتباعه ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ
لَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَأَلْذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في ﴿مريَةٍ﴾ أي في شك وريب من هذا القرآن قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وقال سعيد بن جبير وابن زيد ﴿منه﴾ أي مما ألقى الشيطان، ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتَةً﴾ قال مجاهد: فجأة، وقال قتادة: ﴿بغتَةً﴾ بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرهم ونعمتهم، فلا تغفروا بالله، إنه لا يغفر بالله إلا القوم الفاسقون، وقوله: ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ قال أبي بن كعب: هو يوم بدر؛ وقال عكرمة ومجاهد: هو يوم القيامة لا ليل له، وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به لكن هذا هو المراد، ولهذا قال: ﴿الملك يومئذ لله يحكم بينهم﴾، كقوله: ﴿مالك يوم الدين﴾، وقوله: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا مع توافق قلوبهم وأقوالهم ﴿في جنات النعيم﴾ أي لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد، ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي كفرت قلوبهم بالحق وجحدته، وكذبوا به وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم، ﴿فأولئك لهم عذاب مهين﴾ أي

(١) قال السيوطي بعدما ذكر هذه الروايات في الباب: وكلها إما ضعيفة وإما منقطعة، قال الحافظ ابن حجر: لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً، وقال ابن العربي: إن هذه الروايات باطلة لا أصل لها.

مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيَدْخُلْنَهُمْ مَدْخَلَ يُرِضُونَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ يَبْغِي عَلَيْهِ لِيَنْصُرْهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن مخرج مهاجرين في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده وترك الأوطان والأهلين والخلان، وفارق بلاده في الله ورسوله ونصرة لدين الله ﴿ثم قتلوا﴾ أي في الجهاد ﴿أو ماتوا﴾ أي حتف أنفسهم من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾، وقوله: ﴿ليرزقهم الله رزقاً حسناً﴾ أي ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، ﴿وإن الله هو خير الرازقين﴾ ليدخلهم مدخلاً يرضونه ﴿أي الجنة، كما قال تعالى: ﴿فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم﴾ فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم، كما قال ههنا: ﴿ليرزقهم الله رزقاً حسناً﴾، ثم قال: ﴿ليدخلهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم﴾ أي بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك، ﴿حليم﴾ أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب، فأما من قتل في سبيل الله فإنه حي عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾. والأحاديث في هذا كثيرة كما تقدم، وأما من توفي في سبيل الله فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه، قال ابن أبي حاتم عن ابن عتبة يعني أبا عبيدة بن عتبة قال، قال شرحبيل بن السمط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فر في سلمان يعني الفارسي رضي الله عنه فقال، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتنتين» وأقرأوا إن شئتم ﴿والذين هاجروا في الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقاً حسناً﴾ وإن الله هو خير الرازقين ليدخلهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم ﴿وعن عبد الرحمن بن جحدم الخولاني أنه حضر (فضالة بن عبيد) في البحر مع جنازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفي، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده، فقال: ما أبالي من أي حفرتيما بعثت، إن الله يقول: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقاً حسناً﴾ الآيتين، فما تبتغي أيها العبد إذا أدخلت مدخلاً ترضاه ورزقت رزقاً حسناً! والله ما أبالي من أي حفرتيما بعثت^(١). وقوله: ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به﴾ أي عاقب به ﴿الآية﴾، نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم ﴿إن الله لعفو غفور﴾^(٢)

(٢) ذكره مقاتل بن حيان وابن جرير

(١) رواه ابن أبي حاتم ورواه ابن جرير بنحوه .

إلى قطر ﴿ويعسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقلترته يسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي مع ظلمهم كما قال في الآية الأخرى ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾، وقوله: ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور﴾، كقوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾، وقوله: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾، وقوله: ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ ومعنى الكلام كيف يجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف، ﴿وهو الذي أحياكم﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر فأوجدكم، ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ أي يوم القيامة، ﴿إن الإنسان لكفور﴾ أي جحد لربه .

* لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً، وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويردد إليه، ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها، والمراد لكل أمة نبي جعلنا منسكاً، ﴿فلا ينازعك في الأمر﴾ أي هؤلاء المشركون، ﴿هم ناسكوه﴾ أي فاعلوه، فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق، ولهذا قال: ﴿وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ أي طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود، وهذه كقوله: ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾، وقوله: ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله: ﴿هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾، ولهذا قال: ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾، وهذه كقوله تعالى: ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ الآية .

* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السماوات وما في الأرض، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»^(١)، وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ: «قال أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن،

(١) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو .

فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى: اكتب فقال القلم: وما أكتب ؟ قال علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة فذلك قوله: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾، وهذا من تمام علمه تعالى علم الأشياء قبل كونها وقدرها وكتبها أيضاً، فيعلم قبل الخلق أن هذا بطبع باختياره وهذا بعصي باختياره وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه يسير لديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُنْزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَسْتَلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ شَرٌّ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

يقول مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني حجة وبرهاناً كقوله: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾، ولهذا قال ههنا ﴿ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم﴾ أي ولا علم لهم فيها اختلقوه واتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آباءهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سؤل لهم الشيطان وزينه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وما للظالمين من نصير﴾ أي من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال، ثم قال: ﴿وإذا تنلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله ﴿يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ أي يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ويسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿قل﴾ أي يا محمد هؤلاء ﴿أفأنتكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا﴾ أي النار وعذابها ونكالها أشد وأشق، وأظم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنعكم هذا أعظم مما تتلون منهم إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم، وقوله: ﴿وبئس المصير﴾ أي وبئس النار مقبلاً ومترلاً ومرجعاً وموتلاً ومقاماً ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾

يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ﴿يا أيها الناس ضرب مثل﴾ أي لما يعبدوه الجاهلون بالله المشركون به ﴿فاستمعوا له﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ أي لو اجتمع جميع ما تعبثون من الأصنام والأنداد، على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك، كما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا

خزة، فليخلقوا شعيرة»^(١)، ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستفذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾، قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب؛ واختاره ابن جرير، وقال السدي وغيره: الطالب العابد والمطلوب الصنم، ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرزاق ذو القوة المتين﴾، وقوله ﴿عَزِيزٌ﴾ أي قد عز كل شيء وغلبه، فلا يمانع ولا يغال، لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ^(٧٦)

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، فهو سبحانه رقيب عليهم شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ^(٧٨)

اختلف في هذه السجدة الثانية على قولين وقد قدمنا عن النبي ﷺ قال: «فضلت سورة الحج بسجديتين فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»، وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، ولهذا قال عليه السلام: «بعث بالحنيفة السمحة» وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بشراً ولا تنفراً، وبسراً ولا نعساً»، والأحاديث في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

(١) أخرجه في الصحيحين ورواه الإمام أحمد.

يعني من ضيق، وقوله: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ قال ابن جرير: نصب على تقدير ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي من ضيق بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم، ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم إبراهيم (قلت): وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: ﴿قل إني هادي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قماً ملة إبراهيم حنيفاً﴾ الآية، وقوله: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾، قال ابن عباس في قوله ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ قال: الله عز وجل. وقال ابن أسلم ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ يعني إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾ قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، وفي الذكر، ﴿وفي هذا﴾ يعني القرآن وكذا قال غيره. (قلت): وهذا هو الصواب لأنه تعالى قال: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه ملة إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة، بما نوه به من ذكرها والثناء عليها، في سالف الدهر وقديم الزمان، في كتب الأنبياء يتلى على الأجرار والرهبان، فقال: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿وفي هذا﴾، روى النسائي عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم»، قال رجل: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: «نعم وإن صام وصلى» فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله^(١)، ولهذا قال: ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً، عدولاً خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامة ﴿شهداء على الناس﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾، وقوله: ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي قابلوها هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿واعتصموا بالله﴾ أي اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به، ﴿هو مولاكم﴾ أي حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم، ﴿فنعم المولى نعم النصير﴾: يعني نعم المولى، ونعم الناصر من الأعداء.

[آخر تفسير سورة الحج ، والله الحمد والمنة]

(١) أخرجه النسائي في سننه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا»، ثم قال: لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر^(١). وقال النسائي في تفسيره عن يزيد بن بابنوس، قال، قلنا لعائشة أم المؤمنين: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ - حتى انتهت إلى - والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴿قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ. وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، ملاطها المسك، وحصابؤها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها: انظري، قالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، فقال الله: وعزتي وجلالي لا يحاورني فيك بخيل»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ أي قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال ابن عباس: ﴿خاشعون﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا ورواه الحافظ البزار والطبراني بنحوه .

خائفون ساكتون، وعن علي: الخشوع خشوع القلب، وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح. وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴿خَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ إِلَى مَوْضِعِ سَجُودِهِمْ، وَالْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ لِمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ لَهَا، وَاشْتَغَلَ بِهَا عَمَّا عِداهَا وَآثَرَهَا عَلَى غَيْرِهَا، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ رَاحَةٌ لَهُ وَقَرَّةٌ عَيْنٌ﴾ كما قال النبي ﷺ: «حَبِّبْ إِلَى الطَّيِّبِ، وَالنِّسَاءِ، وَجَعَلَتْ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١). وكان رسول الله ﷺ يقول: «يَا بَلَالُ، أَرْحِنَا بِالصَّلَاةِ»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾، قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وَأَتَوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وقد خاب من دساها، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا والله أعلم. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴿أي والذين قد حفظوا فرجهم من الحرام فلا يقعون فيها ناهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، أو ما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال: ﴿فَانْهَمُ غَيْرَ مُلُومِينَ﴾ فمن ابتغى وراء ذلك ﴿أي غير الأزواج والإماء﴾ فأولئك هم العادون ﴿أي المعتدون. وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي إذا أؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقلوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أؤْتِمِنَ خَانَ»، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»^(٣)، وفي مستدرک الحاكم قال: «الصلاة في أول وقتها»، وقال ابن مسعود ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد والنسائي عن أنس بن مالك مرفوعاً

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(٣) أخرجاه في الصحيحين .

يحافظون ﴿ يعني مواقيت الصلاة، وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها، وقد افتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» . ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾، وثبت في الصحيحين: «إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» . وقال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾» . وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فينبي بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة، ويبني بيته الذي في النار، فالؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم أطاعوا ربهم عز وجل بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقال هذا فكاكك من النار»، فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك، قال: فحلف له^(١). قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾، وكقوله: ﴿ وتلك الجنة التي أورتهموها بما كنتم تعملون ﴾ وقد قال مجاهد: الجنة هي الفردوس، وقال بعض السلف: لا يسمى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه عنب، فإله أعلم .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٨﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْماً فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْسَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون، وقال ابن عباس ﴿ من سلالة من طين ﴾ قال: من صفوة الماء، وقال مجاهد: من سلالة أي من بني آدم، وقال ابن جرير: إنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه، وقال قتادة: استل آدم من الطين، وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمإ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتشرون ﴾، وقال النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخيث والطيب وبين ذلك»^(٢). ﴿ ثم جعلناه نطفة ﴾ هذا الضمير عائذ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه مسلم عن أبي بردة عن أبيه مرفوعاً .

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح .

على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿أي ضعيف كما قال: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين﴾ يعني الرحم معد لذلك مهياً له، ﴿إلى قدر معلوم فقدردنا فنعم القادرون﴾ أي مدة معلومة وأجل معين، حتى استحكم ونقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة، ولهذا قال ههنا ﴿ثم خلقنا النطفة علقه﴾ أي ثم صيرنا النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة، فصارت علقه حمراء على شكل العلقه مستطيلة، قال عكرمة، وهي دم ﴿فخلقنا العلقه مضغة﴾ وهي قطعة كاللبضة من اللحم لا شكل فيها ولا تحطيط ﴿فخلقنا المضغة عظاماً﴾ يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصها وعروقها. وفي الصحيح: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجَب^(١) الذنَب، منه خلق وفيه يركب». ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. عن ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: إذ أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث، فذلك قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني نفخنا فيه الروح، وقال ابن عباس: يعني فنفخنا فيه الروح^(٢)؛ واختاره ابن جرير، وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾: يعني نقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هرمًا، وفي الصحيح: «إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(٣)

وقال عبد الله بن مسعود: إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوماً، ثم تنحدر في الرحم فتكون علقه^(٤)، وفي الصحيح: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة فيقول يا رب ماذا؟ شقي أم سعيد، أذكر أم أنثى؟ فيقول الله فيكتبان، ويكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه، ثم تطوى الصحيفة فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص»^(٥) وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقه، أي رب مضغة، فإذا أراد الله خلقها قال: أي رب ذكر أو أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ قال: فذلك يكتب في بطن أمه»^(٦). وقوله: ﴿فتبارك

(١) ما استند في مؤخره.

(٢) وكذا روي عن أبي سعيد الخدري، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، والضحاك، والحسن البصري.

(٣) أخرجه في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ورواه الإمام أحمد.

(٤) رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً.

(٥) الحديث رواه مسلم والإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري مرفوعاً.

(٦) الحديث أخرجه في الصحيحين ورواه الحافظ البزار واللفظ له.

الله أحسن الخالقين ﴿١٧﴾: يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال، ومن شكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق، قال: ﴿فبارك الله أحسن الخالقين﴾، وقوله: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت، ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ يعني النشأة الآخرة، ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ يعني يوم المعاد، وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفي كل عامل عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ﴿١٨﴾

لما ذكر تعالى خلق الإنسان عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾، وقوله: ﴿سبع طرائق﴾ قال مجاهد: يعني السموات السبع وهذه كقوله تعالى: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾، ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾، ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن متتلات الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾، وهكذا قال ههنا ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾ أي أنه سبحانه لا يحجب عنه سماء ولا أرض، ولا جبل إلا يعلم ما في وعرة، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار، ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٩﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٠﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذِّهْنِ وَصَبِغٍ لِلْكُلِينِ ﴿٢١﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُفَكِّرُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٢﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر، أي بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكتفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزروعها ولا تحتل دمنها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها الأرض الجزر يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجتره من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه، لأن أرضهم سباح يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور، وقوله: ﴿فأسكناه في الأرض﴾ أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية إليه، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى، وقوله: ﴿وإننا على ذهاب به لقادرون﴾ أي لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا، ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباح والبراري والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسي لفعلنا،

ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها بغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه ورحمته يترل عليكم المطر من السحاب عذاباً فزاعاً زلالاً، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، ويسقي به الزروع والثمار، تشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتتنظفون منه وتتنظفون، فله الحمد والمنة .

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق ﴿ذَاتِ بَهْجَةٍ﴾ أي ذات منظر حسن، وقوله: ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي فيها نخيل وأعناب، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره، وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي من جميع الثمار، كما قال: ﴿يَنْبِتْ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ معطوف على شيء مقلد، تقلد به: تنظرون إلى حسنه ونفضجه ومنه تأكلون، وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ﴾ يعني الزيتون، والطور هو الجبل، وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عري عنها سمي جبلاً لا طوراً والله أعلم. ﴿وَطُورِ سِينَاءَ﴾ هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون، وقوله: ﴿تَنْبِتُ بِالذَّهْنِ﴾ أي تنبت الدهن، كما في قول العرب: ألقى فلان بيده أي يده، ولهذا قال: ﴿وَصَبَّغْ﴾ أي أدم قاله قتادة ﴿لِلْأَكْلِينَ﴾ أي فيها ما يتنفع به من الدهن والاصطباغ، قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة»^(١). وروى عبد ابن حميد في مسنده عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «اتخذوا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة». وقوله: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نَسَيْتُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ يذكر تعالى ما جعل لخلقهم في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حملاتها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بَشَقَّ الْأَنْفُسِ إِنْ رُبِمَ لِرُؤُوفٍ رَحِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ فَجِئَ بِكُمْ مِنْهَا رُكُوبَهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَالِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ أَلَمَلُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتَّبِعُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون من الله في إشرائكم به؟ فقال الملأ - وهم السادة والأكابر منهم - ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد عن مالك بن ربيعة الساعدي مرفوعاً .

يعنون يرفع عليكم ويتعاطى بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم فكيف أوحى إليه دونكم؟! ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ أي لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ﴿ما سمعنا بهذا﴾ أي ببعثة البشر ﴿في آياتنا الأولى﴾ يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية، وقوله: ﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ أي مجنون فيها يزعمه من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي ﴿فدربصوا به حتى حين﴾ أي انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه .

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾، وقال ههنا: ﴿رب انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي ذكرًا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إلا من سبق عليه القول منهم﴾ أي من سبق عليه القول بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كانه وزوجته والله أعلم، وقوله: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ أي عند معاناة إترال المطر العظيم لا تأخذنك رافة بقومك وشفقة عليهم، وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان، وقد تقدمت القصة مبسطة في سورة هود بما يغني عن إعادة ذلك ههنا، وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كما قال: ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . تستوتوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه، وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾، وقد امتثل نوح عليه السلام هذا، كما قال تعالى: ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها﴾، فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه. ﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي إن في هذا الصنيع - وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين - آيات، أي لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء، وقوله: ﴿وإن كنا لمبتلين﴾ أي لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ . أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآحِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ لَأَنْكَرَ إِذَا تُخْرِسُونَ﴾

﴿٣٥﴾ أَيْعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظْنَا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٦﴾ هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٤٠﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤١﴾ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴿٤٢﴾ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين، قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم، وقيل: المراد بهؤلاء ثمود، لقوله: ﴿فآخذتهم الصيحة بالحق﴾، وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوه وخالفوه وأبوا اتباعه لكونه بشراً مثلهم، وكذبوا بقاء الله، وقالوا: ﴿أبعدكم أنكم إذا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظْنَا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ﴾ هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوعَدُونَ أي بعد ذلك، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي فيما جاءكم به من الرسالة والإخبار بالمعاد، ﴿وما نحن له بمؤمنين﴾ قال رب انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ أي استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاءه، ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتكم به، ﴿فآخذتهم الصيحة بالحق﴾ أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة تدمر كل شيء بأمر ربها، ﴿فأصبحوا لا يرى إِلَّا مساكنهم﴾، وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي صرعى هلكى كثفاء السيل وهو الشيء الحثير الثافه المالك الذي لا ينتفع بشيء منه، ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ أي بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم .

﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٥﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴿٤٧﴾ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٨﴾ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ أي أمماً وخلائق ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ يعني بل يؤخّلون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه، قبل كونهم أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ قال ابن عباس: يعني يتبع بعضهم بعضاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطواغوت﴾ فهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة، ﴿وقوله: ﴿كَلِمًا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ﴾ يعني جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إِلَّا كانوا به يستهزئون﴾، وقوله: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ أي أهلكتناهم، كقوله: ﴿وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَزْقٍ﴾

﴿٥٠﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٥١﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٥٢﴾

فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى

الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم. فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب - وهو التوراة - فيها أحكامه وأوامره ونواهيها، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامه، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى بن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس، أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. وقوله: ﴿ وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ قال ابن عباس: الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات، ﴿ ذات قرار ﴾ يقول ذات خصب ﴿ ومعين ﴾ يعني ماء ظاهراً^(١)، وقال مجاهد: ربوة مستوية. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿ ذات قرار ومعين ﴾: استوى الماء فيها، وقال مجاهد وقتادة: ﴿ ومعين ﴾ الماء الجاري، ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة؟ فقال سعيد بن المسيب: هي دمشق، وعن ابن عباس: ﴿ ذات قرار ومعين ﴾ قال: أنهار دمشق، وقال مجاهد: ﴿ وآويناها إلى ربوة ﴾ قال: عيسى بن مريم وأمه حين أويا إلى غرطة دمشق وما حولها، وقال عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: هي الرملة من فلسطين، وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس قال: المعين الماء الجاري وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿ قد جعل ربك تحتك سريباً ﴾، وكذا قال الضحاك وقتادة: إلى ربوة ذات قرار ومعين، هو بيت المقدس، فهذا والله أعلم هو الأظهر، لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْنَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال،

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة وقتادة.

فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً، قال الحسن البصري في قوله ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾ قال: أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبير والضحاك ﴿كلوا من الطيبات﴾: يعني الحلال، وكان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه، وفي الصحيح: «وما من نبي إلا رعى الغنم» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم وأنا كنت أراعها على قراريط لأهل مكة»، وفي الصحيح: «إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده»، وقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فإني يستجاب لذلك»^(١) ٩! وقوله: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾، وقوله: ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً﴾ أي الأئمة التي بعثت إليهم الأنبياء ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أي في غيهم وضلالهم ﴿حتى حين﴾ أي إلى حين هلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾، وقال تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿أيحسبون أنما نخدمهم به من مال وبينن نساوع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ يعني أيقظ هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد، لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا، كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعدين﴾ لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجائهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء، ولهذا قال: ﴿بل لا يشعرون﴾، كما قال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليذهبهم بها في الحياة الدنيا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إنما نغلي لهم ليزدادوا إثماً﴾، وقال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة. قال قتادة: مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه» قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: «غشمه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»^(٢)

(١) رواه مسلم والترمذي والإمام أحمد واللفظ له . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن ابن مسعود مرفوعاً .

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْأَخْيَارِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المناق جمع إساءة وأمناء، ﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ أي أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله: ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أي لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله، وأنه لا نظير له ولا كفاء. وقوله: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل»^(١). ﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ ، وقد قرأ آخرون هذه الآية ﴿والذين يأتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾: أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروي هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قرأها كذلك، والمعنى على القراءة الأولى وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر؛ لأنه قال: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدین أو المقصرين، والله أعلم.

وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تَنْصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَكْصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا، أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها: أي إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم، التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء، ولهذا

(١) ورواه الترمذي وابن أبي حاتم بنحوه وقال: لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم.

قال: ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ يعني كتاب الأعمال، ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين، ثم قال منكراً على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بل قلوبهم في غمرة﴾ أي في غفلة وضلالة من هذا، أي القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ، وقوله: ﴿ولهم أعمال من دون ذلك﴾ هم لها عاملون، قال ابن عباس: ﴿ولهم أعمال﴾ أي سيئة من دون ذلك يعني الشرك ﴿هم لها عاملون﴾، قال: لا بد أن يعملوها، وقال آخرون ﴿ولهم أعمال من دون ذلك﴾ هم لها عاملون: أي قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحقق عليهم كلمة العذاب^(١)، وهو ظاهر قوي حسن، وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»، وقوله: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾ يعني حتى إذا جاء مترفيهم - وهم المنعمون في الدنيا - عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إذا هم يجأرون﴾ أي يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿ذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾، وقال تعالى: ﴿وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص﴾، وقوله: ﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ أي لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتكم أو سكتكم لا محيد ولا مناص ولا وزر، لزم الأمر ووجب العذاب، ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾: أي إذا دعيت آيتهم وإن طلبتم امتنعتم، ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرِك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾، وقوله: ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ الضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. وقيل: إنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وقيل المراد بقوله: ﴿مستكبرين به﴾ أي بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به، كما قال ابن عباس: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله ﴿سامراً﴾ قال: كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه^(٢)

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُوهُنَّ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرَجًا نَخْرُجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجَاؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

(١) وروي نحو هذا عن مقاتل والسدي وابن أسلم.

(٢) أخرجه النسائي في التفسير عن ابن عباس.

يقول تعالى منكرًا على المشركين، في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، ثم قال منكرًا على الكافرين من قريش: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ أي أنهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيافته التي نشأ بها فيهم، ولهذا قال (جعفر بن أبي طالب) رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وهكذا قال (المغيرة بن شعبة) لثائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال (أبو سفيان) لملك الروم هرقل حين سألته وأصحابه عن صفات النبي ﷺ، ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصديق فاعترفوا بذلك. وقوله: ﴿أم يقولون به جنة﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ، أنه تقول القرآن أي اقتراه من عنده، أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولون في القرآن، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين، ولهذا قال: ﴿بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾، قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره، فقال نبي الله ﷺ: «وإن كنت كارهاً». وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فتصعده ذلك وكبر عليه، فقال له نبي الله ﷺ: «أرأيت لو كنت في طريق وعر وعث، فلقيت رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تنبئه؟» قال: نعم، قال: «فوالذي نفس محمد بيده إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه، وإني لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت إليه». وقوله: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ قال مجاهد والسدي: الحق هو الله عز وجل، والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافهم، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾، وقال تعالى: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنم خشية الإنفاق﴾ الآية .

ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وتديره لخلقه تعالى وتقدس، ولهذا قال: ﴿بل أنبأهم بذكرهم﴾ أي القرآن فهم عن ذكرهم معرضون، وقوله: ﴿أم تسألهم خرجاً﴾ قال الحسن: أجرأ، وقال قتادة: جعلاً ﴿فخرج ربك خير﴾ أي أنت لا تسألهم أجره ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله﴾، وقال: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾، وقال: ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾، وقوله: ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لنا كبون. عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان، فقعد أحدهما عند رجله، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر اتبها إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة، فقال: أرأيتم إن أوردتكم رياضاً معشبة وحياضاً

رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم وأوردكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني، قال: فقالت طائفة: صدق والله لتتبعنه، وقالت طائفة: قد رضىنا بهذا نقيم عليه^(١). وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إني ممسك بحجزكم هلم عن النار، هلم عن النار وتغلبوني، تتفاحمون فيها تفاحم الفراش والجنادب، فأولئك أن أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض، فتردون عليّ معاً وأشتاتاً، أعرفكم بسباكم وأسماكم كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين أي رب قومي، أي رب أمتي، فيقال: يا محمد إنك لا تدري ما أخذوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري على أعقابهم^(٢). وقوله: ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكون﴾ أي لعادلون جاثرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها، وقوله: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم، بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له، ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطيغيانهم، كما قال تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون، قال ابن عباس: كل ما فيه (لو) فهو مما لا يكون أبداً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَمَّا اسْتَكَانُوا لِلرَّبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ ٧٦ ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ٧٧ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ٧٨ ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ٧٩ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٨٠ ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ٨١ ﴿قَالُوا أَأُودِئْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وِعِظْمُنَا أَوْ نَا لَمَجْعُونُونَ﴾ ٨٢ ﴿لَقَدْ عُذِّنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٨٣

يقول تعالى: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿فما استكانوا للربهم وما يتضرعون﴾ أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيهم وضلالهم، ما استكانوا أي ما خشعوا ﴿وما يتضرعون﴾ أي ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم﴾ الآية. عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز يعني الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا﴾^(٣)، وأصله في الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف». وقوله: ﴿حتى إذا

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) أخرجه الحافظ الموصلي وقال علي بن المديني: هذا حديث حسن الإسناد.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم والنسائي، وأصله في الصحيحين.

فتحننا عليهم ياباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴿٨٤﴾ أي حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير، وأيسوا من كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم، ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهي العقول التي يذكرون بها الأشياء، ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وقوله: ﴿٨٥﴾ قليلاً ما تشكرون ﴿٨٦﴾ أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، في برئه الخليقة وذريته لهم في سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، ولهذا قال: ﴿٨٧﴾ وهو الذي يحيي ويميت ﴿٨٨﴾ أي يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿٨٩﴾ وله اختلاف الليل والنهار ﴿٩٠﴾ أي وعن أمره تسخير الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما كقوله: ﴿٩١﴾ لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر ولا الليل سابق النهار ﴿٩٢﴾ الآية، وقوله: ﴿٩٣﴾ أفلا تعقلون ﴿٩٤﴾ أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء وخضع له كل شيء ؟ ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين ﴿٩٥﴾ بل قالوا مثل ما قال الأولون • قالوا أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعوثون ﴿٩٦﴾ يعني يستبعلون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿٩٧﴾ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل، إن هذا إلا أساطير الأولين ﴿٩٨﴾ يعنون الإعادة محال إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم، وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخباراً عنهم ﴿٩٩﴾ أنذا كنا عظاماً نخره قالوا تلك إذا كرة خاسرة ﴿١٠٠﴾، ﴿١٠١﴾ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم • قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿١٠٢﴾ الآيات

قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّعْيِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نَنْقُوزُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدِّ يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَلَهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿٩٠﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ﴿٨٤﴾ قل لمن الأرض ومن فيها ؟ ﴿٨٥﴾ أي من مالكتها الذي خلقها، ومن فيها من الحيوانات والنباتات، والثمار وسائر صنوف المخلوقات ؟ ﴿٨٦﴾ إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ﴿٨٧﴾ أي فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿٨٨﴾ قل أفلا تذكرون ﴿٨٩﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره، ﴿٩٠﴾ قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ ﴿٩١﴾ أي من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات ؟ ومن هو رب العرش العظيم يعني الذي هو سقف المخلوقات ؟ كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: « شأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ إِنْ عَرْشُهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ هَكَذَا » وأشار بيده مثل القبة^(١). وفي الحديث الآخر: « ما السماوات السبع والأرضون

السبع وما بينهما وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كذلك الحلقة في تلك الفلاة»، عن ابن عباس: إنما سمي عرشاً لارتفاعه، وقال مجاهد: ما السماوات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر قدره أحد إلا الله عز وجل. ولهذا قال ههنا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي الكبير، وقال آخر السورة ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أي الحسن البهي فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع، والعلو والحسن الباهر؛ قال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه، وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَمْلِكُ مِنْ يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي بيده الملك ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي متصرف فيها، وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا والذي نفسي بيده»، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لا ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وَهُوَ يَجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم أجار أحداً لا يخفر في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه لثلاث يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يَجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه، ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنِّي تَسْحَرُونَ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟ ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِآيَاتِنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فالمشركون إنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال الله عنهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

مَا آتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

يتره تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فقال تعالى: ﴿مَا آتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي لو قدر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، غاية الكمال ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض، والمتكلمون عبروا عنه بدليل (التامع) وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالاً؛ فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب، والآخر المظلوم ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي يعلم ما غيب

عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فتعالى عما يشركون﴾ أي تقدس وتزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحلون .

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ اُدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى أمرأ نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿رب إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم؛ كما جاء في الحديث: «وإذا أردت بقوم فتنه فتوفني إليك غير مفتون»^(١). وقوله تعالى: ﴿وإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ أي لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والحن، ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾، وهذا كما قال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عداوة كَأنه ولي حميم﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل، ولا يتقادون بالمعروف، وفي الصحيح: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه». وقوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور، ولهذا روي أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهضم، ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت»^(٢). وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمنا من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه^(٣). حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: ﴿رب ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ كقوله ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب

(١) أخرجه أحمد والترمذي وصححه .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه .

(٣) ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن غريب .

يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴿﴾ وقال تعالى: ﴿﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴿﴾ الآية، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وهم في غمرات عذاب الجحيم، وقوله ههنا: ﴿﴾ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴿﴾ كلا حرف ردع وزجر أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه. وقوله تعالى: ﴿﴾ إنها كلمة هو قائلها ﴿﴾ قال ابن أسلم: أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله ﴿﴾ كلا ﴿﴾ أي سؤاله الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحاً ولكان يكذب في مقاله هذه، كما قال تعالى: ﴿﴾ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿﴾. قال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل، فرحم الله امرأ عمل فيما يتنناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار. وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة: إذا قال الكافر رب ارجعون لعلني أعمل صالحاً يقول الله تعالى: كلا كذبت، وكان العلاء بن زياد يقول: لبتلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى. وقال قتادة: والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمانة الكافر المفرط، فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله. وعن أبي هريرة قال: إذا وضع - يعني الكافر - في قبره ف يرى مقعده من النار، قال: فيقول رب ارجعون أتوب وأعمل صالحاً، قال: فيقال: قد عمرت ما كنت معمراً، قال: فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنهوش ينام ويفزع تهوي إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها^(١). وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ويل لأهل المعاصي من أهل القبور، تدخل عليهم في قبورهم حيات سود، أو دهم. حية عند رأسه، وحية عند رجله، يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿﴾ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴿﴾^(٢). قال مجاهد: البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم، وقال أبو صخر: البرزخ المقابر لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة فهم مقيمون إلى يوم يبعثون، وفي قوله تعالى: ﴿﴾ ومن ورائهم برزخ ﴿﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال تعالى: ﴿﴾ من ورائهم جهنم ﴿﴾ وقال تعالى: ﴿﴾ ومن ورائه عذاب غليظ ﴿﴾، وقوله تعالى: ﴿﴾ إلى يوم يبعثون ﴿﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء في الحديث: « فلا يزال معذباً فيها » أي في الأرض .

* فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْعَقُهُمْ جُوهُهُمُ النَّارُ وَمِمَّ فِيهَا كَلِيلُونَ ﴿١٠٤﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور ﴿﴾ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴿﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة موقوفاً .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عائشة موقوفاً .

أي لا تنفع الإنسان يومئذ قرابة ولا يرثي والد لولده ولا يلوي عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيًّا يَبْصُرُونَهُمْ﴾ أي لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، ولو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ الآية. وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه، قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصدق ذلك في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١). وروى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني يغني ما يغنيها وينشطني ما ينشطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسي وسبي وصهري»، وهذا الحديث له أصل في الصحيحين: «فاطمة بضعة مني يربني ما يربها ويؤذي ما آذاها». وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضي الله عنه أنه لما تزوج (أم كلثوم) بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنها قال: أما والله ما بي إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا سبي ونسي»^(٢)، وروى الحافظ ابن عساكر عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسي وصهري».

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قال ابن عباس: ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة، ﴿ومن خفت موازينه﴾: أي ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي خابوا وهلكوا وباعوا بالصفقة الخاسرة. عن أنس بن مالك يرفعه قال: إن لله ملكاً موثقاً بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً^(٣). قال تعالى: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي ما يكون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون ﴿تَلْفَحُ وَجوههم النار﴾، كما قال تعالى: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾، وقال تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ الآية. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن جهنم لما سبق لها أهلها، تلقاهم لها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب»^(٤). وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى ﴿تَلْفَحُ وَجوههم النار﴾ قال: تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم^(٥) وقوله تعالى: ﴿وهم فيها كالحون﴾ قال ابن عباس: يعني عابسون، وقال ابن مسعود: ﴿وهم فيها كالحون﴾ قال: ألم تر إلى الرأس المشيط الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه، وعن أبي سعيد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود.

(٢) رواه الطبراني والبخاري والبيهقي والحافظ الضياء في المختارة وذكر أنه أصدقها أربعين ألفاً إعظماً وإكراماً.

(٣) رواه الحافظ البزار وفي إسناده ضعف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة.

(٥) أخرجه ابن مردويه عن أبي الدرداء.

الخدري عن النبي ﷺ قال: «**﴿وَمِنْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾** قال تشويه النار، فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه. وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرتة»^(١)

أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَىٰ لُتَّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿٢٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٢٧﴾

هذا تهريج من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبه من الكفر والمآثم، والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك فقال تعالى: **﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَىٰ تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾** أي قد أرسلت إليكم الرسل وأنزلت إليكم الكتب وأنزلت شبهكم ولم يبق لكم حجة، كما قال تعالى: **﴿لَتَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرِّسَالِ﴾**، وقال: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾**، ولهذا قال: **﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾** أي قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن نقادها ونتبعها فضلنا عنها ولم نرزقها، ثم قالوا: **﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾** أي أرددنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قال: **﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾** ؟ أي لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون .

قَالَ اخْسَؤْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ كِبْرًا حَتَّىٰ أَنسَوُا ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿٣٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣١﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار، والرجعة إلى هذه الدار. يقول: **﴿اخْسَؤْا فِيهَا﴾** أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء **﴿وَلَا تَكَلِّمُونَ﴾** أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي، قال ابن عباس **﴿اخْسَؤْا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ﴾** قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه. وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرد عليهم إنكم ما كنتم، قال: هانت دعوتهم والله على (مالك) ورب مالك؛ ثم يدعون ربهم فيقولون: **﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾** ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإننا ظالمون **﴿فَالْأَخْسَؤْا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ﴾** قال: فوالله ما ننس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم، قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أو لها زفير وآخرها شهيق، وقال عبد الله بن مسعود: إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحداً يعني من جهنم غير وجوههم وألوانهم، فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع، فيقول: يا رب، فيقول الله من عرف أحداً فليخرجه، فيجيء الرجل من المؤمنين فينظر، فلا يعرف أحداً فيتأديه الرجل: يا فلان أنا فلان، فيقول: ما أعرفك، قال: فعند ذلك يقولون: **﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾** فعند ذلك يقول الله الله تعالى: **﴿اخْسَؤْا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ﴾** فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحداً^(٢)؛ ثم قال تعالى

(١) أخرجه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حسن غريب . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً .

مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال تعالى: ﴿إِنَّهٗ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۖ فَاتَّخَذْتَهُمْ سَخِرِيًا ۚ أَيُّ فَسَحْرَتِهِمْ مِنْهُمْ فِي دَعَائِهِمْ إِنِّي بِمَا تَصِفُونَ أَدْرِكُهُمْ لَسْعَافُ عَذَابِي ۚ﴾ أي فسخرتهم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي حملكم بغضهم على أن أنسىتم معاملتي ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي يلغزونهم استهزاء؛ ثم أخبر تعالى عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي على أذاكم لم واستهزائكم بهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار .

قُلْ كَلَّيْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَعَلَ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُرْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ائْتَمَرْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَادًا وَأَنكُرْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى منبأ لهم على ما أفصاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لغازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾ أي الحاسيين، ﴿قَالَ إِنْ لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَوْ أَنكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء، ولا استحققتهم من الله سخطه في تلك المدة البسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ قَالَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، قَالَ: لَنْبِمَ مَا تَجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، رَحِمَنِي وَرِضْوَانِي وَجَنَّتِي امْكُتُوا فِيهَا خَالِدِينَ مَخْلُودِينَ . ثُمَّ قَالَ: يَا أَهْلَ النَّارِ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فيقول بشس ما تَجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، نَارِي وَسَخَطِي امْكُتُوا فِيهَا خَالِدِينَ مَخْلُودِينَ»^(١). وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَادًا﴾ أي أفظنتم أنكم مخلوقون عبداً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا؟ وقيل: للعبث للتعبدوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿وَأَنكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ أي لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يَتْرَكَ سُدًى﴾ يعني هملأ، وقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي تقدس أن يخلق شيئاً عبداً فإنه الملك الحق المتزه عن ذلك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهي الشكل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ .

وكان آخر خطبة خطبها (عمر بن عبد العزيز) أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبداً، ولن تركوا سدى، وإن لكم معاداً يتزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر وشقي

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبيه عن عبد الكلاعي مرفوعاً .

عبد أخرجه الله من رحمته، وحرّم جنة عرضها السماوات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يؤمن عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافداً بياق، وقليلاً بكثير، وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين وسيكون من بعدكم الباقين، حتى تردون إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل قد قضى نجه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وباشر التراب، وواجه الحساب، مرتين بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم، فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء موآثيقه وتزول الموت بكم، ثم جعل طرف رداثه على وجهه فبكى وأبكى من حوله^(١). وروى أبو نعيم عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾؟ قال: فقرأناها فغفمنا وسلمنا، وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «أمان أمني من الفرق إذا ركبوا السفينة: باسم الله الملك الحق، وما قلروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون، بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم».

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾
وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له، أي لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي الله يحاسبه على ذلك؛ ثم أخبر ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾: أي لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة. قال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله وكذا وكذا حتى عدّ أصناماً، فقال رسول الله ﷺ: «فأيهم إذا أصابك ضر فدعوتك كشفه عنك؟» قال: الله عز وجل، قال: «فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوتك أعطاكها؟» قال: الله عز وجل، قال: «فما يملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه؟» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه، فقال رسول الله ﷺ: «تعلمون ولا تعلمون»، فقال الرجل بعدما أسلم: لقيت رجلاً خصمني^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق، معناه محو الذنب وسره عن الناس، والرحمة معناها أن يسدده ويوقفه في الأقوال والأفعال.

[آخر تفسير سورة المؤمنون، والله الحمد والمآلة]

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن رجل من آل سعيد بن العاص.

(٢) قال ابن كثير: هذا مرسل من هذا الوجه وقد رواه الترمذي مستنداً.

(٢٤) سُورَةُ النُّورِ قَدْ نَبِّهَ
وَأَنبَأَ الْإِنْسَانُ بِشَيْءٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

يقول تعالى هذه السورة أنزلناها، فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها ﴿١﴾ وفرضناها ﴿٢﴾ قال مجاهد: أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود، وقال البخاري: ومن قرأ ﴿١﴾ فرضناها ﴿٢﴾ يقول: فرضناها عليكم وعلى من بعدكم، ﴿٣﴾ وأنزلنا فيها آيات بينات ﴿٤﴾ أي مفسرات واضحات ﴿٥﴾ لعلكم تذكرون ﴿٦﴾، ثم قال تعالى: ﴿٧﴾ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴿٨﴾ يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وللعلماء فيه تفصيل، فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً وهو الذي لم يتزوج، أو محصناً وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل، فأما إذا كان بكراً لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يغرب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب، وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفاً - يعني أجيراً - على هذا، فزني بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى: الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام، واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها فاعترفت فرجمها^(١). وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً، فأما إذا كان محصناً فإنه يرجم، كما روى الإمام مالك .

(١) أخرجه في الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني .

عن ابن عباس أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها، ورحم رسول الله ﷺ، ورجعنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضنوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف»^(١). وفي رواية عنه: «ولولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت»^(٢). وقال ابن عمر: نبئت عن كثير بن الصلت قال: كنا عند مروان وفينا زيد فقال زيد بن ثابت: كنا نقرأ: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، قال مروان: ألا كتبها في المصحف؟ قال: ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفيكم من ذلك، قال، قلنا: فكيف؟ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: فذكر كذا وكذا الرجم، فقال: يا رسول الله اكتب لي آية الرجم، قال: «لا أستطيع الآن»، هذا أو نحو ذلك^(٣). وهذه طرق كلها متعددة متعاضدة، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة ففسخ تلاوتها وبني حكمها معمولاً به والله أعلم. وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة لما زنت مع الأجير، ورحم رسول الله ﷺ (ماعزاً) و (الغامدية) ولم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدتم قبل الرجم، ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله؛ وذهب الإمام أحمد إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية والرجم للسنة، كما روى الإمام أحمد وأهل السنن عن عباد بن الصامت قال، قال رسول الله ﷺ: «خذلوا عني خذلوا عني، قد جعل الله لمن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

وقوله تعالى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ أي في حكم الله أي لا ترأفوا بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك، قال مجاهد ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ قال: إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل، وقد جاء في الحديث: «تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب»، وفي الحديث الآخر: «لحد يقام في الأرض خير لأهلها من أن يعطروا أربعين صباحاً»، وقيل: المراد ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم، وليس المراد الضرب المبرح، قال عامر الشعبي: رحمة في شدة الضرب، وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح، وقال: هذا في الحكم والجلد يعني في إقامة الحد وفي شدة الضرب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجلها، قال نافع: أراه قال: وظهرها، قال، قلت: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ قال: يا بني ورأيتني أخذتني بها رأفة إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جلدتها في رأسها، وقد أوجعت حين ضربتها، وقوله تعالى: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرحاً،

(١) أخرجه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً

(٢) أخرجه الإمام أحمد والنسائي .

(٣) أخرجه الحافظ الموصلي عن محمد بن سيرين .

ليتردع هو ومن يصنع مثله بذلك، وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال: «ولك في ذلك أجر»، وقوله تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدوا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقييماً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً، قال الحسن البصري في قوله ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾: يعني علانية، والطائفة الرجل فما فوقه، وقال مجاهد: الطائفة الرجل الواحد إلى الألف، وكذا قال عكرمة ولهذا قال أحمد: إن الطائفة تصدق على واحد، وقال عطاء بن أبي رباح: اثنان، وقال الزهري ثلاثة نفر فصاعداً، وقال الإمام مالك: الطائفة أربعة نفر فصاعداً، لأنه لا يكفي شهادة في الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً، وبه قال الشافعي، وقال الحسن البصري: عشرة، وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين: أي نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يوطأ إلا زانية أو مشركة، أي لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿الزانية لا ينكحها إلا زان﴾ أي عاص بزناه ﴿أو مشرك﴾ لا يعتقد تحرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع لا يزي بها إلا زان أو مشرك^(١)، وقوله تعالى: ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي تعايطه والتزوج بالبغياء أو تزويج العفاف بالرجال الفجار، وقال أبو داود الطيالسي عن ابن عباس ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ قال: حرم الله الزنا على المؤمنين، وقال قتادة ومقاتل ابن حيان: حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان﴾، وقوله: ﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذين أخدان﴾ الآية، ومن ههنا ذهب الإمام أحمد إلى أنه لا يصح العقد من الرجل الغفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستاب، فإن تاب صح العقد عليها وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة، لقوله تعالى: ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾. عن عبد الله بن عمرو: قال كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فأنزل الله عز وجل: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾^(٢). وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له (مرثد بن أبي مرثد) وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها (عناق) وكانت صديقة له، وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فبحث حتى اتيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط، فلما انتهت إلي عرفني، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد، فقالت: مرحباً وأهلاً، فلم فبت عندنا الليلة، قال، فقلت: يا عناق حرم الله الزنا، فقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فبغيتي ثمانية ودخلت الحديقة، فاتيت إلى غار أو كهف، فدخلت فيه فجاءوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا، فظل بولهم على رأسي، فأعماهم

(١) هذا إسناد صحيح عن ابن عباس وقد روي نحو ذلك عن مجاهد وعكرمة والضحاك ومقاتل وسعيد بن جبير .

(٢) رواه النسائي والأمام أحمد .

الله عني، قال: ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته، وكان ثقبلاً حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككت عنه أحبله، فجعلت أحمله ويعينني حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً أنكح عناقاً - مرتين؟ - فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يرد علي شيئاً حتى نزلت ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد: الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها»^(١)

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن يسار مولى ابن عمر قال: أشهد لسمعت سالمًا يقول: قال عبد الله، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة، العاق لوالديه، والمرأة المترجلة المشبهة بالرجال، والديوث»، وفي رواية: «ثلاثة حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والذي يقر في أهله الخبث». وقال أبو داود الطيالسي في مسنده عن عمار بن ياسر قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة ديوث»^(٢). وفي الحديث: «من أراد أن يلقي الله وهو طاهر متطهر فليترج الحرائر»^(٣). فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج، لما روي عن ابن عباس وسأله رجل فقال: إني كنت ألم بامرأة آتت منها ما حرم الله عز وجل علي فرزق الله عز وجل من ذلك توبة، فأردت أن أتزوجها، فقال أناس: إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فقال ابن عباس: ليس هذا في هذا، انكحها فما كان من إثم فعلي^(٤)، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذه الآية منسوخة. قال ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: ذكر عنده ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾ قال: نسخها التي بعدها: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ قال: كان يقال الأيامى من المسلمين^(٥)

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقلوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضاً، وليس فيه نزاع بين العلماء، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام: (أحدها) أن يجلد ثمانين جلدة، (الثاني) أن ترد شهادته أبداً، (الثالث) أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس؛ ثم قال تعالى: ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ الآية. واختلف العلماء في هذا الاستثناء؛ هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط، قترفع التوبة

(١) رواه الترمذي والنسائي وأبو داود واللفظ للترمذي.

(٢) في الصحاح للجوهري الديوث: القترع وهو الذي لا غيره له على أهله.

(٣) أخرجه ابن ماجه وفي إسناده ضعف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن شعبة مولى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه ابن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ ونص عليه الإمام الشافعي رحمه الله.

الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ وأما الجلد فقد ذهب وانتقضى سواء تاب أو أصر، ولا حكم له بعد ذلك، بلا خلاف. فذهب (مالك وأحمد والشافعي) إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق^(١)، وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط فيرتفع الفسق بالتوبة ويبقى مردود الشهادة أبداً^(٢)، وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته، والله أعلم.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته، وتعرّس عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل، وهو أن يحضرها إلى الإمام، فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين: أي فيما رماها به من الزنا والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ﴿٦﴾ فإذا قال ذلك بانت منه وحرمت عليه أبداً، ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين: أي فيما رماها به، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴿٧﴾، ولهذا قال: ﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ يعني الحد، ﴿أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين﴾ والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴿فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه؛ ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق، فقال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي لحرّجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ﴿وأن الله تواب﴾ أي على عباده، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿حكيماً﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه.

عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾، قال سعد بن عباد وهو سيد الأنصار رضي الله عنه: أهلكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيديكم؟» فقالوا: يا رسول الله لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيبرته، فقال

(١) نقل هذا عن سعيد بن المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً.

(٢) وبه قال شريح وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومكحول وغيرهم رضي الله عنهم.

سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم إنها لحق وأنها من الله، ولكني قد تعجبت أي لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيج به ولا أحركه، حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته، قال: فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء (هلال بن أمية) وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينه وسمع بأذنيه، فلم يهيج حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه واجتمعت عليه الأنصار، وقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عباد، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويطلق شهادته في الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً، وقال هلال: يا رسول الله إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله يعلم إني لصادق، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي، وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تريب وجهه، يعني فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فترلت: ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله﴾ الآية، فسري عن رسول الله ﷺ فقال: «أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً»، فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل، فقال رسول الله ﷺ: «فأرسلوا إليها»، فأرسلوا إليها فجاءت فتلاها رسول الله ﷺ عليهما فذكرهما، وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليا، فقالت: كذب، فقال رسول الله ﷺ: «لاعنوا بينهما»، فقبل هلال، اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كانت الخامسة قبل له يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال: والله لا يعذبني الله عليا كما لم يجلدني عليا، فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قيل للمرأة: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وقبل لها عند الخامسة اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف، ثم قالت: والله لا أفصح قومي فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليا إن كان من الصادقين؛ ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى أن لا بدعي ولدها لأب، ولا يرمى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت لها من أجل أنها يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها، وقال: «إن جاءت به أصيب أريشع حمش الساقين فهو لهلال، وإن جاءت به أورك جعداً جمالياً خدليح الساقين فهو للأيتين الذي رميت به»، فجاءت به أورك جعداً جمالياً خدليح الساقين ساينغ الأيتين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن»، قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب^(١)

ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة؛ فمنها ما رواه البخاري عن ابن عباس: أن هلال بن أمية كذب امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «الينة أو حد في ظهرك» فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس الينة، فجعل النبي ﷺ يقول: «الينة وإلا حد في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق وليرتلن الله ما يرى ظهري من الحد، فترل جبريل

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود بنحوه مختصراً.

وأُنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ - فقرأ حتى بلغ ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ، فأرسل إليهما فشهد هلال والنبي ﷺ يقول «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكَ تَائِبٌ» ثم قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم فضت، فقال النبي ﷺ: «أَبْصُرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلُ الْعَيْنَيْنِ سَابِغِ الْأَلْبَتَيْنِ خُدْلِجِ السَّاقَيْنِ فَهُوَ لَشْرِيكَ بْنِ سَحْمَاءَ» فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ»^(١). وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال: كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد، فقال رجل من الأنصار: إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتله قتلتموه وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكنت على غيظ؟! والله لئن أصبحت صحيحاً لأسألن رسول الله ﷺ، قال: فسأله، فقال: يا رسول الله إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكنت على غيظ، اللهم احكم، قال: فترلت آية اللعان، فكان ذلك الرجل أول من ابتلي به^(٢). وعن سهل بن سعد قال: جاء عويمر إلى (عاصم بن عدي) فقال له: سل رسول الله ﷺ أرأيت رجلاً وجد رجلاً مع امرأته فقتله أبقثل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ، فعاب رسول الله ﷺ المسائل، قال: فلقبه عويمر فقال: ما صنعت؟ قال: ما صنعت أنك لم تأتني بخير، سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل، فقال عويمر: والله لآتين رسول الله ﷺ فلا سأله، فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيها، قال: فدعا بهما ولاعن بينهما، قال عويمر: إن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها، قال ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ، فصارت سنة المتلاعنين، وقال رسول الله ﷺ: «أَبْصُرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمُ أَدْعَجِ الْعَيْنَيْنِ عَظِيمِ الْأَلْبَتَيْنِ فَلَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ صَدَقَ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَحْمِرُ كَأَنَّهُ وَحْرَةٌ، فَلَا أَرَاهُ إِلَّا كَاذِباً»، فجاءت به على النعت المكروه^(٣).

وروى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لأول لعان كان في الإسلام أن شريك بن سحماء قذفه هلال بن أمية بامرأته، فرفعه إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعَةُ شُهُودٍ وَإِلَّا فَحَدٌ فِي ظَهْرِكَ» فقال: يا رسول الله إن الله يعلم إني لصادق، وليرتلن الله عليك ما يبريء به ظهري من الجلد، فأُنزل الله آية اللعان: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ إلى آخر الآية، قال: فدعاه النبي ﷺ فقال: «أَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنَّكَ لَمِنْ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَيْتَ بِهَا مِنَ الزَّانَا» فشهد بذلك أربع شهادات، ثم قال له الخامسة: «وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَيْتَ بِهَا مِنَ الزَّانَا» ففعل، ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال: «قَوْمِي فَاشْهَدِي بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَاكَ بِهِ مِنَ الزَّانَا» فشهدت بذلك أربع شهادات، ثم قال لها في الخامسة: «وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكَ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَاكَ بِهِ مِنَ الزَّانَا» قال: فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكنت سكنة حتى ظنوا أنها ستعترف، ثم قالت: لا أفصح قومي سائر اليوم فضت على القول، ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقال: «انظروا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ جَعْدًا حَمَشَ السَّاقَيْنِ فَهُوَ لَشْرِيكَ بْنِ سَحْمَاءَ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَيْضٌ سَبْطًا قَصِيرَ الْعَيْنَيْنِ فَهُوَ لَهْلَالِ بْنِ أُمِيَّةَ»

(١) انفرد به البخاري من هذا الوجه .

(٢) وأخرجه مسلم من طرق عن سليمان بن مهران الأعمش .

(٣) أخرجاه في الصحيحين وبقيّة الجماعة إلا الترمذي .

فجاءت به جعداً حمش الساقين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لي ولها شأن»^(١)
 إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكَ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِّكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ
 الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حين رماها أهل الإفك والبهتان من
 المنافقين بما قالوه من الكذب البحت، والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل
 الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ أي جماعة
 منكم يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة؛ فكان المقدم في هذه اللعة (عبد الله بن أبي بن سلول) رأس المنافقين،
 فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وجوزه آخرون منهم، وبقي
 الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن؛ وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة .

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه،
 فأبتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأقرع بيننا في غزوة غزاه، فخرج
 فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما نزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا
 حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقامت حين آذن بالرحيل،
 فشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار
 قد انقطع، فرجعت فالتصمت عقدي فحسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني، فاحتلموا هودجي
 فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه، قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يشغلن ولم يغشهن
 اللحم، إنما يأكلن العلقه من الطعام؛ فلم يستكر القوم خفة المودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن،
 فبعضوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فبحثت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيمنت
 مترلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة في مترلي غلبتني عينايا فتمت،
 وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش، فأدلى فأصبح عند مترلي، فرأى سواد
 إنسان نائم، فأتاني فعرفتني حين رأيته، وقد كان رأي قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخرمت
 وجهي بجلبائي والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها،
 فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان
 الذي تولى كبره (عبد الله بن أبي بن سلول) .

فقدعنا المدينة، فاشتكت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك،

(١) ذكر السيوطي الروايات في ذلك وقال، قال ابن حجر: اختلف الأئمة فمنهم من رجح أنها نزلت في هلال، ومنهم من
 رجح أنها في عويمر، ومنهم جمع بينهما، ويحتمل أن النزول سبق بسبب هلال ثم صادف مجيء عويمر ولم يكن له علم
 بما وقع لهلال، وجنح القرطبي إلى تجويز نزول الآية مرتين، قال ابن حجر: ولا مانع من تعدد الأسباب .

وهو يريني في وجمي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم؟» فذلك الذي يريني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التزه في البرية، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثانة بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، ففعلت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بشما قلت، تسين رجلاً شهد بدمراً؟ فقالت: أي هتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأحبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم، ثم قال: «كيف تيكم؟» فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه لماذا يتحدث الناس به؟ فقالت أي بنة هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيت عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت، فقلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بها؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي

قالت: فدعا رسول الله ﷺ (علي بن أبي طالب) و (أسامة بن زيد) حين استلبث الوحي، يسألها ويستشيرها في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال أسامة: يا رسول الله أهلك ولا تعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟» فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجبن أهلها فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»، فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعزرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عباد وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عباد، كذبت لعمر الله لثقتله، فإنك مناقق مجادل عن المناق، فتشاور الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتلوا رسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكثوا، وسكت رسول الله ﷺ، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فائق كبدي، قالت: فيينا هما جالسان عندي وأنا أبكي إذا استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فيينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس

عندي منذ قبل ما قبل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء .

قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبتي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجبني رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: والله لقد علمت، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أنني بريئة - لا تصدقوني، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنني منه بريئة لتصدقني، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾، قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله أعلم حينئذ أنني بريئة، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكن: والله ما كنت أظن أن يتزل في شأني وحي يبتلى، وكشأنني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه قالت: فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أما الله عز وجل فقد برأك» .

قالت: فقالت لي أُمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل، هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله عز وجل: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى - إلى قوله - ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾، فقال أبو بكر: بل والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل (زينت بنت جحش) زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال: «يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟» قالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فقصصها الله تعالى بالورع، وطففت أختها (حمنة بنت جحش) تحارب لها فهلكت فيمن هلك، قال ابن شهاب فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط^(١)

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حنهم^(٢)، وروى الإمام أحمد أيضاً عن مسروق عن أم رومان قالت: بينا أنا عند عائشة

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث الزهري عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وقال الترمذي: حديث حسن، ووقع عند أبي داود تسميتهم وهم (حسان بن ثابت) =

إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت: فعل الله بابنها وفعل، فقالت عائشة: ولم ؟ قالت: إنه كان فيمن حدث الحديث، قالت: وأي الحديث ؟ قالت: كذا وكذا، قالت: وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ ؟ قالت: نعم، قالت: وبلغ أبا بكر ؟ قالت: نعم، فخرت عائشة رضي الله عنها مغشياً عليها، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض، قالت: فقامت فلدترتها، قالت: فجاء النبي ﷺ قال: «فاشأن هذه ؟» فقلت: يا رسول الله أخذتها حمى بنافض، قال: «فلعله في حديث تحدث به» قالت: فاستوت عائشة قاعدة، فقالت: والله لئن حلفت لكم لا تصدقوني، ولئن اعتذرت إليكم لا تعذروني، فثلي ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه حين قال: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ قالت: فخرج رسول الله ﷺ وأزول الله عندها، فرجع رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر فدخل، فقال يا عائشة: «إن الله تعالى قد أنزل عنك»، فقالت: بحمد الله لا بحمدك، فقال لها أبو بكر، تقولين هذا لرسول الله ﷺ ؟ قالت: نعم، قالت: وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعله أبو بكر، فحلف أن لا يصله، فأزول الله: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة﴾ إلى آخر الآية، فقال أبو بكر بلى فوصله.

فقوله تعالى: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك﴾ أي الكذب والبهت والافتراء ﴿عصبة﴾ أي جماعة منكم ﴿لا تحسبوه شراً لكم﴾ أي يا آل أبي بكر ﴿بل هو خير لكم﴾ أي في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنهما وهي في سياق الموت، قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك، ونزلت براءتك من السماء، وقوله تعالى: ﴿لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم﴾ أي لكل من تكلم في هذه القضية، ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب، ﴿والذي تولى كبره منهم﴾ قيل: ابتداء به، وقيل: الذي كان يجمعه ويذيعه ويشيعه ﴿له عذاب عظيم﴾ أي على ذلك، ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو (عبد الله بن أبي بن سلول) قبحه الله تعالى ولعنه، وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث؛ وقيل: بل المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب، فإنه من الصحابة الذين لم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله ﷺ بشعره، وهو الذي قال له ﷺ: «هاجهم وجبريل معك». وقال مسروق: كنت عند عائشة رضي الله عنها، فدخل حسان ابن ثابت، فأمرت فألقي له وسادة، فلما خرج قلت لعائشة: ما تصنعين بهذا ؟ يعني يدخل عليك، وفي رواية قيل لها: أتأذنين لهذا يدخل عليك ؟ وقد قال الله: ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾، قالت: وأي عذاب أشد من العمى، وكان قد ذهب بصره، لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم، ثم قالت: إنه كان ينافع عن رسول الله ﷺ، وفي رواية أنه أنشدتها عندما دخل عليها شعراً يتمدحها به فقال:

حصان رزان ما تزن بريئة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل

فقالت: لكنك لست كذلك.

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ

بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءٍ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ قَالُوا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء وما ذكر من شأن الإفك، فقال تعالى: ﴿لولا﴾ يعني هلا ﴿إذ سمعتموه﴾ أي ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأمر المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأخرى، روي أن أبا أيوب (خالد بن زيد الأنصاري) قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك، فلما نزل القرآن وذكر أهل الإفك، قال الله عز وجل: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ يعني أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال^١. وقوله تعالى: ﴿ظن المؤمنون﴾ الخ: أي هلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، وقوله: ﴿وقالوا﴾: أي بالسنتهم ﴿هذا إفك مبين﴾ أي كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة (صفوان بن المفضل) في وقت الظهيرة والجيش بكامله يشاهدون ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستوراً، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، قال الله تعالى ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿جامعوا عليه﴾ أي على ما قالوه ﴿بأربعة شهداء﴾ يشهدون على صحة ما جامعوا به ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ أي في حكم الله كاذبون فاجرون.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكَ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوهُ بِاللَّيْنِ كَرٍّ وَتَقُولُوتَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

يقول تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة، بأن قبل توبتكم وإنايتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لايمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لمسكم فيما أفضتم فيه﴾ من قضية الإفك ﴿عذاب عظيم﴾ وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة، كمسطح و (حسان) و (حنة بنت جحش)، فأما من خاض فيه من المنافقين كمعد الله بن أبي بن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، ثم قال تعالى: ﴿إذ تلقونه بالسنتكم﴾ قال مجاهد: أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول: هذا سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا، وقوله تعالى: ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ أي تقولون ما لا تعلمون. ثم قال تعالى: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ أي تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن زوجة

النبي ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هِيناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾، وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ^(١) يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض».

وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول، يقول الله تعالى: ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أي ما ينبغي لنا أن ننفضه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله، وحليلة خليله، ثم قال تعالى: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً﴾ أي ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً، أي فيما يستقبل، ولهذا قال: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه وتعلمون رسوله ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ أي يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية، والله عليم حكيم ﴿أي علم بما يصلح عباده، حكم في شرعه وقدره».

* إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه وتكلم به، فقد قال تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا﴾ أي يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ﴿لهم عذاب أليم في الدنيا﴾ أي بالحد، وفي الآخرة بالعذاب ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي فردوا الأمر إليه ترشدوا، وقال النبي ﷺ: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته»^(٢).

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

يقول الله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم﴾ أي لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه

(١) وفي رواية: لا يلقي لها بالاً
(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ثوبان مرفوعاً.

تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم، ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَاوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَاوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها. قال ابن عباس ﴿خُطَاوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: عمله، وقال عكرمة: نزعاته، وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان، وسأل رجل ابن مسعود فقال: إني حرمت أن أأكل طعاماً وسماه، فقال: هذا من نزغات الشيطان، كثر عن يمينك وكل. وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده: هذا من نزغات الشيطان وأفتاه أن يذبح كيشاً. وعن أبي رافع قال: غضبت على امرأتي فقالت: هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك، فأنت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من نزغات الشيطان^(١). ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي لولا أن الله يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودنسها، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً، ﴿وَلَكِنْ اللَّهُ يَزَكِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من خلقه ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي، وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده، ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال.

وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلْ﴾ من الآية وهي الحلف أي لا يحلف ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ أي الطول والصدقة والإحسان. ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أي الجدة ﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قرباتكم المساكين والمهاجرين، وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا﴾ أي عما تقدم منهم من الإساءة والأذى، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم، وهذه الآيات نزلت في (الصديق) رضي الله عنه، حين حلف أن لا ينفع (مسطح بن أثاثة) بنافعة أبداً، بعدما قال في عائشة ما قال كما تقدم في الحديث، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه، شرع تبارك وتعالى - وله الفضل والمنة - يعطف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما يتفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها، وضرب الحد عليها، وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالعرف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية، قال الصديق: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال: والله لا أترعها منه أبداً، فلهذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته.

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يَمْيِزُ يُوَفِّقُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات، خرج مخرج الغالب ﴿المؤمنات﴾ فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سببا التي كانت سبب التزول وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما؛ وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا، ورمأها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، وقوله تعالى: ﴿لعنوا في الدنيا والآخرة﴾، كقوله: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ الآية، وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضي الله عنها، قال ابن عباس: نزلت في عائشة خاصة، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك، قالت: فينا رسول الله ﷺ جالس عندي، إذ أوحى إليه، قالت: وكان إذا أوحى إليه أخذه كهية السبات، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي ثم استوى جالسا مسح على وجهه وقال: «يا عائشة أبشري» قالت، فقلت: بحمد الله لا بحمدك، فقرأ: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات - حتى بلغ - أولئك مبرأون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم﴾^(١)، وقال الضحاك: المراد بها أزواج النبي خاصة دون غيرهن من النساء، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات﴾ الآية: يعني أزواج النبي ﷺ رماهن أهل النفاق، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب وباؤوا بسخط من الله، فكان ذلك في أزواج النبي ﷺ، ثم نزل بعد ذلك: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء - إلى قوله - فإن الله غفور رحيم﴾ فأنزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تقبل والشهادة ترد .

وقال ابن جرير: فسر ابن عباس سورة النور، فلما أتى على هذه الآية ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات﴾ الآية قال: في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ، وهي مبهمة^(٢) وليست لم توبة، ثم قرأ: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء - إلى قوله - إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ الآية، قال: فجعل هؤلاء توبة، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة، قال فهم بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور، وقد اختار ابن جرير عمومها، وهو الصحيح ويعضد العموم ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٣). وقوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾، عن ابن عباس قال: إنهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، قالوا: تعالوا حتى نحمد فيجحدون فيختم على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثاً .

(١) أخرجه ابن جرير .

(٢) قوله وهي مبهمة: أي عامة في تحريم قذف كل محصنة .

(٣) أخرجاه في الصحيحين .

وروى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مجادلة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجزع عليّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام عليك شهوداً، فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي، فتنتطق بعمله، ثم يخجل بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكنّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل»^(١). وقال قتادة: ابن آدم، والله إن عليك لشهوداً غير متهمة من بدنك فراقبهم، واتق الله في شرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن ليفعل ولا قوة إلا بالله. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يوفيه الله دينهم الحق﴾، قال ابن عباس ﴿دينهم﴾: أي حسابهم، وكذا قال غير واحد، وقوله: ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ أي وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول، قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك^(٢)، واختاره ابن جرير، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فأنسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والتزاهة منهم! ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك مبرأون مما يقولون﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، أي ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك مبرأون مما يقولون﴾ أي هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿لهم مغفرة﴾ أي بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ورزق كريم﴾ أي عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

(٢) وبه قال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري.

(١) ورواه مسلم والنسائي.

هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين، أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى (يستأنسوا) أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر: ألم تسمع صوت عبد الله ابن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما أرجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليصرف »، فقال عمر لتأتيني على هذا بيينة وإلا أوجعتك ضرباً، فذهب إلى ملا من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق. وعن أنس أن النبي ﷺ استأذن على (سعد بن عباد) فقال: « السلام عليك ورحمة الله » فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً، ورد عليه سعد ثلاثاً، ولم يسمعه، فرجع النبي ﷺ، فاتبعه سعد فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذي، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم أدخله البيت فقرب إليه زيباً، فأكل نبي الله فلما فرغ قال: « أكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون »^(١). ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره، لما رواه أبو داود عن عبد الله بن بشر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: « السلام عليكم، السلام عليكم »، وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور. وجاء رجل فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن، فقام على الباب - يعني: مستقبل الباب - فقال له النبي ﷺ: « هكذا عنك - أو هكذا - فأنما الاستئذان من النظر »^(٢).

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لو أن امرأاً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقت عينه ما كان عليك من جناح »، وعن جابر قال: أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي، فددقت الباب، فقال: « من ذا؟ » قلت: أنا، قال: « أنا أنا »، كأنه كرهه^(٣)، وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان المأمور به في الآية، قال ابن عباس: الاستئناس الاستئذان، وكذا قال غير واحد. وعن عمرو بن سعيد التقي أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: أألج أو أنلج؟ فقال النبي ﷺ لأمة له يقال لها روضة: « قومي إلى هذا فعلمي، فإنه لا يحسن يستأذن، فقولي له يقول السلام عليكم أأدخل؟ »، فسمعتها الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فقال: « ادخل »^(٤). وقال مجاهد: جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرضاء، فأتى فسطاط امرأة من قريش، فقال: السلام عليكم أأدخل، قالت: ادخل بسلام، فأعاد، فأعادت وهو يراوح بين قدميه قال: قولي

(١) أخرجه أحمد وأحمد واللفظ له ورواه أبو داود والنسائي بنحوه .

(٢) أخرجه أبو داود وقد جاء في بعض الروايات أن الرجل سعد رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الجماعة من حديث شعبة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٤) أخرجه أبو داود .

ادخل، قالت أدخل، فدخل. وروى هشيم عن ابن مسعود قال: عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم، وقال أشعث عن (عدي بن ثابت) أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها، لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، قال: فترلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا﴾ الآية^(١). وقال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ثلاث آيات جحدن الناس، قال الله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ قال: ويقولون: إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً، قال: والأدب كله قد جحدته الناس، قال، قلت: أستأذن على أخواتي أينام في حجرى معي في بيت واحد؟ قال: نعم، فرددت عليه ليرخص لي فأبى، فقال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا، قال: فاستأذن، قال: فراجعت أيضاً فقال: أنتحب أن تطيع الله؟ قال، قالت: نعم، قال: فاستأذن، وقال طاووس: ما من امرأة أكره إلي أن أرى عورتها من ذات محرم قال: وكان يشدد في ذلك. وقال ابن مسعود: عليكم الإذن على أمهاتكم، وقال ابن جريج: قلت لعطاء أيتأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا، وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها.

وروى ابن جرير عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فأتته إلى الباب تنحنح ويزق، كرامة أن يهجم منا على أمر يكرهه^(٢). وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تكلم ورفع صوته، وقال مجاهد: ﴿حتى تستأنسوا﴾ قال: تنحنحوا أو تنحنحوا، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه؛ ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهي أن يطرق الرجل أهله طروقاً - وفي رواية - ليلاً يتخوفهم، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهراً فأناخ بظاهاها وقال: «انتظروا حتى ندخل عشاء - يعني آخر النهار - حتى تمتشط الشعة وتستجد المغيبة». وقال قتادة في قوله ﴿حتى تستأنسوا﴾: هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حلزهم، وأما الثالثة فإن شاموا أذنوا وإن شاموا ردوا؛ ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال والله أولى بالعذر. وقال مقاتل بن حيان في الآية: كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه، ويقول: حيث صباحاً وحييت مساء، وكان ذلك تحية القوم بينهم، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه، فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول: قد دخلت ونحو ذلك، فيشتد ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله، فغير الله ذلك كله في سر وعفة، وجعله نقياً نزهة من الدنس والقذر والدن. فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ الآية، وهذا الذي قاله مقاتل حسن، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلكم خير لكم﴾ يعني الاستئذان، خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿لعلكم تذكرون﴾، وقوله تعالى: ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم﴾، وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذن وإن شاء لم يأذن، وإن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن جرير وقال ابن كثير: إسناده صحيح.

قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴿٣٠﴾ أي إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿٣١﴾ فارجعوا هو أزكى لكم ﴿٣٢﴾ أي رجوعكم أزكى لكم وأطهر ﴿٣٣﴾ والله بما تعملون عليم ﴿٣٤﴾ وقال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها أن أستاذن على بعض إخواني، فيقول لي: ارجع فارجع وأنا مغتبط، لقوله تعالى: ﴿٣٥﴾ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ﴿٣٦﴾ وقال سعيد بن جبير في الآية: أي لا تقفوا على أبواب الناس، وقوله تعالى: ﴿٣٧﴾ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة ﴿٣٨﴾ الآية، هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير إذن كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى، قال ابن عباس ﴿٣٩﴾ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ﴿٣٩﴾، ثم نسخ واستثنى، فقال تعالى: ﴿٤٠﴾ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم ﴿٤١﴾، وقال آخرون: هي بيوت التجار كالمخانات ومنازل الأسفار وبيوت مكة وغير ذلك .

﴿٤٢﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ وَيَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٤٣﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا لما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعاً، كما روي عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري ﴿٤٤﴾. وقال رسول الله ﷺ لعل: « يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » ﴿٤٥﴾. وفي الصحيح عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: « إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا: يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: « إن أبيتُم فأعطوا الطريق حقه » قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال: « غص البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »، ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، لذلك أمر الله بحفظ الفروج، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿٤٦﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ أَبْصَارَهُمْ وَيَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ ﴿٤٧﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنع من الزنا كما قال تعالى: ﴿٤٨﴾ والذين هم لفروجهم حافظون ﴿٤٩﴾ الآية، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث: « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » ﴿٥٠﴾ ذلك أزكى لهم ﴿٥١﴾ أي أطهر لقلوبهم وأتقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته. وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجدها حلاوتها ». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتي أبدته إيماناً يجد حلاوته في قلبه » ﴿٥٢﴾. وقوله تعالى: ﴿٥٣﴾ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٥٤﴾، كما قال تعالى: ﴿٥٥﴾ يعلم خائنة الأعين

(١) في الباب: أخرج ابن أبي حاتم: لما نزلت آية الاستئذان قال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام، ولم يوت معلومة على الطريق، وليس فيها سلطان، فترلت: ﴿٥٦﴾ ليس عليكم .. الآية .

(٢) أخرجه مسلم ورواه أبو داود والترمذي والنسائي أيضاً .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي .

(٥) أخرجه الطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً .

(٤) أخرجه أحمد وأصحاب السنن .

وما تخفي الصدور ﴿٣١﴾. وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال، قال رسول الله ﷺ: «كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فرنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»، وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهاون أن يحد الرجل نظره إلى الأُمرد، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرمه طائفة من أهل العلم، لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيراً جداً. وفي الحديث: «كل عين باكية يوم القيامة إلا عيناً غضت عن محارم الله، وعيناً سهرت في سبيل الله، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله» عز وجل^(١)

﴿٣٢﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِ آبَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٣﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغيره منه لأزواجهن المؤمنات، وتمييزهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات؛ وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره (مقاتل بن حيان) قال: بلغنا أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير مترعات، فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ الآية، فقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً، واحتج كثير منهم بما روي عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه» فقلت: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو عميأوان أتتا؟ ألسنا تبصرانه»^(٢). وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحراهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من وراءه وهو يسترها منهم حتى ملكت ورجعت، وقوله: ﴿ويحفظن فروجهن﴾ قال سعيد بن جبير: عن الفواحش؛ وقال قتادة: عما لا يحل لهن؛ وقال مقاتل: عن الزنا؛ وقال أبو العالية: كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

إلا هذه الآية: ﴿ويحفظن فروجهن﴾ أن لا يراها أحد، وقوله تعالى: ﴿ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه، قال ابن مسعود: كالرداء والثياب، يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجمل ثيابها وما يبدو من أسافل الثياب، فلا حرج عليها فيه، لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه، وقال ابن عباس: وجهها وكفيها والخاتم، وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال عبد الله بن مسعود: الزينة زيتان، فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب، وقال مالك: ﴿إلا ما ظهر منها﴾: الخاتم والخلخال، ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن (أسماء بنت أبي بكر) دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا، وأشار إلى وجهه وكفيه^(١)

وقوله تعالى: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ يعني المقانع يعمل لها صفات ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها، ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك، بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيثاتهن وأحوالهن، كما قال تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ والخمر جمع خمار: وهو ما يخر به أي يغطي به الرأس، وهي التي تسميها الناس المقانع، قال سعيد بن جبير: ﴿وليضربن﴾ وليشددن ﴿بخمرهن على جيوبهن﴾ يعني على التحوير والصدور فلا يرى منه شيء، وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﷻ ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ شققن مروطهن فاخترن بها. وروى ابن أبي حاتم عن صفية بنت شيبة قالت: بينا نحن عند عائشة قالت: فذكرنا نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة رضي الله عنها: إن لنساء قريش لفضلاً وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ولا إيماناً بالترتيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فاما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل، فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبح وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان^(٢). وقال ابن جرير عن عائشة قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله ﷻ ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ شققن أكف مروطهن فاخترن بها، وقوله تعالى: ﴿ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن﴾ أي أزواجهن ﴿أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزيتها، ولكن من غير تبرج. فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله، فتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره، وقوله: ﴿أو نسائهن﴾ يعني تظهر بزيتها أيضاً للنساء المسلمات، دون نساء أهل الذمة، لثلاث تصفهن لرجالهن، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع، فأما

(١) رواه أبو داود وهو حديث مرسل لأن خالد بن دريك لم يسمع من عائشة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو داود.

المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتترجر عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة تنعها لزوجها كأنه ينظر إليها»^(١)

وروي أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة: أما بعد، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فانه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها، وقال مجاهد في قوله: ﴿أو نساين﴾ قال: نساؤهن المسلمات، ليس المشركات من نساين، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة، وروي عن ابن عباس ﴿أو نساين﴾ قال: هن المسلمات لا تبديه لليهودية ولا نصرانية، وهو النحر والقرط والوشاح وما لا يحل أن يراه إلا محرم، وروى سعيد عن مجاهد قال: لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة لأن الله تعالى يقول: ﴿أو نساين﴾ فليست من نساين، وعن مكحول وعبادة ابن نسي: أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة. وقوله تعالى: ﴿أو ما ملكت أيمانن﴾ قال ابن جرير: يعني من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة لأنها أمتها، وإليه ذهب سعيد بن المسيب. وقال الأكثرون: بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود عن أنس أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعدد قد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك». وروى الإمام أحمد عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان لإحداكن مكاتب وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه»، وقوله تعالى: ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ يعني كالأجراء والتابع الذين ليسوا بأكفاء، وهم مع ذلك في عقولهم وله ولا همة لهم إلى النساء ولا يشتهونهن، قال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له. وقال مجاهد: هو الأبله، وقال عكرمة: هو المخنث الذي لا يقوم ذكره، وكذلك قال غير واحد من السلف، وفي الصحيح عن عائشة أن مخنثاً كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ، وكانوا يعدونه من غير أولي الأربة، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة يقول: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكم» فأخرجه، وروى الإمام أحمد عن أم سلمة أنها قالت: دخل عليها رسول الله ﷺ، وعندها مخنث، وعندها (عبد الله بن أبي أمية) يعني أخاها والمخنث يقول: يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بآبنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال: فسمعه رسول الله ﷺ، فقال لأم سلمة: «لا يدخلن هذا عليك»^(٢)

وقوله تعالى: ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهماً أو قريباً منه بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسنة، فلا يمكن من الدخول على النساء، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والدخول على

(١) أخرجه في الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٢) وأخرجه في الصحيحين من حديث هشام بن عروة.

النساء: قيل: يا رسول الله أفرأيت الحمى؟ قال: «الحمى الموت». وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الآية، كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها ضربت برجلها الأرض، فيسمع الرجال طنينه، فبهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ إلى آخره، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها، فيشم الرجال طيبها، فقد قال النبي ﷺ: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا» يعني زانية^(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه لقي امرأة شم منها ريح الطيب ولذيلها إصعاص، فقال: يا أمة الجبار جئت من المسجد؟ قالت: نعم، قال لها: تطيبت؟ قالت: نعم، قال: إني سمعت حبي أبا القاسم ﷺ يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة طيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغسل غسلها من الجنابة»^(٢)، وفي الحديث: «الرافلة في الزينة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها»^(٣)، ومن ذلك أيضاً أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج، فقد روى عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله ﷺ للنساء: «استأخرن فإنه ليس لكن أن تحتضن الطريق، عليكم بحافات الطريق»، فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى عنه والله تعالى المستعان.

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلَيْسَتِ الْفِتْنَةُ لِلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَبْنِيَكُمْ عَلَىٰ إِلْهَاءٍ إِنْ أَرَدْتُمْ مَحْصَنًا لَتَبْنَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ *

اشتملت هذه الآيات الكريمات، على جمل من الأحكام المحكمة، فقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾ أمر بالتزويج، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه، واحتجوا بظاهر قوله عليه السلام: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه أيضاً أبو داود والنسائي .

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه .

(٣) أخرجه الترمذي عن ميمونة بنت سعد مرفوعاً .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن .

فإنه له وجاء^(١)، وقد جاء في السنن: «تزوجوا الولود، تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة»، الأيامى جمع أيم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له، يقال: رجل أيم وأمرأة أيم، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَزَوْجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأُولَئِكَ سَبِيلُ اللَّهِ﴾ الآية، قال ابن عباس: رغبتهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد، ووعدهم عليه الغنى، فقال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَزَوْجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأُولَئِكَ سَبِيلُ اللَّهِ﴾، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَزَوْجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأُولَئِكَ سَبِيلُ اللَّهِ﴾، وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَزَوْجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأُولَئِكَ سَبِيلُ اللَّهِ﴾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد المصافح، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله^(٢)»، وقد زوج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لا يجد عليه إلا إزاره ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فروجه بتلك المرأة، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن، والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام، كما قال ﷺ: «ومن لم يستطع فعله بالصوم فإنه له وجاء» وهذه الآية مطلقة والتي في سورة النساء أخص منها وهي قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ﴾، إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي صبركم عن تزويج الإماء خير لكم لأن الولد يميء رقيقاً ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، قال عكرمة في قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ قال: هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتبه، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فليظفر في ملكوت السماوات والأرض حتى يغنيه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾^(٣) هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب، يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب، لا أمر تحتم وإيجاب، قال الشعبي: إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه^(٤)، وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب أخذاً بظاهر هذا الأمر، وقال البخاري عن ابن جريج قلت لعطاء: أوجب علي إذا علمت له مالاً أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً، وقال عمرو بن دينار، قلت لعطاء: أتاثره عن أحد؟ قال: لا، ثم أخبرني أن سيرين سأل أنساً المكاتب، وكان كثير المال، فأبى، فانطلق إلى عمر رضي الله عنه، فقال: كاتبه، فأبى، فضربه بالليرة وبتلو عمر رضي الله عنه: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فكاتبه^(٥).

(١) أخرجه في الصحيحين من حديث ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي.

(٣) في الباب: أخرجه ابن السكن: عن عبد الله بن صبيح عن أبيه قال: كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتابة، فترلت ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ...﴾ الآية.

(٤) وكذا قال عطاء ومقاتل والحسن البصري.

(٥) ذكره البخاري معلقاً.

وذهب الشافعي في الجديد إلى أنه لا يجب لقوله عليه السلام: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس»، وقال مالك: الأمر عندنا أنه ليس على سيد العبد أن يكتبه إذا سأله ذلك، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكتب عبده، وكذا قال الثوري وأبو حنيفة، وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال بعضهم: أمانة، وقال بعضهم: صدقا، وقال بعضهم: مالا، وقال بعضهم: حيلة وكسباً، وقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ اختلف المفسرون فيه، فقال بعضهم: معناه اطرحوها لهم من الكتابة بعضها، وقال آخرون: بل المراد هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة^(١)، وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب، وقد تقدم الحديث: «ثلاثة حق على الله عونهم» فذكر منهم المكاتب يريد الأداء، والقول الأول أشهر. وعن ابن عباس في الآية ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ قال: ضموا عنهم من مكاتبتهم، وقال محمد بن سيرين في الآية: كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ الآية، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة في شأن (عبد الله بن أبي بن سلول) فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلباً لخراجهن، ورغبة في أولادهن، ورياسة منه فيما يزعم.

(ذكر الآثار الواردة في ذلك)

قال الحافظ البزار في مسنده: كانت جارية لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها (معاذة) يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت: ﴿وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ الآية، وقال الأعمش: نزلت في أمة لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها (مسبكة) كان يكرهها على الفجور وكانت لا بأس بها فتأبى، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ الآية، وروى النسائي عن جابر نحوه. وعن الزهري أن رجلاً من قريش أسر يوم بدر، وكان عند (عبد الله بن أبي) أسيراً وكانت لعبد الله بن أبي جارية يقال لها (معاذة) وكان القرشي الأسير يريد بها على نفسها، وكانت مسلمة، وكانت تمتنع منه لإسلامها، وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل من القرشي فيطلب فداء ولده، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ إن أردن تحصناً، وقال السدي: أنزلت هذه الآية الكريمة في (عبد الله بن أبي بن سلول) رأس المنافقين، وكانت له جارية تدعى (معاذة) وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له، فأقبلت الجارية إلى أبي بكر رضي الله عنه فشكت إليه ذلك، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ، فأمره بقبضها، فصاح عبد الله بن أبي من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، وقوله تعالى: ﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي من خراجهن ومهورهن وأولادهن، وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام، ومهر البغي، وحلوان الكاهن، وفي رواية: «مهر البغي خبيث وكسب الحجام خبيث، وثمن الكلب خبيث»، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْرَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ

(١) وهذا قول الحسن ومقاتل وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير.

غفور رحيم ﴿أي لمن، كما تقدم في الحديث عن جابر. وقال ابن عباس: فإن علمتم فإن الله لمن غفور رحيم، وإئتمن على من أكرههم، وقال أبو عبيد عن الحسن في هذه الآية ﴿فإن الله من بعد إكراههم غفور رحيم﴾ قال: لمن والله، لمن والله، وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ يعني القرآن فيه آيات واضحة مفسرات ﴿ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾ أي خبراً عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ أي زاجراً عن ارتكاب المآثم والحارم ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي لمن اتقى الله وخافه، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن: فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَسَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

قال ابن عباس ﴿الله نور السموات والأرض﴾ يقول: هادي أهل السماوات والأرض، يدير الأمر فيها نجومهما وشمسهما وقمرهما. وقال ابن جرير عن أنس بن مالك قال: إن الله يقول نوري هدى، واختار هذا القول ابن جرير، وقال أبي بن كعب: هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره فضرب الله مثله فقال: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن، فقال: مثل نور من آمن به، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره، وعن ابن عباس أنه قرأها ﴿مثل نور من آمن بالله﴾ وقرأ بعضهم ﴿الله منور السموات والأرض﴾ وقال السدي في قوله ﴿الله نور السموات والأرض﴾ فبنوره أضاءت السماوات والأرض، وفي الحديث: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»^(١). وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن» الحديث. وعن ابن مسعود قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه، وقوله تعالى: ﴿مثل نوره﴾ في هذا التفسير قولان: (أحدهما) أنه عائد إلى الله عز وجل أي مثل هداه في قلب المؤمن، قاله ابن عباس ﴿كمشكاة﴾. (والثاني): أن التفسير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام، تقديره: مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه، كما قال تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالتقديس من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف؛ فقله ﴿كمشكاة﴾ قال ابن عباس

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة من دعائه ﷺ يوم آذاه أهل الطائف.

ومجاهد: هو موضع الفتيلة من القنديل، هذا هو المشهور؛ ولهذا قال بعده ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ وهو الزبالة^(١) التي تضيء.
وقال مجاهد: هي الكوة بلغة الحبشة، وزاد بعضهم فقال: المشكاة الكوة التي لا منفذ لها، وعن مجاهد: المشكاة الحداث التي يعلق بها القنديل؛ والقول الأول أولى، وهو أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل؛ ولهذا قال: ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ وهو النور الذي في الزبالة، قال أبي بن كعب: المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذي في صدره، وقال السدي هو السراج ﴿المصباح في زجاجة﴾ أي هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية، وهي نظير قلب المؤمن ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ أي كأنها كوكب من در، قال أبي بن كعب: كوكب مضيء، وقال قتادة: مضيء مبين ضخم ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ أي يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿زيتونة﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ أي ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا في غربيها فيقلص عنها النور قبل الغروب، بل هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره، فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً، عن ابن عباس في قوله ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ قال: هي شجرة بالصحراء لا يظلمها شجر ولا جبل ولا كهف، ولا يواربها شيء، وهو أجود لزيتها، وقال عكرمة: تلك زيتونة بأرض فلاة إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها، فإذا غربت غربت عليها فذلك أصفى ما يكون من الزيت، وعن سعيد بن جبير في قوله ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء﴾ قال: هو أجود الزيت، قال إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداء والعشي فتلك لا تعد شرقية ولا غربية.

وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية، ولكنه مثل ضربه الله تعالى لنوره، وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿توقد من شجرة مباركة﴾ قال: رجل صالح ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ قال: لا يهودي ولا نصراني، وأولى هذه الأقوال: أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس، تفرعه من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف، ولهذا قال تعالى: ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ يعني لضوء إشراق الزيت، وقوله تعالى: ﴿نور على نور﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك إيمان العبد وعمله، وقال أبي بن كعب ﴿نور على نور﴾ المؤمن يتقلب في خمسة من النور، فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة. وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأبحار فقال: حدثني عن قول الله تعالى ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ قال: يكاد محمد ﷺ يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء، وقال السدي في قوله تعالى ﴿نور على نور﴾ قال: نور النار ونور الزيت حين اجتماع أضاء ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماع فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه، وقوله تعالى: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ أي يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأ ضل، فلذلك أقول: جفَّ القلم على علم الله عز وجل^(٢)». وقوله

(١) الزبالة: يقال للفتيلة التي يُصَبِّحُ بها السراج زبالة وزبالة، وجمعها زبال وزبَال.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والبخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال، عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهو، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراج به نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان وتفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل التفاق فيه كمثل القرحة يمدّها الدم والقيح، فأَيُّ المديتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»^(١)

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم، بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالعنديل مثلاً، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوت التي يعبد فيها ويوحد، فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ أي أمر الله تعالى بتعاهدتها وتطهيرها من الدنس واللغو، والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها، كما قال ابن عباس: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها، وقال قتادة: هي هذه المساجد أمر الله سبحانه وتعالى ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها، وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول: مكتوب في التوراة إن بيوتي في الأرض المساجد، وإنه من توضع فأحسن وضوءه، ثم زارني في بيبي أكرمتها، وحق على المورر كرامة الزائر^(٢). وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطهيرها وتبخيرها، فمن أمير المؤمنين (ع) رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»^(٣)، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٤)، وعن عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب^(٥). وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم من بيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله بمجارتك؛ وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا: لا ردها الله عليك».

(١) أخرجه أحمد قال ابن كثير: إسناده جيد ولم يخرجوه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجاه في الصحيحين.

(٤) رواه ابن ماجه.

(٥) رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي.

وقد روى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عمر مرفوعاً قال: خصال لا تنبغي في المسجد: لا يتخذ طريقاً، ولا يشهر فيه سلاح، ولا ينبض فيه بقوس، ولا ينثر فيه نبل، ولا يمر فيه بلحم فيه، ولا يضرب فيه حد، ولا يقتص فيه أحد، ولا يتخذ سوقاً. وعن وائلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ: «جنبوا المساجد صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم، وخصوماتكم، ورفع أصواتكم، وإقامة حدودكم وسل سيوفكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر، وجمروها في الجمع»^(١). أما أنه لا يتخذ طريقاً فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه؛ وفي الأثر: إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه؛ وأما أنه لا يشهر فيه السلاح ولا ينبض فيه بقوس ولا ينثر فيه نبل، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به، وأما النهي عن المرور باللحم التي فيه فلما يخشى من تقاطر الدم منه، وأما أنه لا يضرب فيه حد ولا يقتص منه فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع، وأما أنه لا يتخذ سوقاً فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بني لذكر الله والصلاة فيه، كما قال النبي ﷺ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد: «إن المساجد لم تبن لهذا إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها»، وفي الحديث الثاني: «جنبوا مساجدكم صبيانكم» وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم؛ وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى صبيانا يلعبون في المسجد ضربهم بالمخففة وهي الدرة، وكان يفتش المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحداً، «ومجانينكم» يعني لأجل ضعف عقولهم، وسخر الناس بهم، فيؤدي إلى اللعب فيها ولما يخشى من تقديرهم المسجد ونحو ذلك «وبيعكم وشراءكم» كما تقدم، «وخصوماتكم» يعني التحاكم والحكم فيه؛ ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأفضية في المسجد، بل يكون في موضع غيره لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والألفاظ التي لا تناسبه؛ ولهذا قال بعده: «ورفع أصواتكم».

وروى البخاري عن السائب بن يزيد الكندي قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر ابن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين، فجئت بهما فقال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قال: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ، وقال النسائي: سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال: أتدري أين أنت؟ وقوله: «واتخذوا على أبوابها المطاهر» يعني المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة، وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله ﷺ آبار يستقون منها فيشربون ويتطهرون ويتوضؤون وغير ذلك، وقوله: «وجمروها في الجمع» يعني يجروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ، وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن ابن عمر: أن عمر كان يجمر مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة» وعند الدارقطني مرفوعاً: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»، وفي السنن: «بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة».

ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخاري^(٢) عن عبد الله بن

(٢) هو في أبي داود.

(١) أخرجه ابن ماجه وفي إسناده ضعف.

عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد يقول: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم» قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان حفظ مني سائر اليوم، وقال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك»^(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم»^(٢)، وعن فاطمة بنت الحسين عن جدتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك»^(٣)، فهذا الذي ذكرناه داخل في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتِ أَذُنَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ وقوله: ﴿وَيَذَكَرُ فِيهَا اسْمَهُ﴾ أي اسم الله، كقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَيَذَكَرُ فِيهَا اسْمَهُ﴾ قال ابن عباس: يعني يتلى كتابه، وقوله تعالى: ﴿يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي في البكرات والعشيات، والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار، وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن هو الصلاة، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني بالغدو صلاة الغداة، ويعني بالآصال صلاة العصر، وهما أول ما اقترض الله من الصلاة، فأحب أن يذكرهما وأن يذكر بهما عبادته، وعن الحسن والضحاك ﴿يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾: يعني الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿رَجَالٌ﴾ فيه إشعار بهمهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عماراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتزويده، كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية. وأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن، لما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها»، وعن أم سلمة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «خير مساجد النساء قعر بيوتهن»^(٤). وروى أحمد عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك، قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي» قال: فأمرت فبنى لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها، فكانت والله تصلي فيه حتى لقيت الله تعالى. ويجوز للمرأة شهود جماعة الرجال بشرط أن لا تؤذي أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب، كما ثبت في الصحيح: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»^(٥)، وفي رواية: «وليخرجن وهن

(١) أخرجه مسلم والنسائي .

(٢) أخرجه ابن ماجه وابن حبان .

(٣) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن وإسناده ليس بمتمصل لأن فاطمة الصغرى لم تترك فاطمة الكبرى .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر مرفوعاً .

(٥) أخرجه الإمام أحمد .

تفلات ، أي لا ربح لمن ، وقد ثبت في صحيح مسلم عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : قال لنا رسول الله ﷺ : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً » . وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس ، وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ الآية ، يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم ، لأن الذي عنده خير لم وأنفع مما بأيديهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ أي يقدمون طاعته ومراده ومحبه على مرادهم ومحبتهم ، روى عمرو بن دينار : أن ابن عمر رضي الله عنهما كان في السوق فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ ، وقال ابن أبي حاتم قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إني قمت على هذا الدرج أباع عليه ، أربع كل يوم ثلاثمائة دينار ، أشهد الصلاة في كل يوم في المسجد ، أما إني لا أقول إن ذلك ليس بحلال ، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ . وقال عمرو بن دينار الأعمور : كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد فررنا بسوق المدينة ، وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس فيها أحد ، فتلا سالم هذه الآية : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ ثم قال : هم هؤلاء ؛ وقال الضحاك : لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها ، وقال مطر الوراق : كانوا يبيعون ويشترون ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة ، وقال ابن عباس ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ يقول : عن الصلاة المكتوبة ؛ وقال السدي : عن الصلاة في جماعة ، وقال مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة وأن يقيموها كما أمرهم الله ، وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها .

وقوله تعالى : ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ أي يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار : أي من شدة الفزع وعظمة الأهوال ، كقوله : ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ ، وقوله تعالى ههنا : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ﴾ أي هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم . وقوله : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم كما قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ الآية ، وقال : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ الآية ، وقال : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ، وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فمرضه على جلسائه واحداً واحداً فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً ، فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً ، ثم تلا قوله : ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ ، وفي الحديث : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، ليتم الدين لا تلهيهم

تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب سائر الخلائق^(١). وروى الطبراني عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله ﴿ليوفهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ قال: أجورهم يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ يَافِقُهُ يُخْسِبُهُ الظُّلُمَاتُ مَا هِيَ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْعًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَّجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

هذان مثلال ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، فأما الأول من هذين المثالن فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فقتلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بعد كأنه بحر طام، والقيعة جمع قاع كجار وجيرة، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصد ليشرب منه، فلما انتهى إليه ﴿لم يجده شيئاً﴾، فكذلك الكافر، يحسب أنه قد عمل عملاً وأنه قد حصل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئاً بالكلية، كما قال تعالى ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾، وقال ههنا: ﴿ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾، وفي الصحيحين: «أنه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعملون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون؟ فيقولون: يا رب عطشنا فاسقنا، فيقال: ألا ترون؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فينطلقون فيتهاقون فيها^(٢) وهذا المثل مثال للنوي الجهل المركب. فأما أصحاب الجهل البسيط، وهم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون قتلهم كما قال تعالى: ﴿أو كظلمات في بحر لجي﴾ قال قتادة: ﴿لجي﴾ هو العميق، ﴿يغشاه موج من فوقه موج، من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم، قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿يغشاه موج﴾ يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ الآية. وكقوله: ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ الآية. فالكافر يتقلب في خمسة من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار، وقوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل باثر كافر، كقوله: ﴿من يضل الله فلا هادي له﴾ وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾، فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن أيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً، وأن يعظم لنا نوراً.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد بن السكن مرفوعاً.

(٢) أخرجه الشيخان.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَوَّغَتْ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السماوات والأرض أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد،
كما قال تعالى: ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ والطير صافات ﴾ أي في
حال طيرانها، تسبح ربها وتعبد به بتسبيح أهمها وأرشدتها إليه وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا قال تعالى: ﴿ كل قد
علم صلاته وتسبيحه ﴾ أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل، ثم أخبر أنه عالم بجميع
ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿ والله علم بما يفعلون ﴾، ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات
والأرض فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ولا معقب لحكمه، ﴿ وإلى الله المصير ﴾:
أي يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ﴾ الآية، فهو الخالق المالك، له الحمد في
الأولى والآخرة

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ
جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ
اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة وهو الإجزاء، ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي يجمعه
بعد تفرقه، ﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾ أي متراكماً أي يركب بعضه بعضاً، ﴿ فترى الودق ﴾ أي المطر، ﴿ يخرج من
خلاله ﴾ أي من خله، وقوله: ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ قال بعض النحاة: ﴿ من ﴾ الأولى
لابتداء الغاية، والثانية للتبعض، والثالثة لبيان الجنس، ومعناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد، وأما
من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب فإن « من » الثانية عنده لابتداء الغاية لكنها بدل من الأولى والله أعلم،
وقوله تعالى: ﴿ فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ فيصيب به ﴾: أي
بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد، فيكون قوله: ﴿ فيصيب به من يشاء ﴾ رحمة لهم ﴿ ويصرفه عمن يشاء ﴾
أي يؤخر عنهم الغيث، ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ فيصيب به ﴾ أي بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من
إتلاف زروعهم وأشجارهم، ﴿ ويصرفه عمن يشاء ﴾ رحمة بهم، وقوله: ﴿ يكاد سنا بركه يذهب بالأبصار ﴾
أي يكاد ضوء بركه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته، وقوله تعالى: ﴿ يقليب الله الليل والنهار ﴾ أي
يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا، حتى يعتدلا، فهو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه،
﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ أي لدليلاً على عظمته تعالى .

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى

أَرْبَعٌ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها وحرركاتها وسكناتها من ماء واحد، ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾ كالإنسان والطير، ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات، ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي بقدرته، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعليلها أولي الأبواب والبصائر والنهي، ولهذا قال: ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

* وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَى اللَّهِ مُدْعِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بالسنتهم ﴿آمنّا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ﴿أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾، وقوله تعالى: ﴿وإذا دعا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾ الآية، أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله تعالى: ﴿رأيت المنافقين يصلون عنك صلواً﴾، وفي الطبراني عن سمرة مرفوعاً: «من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له». وقوله تعالى: ﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين﴾ أي وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله ﴿مذعنين﴾، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله، فإذا عاناه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه، ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿أفي قلوبهم مرض﴾ الآية، يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأياً ما كان فهو كفر محض والله عليم بكل منهم، وما هو منظو عليه من هذه الصفات، وقوله تعالى: ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ أي بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك

قال الحسن: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة، فدعي إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن، وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض، وقال: أنطلق إلى فلان، فأنزل الله هذه الآية، ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يفتنون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي سمعاً وطاعة، ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المهوب، فقال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة للمؤمنين عامة، قال: وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين^(١). والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله وللخلفاء الراشدين والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر في هذا المكان. وقوله: ﴿وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ قال قتادة: فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ﴿وَيُخِشِ اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ فيما يستقبل، وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

* وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أُمِّرَتْمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ لئن أُمِّرَتْمْ بالخروج في الغزو ليخرجن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ أي لا تحلفوا، وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ قيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة، أي قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتكم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ الآية، فهم من سجيبتهم الكذب حتى فيها يختارونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَتُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعَ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وقيل المعنى ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أي ليكن أُمِّرْكم طاعة معروفة، أي بالمعروف من غير حلف ولا أقسام، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف، فكونوا أتم مثلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي هو خير بكم ومن يطيع ممن يعصي، فالحلف وإظهار الطاعة وإن راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى، لا يروج عليه شيء من التدليس، بل هو خير بضائر عبادته وإن أظهروا خلافها. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تولوا عنه وتركوا ما جاءكم به ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أي يقول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم

﴿ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾، كقوله تعالى: ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزيرة من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر المقوقس، وملوك عمان، والنجاشي ملك الحبشة، ثم قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة (خالد بن الوليد) رضي الله عنه، ففتحوا طرقاتها، وقتلوا خلقاً من أهلها، وجيشاً آخر صحبة (أبي عبيدة) رضي الله عنه إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة (عمرو بن العاص) رضي الله عنه إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق، وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة، ومن على أهل الإسلام بأن أُمم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله؛ وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكاملها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى، وأهانته غاية الهوان، وكسر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة. ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص، وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبي الخراج من المشرق والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيلغ ملك أمتي ما زوي لي منها » فيها نحن تنقلب فيها وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فسأل الله الإيمان به وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يزال أمر الناس مأزباً ما وليهم اثنا عشر رجلاً » ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني، فسألت أبي ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال، قال: « كلهم من قريش »، وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلاً،

وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر، فإن كثيراً من أولئك لم يكن لهم من الأمر شيء؛ فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش يلون فيعدلون، وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعاً ومتفرقاً؛ وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، ثم كانت بعدهم فترة؛ ثم وجد منهم من شاء الله، ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى؛ ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً عضوضاً»^(١). وقال أبو العالية في قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾ الآية، قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سرّاً، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها، فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله، ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله أئبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيه حديدة» وأنزل الله هذه الآية، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح، ثم إن الله تعالى قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه، فأدخل عليهم الخوف، فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا فغير بهم، وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد، وهذه الآية الكريمة، كقوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿كما استخلف الذين من قبلهم﴾ كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ونريد أن ننحى على الذين استضعفوا في الأرض﴾ الآيتين.

وقوله تعالى: ﴿وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ الآية، كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه: «أتعرف الحيرة؟» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها، قال: «فوالذي نفسي بيده لبتن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليذلن المال حتى لا يقبله أحد» قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها، وقال الإمام أحمد عن أبي بن كعب قال، قال رسول الله ﷺ: «بشّر هذه الأمة بالسنا والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»، وقوله تعالى: ﴿يعبدوني لا يشركون بي شيئاً﴾، وفي الحديث: «يا معاذ ابن جبل» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على العباد؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشرکوا به شيئاً»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ومن كفر بعد ذلك فأولئك

(٢) الحديث من رواية الشيخين عن معاذ بن جبل.

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

هم الفاسقون ﴿٥٦﴾ أي فن خرج عن طاعتي بعد ذلك، فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً، فالصحابه رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بأوامر الله عز وجل، وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكوا سائر العباد والبلاد، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة» - وفي رواية حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك^(١)

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفانهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ فيما به أمرهم، وترك ما عنه زجرهم، لعل الله يرحمهم بذلك، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾، وقوله تعالى: ﴿لا تحسبن﴾ أي لا تظن يا محمد أن ﴿الذين كفروا﴾ أي خالفوك وكذبوك ﴿معجزين في الأرض﴾ أي لا يعجزون الله بل الله قادر عليهم، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ولهذا قال تعالى ﴿وماؤاهم﴾ أي في الدار الآخرة ﴿النار ولبئس المصير﴾ أي بئس المال مال الكافرين، وبئس القرار وبئس المهاد.

يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَعِذْنَكَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَبِيسٌ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا اسْتَعِذَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض، وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال: (الأول) من قبل صلاة الغداة لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم، ﴿وحين

(١) وفي رواية «حتى يقاتلوا الدجال» وفي رواية «حتى يتزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون» وكلها صحيحة ولا تعارض بينها.

تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴿٥٦﴾ أي في وقت القبول، لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ﴿٥٧﴾ ومن بعد صلاة العشاء ﴿٥٨﴾، لأنه وقت النوم فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال؛ ولهذا قال: ﴿٥٩﴾ ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴿٦٠﴾ أي إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال، فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم، ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال، ولأنهم طوافون عليكم أي في الخدمة وغير ذلك، ولهذا روى أهل السنن أن النبي ﷺ قال في المرة: «إنها ليست بنجسة إنها من الطوافين عليكم - أو الطوافات -». عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان في ثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن؟ فقال ابن عباس: إن الله ستر يحب السر، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حجاب في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه في حجره وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمي الله؛ ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجاب، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به^(١) وقال السدي: كان أناس من الصحابة رضي الله عنهم يحبون أن يواقفوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله أن يأمرؤا المملوكين والعلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن، وقال مقاتل بن حيان: بلغنا والله أعلم أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعاً للنبي ﷺ طعاماً، فجعل الناس يدخلون بغير إذن، فقالت أسماء: يا رسول الله ما أقبح هذا، إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد غلامهما بغير إذن، فأنزل الله في ذلك: ﴿٦١﴾ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم إلى آخركم؛ وما يدل على أنها محكمة لم تنسخ قوله: ﴿٦٢﴾ كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴿٦٣﴾، ثم قال تعالى: ﴿٦٤﴾ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴿٦٥﴾ يعني إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث إذا بلغوا الحلم، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

قال الأوزاعي: إذا كان الغلام رباعياً فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال، وقال في قوله: ﴿٦٦﴾ كما استأذن الذين من قبلهم ﴿٦٧﴾ يعني كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه، وقوله: ﴿٦٨﴾ والقواعد من النساء ﴿٦٩﴾ هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويشن من الولد ﴿٧٠﴾ اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴿٧١﴾ أي لم يبق لهن تشوف إلى الزوج، ﴿٧٢﴾ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ﴿٧٣﴾ أي ليس عليهن من الحجر في التستر كما على غيرهن من النساء، قال ابن مسعود في قوله: ﴿٧٤﴾ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ﴿٧٥﴾ قال: الجلباب أو الرداء، وقال أبو صالح: تضع الجلباب وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار، وقال سعيد ابن جبير في الآية ﴿٧٦﴾ غير متبرجات بزينة ﴿٧٧﴾ يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ما عليهن من الزينة. عن أم الضياء أنها قالت: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين ما تقولين في الخضاب والنفاض والصباغ والقرطين والخلخال وخاتم الذهب وثياب الرقاق؟ فقالت: يا معشر النساء قصتن كلها واحدة، أحل الله لكن الزينة غير متبرجات^(٢)، أي لا يحل لكن أن يروا منكن محرماً. وقوله: ﴿٧٨﴾ وأن يستعففن خير لهن ﴿٧٩﴾ أي وترك وضعهن لثيابهن وإن كان جائزاً، خير وأفضل لهن، والله سميع عليم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(١) أخرجه بن أبي حاتم وإسناده صحيح إلى ابن عباس كما قال ابن كثير.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

الآيَاتُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾

اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي رفع لأجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا، فقال عطاء ابن أسلم: يقال إنها نزلت في الجهاد، وجعلوا هذه الآية ههنا كالتي في سورة الفتح وتلك في الجهاد لا محالة، أي أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم، وكما قال تعالى في سورة براءة: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾ وقيل: المراد ههنا أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جلسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره، ففكرهوا أن يؤاكلهم لئلا يظلمهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك^(١)، وقال الضحاك: كانوا قبل البعثة يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تفقرًا وتعزيرًا ولئلا يتفضلوا عليهم فأنزل الله هذه الآية. وقال السدي: كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتتحفه المرأة بشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم، فقال الله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ إنما ذكر هذا وهذا معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ، وليساوي به ما بعده في الحكم، وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في المسند والسنن من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنت ومالك لأبيك»^(٢)

وقوله تعالى: ﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم﴾ - إلى قوله - أو ما ملكتم مفاتيحه ﴿ هذا ظاهر، وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل في المشهور عنهما، وأما قوله: ﴿أو ما ملكتم مفاتيحه﴾ فقال سعيد بن جبير والسدي: هو خادم الرجل من عبد وقهرمان، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف. وقال الزهري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يذهبون مع النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمانتهم، ويقولون: قد أحللتنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء، فأنزل الله: ﴿أو ما ملكتم مفاتيحه﴾، وقوله: ﴿أو صديقكم﴾ أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك، وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس

(١) وهذا قول سعيد بن جبير وغيره. (٢) هذا جزء من حديث أخرجه أحمد وأصحاب السنن.

أن تأكل بغير إذنه، وقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾، قال ابن عباس: وذلك لما أنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾، قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله: ﴿ليس على الأعمى حرج - إلى قوله - أو صديقكم﴾، وكانوا أيضاً يأنفون ويخرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم في ذلك، فقال: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾، وقال قتادة: كان هذا الحي من (بني كنانة) يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق النود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فأنزل الله: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾ فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل، كما روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع، قال: «لعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه»^(١). وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلوا جميعاً ولا تفرقوا، فإن البركة مع الجماعة»^(٢)

وقوله تعالى: ﴿فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم﴾ يعني فليسلم بعضكم على بعض، وقال جابر بن عبد الله إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله طيبة مباركة، قال ابن جريج: قلت لعطاء: أوجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم؟ قال: لا، ولا أوتر وجوبه عن أحد، ولكن هو أحب إليّ، وقال قتادة: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه كان يؤمر بذلك، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه، وقال أنس بن مالك: أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال، قال: «يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت - يعني بيتك - فسلم على أهلك يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك، يا أنس ارحم الصغير، ووقر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة»^(٣). وقوله: ﴿تحية من عند الله مباركة طيبة﴾. عن ابن عباس أنه كان يقول: ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله، سمعت الله يقول: ﴿فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ فالتشهد في الصلاة: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، وقوله: ﴿كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ لما ذكر تعالى ما في هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المثقنة المبرمة، نبه تعالى عباده على أنه بين لعباده الآيات بيانياً شافياً ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٧﴾

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

(٢) أخرجه ابن ماجه عن عمر مرفوعاً .

(٣) أخرجه الحافظ الزبار عن أنس مرفوعاً .

وهذا أيضاً أدب أرشده الله عباده المؤمنين، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه، من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك، أمرهم الله تعالى أن لا ينفروا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء الله، ولهذا قال: ﴿فَأَذِنَ لِمَن شِئْتُم مِّنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لِمَن﴾ الآية، وقد قال ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»^(١)

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْلُونَ مِنْكُمْ لُؤَادًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قال ابن عباس: كانوا يقولون: يا أبا القاسم، فهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبية ﷺ، قال: فقولوا يا نبي الله، يا رسول الله، وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ وأن يبجل وأن يعظم وأن يسود، وقال مقاتل في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ يقول: لا تسموه إذا دعوتهم يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده، كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته، والقول الثاني في ذلك أن المعنى في: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي لا تعقلوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم قهلكوا، حكاها ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصري، والأول أظهر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْلُونَ مِنْكُمْ لُؤَادًا﴾ قال مقاتل: هم المنافقون كان يتقل عليهم الحديث في يوم الجمعة، فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ، حتى يخرجوا من المسجد، وكان إذا أراد أحدكم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي ﷺ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل، وقال السدي: كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم، وقال قتادة في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْلُونَ لُؤَادًا﴾ يعني لؤاداً عن نبي الله وعن كتابه، وقال سفيان: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْلُونَ مِنْكُمْ لُؤَادًا﴾ قال: من الصف، وقال مجاهد في الآية: ﴿لُؤَادًا﴾ خلافاً، وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهجه وطريقته وسنته وشريعته، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، أي فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك؛ كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما

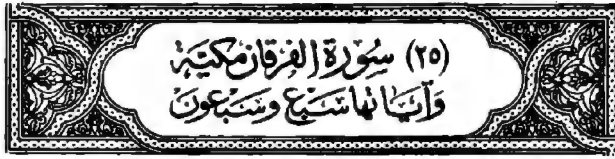
(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن .

أضاءت ما حولها جعل الفرائش وهذه الدواب اللآتي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتنحمن فيها، قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني وتتقحمون فيها»^(١)

الْآنَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ رُجْعُونَ إِلَيْهِ فَبِئْسَ لِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم فقال: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾، وقد للتحقيق، كما قال قبلها ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا﴾، وقال تعالى: ﴿قد يعلم الله الموقنين منكم﴾ الآية، فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقدر، فقوله تعالى: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ أي هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾، وقال تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ أي هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر، وقال تعالى: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به﴾ الآية. والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً. وقوله: ﴿ويوم يرجعون إليه﴾ أي ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ أي يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير، كما قال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، وقال: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً لا يظلم ربك أحداً﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾ والحمد لله رب العالمين.

[آخر تفسير سورة النور ، والله الحمد والمنة]



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَخْذُ
وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزل على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾، وقال ههنا: ﴿تبارك﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة، ﴿الذي نزل الفرقان﴾ نزل فعل من التكرر والتكرر، كقوله: ﴿والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجماً مفزلاً آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سور، وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه، كما قال في هذه السورة: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به قؤادك ورتلتناه ترتيلاً﴾ ولهذا سماه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وقوله: ﴿على عبده﴾ هذه صفة مدح وثناء، لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء فقال: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾، وقوله: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الذي جملة فرقاناً عظيماً ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء، كما قال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»، وقال: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة»، كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ الآية، وهكذا قال ههنا: ﴿الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾ ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك، ثم أخبر أنه ﴿خلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ أي كل شيء مما سواه مخلوق مرئوب، وهو خالق كل شيء وربّه، ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتدييره وتسخيره وتقديره .

وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ نَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا

حَيَوةٌ وَلَا نَشُورًا ﴿٣﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء المالك لأزمة الأمور الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبلوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فكيف يملكون لعبادتهم ؟ ﴿ ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ أي ليس لهم من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم، ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾، كقوله: ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾، وقوله: ﴿ فإنا هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾، ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه ولا تنبغي العبادة إلا له، وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا عدیل ولا بديل ولا وزير ولا نظير بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿ إن هذا إلا إفك ﴾ أي كذب ﴿ افتراه ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ أي واستعان على جمعه بقوم آخرين^(١)، فقال الله تعالى: ﴿ فقد جاموا ظلماً وزوراً ﴾ أي فقد اقتصروا هم قولاً باطلاً وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه، ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ يعنون كتب الأوائل أي استنسخها ﴿ فهي تملى عليه ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ بكرة وأصيلًا ﴾ أي أول النهار وآخره، وهذا الكلام لسخافته وكذبه كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر أن محمداً ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نوحاً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله، ومخرجه، وصدقه ونزاهته وبره وأمانته، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره، وإلى أن بعث: (الأمين) لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون ساحر، وتارة يقولون شاعر، وتارة يقولون مجنون، وتارة يقولون كذاب، وقال الله تعالى: ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً ﴾. وقال تعالى في جواب ما عاندوا ههنا واقتروا: ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ﴾ الآية: أي أنزل القرآن المشتغل على أخبار الأولين والآخرين ﴿ الذي يعلم السر ﴾ أي الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر، وقوله تعالى: ﴿ إنه كان غفوراً رحيمًا ﴾، دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة وأن حلمه عظيم، مع أن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم واقتراثهم وفجورهم وبهتانهم، يدعوه إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال

(١) يعنون: جبراً مولى الحضرمي، وعداساً غلام عتبة، والقائل: أبو جهل لعنه الله .

تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فُتِنُوا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

* وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَعَوْا لَهُمْ تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ يعنون كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿ويمشي في الأسواق﴾ أي يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهد على صدق ما يدعيه؟ وهذا كما قال فرعون: ﴿فلولا آتني عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم، ولهذا قالوا ﴿أو يلقى إليه كثر﴾ أي علم كثر ينفق منه ﴿أو تكون له جنة يأكل منها﴾ أي تسير معه حيث سار، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة، ﴿وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾، قال الله تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا﴾ أي جاموا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم ساحر، مجنون، كذاب، شاعر، وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم واقتراءهم في ذلك، ولهذا قال: ﴿فضلوا﴾ عن طريق الهدى ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾، وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال حيثما توجه، لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصلق بعضه بعضاً؛ ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه إن شاء لآتاه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ الآية. قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصر، كبيراً كان أو صغيراً. قال سفيان الثوري عن خيشمة قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبياً قبلك، ولا نعطي أحداً من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله. فقال: «اجمعوها لي في الآخرة»، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ الآية .

وقوله تعالى: ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ أي إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً

واسترشاداً، بل تكذيبهم يوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، ﴿واعتدنا﴾ أي أرصدنا ﴿لمن كذب بالساعة سعيّاً﴾ أي عذاباً أليماً حاراً لا يطاق في نار جهنم، وقوله: ﴿إذا رأتهم﴾ أي جهنم ﴿من مكان بعيد﴾ يعني في مقام المحشر، قال السدي: من مسيرة مائة عام ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ أي حقاً عليهم، كما قال تعالى: ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾ تكاد تتميز من الغيظ، أي يكاد يفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله. عن أبي وائل قال: خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم، فروا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، وينظر الربيع بن خيثم إليها، فتايل الربيع ليسقط، فر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ فصعق، يعني الربيع، وحملوه إلى أهل بيته، فربطه عبد الله إلى الظهر، فلم يفق رضي الله عنه. وعن مجاهد بإسناده إلى ابن عباس قال: إن الرجل ليجر إلى النار فتتروى وتنقبض بعضها إلى بعض فيقول لها الرحمن: مالك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبيدي؛ وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبيدي؛ وإن الرجل ليجر إلى النار فتشقق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعر، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف^(١). وقال عبيد بن عمير في قوله: ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ قال: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خرّ لوجهه، ترتعد فرائضه، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه، ويقول: رب لا أسألك اليوم إلا نفسي^(٢)، وقوله: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين﴾ قال قتادة: مثل الزوج في الرمح أي من ضيقه، وسئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين﴾ قال: «والذي نفسي بيده إنهم ليستكروا في النار كما يستكروا التودد في الحائط». وقوله: ﴿مقرنين﴾ يعني مكفين ﴿دعوا هنالك ثوراً﴾ أي بالويل والحسرة والخيبة، ﴿لا تدعوا اليوم ثوراً واحداً﴾ الآية. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أول من يكسى حلة من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه، وذريته من بعده، وهو ينادي: يا ثوراه، وينادون: يا ثورهم، حتى يقفوا على النار، فيقول: يا ثوراه، ويقولون: يا ثورهم، فيقال لهم: ﴿لا تدعوا اليوم ثوراً واحداً﴾ وادعوا ثوراً كثيراً». عن ابن عباس: أي لا تدعوا اليوم وياً واحداً وادعوا وياً كثيراً، وقال الضحاك: الثبور الهلاك، والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ أي هالكا

قُلْ أَذَلِّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾

يقول تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرنين، لا يستطيعون حراكاً ولا استنصاراً ولا فكاً

(١) ذكره ابن جرير رحمه الله في تفسيره وقال ابن كثير: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن مجاهد عن عبيد بن عمير.

مما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده، التي أعدها لهم جزاء ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا وجعل مآلهم إليها ١٩ ﴿لم فيها ما يشاءون﴾ من الملاذ من مآكل ومشرب، وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خاللون أبداً دائماً سرمداً، بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء، ولا ييغون عنها حولاً، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كان على ربك وعداً مستولاً﴾ أي لا بد أن يقع وأن يكون، أي وعداً واجباً، وقال محمد بن كعب القرظي: إن الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾، وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا، فذلك قوله: ﴿وعداً مستولاً﴾ وهذا المقام في هذه السورة كما ذكر تعالى في سورة الصافات حال أهل الجنة وما فيها من النضرة والحبور؛ ثم قال: ﴿أذلك خير نزلًا أم شجرة الزقوم • إنا جعلناها فتنه للظالمين﴾ الآيات .

* وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءَ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا اللَّهَ الَّذِي كَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مَثْرًا نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبوا من دون الله من الملائكة وغيرهم فقال: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله﴾، قال مجاهد: هو عيسى والعزيز والملائكة، ﴿فيقول أنتم أضللتم عبادي هؤلاء﴾ الآية، أي فيقول تبارك وتعالى للمعبودين: أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنئت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ الآية. ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجب به المعبودون يوم القيامة: ﴿قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾، أي ليس للخلاق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، ﴿ولكن متعتهم وآباءهم﴾ أي طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر، أي نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ قال ابن عباس: أي هلكى، وقال الحسن البصري: أي لا خير فيهم. قال الله تعالى: ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله، فبما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقرّبونكم إلى الله زلفى كقوله تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾. وقوله: ﴿فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً﴾ أي لا يقدرّون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، ﴿ومن يظلم منكم﴾ أي يشرك بالله ﴿نذقه عذاباً كبيراً﴾ .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَبَاءُ كَلُورٍ أَلْعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَبِروْنَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم على صدق ما جاءوا به من الله، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾؟ أي اخترنا بعضهم ببعض، وبلونا بعضهم ببعض لنعلم من يطيع من يعصي، ولهذا قال ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي بمن يستحق أن يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ومن يستحق أن يهديه الله ومن لا يستحق ذلك، وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾؟ قال: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت، ولكني قد أردت أن أبلي العباد بهم وأبتليكم بهم، وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى إني مبتليكم ومبتل بك»^(١)، وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختر أن يكون عبداً رسولاً

* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَأِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن نعت الكفار في كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَأِكَةُ﴾ أي بالرسالة كما تنزل على الأنبياء، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تَأْتِيَنَا مَوْئِدٌ مِمَّا نُرْسِلُكُمْ بِهِ﴾، ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَأِكَةُ﴾ فتراهم عياناً فيخبرونا أن محمداً رسول الله، كقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَأِكَةِ قَبِيلًا﴾، ولهذا قالوا ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾، ولهذا قال الله تعالى ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَأِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي هم يوم يرونهم لا بشري يومئذ لهم، وذلك يصدق على وقت الاحتضار، حين تبشرهم الملائكة بالنار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: أخرجني أيها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، أخرجني إلى سحوم وحيم وظل من يحوم، فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَأِكَةَ يَضْرِبُونَ وَجُوهُهُم وَأُذُنَهُمْ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَأِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ أي بالضرب، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَأِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم فإنهم يشرون بالخيرات، وحصول المسرات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَأِكَةُ أُنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وفي الصحيح عن البراء بن عازب: إن الملائكة تقول لروح المؤمن: أخرجني أيها النفس الطيبة في الجسد الطيب إن كنت تعمرينه،

(١) أخرجه مسلم عن عياض بن حماد مرفوعاً.

أخرجني إلى روح وريحان ورب غير غضبان^(١)، وقال آخرون: بل المراد بقوله ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى﴾ يعني يوم القيامة، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما؛ ولا منافاة بين هذا وما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين - يوم الممات ويوم المعاد - تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتحذر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين ﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ أي وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرم عليكم الفلاح اليوم، وأصل الحجر المنع، ومنه يقال: حجر القاضي على فلان إذا منعه التصرف، إما لسفوه أو صغره أو نحو ذلك؛ ومنه يقال للعقل (حجر) لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق، والغرض أن الضمير في قوله: ﴿ويقولون﴾ عائد على الملائكة، هذا قول مجاهد وعكرمة والضحاك واختاره ابن جرير .

وقوله تعالى: ﴿وقدمنّا إلى ما عملوا من عمل﴾ الآية، هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل هؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، ولهذا قال تعالى: ﴿وقدمنّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾، عن علي رضي الله عنه في قوله ﴿هباء منثوراً﴾ قال: شعاع الشمس إذا دخل الكوة. وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أحدكم ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع، وقال ابن عباس ﴿هباء منثوراً﴾ قال: هو الماء المهرق، وقال قتادة: أما رأيت ييس الشجر إذا ذرته الريح؟ فهو ذلك الورق. وروى عبد الله بن وهب عن عبيد بن يعلى قال: إن الهباء الرماد إذا ذرته الريح، وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجرور ولا يظلم أحداً إذا بها لا شيء بالكليّة، وشبهت في ذلك بالشيء الثافه الحقير المتفرق، الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكليّة، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ .

وقوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ أي يوم القيامة ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم القاترون﴾ وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات، والغرفات الآمات، فهم في مقام أمين حسن المنظر طيب المقام ﴿خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾ وأهل النار يصيرون إلى الدرجات السافلات، وأنواع العذاب والعقوبات ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ أي بشس المتزل منظرأ وبشس المقيّل مقاماً، ولهذا قال تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار، فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم والنجاة من النار، فبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء وأنه لا خير عندهم بالكليّة، فقال تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾، قال ابن عباس: إنما هي ساعة فيقول أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقلل أعداء الله مع الشياطين مقرنين، وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار فيقلل

(١) تقدم الحديث في سورة إبراهيم عند قوله تعالى ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ الآية .

أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، قال قتادة: أي مأوى ومترلاً. وقال ابن جرير عن سعيد الصواف: أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وانهم يتقلبون في رياض الجنة، حتى يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وَيَوْمَ نَسْفُقُ السَّمَاءَ بِالْغَمِيمِ وَنَزَّلَ الْمَلَكُ تَزِيلًا ﴿٢٥﴾ أَلَمْ لَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الْأُطَالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْبِثُنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لِبَنِي لِرَأْسِهِ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

يغير تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها، وانفراجها بالغمام وهو ظلل النور العظيم الذي يهر الأبصار، ونزول ملائكة السماوات يومئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يحىء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ الآية. قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك

وقوله تعالى: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿لمن الملك اليوم. لله الواحد القهار﴾ وفي الصحيح: أن الله تعالى يطوي السماوات يمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ وقوله: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ أي شديداً صعباً لأنه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالى: ﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ على الكافرين غير يسير ﴿فهذا حال الكافرين في هذا اليوم، وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ الآية، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال، قيل: يا رسول الله ﴿يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلبها في الدنيا». وقوله تعالى: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ الآية، يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ، وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعرض على يديه حسرة وأسفاً، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن معيط^(١)، أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم كما قال تعالى: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار﴾ الآيتين، فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، وبعض على يديه قاتلاً ﴿يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك (أمية بن خلف) أو أخوه (أبي بن خلف) أو غيرها ﴿لقد أضلني عن الذكر﴾ وهو القرآن ﴿بعد إذ جاءني﴾

(١) أخرج ابن جرير: كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ، فيزجره عقبة بن أبي معيط، فترلت هذه الآية، كما في الباب.

أي بعد بلوغه إليّ، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خُنُولًا﴾ أي يَخْذُلُهُ عَنِ الْحَقِّ وَيَصْرِفُهُ عَنْهُ وَيُسْتَعْمَلُهُ فِي الْبَاطِلِ وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ .

وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ۚ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ الآية، فكانوا إذا تلى عليهم القرآن، أكثروا اللغط والكلام حتى لا يسمعونه؛ فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به من هجرانه، والعلول عنه إلى غيره من شعر أو قول، أو غناء أو لُهو من هجرانه. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضية، لأن الله جعل لكل نبي عدوًّا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقته واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۖ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُخَشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعينهم حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحى إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالطهارة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية؟ فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به كقوله: ﴿وَقَرَأْنَا لَهُمْ الصَّحْفَ﴾ الآية، ولهذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، قال قتادة: بيناه تبييناً، وقال ابن زيد: وفسرناه تفسيراً ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجابناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم، قال ابن عباس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بما يلتزمون به عيب القرآن والرسول ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم، وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل بالقرآن صباحاً ومساءً، سافراً وحضراً، لا كإتزال ما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله تعالى،

وقد جمع الله للقرآن الصفتين معاً: ففي الملاً الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا؛ ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً بحسب الوقائع والحوادث. روي عن ابن عباس أنه قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جنتاك بالحق وأحسن تفسيراً﴾، وقال تعالى: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾^(١)

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات، ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾، وفي الصحيح عن أنس، أن رجلاً قال: يا رسول الله! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجله قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ إِخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ لُ الْأَمْثَلِ وَكُلًّا تَبَرْنَا نَبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمِطَرْنَا مَطَرًا السَّوءَ أَفْلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُصُورًا ﴿٤٠﴾

يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه ومحذراً من عقابه وأليم عذابه، بما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله؛ فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً أي نبياً موازراً ومؤيداً وناصراً، فكذبهما فرعون وجنوده فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل ويحذرهم قمقه ﴿فا آمن معه إلا قليل﴾، ولهذا أغرقهم الله جميعاً ولم يبق منهم أحداً، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط، ﴿وجعلناهم للناس آية﴾ أي عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴿أي وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم من إنجائكم من الغرق، وقوله تعالى: ﴿وعاداً وثمود وأصحاب الرس﴾ قد تقدم الكلام على قصتهما في غير ما سورة كسورة الأعراف بما أغنى عن الإعادة. وأما أصحاب الرس فقال ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود، وقال عكرمة: أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس، وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة، وعن عكرمة: الرس بئر رسوا فيها نبيهم، أي دفنوه فيها

(١) أخرجه النسائي بإسناده عن ابن عباس .

وقوله تعالى: ﴿وقرؤنا بين ذلك كثيراً﴾ أي وأما - أضعاف من ذكر أهلكناهم - كثيرة، ولهذا قال: ﴿وكلّا ضربنا له الأمثال﴾ أي بينا لهم الحجج، ووضحنا لهم الأدلة، وأزحنا الأعدار عنهم، ﴿وكلّا تبرنا تتيباً﴾ أي أهلكنا إهلاكاً، كقوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾، والقرن هو الأمة من الناس، كقوله: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرؤناً آخرين﴾، وحدّه بعضهم بمائة، وقيل بثمانين، والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر، كما ثبت في الصحيحين: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» الحديث. ﴿ولقد أنوا على القرية التي أمطرت مطر السوء﴾ يعني قرية قوم لوط وهي (سodom) التي أهلكها الله بالقلب والمطر من الحجارة التي من سجيل، كما قال تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾، وقال: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصحين * وبالليل أفلا تعقلون﴾، وقال تعالى: ﴿وإنها لبسيل مقيم﴾، وقال: ﴿وإنهما ليأمام مبين﴾، ولهذا قال: ﴿أفلم يكونوا يرون﴾؟ أي فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنعال بسبب تكذيبهم بالرسول وبمخالفتهم أوامر الله، ﴿بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون، لأنهم ﴿لا يرجون نشوراً﴾ أي معاداً يوم القيامة

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخْذُوكَ إِلَّا هُزْواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴿٤٦﴾ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ أَضْلَ سَبِيلًا ﴿٤٧﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضْلُ سَبِيلًا ﴿٤٩﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه، كما قال تعالى: ﴿وإذا رآك الذين كفروا يبتخئونك إلا هزوا﴾ الآية، يعنونه بالعبث والقص، وقال ههنا: ﴿وإذا رآوك إن يبتخئونك إلا هزوا﴾ أهذا الذي بعث الله رسولا؟ أي على سبيل التقص والازدراء، وقوله تعالى: ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا﴾ يعنون أنه كاد يشبههم عن عبادة الأصنام، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها، قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب﴾ الآية، ثم قال تعالى لنبية منبأ: أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال فإنه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل، ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ أي مهما استحس من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ فإن الله يضل من يشاء الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾؟ قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول، ثم قال تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾؟ الآية، أي هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تفعل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم .

* أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٥٠﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٥١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٥٢﴾

شرع سبحانه وتعالى في بيانه الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل﴾ ؟ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ أي دائماً لا يزول، وقوله تعالى: ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، وقال قتادة والسدي: دليلاً تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله، وقوله تعالى: ﴿ثم قبضناه إلینا قبضاً يسيراً﴾ أي الظل، وقبل الشمس، ﴿يسيراً﴾ أي سهلاً، قال ابن عباس: سريعاً، وقال مجاهد خفياً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة. وقال أيوب بن موسى ﴿قبضاً يسيراً﴾: قليلاً قليلاً. وقوله: ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾ أي يلبس الوجود ويغشاه، كما قال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾، والنوم سباتاً أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً، ﴿وجعل النهار نشوراً﴾ أي ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآبِيَ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي بمجيء السحاب بعدها. والرياح أنواع، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ أي آلة يتطهر بها كالسحور. فهذا أصح ما يقال في ذلك، وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن خالد بن يزيد قال: كنا عند عبد الملك بن مروان، فذكروا الماء، فقال خالد بن يزيد: منه من السماء، ومنه ما يسوقه الغيم من البحر فيذببه الرعد والبرق، فأما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات، فأما النبات فما كان من السماء؛ وروي عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشباً أو في البحر لؤلؤة. وقال غيره: في البرُّ، وفي البحر دُرٌّ. وقوله تعالى: ﴿لنحيي به بلدة ميتاً﴾ أي أرضاً قد طال انتظارها للغيث فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الحياء عاشت واكتست رباها أنواع الأزهار والألوان، كما قال تعالى: ﴿فاذا أنزلنا عليها الماء اهترت وريت﴾ الآية، ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسٍ كثيراً﴾ أي وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسٍ محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزرعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ولقد صرفناه بينهم ليدذكروا﴾ أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب يمر على الأرض ويتعداها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى، فيمطرها ويكفيها ويجعلها غداً والتي وراءها لم يتزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة. قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية ﴿ولقد صرفناه بينهم ليدذكروا﴾ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً: أي ليدذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات، أو ليدكر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه فيقلع عما هو فيه. وقوله: ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ قال

عكرمة: يعني الذين يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب».

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ ﴿٥١﴾ ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَجَهَدَهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا جَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

يقول تعالى: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل، ولكننا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ﴿لأنذرهم به ومن بلغ﴾، ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾، وفي الصحيحين: «بعثت إلى الأحمر والأسود»، وفيها «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به﴾ يعني بالقرآن، قاله ابن عباس ﴿جهاداً كبيراً﴾، كما قال تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وهو الذي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي خلق المائين الحلو والمِلْح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار. قاله ابن جريج واختاره ابن جرير، وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذاب فرات، والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لبنه العباد على نعمه عليهم ليذكروهم، فالبحر العذب فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً أو عيوناً في كل أرض، بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم، وقوله تعالى: ﴿وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي مالح، مرٌّ، زُعَاق لا يستساغ، وذلك كالبهار المعروفة في المشارق والمغارب، البحر المحيط وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غابتها الأولى، فأجرى الله سبحانه وتعالى - وهو ذو القدرة التامة - العادة بذلك، فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحه، لئلا يحصل بسببها تنن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحيحاً وميتها طيبة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: «هو الظهور ماؤه، الحل ميتته»^(١). وقوله تعالى: ﴿وجعل بينهما برزخاً وحجراً﴾ أي بين العذب والمالح ﴿برزخاً﴾ أي حاجزاً وهو اليبس من الأرض ﴿وحجراً محجوراً﴾ أي مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر، كقوله تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾، وقوله تعالى: ﴿وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون﴾، وقوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾ الآية، أي خلق الإنسان من نقطة ضعيفة

فسوّاه وعدّله، وجعله كامل الخلقة ذكراً وأنثى كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهراً﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات، وكل ذلك من ماء مهين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَا شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْراً ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً بلا دليل قادم إلى ذلك ولا حجة أدتهم إليه بل بمجرد الآراء والأهواء، فهم يوالونهم ويقانون في سبيلهم وبعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ أي عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، قال مجاهد ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ قال: يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه، وقال سعيد بن جبير: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك، وقال زيد بن أسلم: موالياً، ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ أي بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله، ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي طريقاً ومسلكاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به، ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي في أمورك كلها، كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً، الدائم الباقي السرمدي، الأبدى الحي القيوم، رب كل شيء ومليكه، اجعله ذكرك وملجأك، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي اقرن بين حمده وتسميحه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك»، أي أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ أي بعلمه التام لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية، أي هو خالق كل شيء وربه ومليكه، الذي خلق بقلبرته

(١) روى ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب قال: لقي سلمان النبي ﷺ في بعض فجاج المدينة فسجد له، فقال: «لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحي الذي لا يموت» قال ابن كثير: وهو مرسل حسن.

وسلطانه السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفوها وكثافتها ﴿٦١﴾ في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴿٦٢﴾، يدبر الأمر ويقضي الحق وهو خير الفاصلين، وقوله: ﴿٦٣﴾ فاسأل به خيراً ﴿٦٤﴾ أي استعلم عنه من هو خير به عالم به، فاتبعه واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به، من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الإطلاق، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فما قاله فهو الحق، وما أخبره به فهو الصدق، ولهذا قال تعالى: ﴿٦٥﴾ فاسأل به خيراً ﴿٦٦﴾، قال مجاهد: ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك، وقال شمر بن عطية: هذا القرآن خير به، ثم قال تعالى منكرًا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنناد: ﴿٦٧﴾ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴿٦٨﴾؟ أي لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم؛ ولهذا أنزل الله تعالى: ﴿٦٩﴾ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴿٧٠﴾ أي هو الله وهو الرحمن، وقال في هذه الآية: ﴿٧١﴾ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴿٧٢﴾ أي لا نعرفه ولا نقرُّ به، ﴿٧٣﴾ أنسجد لما تأمرنا ﴿٧٤﴾؟ أي لمجرد قولك، ﴿٧٥﴾ وزادهم نفوراً ﴿٧٦﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويفردونه بالآلهية ويسجدون له .

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مجدداً نفسه ومعظماً على جميل ما خلق في السماوات من البروج، وهي الكواكب العظام^(١)، وقيل: هي قصور في السماء للحرس^(٢)، والقول الأول أظهر، اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿٧٩﴾ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴿٨٠﴾ والآية، ولهذا قال تعالى: ﴿٨١﴾ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً ﴿٨٢﴾ وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود، كما قال تعالى: ﴿٨٣﴾ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴿٨٤﴾، ﴿٨٥﴾ وقمرًا منيرًا ﴿٨٦﴾ أي مشرقاً مضيئاً بنور آخر من غير نور الشمس، كما قال تعالى: ﴿٨٧﴾ وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ﴿٨٨﴾، وقال: ﴿٨٩﴾ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً ﴿٩٠﴾، ثم قال تعالى: ﴿٩١﴾ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴿٩٢﴾ أي يخلف كل واحد منهما الآخر يتعاقبان لا يفتران، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك، كما قال تعالى: ﴿٩٣﴾ وسخر لكم الشمس والقمر دائيين ﴿٩٤﴾ الآية، وقال: ﴿٩٥﴾ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴿٩٦﴾ الآية، وقال: ﴿٩٧﴾ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴿٩٨﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿٩٩﴾ لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴿١٠٠﴾ أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الله عز وجل يسطر يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل». قال ابن عباس في الآية: من فاته شيء من الليل

(١) وهو قول مجاهد والحسن وقناة وسعيد بن جبير

(٢) وهو مروى عن علي وابن عباس وإبراهيم النخعي

أن يعمله أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل، وقال مجاهد وقناة: خلفه أي مختلفين، أي هذا بسواده وهذا بضياؤه .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ أي بسكينة ووقار من غير تجبر ولا استكبار، كقوله تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ الآية. وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صلب وكأنما الأرض تطوى له، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال: ما بالك ! أنت مريض ؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالذرة، وأمره أن يمشي بقوة، وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأتيت تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا»، وقوله تعالى: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ أي إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السيء لم يقابلوه عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ، لا تريده شدة الجاهل عليه إلا حلماً، وكما قال تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ الآية، وقال مجاهد ﴿قالوا سلاماً﴾: يعني قالوا سداداً، وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفاً من القول، وقال الحسن البصري: قالوا سلام عليكم، إن جهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل، فقال تعالى: ﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ أي في طاعته وعبادته، كما قال تعالى: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأشجار هم يستغفرون﴾، وقوله: ﴿تجافي جنوبهم عن المضاجع﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً﴾ أي ملازماً دائماً كما قال الشاعر

إِنْ يُعَذِّبُ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يَعْـ طِرْ جَزِيلاً فَانْه لا يَبَالِي

ولهذا قال الحسن في قوله ﴿إن عذابها كان غراماً﴾: كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام، وإنما الغرام اللازم ما دامت الأرض والسموات. ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ أي بشئ المنزل منزلاً وبشئ المقيـل مقاماً، وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال: إن في النار لجنباً فيها حيات أمثال البُحْت، وعقارب أمثال البغال الدَّعَم، فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها، فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم، فإذا وجدت حر النار رجعت. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة: يا حنان يا منان، فيقول الله عز وجل لجبريل: اذهب فأنـتي بعبدي هذا، فيطلق جبريل، فيجد أهل النار مكبين يكون، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره، فيقول

الله عزَّ وجلَّ: اثنى به فإنه في مكان كذا وكذا، فيجىء به، فيوقفه على ربه عزَّ وجلَّ، فيقول له: يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا رب شر مكان وشر مقيم، فيقول الله عزَّ وجلَّ: ردوا عبدي، فيقول: يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها، فيقول الله عزَّ وجلَّ: دعوا عبدي^(١). وقوله تعالى ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ الآية، أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم، فيقتصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا ﴿وكان بين ذلك قواماً﴾، كما قال تعالى ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ الآية. وفي الحديث: «من فقه الرجل قصده في معيشته^(٢)»، وعن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»، وقال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف، وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف، وقال غيره: السرف النفقة في معصية الله عزَّ وجلَّ.

* وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ^٤ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٥﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ^٥ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٨﴾

عن عبد الله بن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله أنداداً وهو خلقك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تزني حليلة جارك»، قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ الآية^(٣) وعن سلمة بن قيس قال، قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنما هي أربع» فما أنا بأشجع عليهن منذ سمعتن من رسول الله ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا». وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره» قال: «فا تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام، قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره». وعن الميثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له»^(٤)، وقال ابن عباس: إن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي نقول وتدعو إليه لحسن، لو نجربنا أن لما عملنا كفارة، فترلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ الآية، وترلت: ﴿قل

- (١) أخرجه الإمام أحمد في المسند . (٢) أخرجه الإمام أحمد أيضاً .
(٣) أخرجه النسائي والإمام أحمد ورواه البخاري ومسلم ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله ؟ الحديث . (٤) أخرجه أبو بكر بن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك مرفوعاً

يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴿ الآية. وقوله تعالى: ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾، روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: أثاماً: واد في جهنم، وقال عكرمة ﴿ يلق أثاماً ﴾ أودية في جهنم يعذب فيها الزناة، وقال قتادة ﴿ يلق أثاماً ﴾: نكالا، كنا نحدث أنه واد في جهنم، وقال السدي ﴿ يلق أثاماً ﴾ جزاء، وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسرهما بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله تعالى: ﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ﴾ أي يقرر عليه ويغلفه ﴿ ويخلد فيه مهاناً ﴾ أي حقيراً ذليلاً، وقوله تعالى: ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ أي جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إلا من تاب ﴾ أي في الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك فإن الله يتوب عليه، وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ﴾ الآية، فإن هذه وإن كانت مدنية، إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتب .

وقوله تعالى: ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾. في معنى قوله: ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ قولان: أحدهما أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات، قال ابن عباس: هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات. وقال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات، وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السوء العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً، وبالكفر إسلاماً، (والقول الثاني): أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف رضي الله عنهم. فعن أبي ذر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة، يؤتى برجل فيقول: نحوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال فيقال له: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا، فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب عملت أشياء لا أراها ههنا » قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ^(١). وعن أبي هريرة قال: ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات، قيل: من هم يا أبا هريرة؟ قال: الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات ^(٢)، وقال علي بن الحسين زين العابدين ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ قال: في الآخرة. وقال مكحول: بغفرها لهم فيجعلها حسنات، قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولا يحدث قال: جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال: يا رسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها يمينه، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأويقهم فهل له من توبة؟ فقال النبي ﷺ: « أأسلمت؟ » قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فقال النبي ﷺ: « فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ومبدل سيئاتك حسنات »، فقال: يا رسول الله وغدراي وفجراي؟ فقال: « وغدرايك وفجرايك »، فولى الرجل يكبر ويهمل ^(٣). ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً كبيراً أو صغيراً، فقال تعالى: ﴿ ومن تاب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة موقوفاً

(٣) رواه ابن أبي حاتم وأخرجه الطبراني بنحوه .

وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴿٧٢﴾ أي فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ الآية: أي لمن تاب إليه .

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْا عَلَيْهَا سُومًا وَغَمًّا ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٥﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام، وقيل: الكذب والفسق واللغو والباطل، وقال محمد بن الحنفية: هو اللغو والغناء، وقال عمرو بن قيس: هي المجالس السوء والخساف، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لا يشهدون الزور﴾ أي شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره كما في الصحيحين: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك بالله وعقوق الوالدين»، وكان منكناً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت^(١)، والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي لا يحضرونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ أي لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مروا كراماً﴾، وروى ابن أبي حاتم عن ميسرة قال: بلغني أن ابن مسعود مرّ ببلهو معرضاً فلم يقف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أصبح ابن مسعود وأسى كريماً» ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾، وقوله تعالى: ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ وهذه أيضاً من صفات المؤمنين ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه، ولا يتغير عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه، وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾، فقله: ﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ أي بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى، قال مجاهد قوله: ﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ قال: لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً، وقال الحسن البصري: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى، وقال قتادة: لم يصموا عن الحق ولم يعملوا فيه، فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه .

وقوله تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبد وحده لا شريك له، قال ابن عباس: يعنون من يعمل بطاعة الله فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة، قال عكرمة: لم يربلوا بذلك صباحة ولا جمالا، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين. وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال: أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً، أو ولد ولد، أو أخاً، أو حمياً مطيعاً لله عز وجل. وقال ابن

(١) أخرجه الشيخان عن أبي بكر رضي الله عنه مرفوعاً .

أسلم: يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال ابن عباس والحسن والسدي: أئمة يقتدى بنا في الخير، وقال غيرهم: هداة مهتدين دعاة إلى الخير، ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية».

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة، قال بعد ذلك كله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿الغرفة﴾ وهي الجنة سميت بذلك لارتفاعها، ﴿بما صبروا﴾ أي على القيام بذلك، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿تحية وسلاماً﴾ أي يتندرون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾، وقوله تعالى: ﴿خالدين فيها﴾ أي مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا يغيثون عنها حولا، كما قال تعالى: ﴿وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿حسنت مستقراً ومقاماً﴾ أي حسنت منظراً وطابت مقبلاً ومتمزلاً، ثم قال تعالى: ﴿قل ما يعبا بكم ربي﴾ أي لا يبالي ولا يكثر بكم إذا لم تعبوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبوه ويوحده ويسبحوه بكرة وأصيلاً.

قال ابن عباس: لولا دعاؤكم: أي لولا إيمانكم، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حبه إلى المؤمنين. وقوله تعالى: ﴿فقد كذبتم﴾ أيها الكافرون ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم، يعني مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة.

[آخر تفسير سورة الفرقان ، والله الحمد والمنة]

(٢٦) سُورَةُ الشَّعَرَةِ مَكِّيَّةٌ
وَأَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً وَمِائَتَانِ

(ووقع في تفسير مالك المروى عنه تسميتها سورة الجامعة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ ؕ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُنزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّرْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي هذه آيات القرآن المبين، أي البين الواضح الجلي، الذي يفصل بين الحق والباطل والغي والرشاد، وقوله تعالى: ﴿لعلك باخع﴾ أي مهلك ﴿نفسك﴾ أي مما تحرص وتحزن عليهم ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾، وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾، كقوله: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ الآية. قال مجاهد وعكرمة ﴿لعلك باخع نفسك﴾: أي قاتل نفسك، ثم قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ أي لو نشاء أنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكن لا نفعل ذلك لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري، وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾، وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ الآية، فنفذ قدره ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم وإزالة الكتب عليهم، ثم قال تعالى: ﴿وما يأتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾ الآية. ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نأ هذا التكذيب بعد حين، ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره، وهو القاهر العظيم القادر

الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان، قال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم، ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّمَنْ كَانَ عَلَى قَدَرٍ الْخَالِقِ لِلْأَشْيَاءِ﴾، الذي بسط الأرض، ورفع بناء السماء ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله، وقوله: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي بخلقه فلا يجعل على من عصاه بل يؤجله وينظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، قال أبو العالية: العزيز في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره الرحيم بمن تاب إليه وأناب .

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيَّتِنَا أَنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَاثْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾

يغير تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكنيحه (موسى بن عمران) عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكنيحه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملكه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قوم فرعون ألا يتقون . قال رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون . ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلوني . هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ - إلى قوله - قد أوتيت سؤالك يا موسى ، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي بسبب قتل القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر، ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك، كقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مُلْكًا مِصْرَ﴾، ﴿فَادْهَبَا بِأَيَّتِنَا أَنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾، كقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أي إني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأيدي، ﴿فَاثْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي كل منا أرسل إليك، ﴿أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أطلقهم من إسمارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون وحزبه المخلصون، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية، ونظر إليه بعين الازدراء والقمص فقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ الآية، أي أما أنت أنت الذي ربينا فينا وفي بيتنا وعلى فراشنا، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلاً وجحدت نعمتنا عليك، ولهذا قال: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي الجاحدين

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا ﴾ أي في تلك الحال ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أي قبل أن يوحى إليّ وينعم الله عليّ بالرسالة والنبوة، قال ابن عباس ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أي الجاهلين، ﴿ ففُفِرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَنْتُكُمْ ﴾ الآية، أي انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك فإن أظعته سلمت، وإن خالفته عطبت، ثم قال موسى: ﴿ وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل ﴾ أي وما أحسنت إليّ وريبتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخداماً، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيّتك، أفنيّ إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم ؟ أي ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم .

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَدِي أَرْسِلْ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونًا ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وطغيانه وجحوده في قوله: ﴿ وما رب العالمين ﴾، وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ وكانوا يحجلون الصانع جلّ وعلا، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: إني رسول رب العالمين، قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري ؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قال فن ريكما يا موسى ﴾ فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه، وإلهه لا شريك له، هو الذي خلق الأشياء كلها من بحار وقفار، وجبال وأشجار، ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطير، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة، فعند ذلك التف فرعون إلى من حوله من ملته ورؤساء دولته قائلاً على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿ ألا تستمعون ﴾ ؟ أي ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري ؟ فقال لهم موسى: ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي خالفكم وخالق آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه، ﴿ قال ﴾ أي فرعون لقومه ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ أي ليس له عقل في دعواه أن ثم رباً غيري، ﴿ قال ﴾ أي موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ أي هو الذي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً، كما قال تعالى: ﴿ قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فانت بها من المغرب ﴾ الآية، ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حججه عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى عليه السلام، فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

* قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ

قَاتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوْكُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾، فعند ذلك قال موسى: ﴿أولو جنتك بشيء مبين﴾؟ أي ببرهان قاطع واضح، ﴿قال فإني به إن كنت من الصادقين﴾، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، أي ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج، ﴿ونزع يده﴾ أي من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء للنظرين﴾ أي تتلألأ كقطعة من القمر، فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد، فقال للملأ حوله: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ أي بارع في السحر، فروج عليهم أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرصهم على مخالفته والكفر به، فقال: ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾ الآية، أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليّ فيه ماذا أصنع به؟ ﴿قالوا أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين﴾، يا توك بكل ساحر عليم، أي أخوه وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكته، وأقاليم دولته كل ساحر عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصره والتأييد فأجابه إلى ذلك، وكان هذا من تسخير الله تعالى، ليجتمع الناس في صعيد واحد، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهره.

بَجِيعِ السَّحَرَةِ لِيَمِيزَنَّ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْمُرُكَ إِذَا لَمْ نَكُنْ مِنَ الْقَوَّامِينَ ﴿٤١﴾ قَالَهُمْ مُوسَى الْقَوَّامُ أَنْتُمْ مَلْقُونُ ﴿٤٢﴾ فَالْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ﴿٤٥﴾ قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْمَوْلُودِ الَّذِي أَلْهَمُونَا السَّحْرَ فَلْيَرْجِهْ إِنَّ رَبَّنَا أَكْبَرُ مِنْهُ وَالْأُولَى الْآيَاتُ ﴿٤٦﴾

لما جاء السحرة وقد جمعهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم، وكان السحرة جمعاً كثيراً وجمعاً غفيراً، قيل: كانوا اثني عشر ألفاً، وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: غير ذلك، والله أعلم بعلتهم. واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾، ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم ﴿فلما جاء السحرة﴾ أي إلى مجلس فرعون، وقد جمع خدمه وحشمه، ووزرائه ورؤساء دولته، وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم إن غلبوا فقالوا: ﴿أنئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين، أي وأخص مما

تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي، فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ
أَوَّلَ مَنْ أُلْقِيَ﴾ قال بل ألقوا ﴿وَقَدْ اخْتَصَرْ هَذَا هَهُنَا فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ مَلَقُونَ﴾ فآلقوا حبالهم وعصيهم
وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴿وَهَذَا كَمَا تَقُولُ الْجَهْلَةُ مِنَ الْعَوَامِ إِذَا فَعَلُوا شَيْئًا هَذَا بِثَوَابِ فُلَانٍ﴾ ﴿فَأُلْقِيَ
مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي تخطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً. قال الله تعالى:
﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فكان هذا أمراً عظيماً، وبرهاناً قاطعاً للعذر، وحجة دامغة، وذلك أن
الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا غلبوا، وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين
الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان وقفاً جريئاً
عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فعُدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهدهم ويتوعدهم، ويقول:
﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وقال: ﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الآية .

﴿قَالَ ءَأَمْنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكَ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قِطْعَانَ أُيْدِيكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبَ لَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ
لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

تهدهم فلم ينفع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسلياً، وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب
الكفر، وظهر لهم الحق من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيده به وجعله
له حجة، ودلالة على صدق ما جاء به من ربه، ولهذا لما قال لهم فرعون ﴿ءَأَمْنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ ؟ أي كان
ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ولا تفتنوا علي في ذلك، فإن أذنت لكم فاعلمتم وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم
المطاع ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾. وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل
ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل، ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي
والأرجل والصلب، فقالوا ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به، ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي
المرجع إلى الله عز وجل، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا وسيجزينا على ذلك
أتم الجزاء، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ أي ما فارقنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من
السحر، ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بسبب أننا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان، فقتلهم كلهم .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ ﴿فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي أَلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَعَّاءٌ يَبْظُنُونَ﴾ ﴿وَأَنَّا بِجَمِيعِ حَذِرُونَ﴾ ﴿فَأَنزَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾
﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك

يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل. خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً، وكان خروجه بهم فيها ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر، وأن موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته معهم، وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم، فلما أصبحوا وليس في ناديه داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون، واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سرباً في بلاده حاشرين، أي من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم: ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لَشُرْمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي لطائفة قليلة، ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَاظُونَ﴾ أي كل وقت يصل منهم إلينا ما يغطينا، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وإني أريد أن أستأصل شأقتهم وأبيد خضراءهم، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي فخرجوا من هذا النعم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا، وكذلك وأورثناها بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ الآية .

فَاتَّبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَالْمُجِينَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوَ الْغَرِيزِ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، ﴿فَاتَّبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أي رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر، وهو بحر القلزم فصار أمامهم البحر، وقد أدركهم فرعون يجنوده، فلماذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴿أي لا يصل إليكم شيء مما تحلزون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد، وكان هارون عليه السلام في المقدمة، ومعه (يوشع بن نون) ومؤمن آل فرعون، وموسى عليه السلام في الساقة، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر فضربه، وقال: انفلق ياذن الله. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن سلام: أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء، والمكون لكل شيء، والكائن بعد كل شيء، اجعل لنا مخرجاً، فأوحى الله إليه: ﴿أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾. وقال محمد بن إسحاق: أوحى الله - فيما ذكر لي - إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له، قال: فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضاً فرقاً من الله تعالى وانتظراً

لما أمره الله، وأوحى الله إلى موسى ﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ فصر به بها، ففيها سلطان الله الذي أعطاه فانفلق، قال الله تعالى: ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ أي كالجبل الكبير^(١)، قاله ابن عباس، وقال عطاء الخراساني: هو الفج بين الجبلين. وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق؛ وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حيله كالحيطان، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار ييباً كوجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿ فاضرب لم طريقاً في البحر ييباً ﴾ لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴿، وقال في هذه القصة ﴿ وأزلفنا ثم الآخريين ﴾ أي هنالك. قال ابن عباس ﴿ وأزلفنا ﴾ أي قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنياهم إليه، ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ﴾ ثم أغرقنا الآخرين ﴿ أي أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك. عن عبد الله ابن مسعود قال: فلما خرج آخر أصحاب موسى وتكامل أصحاب فرعون انظم عليهم البحر، فארثي سواد أكثر من يومئذ، وغرق فرعون لعنه الله، ثم قال تعالى: ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿ تقدم تفسيره

* وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالِ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليفه إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقننوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من صغره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكروا على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل، ﴿ فقال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ ؟ أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴾ أي مقيمين على عبادتها ودعائها، ﴿ قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ قالوا بل وجدنا آبائنا كذلك يفعلون ﴿ يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك وإنما رأوا آبائهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يهرعون، فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿ أفرايتم ما كنتم تعبدون ﴾ أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴿ أي إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير، فلتخلص إلي بالمساء، فإني عدو لها لا أبالي بها ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ الآية. وقال هود عليه السلام ﴿ فكيلاوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾، وهكذا تبار إبراهيم من آلهتهم، قال تعالى: ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إني براء مما تعبدون ﴾ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين .

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾: أي هو الخالق الذي قدر قدرأ، وهدى الخلاق إليه فكل يجري على ما قدر له، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ﴿والذي هو يطعمني ويسقني﴾ أي هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً، كما قال الجن: ﴿وأنا لا نلري أشراً أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾، وكذا قال إبراهيم: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ إي إذا وقت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه، ﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ أي هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد ﴿والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ وهو الفعال لما يشاء .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفِرْ لَائِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتیه ربه حكماً، قال ابن عباس: وهو العلم، وقال عكرمة: هو اللب، وقال مجاهد: هو القرآن، وقال السدي: هو النبوة، وقوله: ﴿والحقني بالصالحين﴾ أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم في الرفيق الأعلى»، قالها ثلاثاً. وفي الحديث: «اللهم أحيينا مسلمين، وأممتنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مبدين»، وقوله: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ أي واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به ويقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين. قال مجاهد وقتادة: يعني الثناء الحسن، قال ليث ابن أبي سليم: كل ملة تحبه وتتولاه، وقوله تعالى: ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ أي أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن يجعلني من ورثة جنة النعيم، وقوله: ﴿واعفر لأبي﴾ الآية، كقوله: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي﴾ وهذا عما رجع عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه - إلى قوله - إن إبراهيم لأواه حلیم﴾، وقوله: ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ أي أجرني من الخزي يوم القيامة، ويوم يبعث الخلاق أولهم وآخرهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقطرة» .

وفي رواية أخرى: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قرة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل

لك لا تعصني، فيقول أبوه فالיום لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأني خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين؛ ثم يقول: يا إبراهيم انظر تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ متلطح فيؤخذ بقوامه فيلقى في النار^(١). وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أي لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أي ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ بِاللهِ بَقَلْبِهِ سَلِيمٌ﴾ أي سالم من الدنس والشرك، قال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وقال ابن عباس: القلب السليم أن يشهد أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد والحسن: ﴿بَقَلْبِهِ سَلِيمٌ﴾ يعني من الشرك، وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة المظمنة إلى السنة.

وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكَ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَفْتَلِلُ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نَسُوَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾ قَالُوا لَنَا مِنْ شَفِيعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ ط
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ﴾ أي قربت وأدنت من أهلها مزخرة مزينة لانظرها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها وعملوا لها في الدنيا، ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أي أظهرت وكشفت عنها، وبدت منها عتق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر، وقيل لأهلها تقريباً وتوبيخاً: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكَ أَوْ يَنْتَصِرُونَ؟﴾ أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حسب جهنم أنتم لها واردون، وقوله: ﴿فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ قال مجاهد: يعني فدهوروا فيها، والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعواهم إلى الشرك، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أي ألقوا فيها عن آخرهم، ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ تالله إن كنا لفي ضلال مبين. ﴿إِذْ نَسُوَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي يقول الضعفاء للذين استكبروا وقد عادوا على أنفسهم بالملامة: ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين﴾. ﴿إِذْ نَسُوَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي نجعل أمركم مطاعاً كما بطاع أمر رب العالمين وعبدناكم مع رب العالمين، ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ﴾ أي ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون، ﴿قَالُوا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ قال بعضهم يعني من الملائكة، كما يقولون ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا؟﴾ وكذا قالوا: ﴿قَالُوا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ولا صديق حميم، أي قريب، قال قتادة:

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً ورواه النسائي في التفسير، قال ابن كثير: والذبيح هو الذكر من الضباج.

يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحمم إذا كان صالحاً شفع ﴿١٠٥﴾ لو أن لنا كرة فنتكون من المؤمنين ﴿١٠٦﴾، وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيها يزعمون، والله تعالى يعلم أنهم لو ردوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، وقد أخبر الله تعالى عن مخاصم أهل النار، ثم قال تعالى: ﴿١٠٧﴾ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١٠٨﴾ أي إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد ﴿١٠٩﴾ آية ﴿١١٠﴾ أي للدلالة واضحة جلية على أن لا إله إلا الله، ﴿١١١﴾ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١١٢﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿١١٣﴾.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٥﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١١٧﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١١٩﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَمَا عُبِدَتِ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ نَاهِيًا عَنْ ذَلِكَ وَمَحْذَرًا مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ، فَكَذَّبَهُ قَوْمُهُ فَاسْتَمَرُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْفَعَالِ الْخَبِيثَةِ فِي عِبَادَتِهِمْ أَصْنَامَهُمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَكْذِيبَهُمْ لَهُ مِثْلَهُ تَكْذِيبِهِمْ جَمِيعِ الرُّسُلِ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿١١٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٦﴾ أَيِ الْأَتَّاقُونَ اللَّهُ فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرِهِ ﴿١١٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٨﴾ أَيِ إِنِّي رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، أَمِينٌ فِيمَا بَعْثَنِي اللَّهُ بِهِ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَا أَزِيدُ فِيهَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهَا ﴿١١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴿١٢٠﴾ أَيِ لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ جِزَاءً عَلَى نَصْحِي لَكُمْ بَلْ أَذْخِرُ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ، ﴿١٢١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فَقَدْ وَضَحَ لَكُمْ وَبَانَ صَدَقِي وَنَصْحِي وَأَمَانَتِي فَمَا بَعْثَنِي اللَّهُ بِهِ وَاتَّسَمَنِي عَلَيْهِ.

* قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٥﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٢٦﴾

يقولون: لا تؤمن لك ولا تتبعك وتتأسى في ذلك بهؤلاء الأردلين، الذين اتبعوك وصدقوك وهم أرادنا، ولهذا ﴿١٢٢﴾ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴿١٢٣﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾ أَيِ وَأَيِ شَيْءٍ يَلْزَمُنِي مِنْ اتِّبَاعِ هَؤُلَاءِ لِي وَلَوْ كَانُوا عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كَانُوا عَلَيْهِ، لَا يَلْزَمُنِي التَّقِيبُ عَنْهُمْ وَالبَحْثُ وَالفَحْصُ، إِنَّمَا عَلَيَّ أَنْ أَقْبِلَ مِنْهُمْ تَصْدِيقَهُمْ إِيَّايَ، وَأَكْبِلَ سَرَاتِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿١٢٥﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٧﴾ كَانَهُمْ سَأَلُوا مِنْهُ أَنْ يَبْعِدَهُمْ عَنْهُ وَيَتَابَعُوهُ فَأَبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَقَالَ ﴿١٢٨﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٩﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٣٠﴾ أَيِ إِنَّمَا بَعَثْتُ نَذِيرًا، فَمَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَنِي وَصَدَّقَنِي كَانَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، سِوَاهُ كَانَ شَرِيفًا أَوْ وَضِيعًا، أَوْ جَلِيلًا أَوْ حَقِيرًا.

قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْهَ يَنْحُوحْ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٣١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١٣٢﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْحُونِ ﴿١٣٤﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٣٥﴾

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٧﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسمراً وجهاراً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ أي لئن لم تنته عن دعوتك إيانا إلى دينك ﴿لنكونن من المرجومين﴾ أي لنرجمنك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه فقال: ﴿رب إن قومي كذبون • فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ الآية، كما قال في الآية الأخرى ﴿فدع ربه أني مغلوب فانتصر﴾ إلى آخر الآية، وقال ههنا ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون • ثم أغرقنا بعد الباقي﴾ والمشحون هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، أي أنجيناه نوحاً ومن اتبعه كلهم وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين • وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ .

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِلَى لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَخْدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنْ إِيَّاهُ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله (هود) عليه السلام أنه دعا قومه عاداً، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت متاخمة بلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة﴾، وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد، والأموال والجنان والأنهار، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هوداً إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً فدعاهم إلى الله وحده وحلهم نقمته وعذابه، فقال لهم ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾ ؟ الريع: المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً، ولهذا قال: ﴿أتبنون بكل ريع آية﴾ أي معلماً ببناء مشهوراً، ﴿تعبثون﴾ أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام، لأنه تضييع للزمان وإتباع للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾ . قال مجاهد: والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد، وفي رواية عنه: بروج الحمام. وقال قتادة: هي مأخذ الماء، ﴿لعلكم تخلدون﴾ أي لكي تقيموا فيها أبداً، وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم، كما زال عن من كان قبلكم، روي أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادى يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون، ألا تستحيون، يجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تتركون، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون

فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أمهلهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً، وركاباً فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين^(١)؟ وقوله: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطْشَ جَبَارِينَ﴾ أي يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم، ثم شرع يذكركم نعم الله عليهم فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فأنفع فيهم .

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له، بعدما حذرهم وأنذرهم وبين لهم الحق ووضحه ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي لا نرجع عما نحن عليه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾، وما نحن لك بمؤمنين ﴿وَهَكَذَا الْأَمْرُ﴾، فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية، وقوله ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾، كما قال المشركون، ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ اكتسبها فهي تملئ عليه بكرة وأصيلاً، وقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ بضم الخاء واللام، يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾، قال ابن عباس: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول: دين الأولين^(٢)، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده فأهلكهم الله، وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن، بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية، أي ريحاً شديدة المهبوب ذات برد شديد جداً، فكان سبب إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَا أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ فَسَلَكَ الرِّيحُ فَحَصَبَتْ بِلَادَهُمْ فَحَصَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْدُمُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ﴾ أي بقوا أبداناً بلا رؤوس، وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتله وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه، كأنهم أعجاز نحل متقعر، وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ الآية .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) وهو قول عكرمة وعطاء وقتادة وعبد الرحمن بن أسلم واختاره ابن جرير .

وَأَطِيعُونَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾

وهذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله (صالح) عليه السلام أنه بعثه إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة، وكانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام، فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، وأخبرهم أنه لا يتغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال

أُنْتَرَكُونَ فِي مَا هُنَاءَ آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ ﴿١٥٢﴾

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً لهم نقم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة، وأنبت لهم من الجنات، وفجر لهم من العيون الجاريات، وأخرج لهم من الزروع والثمرات، ولهذا قال: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال ابن عباس: أُنِعَ وبلغ فهو هَضِيمٌ، وعنه يقول: معشبة، وقال مجاهد: هو الذي إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر، وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: حين يطلع تقبض عليه قهضمه، فهو من الرطب الهضيم، ومن اليباس الهشيم، تقبض عليه قهضمه، وقال عكرمة وقادة: الهضيم الرطب اللين، وقال الضحاك: إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضاً فهو هَضِيمٌ، وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له، وقال أبو صخر: ما رأيت الطلع حين ينشق عنه الكم فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض فهو الهضيم. وقوله: ﴿وَتَنَحُّونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني حاذقين، وفي رواية عنه: شريين أشرين، وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكنها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم، ولهذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم، لتعبده وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ﴾ يعني رؤسائهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق.

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح في جوابهم لنبيهم (صالح) عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ قال مجاهد وقناة: يعنون من المسحورين، يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك، ثم قالوا ﴿ما أنت إلا بشر مثنا﴾ يعني فكيف أوحى إليك دوننا، كما قالوا في الآية الأخرى ﴿أنزل عليه الذكر من بيننا؟ بل هو كذاب أشرف﴾ ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء، وأشاروا إلى صخرة عندهم، من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهد والمواثيق لأن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به ولتبعنه، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ يعني ترد ماءكم يوماً ويوماً تردونه أتم، ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء، وتأكل الورق والمرعى ويتفنون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً؛ فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تماألوا على قتلها وعقرها ﴿ففقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزلاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، وأصبحوا في ديارهم جائعين ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم .

كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُرَّسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام، وكانوا يسكنون (سدوم) وأعمالها التي أهلكتهم الله بها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور متاخمة لجبال البيت المقدس، فدعاهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسوله الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله من إتيان الذكور دون الإناث، ولهذا قال تعالى :

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَدْرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَيْنَ لَدُنَّنِي يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَنْحَارَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَسَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسايتهم اللاتي خلقهن الله

لهم ما كان جوابهم له إلا أن قالوا ﴿لئن لم تنته يا لوط﴾ أي عما جئتنا به ﴿لتكونن من المخرجين﴾ أي نفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالهم تبرأ منهم، وقال: ﴿إني لعملكم من القالين﴾ أي المبغضين لا أحبه ولا أرضى به وإني بريء منكم، ثم دعا الله عليهم، فقال: ﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾، قال الله تعالى: ﴿فنجينا وأهله أجمعين﴾ أي كلهم ﴿إلا عجزاً في الغابرين﴾ وهي امرأته، وكانت عجزاً سوء، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ وأمطرنا عليهم مطراً - إلى قوله - وإن ربك هو العزيز الرحيم .

* كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم «أهل مدين» على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغضبة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب وإنما قال: ﴿إذ قال لهم شعيب﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسباً، ومن الناس من لم يفظن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء، وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

* أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾

يأمرهم عليه السلام بإيفاء المكيال والميزان وبنهاهم عن التطفيف فيها فقال: ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين﴾ أي إذا دفعتم للناس فكلوا الكيل لهم، ولا تبخسوا الكيل قطعوه ناقصاً وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافيّاً، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون ﴿وزنوا بالقسط المستقيم﴾ والقسطاس هو الميزان، قال مجاهد: ﴿القسطاس المستقيم﴾ هو العدل بالرومية، وقال قتادة: القسطاس العدل، وقوله: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أي لا تنقصوهم أموالهم ﴿ولا تعنوا في الأرض مفسدين﴾ يعني قطع الطريق كما قال في الآية الأخرى ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾، وقوله: ﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلّة الأولى﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى عليه السلام ﴿ربكم ورب آبائكم الأولى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿والجبلّة الأولى﴾ يقول: خلق الأولى، وقرأ ابن زيد: ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ یَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ یَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآیَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم حيث قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يعنون من المسحورين كما تقدم، ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي تعتمد الكذب فيما تقوله لا أن الله أرسلك إلينا، ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال قتادة: قطعاً من السماء، وقال السدي: عذاباً من السماء، وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا﴾. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية. وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، ﴿قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم، وهكذا وقع بهم كما سألوهم جزاءً وفاقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا من جنس ما سألوهم من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يمكنهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلمتهم فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. قال قتادة: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه شيء، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها، فأصاب تحتها برداً وراحة، فأعلم بذلك قومه، فاتوها جميعاً، فاستظلوا تحتها، فأججت عليهم ناراً، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: بعث الله إليهم الظلة، حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقل، وقال محمد بن جرير عن يزيد الباهلي سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ الآية، قال: بعث الله عليهم رعدة وحرّاً شديداً، فأخذ بأفئاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة فأظلمتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً. قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين .

وَأَنذَرْتُ لَنَزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ﴾ الآية. ﴿لِتُنْزِلَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أنزله الله عليك وأوحاه إليك ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد سالماً من الدنس والزيادة والتقص، ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له، وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه باللغة العربية الفصحى الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعذر، مقبلاً للحجة، دليلاً إلى المحجة. وقال سفيان الثوري: لم يترل وحى إلا بالعربية، ثم ترجم كل نبي لقومه، واللسان يوم القيامة بالسريانية، فن دخل الجنة تكلم بالعربية.

وَإِنَّهُ لَنَبِيُّ ذُرِّ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَرَيَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ تَرَىٰ أَنَّ عَلَيْنَا لَحْمَ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطياً في ملته بالبشارة بأحمد ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد والزبر ههنا هي الكتب، وهي جمع زبور، وكذلك الزبور وهو كتاب داود، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّيْرِ﴾ أي مكتوب عليهم في صحف الملائكة، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أوليس يكفهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل، يحلون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد العلول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم كـ (عبد الله بن سلام) و (سلمان الفارسي) ومن شاكلهم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية؛ ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن: إنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ كما أخبر عنهم في الآية الأخرى، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ لقالوا إنما سكرت أبصارنا ﴿الآية﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَعَدَّائِنَا لِنَسْتَعْجِلُوهَا ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾

ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَحِنُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

يقول تعالى: كذلك سلطنا التكذيب والكفر والجحود والعناد، أي أدخلناه في قلوب المجرمين ﴿ لا يؤمنون به ﴾ أي بالحق ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أي حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ﴿ فيأتيهم بغتة ﴾ أي عذاب الله فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ فيقولوا هل نحن منظرين ﴿ أي يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا في زعمهم بطاعة الله، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً؛ هذا فرعون لما دعا عليه الكلم بقوله: ﴿ ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ﴾ فأثرت هذه الدعوة في فرعون فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الله الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ أفعبادنا يستعجلون ﴾ إنكار عليهم وتهديد لهم، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذباً واستبعاداً: اثنا بعذاب الله، كما قال تعالى: ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ الآيات، ثم قال: ﴿ أفرأيت إن متعاهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ﴾ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتحنون ﴿ أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأمليناهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم ﴾ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴿، وقال تعالى: ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتحنون ﴾. وفي الحديث الصحيح: « يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت خيراً قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس يؤساً كان في الدنيا، فيصيح في الجنة صبيحة، ثم يقال له: هل رأيت يؤساً قط؟ فيقول: لا والله يا رب ». ثم قال تعالى مخبراً عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة إلا بعد الإعذار إليهم والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم، وقيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ ذكرى وما كنا ظالمين ﴿ كما قال تعالى: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا - إلى قوله - وأهلها ظالمون ﴾ .

وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد: أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾، ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها أنه ما ينبغي لهم لأن سجايام الفساد، وإضلال العباد، وهذا فيه نور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما ينبغي لهم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وما يستطيعون ﴾ أي ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهياً في مدة إنزال القرآن على رسول الله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشبه الأمر، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشعره، وتأنيده لكتابه

ولرسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعُولُونَ﴾ كما قال تعالى مخبراً عن الجن ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَاباً رَصِداً﴾ .

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٦﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٧﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٨﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٩﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢٢٠﴾ الَّذِي يَرْسُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢٢١﴾ وَتَقْلِبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢٢٢﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٣﴾

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ومخبراً أن من أشرك به عذبه. ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين أي الأذنين إليه، وأنه لا يخلص أحد منهم إلا إيمانه بربه عز وجل، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى: ﴿لَتَنْذِرُنَّ قَوْمًا مَا أَنْذَرِ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَتَنْذِرُنَّ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وقال تعالى: ﴿لَأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾، وفي صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار». وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة، فلنذكرها، الحديث الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله عز وجل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى: «يا صباحاه»، فاجتمع الناس إليه بين رجل يحمي إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتوني؟» قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(١)، الحديث الثاني: روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم»^(٢). الحديث الثالث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فمّمّ وخصّ، فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سألها ببلاها»^(٣). وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب اشترُوا أنفسكم من الله، يا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت رسول الله اشترُوا أنفسكم

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق بمثله .

(٢) أخرجه أحمد ومسلم عن عائشة رضي الله عنها .

(٣) رواه مسلم وأحمد والترمذي

من الله، فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما^(١) وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «يا بني قصي، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد^(٢)»، الحديث الرابع: قال الإمام أحمد عن قبيصة بن معارق وزهير بن عمرو قالاً: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد رسول الله ﷺ روضة من جبل على أعلاها حجر فجعل ينادي: «يا بني عبد مناف إنما أنا نذير، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله رجاء أن يسبقوه فجعل ينادي ويهتف يا صباحاه^(٣)» ؟

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي في جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلي كلمتك، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي هو معتن بك، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، قال ابن عباس ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾: يعني إلى الصلاة. وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده، وقال الحسن: إذا صليت وحدك، وقال الضحاك: أي من فراشك أو مجلسك، وقال قتادة ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ قائماً وجالساً وعلى حالاتك، وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾، قال قتادة: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال: في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع. وعن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني قلبه من صلب نبي إلى صلب نبي، حتى أخرجه نبياً، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية .

هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكُّوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رأي الجان، فتره الله سبحانه وتعالى جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قبل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة. ولهذا قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ﴾ أي أخبركم ﴿على من تنزل الشياطين﴾ تنزل على كل آفاك أثيم ﴿أي كذوب في قوله وهو الأفاك﴾ ﴿أثيم﴾ وهو الفاجر في أفعاله، فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراه من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة ﴿يلقون السمع﴾ أي يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس، فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب

(١) تفرد به من هذا الوجه الإمام أحمد . (٢) أخرجه الحافظ أبو يعلى . (٣) أخرجه مسلم والنسائي والإمام أحمد .

صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما روى البخاري عن عروة بن الزبير قال، قالت عائشة رضي الله عنها: سألت ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال: «إنهم ليسوا بشيء»، قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون، فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرقها في أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة». وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة خضعتاً لقوله، كأنها سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض - وصفه سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقياها إلى من تحته، ثم يلقياها الآخر إلى من تحته، حتى يلقياها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقياها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»^(١).

وقوله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾ قال ابن عباس: يعني الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن؛ وكذا قال مجاهد رحمه الله، وقال عكرمة: كان الشاعران يتهاجيان فيتصر لهذا فقام من الناس، ولهذا فقام من الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾. وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالمرج إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ: «خذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان -، لأن يمتليء جوف أحدكم قبحاً خير له من أن يمتليء شعراً»^(٢). وقوله تعالى: ﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون﴾ قال ابن عباس: في كل لغو يخوضون، وقال الضحاك عن ابن عباس: في كل فن من الكلام، وكذا قال مجاهد وغيره. وقال الحسن البصري: قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها مرة في شتمة فلان ومرة في مديحة فلان، وقال قتادة: الشاعر يمدح قوماً يباطل ويذم قوماً يباطل، وقوله تعالى: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ قال ابن عباس: كان رجلاً على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين، وإنهما تهاجيا فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء، فقال الله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه، وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه هو الواقع في نفس الأمر، فإن الشعراء يتبحجون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فينتكثرون بما ليس لهم، ولهذا جاء في الحديث: «لأن يمتليء جوف أحدكم قبحاً يريه خير له من أن يمتليء شعراً»، والمواد من هذا أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر، لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾، وقال تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون. ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون. تنزيل من رب العالمين. وهكذا قال ههنا ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين، إلى أن قال: ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون﴾، إلى أن قال: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفاك أثيم. يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾.

(١) تفرد به البخاري ورواه مسلم قريباً منه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

والشعراء يتبعهم الغاؤون « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ؟ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ». وقوله: ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ﴾ الآية .

قال محمد بن إسحاق: لما نزلت ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يكون قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلا النبي ﷺ: ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال: « أنتم » ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾ قال: « أنتم »، ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال: « أنتم »^(١). وروى أيضاً عن عروة قال: لما نزلت ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾، إلى قوله: ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله قد علم الله أي منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الآية، وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ﴾ قيل: معناه ذكروا الله كثيراً في كلامهم، وقيل: في شعرهم، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق، وقوله تعالى: ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين؛ وهذا كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان: « اهجهم - أو قال - هاجهم وجبريل معك ». وقال الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فقال رسول الله ﷺ: « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكان ما ترومونهم به نضح النبل »^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾، كقوله تعالى: ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ الآية، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »، قال قتادة: يعني من الشعراء وغيرهم وقيل: المراد بهم أهل مكة، وقيل الذين ظلموا من المشركين، والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم، كما قال ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كتب أبي في وصيته سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبي حنيفة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر، وينتهي الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه، وإن يجر ويذل فلا أعلم الغيب ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ .

[آخر تفسير سورة الشعراء ، والحمد لله رب العالمين]



(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من رواية ابن إسحاق .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(٢٧) سُورَةُ الْفَاكِهَةِ
وَأَنبِئَانَهَا ثَلَاثٌ وَلْتَسْجُودَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ نِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَا لَهُمْ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُوتُ ④
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ⑤ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ
عَلِيمٍ ⑥

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله تعالى: ﴿تلك آيات﴾ أي هذه
آيات ﴿القرآن وكتاب مبين﴾ أي بين واضح، ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي إنما تحصل الهداية والبشارة من
القرآن، لمن آمن به واتبعه وصدق وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وأيقن بالدار
الآخرة، والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرا وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين
آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لتبشر به المتقين وتندر به قوماً لدا﴾،
ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي يكذبون بها ويستبدلون وقوعها، ﴿زينا لم أعمالهم
فهم يعمهون﴾ أي حسنا لم ما هم فيه، ومددنا لم في غيهم، فهم يتيهون في ضلالهم، كما قال تعالى: ﴿ونقلب
أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ الآية، ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي في الدنيا والآخرة
﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ أي ليس يخسر سواهم من أهل المحشر، وقوله تعالى: ﴿وإنك لتلقى القرآن من
لدى حكيم علم﴾ أي ﴿وإنك﴾ يا محمد ﴿لتلقى﴾ أي لتأخذ ﴿القرآن من لدن حكيم علم﴾ أي من عند حكيم
علم أي حكيم في أمره ونهيه، علم بالأمر جليلها وحقيها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام،
كما قال تعالى: ﴿ونمت كلمة ربك صدقا وعدلا﴾.

* إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَعَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْءَاتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ

تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَحْمُسِي
 إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَتَىٰ عَصَاكَ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدِرِبًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَحْمُسِي
 لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْأَمْرُسَلُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ وَأَدْخِلْ
 بَدَكَ فِي جِبِّكَ تَخْرُجْ يُبَيِّضُ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٣﴾
 فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْمِنٌ ﴿١٤﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام، كيف اصطفاه الله وكلمه
 ونجاه، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملته فجحدها بها وكفروا، فقال
 تعالى: ﴿إِذ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ أي اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق وذلك في ليل وظلام، فآتس من
 جانب الطور ناراً، أي رأى ناراً تاجج وتضطرم، فقال: ﴿لَأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا نَجْرٌ﴾ أي عن الطريق،
 ﴿أَوْ آتِيكُمْ مِنْهَا بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي تستدفئون به وكان كما قال، فإنه رجع منها بنجر عظيم،
 واقتبس منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي فلما أتتها
 ورأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد
 الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء، قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً وإنما
 كانت نوراً يتوهج، وفي رواية عنه نور رب العالمين، فوقف موسى متعجباً مما رأى ﴿فَنُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ﴾
 قال ابن عباس: تقدس ﴿ومن حولها﴾ أي من الملائكة، روى ابن أبي حاتم عن أبي موسى رضي الله عنه قال،
 قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقَسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ
 النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ»، زاد المسعودي: «وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل
 شيء أدركه بصره» ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وسبحان الله رب
 العالمين﴾ أي الذي يفعل ما يشاء ولا يشبه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم
 المابين لجميع المخلوقات، ولا يكتشفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد المتزه عن مماثلة المحدثات .

وقوله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه، العزيز الذي
 عزَّ كل شيء وقهره وغلبيه، الحكيم في أقواله وأفعاله، ثم أمره أن يلتقي عصاه من يده، ليظهر له دليلاً واضحاً
 على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة
 هائلة، في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجنان ضرب

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري وأصل الحديث في صحيح مسلم .

من الحيات أسرع حركة وأكثره اضطراباً، فلما عاين موسى ذلك ﴿ولى مدبراً ولم يعقب﴾ أي لم يلتفت من شدة فرقه ﴿يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ أي لا تخف مما ترى فإني أريد أن أصطفيك رسولا، وأجعلك نبياً وجيهاً، وقوله تعالى: ﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيء، ثم أقطع عنه ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾، وقوله تعالى: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلأأ كالبرق الخاطف، وقوله تعالى: ﴿في تسع آيات﴾ أي هاتان تسنتان من تسع آيات، أو يدك بين وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ كما تقدم تقرير ذلك هنالك، وقوله تعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ أي بينة واضحة ظاهرة ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ أي علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظلماً وعلواً﴾، أي ظلماً من أنفسهم ﴿وعلواً﴾ أي استكباراً عن اتباع الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم، وفحوى الخطاب، يقول: احذروا أيها المكذبون لحمد الجاحلون لما جاء به من ربه، أن يصيكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى، فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَإِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه (داود) وابنه (سليمان) عليهما السلام، من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والنبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿ورث سليمان داود﴾ أي في الملك والنبوة، وليس المراد وراثته المال إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ

في قوله: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة»، ﴿وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء﴾ أي أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير؛ وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً على اختلاف أصنافها، ولهذا قال تعالى: ﴿علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء﴾ أي ما يحتاج إليه الملك، ﴿إن هذا هو الفضل المبين﴾ أي الظاهر البين لله علينا، وقوله تعالى: ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾ أي وجمع لسليمان جنوده من الجن، والإنس والطير، يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة، في الإنس وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم في المترلة، والطير ومترلتها فوق رأسه، فإن كان حر أظلمته منه بأجنحتها، وقوله ﴿فهم يوزعون﴾ أي يكف أولهم على آخرهم لثلاث يتقدم أحد عن مترلته، قال مجاهد: جعل على كل صف وزعة لثلاث يتقدموا في السير كما يفعل الملوك اليوم.

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل﴾ أي حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ أي خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها، ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي المهني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي عملاً تجبه وترضاه، ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ أي إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك. والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسم ضاحكاً من ذلك وهذا أمر عظيم جداً، وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال: خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستشي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن سقياك، وإلا تسقتنا تهلكنا، فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم. وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قرصت نبياً من الأنبياء نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه، أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة؟»^(١)

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَا أُغْبِثُهُ وُعْدَابًا شَدِيدًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ هُمْ

أُولَٰئِكَ إِنِّي بِلُطْفِي مُبِينٌ ﴿٢١﴾

قال ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، فإذا دلم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحضروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فتزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾ حدث يوماً ابن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج يقال له (نافع

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً.

ابن الأزرق) وكان كثير الاعتراض على ابن عباس فقال له: قف يا ابن عباس غلبت اليوم، قال: ولم؟ قال: إنك تخبر أن الهدهد يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ، ويحثو على الفخ تراباً فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي، فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول رددت على ابن عباس لما أجبته، ثم قال له: ويحك إنه إذا نزل القدر عمي البصر وذهب الحذر، فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً، وقال محمد بن إسحاق: كان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير، وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائين﴾ أخطأه بصري من الطير أم غاب فلم يحضر؟ وقوله: ﴿لأعذبه عذاباً شديداً﴾ قال ابن عباس يعني تنف ريشه، وكذا قال غير واحد من السلف إنه تنف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر والنمل، وقوله: ﴿أو لأذبحنه﴾ يعني قتله ﴿أو ليأتيني بسلطان مين﴾ بعذر بين واضح، وقال سفيان بن عيينة: لما أقدم الهدهد قالت له الطير: ما خلفك فقد نذر سليمان دمك، فقال: هل استننى؟ قالوا: نعم، قال: ﴿لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مين﴾ قال: نجوت إذاً

فَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ ۖ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنَّا بَقِينَ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى: ﴿فَكَتْ﴾ الهدهد ﴿غير بعيد﴾ أي غاب زماناً يسيراً ثم جاء فقال لسليمان ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿وجئتكم من سبأ بنباً بقين﴾ أي بخبر صدق حق يقين، وسبأ هم ملوك اليمن، ثم قال: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ، وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ كانت من بيت مملكة وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل، وكانت بأرض يقال لها (مأرب) على ثلاثة أميال من صنعاء، وقوله: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ولها عرش عظيم﴾ يعني سرير مجلس عليه عظيم هائل، مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر والآلات، قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من مشرق، ومثلها من مغرب، وقد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحاً ومساءً، ولهذا قال: ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾ أي عن طريق الحق ﴿فهم لا يهتدون﴾، وقوله: ﴿ألا يسجدوا لله﴾ أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يعلم كل خبيثة في السماء والأرض، وقال سعيد بن المسيب: الخبء الماء، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خبء السماوات والأرض ما جعل فيها من الأرزاق، المطر من السماء والنبات من الأرض، وهذا مناسب من كلام المدهد الذي جعل الله فيه من الخاصة ما ذكره ابن عباس وغيره أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها، وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ﴾ أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله تعالى: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾، وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولما كان المدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده، نبي عن قتله، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نبي النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والمدهد والصراد^(١)

* قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيَّتُكِ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى مخبراً عن قبل سليمان للمدهد، حين أخبره عن أهل سبأ وملوكهم ﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ أي أصدقت في إخبارك هذا ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ في مقاتلتك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿أذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾، وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها، وأعطاه ذلك المدهد فحملة وذهب إلى بلادهم، فجاء إلى قصر بلقيس فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة فتحيرت مما رأت وهالها ذلك ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلموا علي وأتوني مسلمين﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها وملكها ثم قالت لهم: ﴿يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم﴾ تعني بكرمه ما رأيته من عجيب أمره، كون طائر ذهب به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدباً وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ولا سبيل لهم إلى ذلك ثم قرأته عليهم ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلموا علي وأتوني مسلمين﴾ فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام، وأنه لا قبل لهم به وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها. قال العلماء: لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام. وقوله: ﴿أن لا تعلموا علي﴾ قال قتادة يقول: لا تجبروا علي ﴿وأتوني مسلمين﴾، وقال ابن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا علي وأتوني مسلمين، قال ابن عباس: موحدون، وقال غيره: مخلصين، وقال سفيان بن عيينة: طائعين.

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَتُونِي فِي أَمْرٍ مَّا كُنْتُ قَاطِعَةً أُمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه قال ابن كثير: وإسناده صحيح.

شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها، ولهذا قالت: ﴿يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ أي حتى تحضرون وتشيرون ﴿قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد﴾ أي منوا عليها بعددهم وعددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾ أي نحن أشداء إن شئت أن نقصديه وتحاربيه فلما لنا عاقبة عنه، وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا رأبك نمثله ونطيعه، قال الحسن البصري: فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثديها، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم رأياً منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصداً بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إليّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا، ولهذا قالت: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلداً غتوة أفسدوه أي خربوه، ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أي وقصصوا من فيها من الولاة والجنود فأهانوهم غاية الهوان إما بالقتل أو بالأسر، قال ابن عباس، قالت بلقيس: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾، قال الرب عز وجل: ﴿وكذلك يفعلون﴾، ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة والمسألة فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي سأبعث إليه بهدية تليق بمثله، وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام، ونلتزم له بذلك وبترك قتالنا ومحاربتنا، قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس، وقال ابن عباس: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمِّدُونِي بِمَالٍ فَآءِ اتَّسِنَاءَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أنها بعثت إليه بهدية عظيمة، من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك، والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب، فلم ينظر سليمان إلى ما جاءوا به بالكلية ولا اعتنى به بل أعرض عنه، وقال منكرأ عليهم ﴿أُمِّدُونِي بِمَالٍ؟﴾ أي أنصانوني بمال لأترككم على شركم وملكمكم؟ ﴿فما آتاني الله خير مما آتاكم﴾ أي الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود، خير مما أنتم فيه ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ أي أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف، قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر سليمان الشياطين فوهوا له ألف قصر من ذهب وفضة، فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا؟ وفي هذا جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الرينة للرسل والقصاد ﴿ارجع إليهم﴾ أي بهديتهم، ﴿فلنأتيهم بجنود لا قبل لهم بها﴾ أي لا طاقة لهم بقاتلهم ﴿ولنخرجهم منها أذلة﴾ أي ولنخرجهم من بلدتهم أذلة، ﴿وهم صاغرون﴾ أي مهانون ملحدون، فلما رجعت إليها رسلها بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة

ذليلة معظمة لسلطان ناوية متابعتة في الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام قلوبهم عليه ووفودهم إليه فرح بذلك وسره .

قَالَ يَأَيُّهَا الْمَلَأُوْا اَيْكُرْ يَاتِنِيْ بِعَرْشِهَا قَبْلَ اَنْ يَّاتُوْنِيْ مُسْلِمِيْنَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ اَنَاۡءَاتِيْكَ بِهٖ قَبْلَ اَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَّقَامِكَ ۖ وَاِنِّىْ عَلَيْهِ لَقَوًى اٰمِيْنٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِىْ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتٰبِ اَنَاۡءَاتِيْكَ بِهٖ قَبْلَ اَنْ يَّرْتَدَّ اِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَاَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّىْ لِيَّبْلُوْنِيْ ؕ اَشْكُرُّ اَمْ اُكْفِرُ ۚ وَمَنْ شَكَرْ فَلِىَّ اَمْ اَشْكُرْ لِنَفْسِىْ ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَاِنَّ رَبِّىْ غَنِىٌّ كَرِيْمٌ ﴿٤٠﴾

قال محمد بن إسحاق: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرتة شيئاً، وبعثت إليه إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت مجلس عليه، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل في سبعة آيات، ثم أقفلت عليه الأبواب، ثم قالت: لمن خلقت على سلطانها احتفظ بما قبلك وسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يرينه أحد حتى آتيك، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده، فقال: ﴿يا أيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾. وقال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جاثية وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه، وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستراً بالديباج والحرير، وكانت عليه تسعة مغاليق ففكره أن يأخذها بعد إسلامهم، وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودمائهم، فقال: ﴿يا أيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾، وهكذا قال عطاء الخراساني والسدي ﴿قبل أن يأتوني مسلمين﴾ فتحرّم علي أموالهم بإسلامهم، ﴿قال عفریت من الجن﴾ أي مارد من الجن، ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ قال ابن عباس: يعني قبل أن تقوم من مجلسك، وقال مجاهد: مقعدك، وقال السدي وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات من أول النهار إلى أن تزول الشمس، ﴿وإني عليه لقوي أمين﴾ قال ابن عباس: أي قوي على حمله ﴿أمين﴾ على ما فيه من الجوهر، فقال سليمان عليه السلام: أريد أعجل من ذلك، ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم، أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبتة بالأغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك، ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ قال ابن عباس: وهو (آصف) كاتب سليمان عليه السلام .

وكذا روي عن يزيد بن رومان أنه (آصف بن برخياء) وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم، وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنس واسمه آصف^(١) من بني إسرائيل، وقوله: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ أي ارفع

(١) وكذا قال أبو صالح والضحاك وزاد قتادة: كان مؤمناً من بني إسرائيل .

بصرك وانظر فإنه لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك، وقال وهب بن منبه: أمدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى أتيتك به، ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى، قال مجاهد: قال ياذا الجلال والإكرام. وقال الزهري قال: يا إلهنا وإله كل شيء إلهنا واحداً لا إله إلا أنت اتني بعرشها، قال: فقل بين يديه، فلما عين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقراً عنده ﴿٤١﴾ قال هذا من فضل ربي ﴿٤٢﴾ أي هذا من نعم الله علي ﴿٤٣﴾ ليلوني ﴿٤٤﴾ أي ليختبرني ﴿٤٥﴾ أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ﴿٤٦﴾، كقوله: ﴿٤٧﴾ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴿٤٨﴾، وكقوله: ﴿٤٩﴾ ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهلون ﴿٥٠﴾، وقوله: ﴿٥١﴾ ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴿٥٢﴾ أي هو غني عن العباد وعبادتهم، كريم: أي كريم في نفسه وإن لم يعبد أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿٥٣﴾ إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴿٥٤﴾، وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيتكم بإياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» .

قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

لما جاء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها، فقال: ﴿٤١﴾ نكروا لها عرشها ننظر أتنهدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴿٤٢﴾ قال مجاهد: أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر، وما كان أخضر جعل أحمر، وغير كل شيء عن حاله، وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا ﴿٤٣﴾ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ﴿٤٤﴾ أي عرض عليها عرشها وقد غير ونكر وزيد فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعده مسافته عنها ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر، فقالت ﴿٤٥﴾ كأنه هو ﴿٤٦﴾ أي يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم. وقوله: ﴿٤٧﴾ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴿٤٨﴾ قال مجاهد: يقوله سليمان، وقوله تعالى: ﴿٤٩﴾ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴿٥٠﴾، هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام في قول مجاهد أي قال سليمان ﴿٥١﴾ أوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴿٥٢﴾، وهي كانت قد صدّها أي منعها من عبادة الله وحده ﴿٥٣﴾ ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴿٥٤﴾

قلت: ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي، وقوله: ﴿٥٥﴾ قيل لها ادخلي

الصرح فلما رآته حسبه لجة وكشفت عن ساقها ﴿٤٥﴾، وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيمًا من قوارير أي من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه، قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان: ثم قال لها ادخلي الصرح ليربها ملكاً هو أغز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها، فلما رآته حسبه لجة، وكشفت عن ساقها لا تشك أنه ماء نخوصه، فقيل لها ﴿٤٦﴾ إنه صرح ممد من قوارير ﴿٤٧﴾ فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله وحده وعاتبها في عبادة الشمس من دون الله، قالت: ﴿٤٨﴾ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴿٤٩﴾ فأسلمت وحسن إسلامها^(١). وأصل الصرح في كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع، قال الله سبحانه وتعالى إيجاباً عن فرعون لعنه الله ﴿٥٠﴾ ابن لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب ﴿٥١﴾ الآية، والصرح قصر في اليمن عالي البناء، والمرد المبني بناء محكماً أملس ﴿٥٢﴾ من قوارير ﴿٥٣﴾ أي زجاج، والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا منيفاً من زجاج، لهذه الملكة ليربها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله عز وجل، وقالت: ﴿٥٤﴾ رب إني ظلمت نفسي ﴿٥٥﴾ أي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿٥٦﴾ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴿٥٧﴾ أي متابعة لدين سليمان في عبادة الله وحده لا شريك له، الذي خلق كل شيء بقدرة تقديرًا.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَاعُوا عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها (صالح) عليه السلام، حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿٥٨﴾ فإذا هم فريقان يختصمون ﴿٥٩﴾ قال مجاهد: مؤمن وكافر. ﴿٦٠﴾ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴿٦١﴾ أي لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته، ولهذا قال: ﴿٦٢﴾ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴿٦٣﴾ أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشقايمهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه، قال مجاهد: تشاءمو بهم، وهذا كما قال الله تعالى إيجاباً عن قوم فرعون ﴿٦٤﴾ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴿٦٥﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿٦٦﴾ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل كل من عند الله ﴿٦٧﴾ أي بقضائه وقدره، وقال تعالى: ﴿٦٨﴾ قالوا إنا نطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لترحمنكم ولیمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائرکم معکم ﴿٦٩﴾ الآية، وقال هؤلاء ﴿٧٠﴾ اطيرنا بك وبمن معك قال طائرکم عند الله ﴿٧١﴾ أي الله يجازيكم على ذلك ﴿٧٢﴾ بل أنتم قوم تفتنون ﴿٧٣﴾ قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية، والظاهر أن المراد بقوله ﴿٧٤﴾ تفتنون ﴿٧٥﴾ أي: تستلججون فيما أنتم فيه من الضلال .

(١) روى ابن أبي شيبة أثراً غريباً عن ابن عباس ثم قال: ما أحسنه من حديث، وقد ضربنا صفحاً عنه لغرابته ونكازته ولأنه من الإسرائيليات، وهو كما قال ابن كثير: منكر جداً من أوهام عطاء بن السائب عن ابن عباس .

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا نَقَاسُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ
لَنَقُولَ لَوْلَيْهِءَ مَا شِئْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾ فَتِلْكَ بَيِّنَاتٌ لِّمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٨﴾

يغير تعالى عن طغاة نمود ورؤوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر، وعقروا الناقة وهما يقتل
صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه إنهم ما علموا بشيء من أمره،
وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك. فقال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي مدينة نمود ﴿تِسْعَةُ
رَهْطٍ﴾ أي تسعة نفر ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر نمود لأنهم كانوا كبارهم
ورؤساءهم، قال ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله
ولعنهم^(١)، والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا نَقَاسُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله (صالح) عليه السلام من لقيه
ليلاً غيلة، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا
وقومهم أجمعين، وقال محمد بن إسحاق: قال هؤلاء التسعة، بعدما عقروا الناقة هلم فلنقتل صالحاً، فإن كان
صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته، فأتوه ليلاً لبيئته في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة،
فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدين قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح أنت قتلتهم
ثم هموا به، فقامت عشرته دونه ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونهم أبداً وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم
في ثلاث، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً، وإن كان كاذباً فأتهم من وراء ما تريدون، فانصرفوا
عنهم ليلتهم تلك. وقال ابن أبي حاتم: لما عقروا الناقة قال لهم صالح: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدُ
غَيْرِ مُكْدُوبٍ﴾ قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث، وكان لصالح مسجد
في الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف أي غار هناك ليلاً فقالوا: إذا جاء يصلي فقلناه ثم
رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم، فبعث الله عليهم صخرة من المصطب حيالهم، فخشوا أن تشدهم
فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل بقومهم: فعذب
الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا وأنجى الله صالحاً ومن معه، ثم قرأ: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾
فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين • فتلك بيوتهم خاوية • أي فارغة ليس فيها أحد • بما
ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون • وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون •

(١) قال السبلي: ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وسماهم بأسمائهم، وذلك لا يت ضبط
برواية، ولا فيه كبير فائدة، غير أنني أذكرهم على وجه الاجتهاد والتخمين، وهم: مصدع بن دهر، ويقال دهم، وقدار
ابن سالف، وهريم، وصواب، ورياب، وراب، ودعمي، وهي، ورعين بن عمرو.

وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَسْئَرُ لَأَتَاُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَكَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْثَىٰ بَنَظَهُرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (لوط) عليه السلام أنه أنذر قومه نعمة الله بهم في فعلهم الفاحشة، التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي (إتيان الذكور) دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، فقال ﴿أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ أي يرى بعضكم بعضاً وتأتون في ناديتكم المنكر ﴿أنتم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون﴾ أي لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً كما قال في الآية الأخرى: ﴿أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قول عاذون﴾ ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْثَىٰ بَنَظَهُرُونَ﴾ أي يتحرجون من فعل ما تفعلونه ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم، فعزموا على ذلك فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، قال الله تعالى: ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين﴾ أي من المالكين مع قومها، لأنها كانت ردة لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضياع لوط ليأتوا إليهم، وقوله تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال: ﴿فساء مطر المنذرين﴾ أي الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه وهو بإخراجه من بينهم.

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدَادًا يَحْتَاطُ بِذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَعَلَّكُمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى أمرأ رسول الله ﷺ أن يقول: ﴿الحمد لله﴾ أي على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم رسله وأنبيأؤه الكرام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام، هكذا قال عبد الرحمن بن أسلم هم الأنبياء، قال: وهو كقوله ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾، وقال الثوري والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم أجمعين^(١)، ولا منافاة فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه أن يحمده على جميع أفعاله، وأن يسلموا

(١) وروي نحو هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما .

على عباده المصطفين الأخيار، وقد روى أبو بكر البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما وسلام على عباده الذين اصطفى عليه السلام قال: هم أصحاب محمد عليه السلام اصطفاهم الله لبيته رضي الله عنهم. وقوله تعالى: ﴿الله خير أم ما يشركون﴾؟ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى. ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى: ﴿أمن خلق السموات﴾ أي خلق تلك السماوات في ارتفاعها وصفاتها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، والنجوم الزاهرة، والأفلاك الدائرة، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار، والقيافي والقفار، والزرور والأشجار، والثمار والبحار، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وأنزّل لكم من السماء ماء﴾ أي جعله رزقاً للعباد ﴿فأنبتنا به حدائق﴾ أي بساتين ﴿ذات بهجة﴾ أي منظر حسن وشكل بهي ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ أي لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به المشركون ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله﴾ أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، ولهذا قال تعالى: ﴿إله مع الله؟﴾ أي إله مع الله بعيد، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق، ومن المفسرين من يقول: معنى قوله ﴿إله مع الله﴾ فعل هذا؟ وهو يرجع إلى معنى الأول، لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المنفرد به فيقال: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المنفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ كما قال تعالى: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ الآية، وقوله تعالى ههنا: ﴿أمن خلق السموات والأرض﴾ ﴿أمن﴾ في هذه الآيات كلها تقديره أمن بفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر، ثم قال: ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ أي يجعلون الله عدلاً ونظيراً، وهكذا قال تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾ أي أمن هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وإنما يتذكر أولو الأبواب.

أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلْقَهَا أَنْهْرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى: ﴿أمن جعل الأرض قراراً﴾ أي قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً، ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً﴾، وجعل خلالها أنهاراً ﴿أي جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة، شققها في خلالها وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم، حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه﴾ وجعل لها رواسي ﴿أي جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم وجعل بين البحرين حاجزاً﴾ أي جعل بين المياه العذبة والمالحة ﴿حاجزاً﴾ أي مانعاً يمنعها من الاختلاط،

لثلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالا يسقى منها الحيوان والنبات والثمار، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً لثلا يفسد الهواء بريحها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مُّحْجوراً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ أَتَقَرَّبُونَ أَتَقَرَّبُونَ إِلَهُ خَلْقُوا فَلَهُمْ حُرْمَتُهُمْ عَلَيْهِمْ ذُنُوبُهُمْ وَاللَّهُ مُتَقَبِّلٌ التَّوَّابِينَ﴾ أي فعل هذا أو يعبد على القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي في عبادتهم غيره .

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ الْخُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾
 ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند التوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُوهُ إِلَّا إِلَهُهُ﴾، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا سَأَلَكَ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه ؟ قال الإمام أحمد عن أبي نعيم الهجيمي عن رجل من هجيم^(١) قال: قلت يا رسول الله إلام تدعو ؟ قال: «أدعوا إلى الله وحده، الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضللت بأرض كفر فدعوته رد عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك» قال: قلت أوصني، قال: «لا تسب أحداً ولا ترهق في المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستي، واتزر إلى نصف الساق فإن أبيت فأبى الكعيبين، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة»، وفي رواية أخرى لأحمد عن جابر بن سليم الهجيمي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو محتب بشملة وقد وقع هدبها على قدميه، فقلت: أيكم محمد رسول الله ؟ فأومأ بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله أنا من أهل البادية وفي جفأهم فأوصني، قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه فإنه يكون لك أجره وعليه وزره، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة، ولا تسب أحداً» قال: فما سببت بعده أحداً ولا شاة ولا بغيراً. وقال وهب بن منبه: قرأت في الكتاب الأول: إن الله تعالى يقول: بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السماوات بمن فيهن، والأرض بمن فيها، فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي، فإني أخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء فأكله إلى نفسه .

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر (محمد بن داود الدينوري) المعروف بالذقي الصوفي، قال هذا الرجل: كنت أكارى على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني، فركب معي ذات مرة رجل، ففرنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة، فقال لي: خذ في هذه فإنها أقرب، فقلت: لا خبرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب فسلكناهما فانتبهنا إلى مكان وعرواد عميق وفيه قتلى كثيرة، فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أتزل، فترل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكيناً معه وقصدني ففررت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله،

(١) قوله عن رجل من هجيم ورد اسم الرجل في رواية أخرى ذكرها الإمام أحمد وهو جابر بن سليم الهجيمي .

وقلت: خذ البغل بما عليه، فقال: هو لي، وإنما أريد قتلك، فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه، وقلت إن رأيت أن تركني حتى أصلي ركعتين فقال: عجل قممت أصلي، فأرتج علي القرآن، فلم يحضرني منه حرف واحد فبقيت واقفاً متحيراً، وهو يقول: هبه افرغ، فأجرى الله على لساني قوله تعالى: ﴿أمن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من قم الوادي ويده حربة، فرمى بها الرجل، فما أخطأت فؤاده فخر صريعاً، فتعلقت بالفارس، وقلت: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول الذي يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً^(١)

وقوله تعالى: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي يخلف قرناً لقرن قبلهم وخلفاً لسلف، كما قال تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾، وهكذا هذه الآية: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم، ولو شاء لأوجدكم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض، ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة ويجعلهم أمماً بعد أم، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعدمهم عدداً، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله، ولهذا قال تعالى: ﴿أمن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي يقدر على ذلك، أو أإله مع الله بعد هذا! وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له؟ ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدكم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

* **أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعْلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴿٦٣﴾

يقول تعالى: ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال تعالى: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ الآية، ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدين القنطين ﴿أإله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون﴾.

* **أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴿٦٤﴾

(١) أخرج القصة ابن عساكر وذكر قصة أخرى مشابهة تدل على إكرام الله لأوليائه وعباده الصالحين قال صاحب الجوهرة: واثبت للأولياء الكرامة ومن نفاها فابذل كلامه

أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يَدْيُ وَيُعِيدُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، ﴿وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركا، فيسلكه بنايع في الأرض، ثم يخرج به أنواع الزروع والثمار والأزهار، وغير ذلك من ألوان شتى ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ هُمْ أَفْعَلُ هَذَا وَعَلَى الْقَوْلِ الْآخِرِ بَعْدَ هَذَا﴾ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آفة أخرى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى أمرًا رسول الله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع أي لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ إلى آخر السورة، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي وما يشعر الخلائق الساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة، كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي ثقل علمها على أهل السماوات والأرض، وقالت عائشة رضي الله عنها: من زعم أنه يعلم - يعني النبي ﷺ - ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، لأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١)، وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن أناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والذميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب، وقضى الله تعالى أنه ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾^(٢)

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها. قال ابن عباس ﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ﴾ أي غاب، وقال قتادة ﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ يعني يجلبهم برهم، يقول: لم ينفذ لهم علم في الآخرة، هذا قول، وقال ابن جريج عن ابن عباس ﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ حين

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً قال ابن كثير: وهو كلام جليل متين صحيح

لم ينفع العلم، وبه قال عطاء والسدي: أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا لَكِنَ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مبينٍ﴾، وكان الحسن يقرأ ﴿بل أدرك علمهم﴾ قال: اضمحل علمهم في الدنيا حين عابنوا الآخرة، وقوله تعالى: ﴿بل هم في شك منها﴾ عائد على الجنس والمراد الكافرون، كما قال تعالى: ﴿بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً﴾ أي الكافرون منكم، وهكذا قال ههنا: ﴿بل هم في شك منها﴾ أي شاكون في وجودها ووقوعها، ﴿بل هم منها عمون﴾ أي في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَؤَءَا بَأُونَا أَيْسًا لَمُخْرَجُونَ ﴿٧٥﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذا نَحْنُ وَءَا بَأُونَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٦﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٧٧﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين، أنهم استبعلوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وترباً، ثم قال: ﴿لقد وعدنا هذا نحن وآبائنا من قبل﴾ أي ما زلنا نسمع بهذا نحن وآبائنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً، وقولهم: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ يعنون ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أي أخذه قوم عن قبلهم من كتب، يتلقاه بعض عن بعض وليس له حقيقة، قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي المكذبين بالرسول وبما جاوعهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين؟ فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته، ثم قال تعالى مسلماً لنبيه ﷺ: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾ أي في كيدك ورد ما جئت به، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشرق والمغرب .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٩﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مبينٍ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك، ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟ قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ قال ابن عباس: أن يكون قرب أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون، كقوله تعالى: ﴿ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً﴾، وقال تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾، وإنما دخلت اللام في قوله: ﴿ردف لكم﴾ لأنه ضمن معنى عجل لكم، كما قال مجاهد في رواية عنه ﴿عسى أن يكون ردف

لَكُمْ ﴿عُجِّلْ لَكُمْ﴾ ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَنِوْ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ﴾ أَي فِي إِسْبَاغِهِ نِعْمَهُ عَلَيْهِمْ مَعَ ظَلَمِهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ، ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَيَعْلَمُ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾ أَي يَعْلَمُ الضَّمَاثِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ، ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَعَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾، ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ وَمَا شَاهَدَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي وَمَا مِنْ شَيْءٍ ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ اللَّهَ يَسِيرُ﴾.

* إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّا لَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّهْمَ الدَّاعِيَ إِذَا وَلَوْ مْدَرِيرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِبَهِدِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنَّ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان، أَنَّهُ يَقْصُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ حَمَلَةُ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كَاخْتِلَافِهِمْ فِي عِيسَى وَتَبَائِنِهِمْ فِيهِ، فَالْيَهُودُ افْتَرَوْا وَالنَّصَارَى غَلَّوْا، فَجَاءَ الْقُرْآنُ بِالْقَوْلِ الْوَسْطِ الْحَقِّ الْعَدْلُ أَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ الْكِرَامُ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا لَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي هُدًى لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَرَحْمَةً لَهُمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ رَبُّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أَي فِي انتِقَامِهِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ وَأَقْوَالِهِمْ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أَي فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ وَبَلِّغْ رِسَالَاتِ رَبِّكَ، ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أَي أَنْتَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ وَإِنْ خَالَفَكَ مَنْ خَالَفَكَ مِمَّنْ كَتَبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ أَي لَا تَسْمَعُهُمْ شَيْئاً يَنْفَعُهُمْ، فَكَذَلِكَ هُؤُلَاءِ عَلَى قُلُوبِهِمْ غَشَاوَةٌ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرُ الْكُفْرِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْمَعُ الصَّهْمَ الدَّاعِيَ إِذَا وَلَوْ مَدِيرِينَ﴾ وَمَا أَنْتَ بِبَهِدِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ • إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ أَي إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لَكَ مَنْ هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، السَّمْعُ وَالْبَصَرُ النَّافِعُ فِي الْقَلْبِ، الْخَاضِعُ لِلَّهِ وَلَمَّا جَاءَ عَنْهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

* وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

هَذِهِ الدَّابَّةُ تَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِنْدَ فُسَادِ النَّاسِ وَتَرْكِهِمْ أَوْامِرَ اللَّهِ وَتَبْدِيلِهِمُ الدِّينَ الْحَقَّ، يَخْرُجُ اللَّهُ لَمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ. قِيلَ: مِنْ مَكَّةَ، وَقِيلَ مِنْ غَيْرِهَا كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَتُكَلِّمُ النَّاسَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: تُكَلِّمُهُمْ كَلَاماً أَيْ تَخَاطِبُهُمْ مَخَاطَبَةً، وَقَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ: تُكَلِّمُهُمْ فَتَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ، وَيُرْوَى هَذَا عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ جَرِيرٍ، وَقَدْ وَرَدَ فِي ذِكْرِ الدَّابَّةِ أَحَادِيثُ

وأثار كثيرة، فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان، روى الإمام أحمد: عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا »^(١). حديث آخر: قال مسلم بن الحجاج عن عبد الله ابن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأنتهما كانت قبل صاحبها فالأخرى على أثرها قريباً ». حديث آخر: وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، وخاصة أحدكم، وأمر العامة »، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « تخرج ذابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام، فتخطم أنف الكافر بالعصا، ويحلي وجه المؤمن بالخاتم حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر »^(٢). وعن وهب بن منبه أنه حكى من كلام عزيز عليه السلام أنه قال: وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها، وتضع الحبالى قبل التهام، ويعود الماء العذب أجاجاً ويتعادى الأخلاء وتحرق الحكمة ويرفع العلم وتكلم الأرض التي تليها، وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يبلغون، ويتبعون فيما لا يتألون، ويعملون فيما لا يأكلون^(٣).

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا يَمَنَّ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذًا أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَلَنَهَارًا مُبْصِرًا ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة، وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله، ليسألم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقريراً وتصغيراً وتحقيراً، فقال تعالى: ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ أي من كل قوم وقرن فوجاً أي جماعة ﴿ ممن يكذب بآياتنا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فهم يوزعون ﴾ قال ابن عباس: يدفعون، وقال قتادة: يرد أولهم على آخرهم، وقال عبد الرحمن بن زيد: يساقون ﴿ حتى إذا جاءوا ﴾ ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المسائلة ﴿ قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه كذلك مسلم وأهل السنن وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي بهذا اللفظ وأخرجه الإمام أحمد بمثله إلا أنه قال: فتخطم أنف الكافر بالخاتم، ويحلي وجه المؤمن بالعصا حتى أن أهل الخوان الواحد يجتمعون فيقول هذا يا مؤمن، ويقول هذا يا كافر.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وقد ورد في بعض الآثار أن الدابة تخرج من موضع بالبادية قريباً من مكة، ويروى عن ابن عباس أنها تخرج من بعض أودية تهامة، وعن ابن مسعود: أنها تخرج من صدع بالصفا.

ماذا كنتم تعملون ﴿٨٧﴾ أي فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم، فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم، ﴿فلا صدق ولا صلي﴾ ولكن كذب وتولى ﴿٨٨﴾ فحيثما قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال الله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿٨٩﴾ الآية، وهكذا قال ههنا ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم جواب، لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية، ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع: ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليكنوا فيه﴾ أي في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهدا أنفاسهم، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم ﴿والنهار مبصر﴾ أي منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب والأسفار والتجارات، وغير ذلك من شئونهم التي يحتاجون إليها ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ
 ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ
 وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور، وفي حديث الصور: إن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع من في السماوات ومن في الأرض ﴿إلا من شاء الله﴾ وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وفي حديث مسلم الطويل قال: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبيون؟ فيقولون: فإنا تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دار رزقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا ورفع لينا. قال - وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطراً كأنه الطل - أو قال الظل، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وقفهم إنهم مسؤولون﴾ ثم يقال: أخرجوا بعث النار. فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون قال: فذلك يوم يجعل الولدان شيباً وذلك يوم يكشف عن ساق ﴿٩١﴾. وقوله: ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا ورفع لينا. اللبث هو صفحة العنق أي آمال عتقه ليستمعه من السماء جيداً، فهذه (نفخة الفزع) ثم بعد ذلك (نفخة الصعق) وهو الموت، ثم بعد ذلك (نفخة القيام لرب العالمين) وهو النشور من القبور لجميع الخلائق، ولهذا قال تعالى: ﴿وكل أتوه داخرين﴾ أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبيون بحمده﴾.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةُ مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَتُمْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ وفي حديث الصور: أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في ثقب في الصور، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعدما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج، أرواح المؤمنين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقول الله عز وجل: وعزّي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها، فتجيء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السم في اللدغ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب أي تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرَأً﴾ وتسير الجبال سيراً، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، وقوله تعالى: ﴿صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي أنقن كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه أتم الجزاء. ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾، قال قتادة: بالإخلاص، وقال زين العابدين: هي لا إله إلا الله. وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها ﴿وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمئِذٍ آمَنُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفِرْعُ الْأَكْبَرُ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَنُ يَلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مِنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمَنُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتَ وَجْهُهُمُ فِي النَّارِ﴾ أي من لقي الله مسيئاً لا حسنة له أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه، ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ تَحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وقال ابن مسعود وابن عباس والضحاك والحسن وقاتدة في قوله ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾: يعني بالشرك.

إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾
وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَإِنِّي أَمْتَدِّي لِيَنْفُسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرَ بَكْرَةَ آيَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله وأمره أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدرأ بتحريمه لها كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس، قال، قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعصده شوكه ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يخلى خلاه» الحديث بتمامه. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من باب عطف العام على الخاص أي هو رب هذه البلدة ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو، ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

أي الموحدين المخلصين المتقادين لأمره المطيعين له، وقوله: ﴿وَأَنْ أُنْزِلَ الْقُرْآنَ﴾ أي على الناس أبلغهم إياه، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نُنْزِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾، وكقوله تعالى: ﴿نُنْزِلُ عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ الآية، أي أنا مبلغ ومنذر، ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي لي أسوة بالرسول الذين أنزلوا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿سَرِيهِمْ آيَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي بل هو شهيد على كل شيء .

عن عمر بن عبد العزيز قال: لو كان الله مُغْفِلاً شيئاً لأغفل ما تعني الرياح من أثر قدمي ابن آدم، وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

[آخر تفسير سورة النمل ، والله الحمد والمنة]



[تم بحون الله وفضله المجلد الثاني وبليه المجلد الثالث مبدؤاً بسورة القصص]

محتويات المجلد الثاني

الصفحة

الموضوع

٥	تفسير سورة الأعراف
٨٢	تفسير سورة الأنفال
١٢٣	<u>تفسير سورة التوبة</u>
١٨٢	تفسير سورة يونس
٢١٠	تفسير سورة هود
٢٣٩	تفسير سورة يوسف
٢٦٨	تفسير سورة الرعد
٢٨٩	تفسير سورة إبراهيم
٣٠٧	تفسير سورة الحجر
٣٢٢	تفسير سورة النحل
٣٥٤	تفسير سورة الإسراء
٤٠٧	تفسير سورة الكهف
٤٤٢	تفسير سورة مريم
٤٦٩	تفسير سورة طه
٥٠١	تفسير سورة الأنبياء
٥٢٧	تفسير سورة الحج
٥٥٨	تفسير سورة المؤمنون
٥٨٠	<u>تفسير سورة النور</u>
٦٢٣	تفسير سورة الفرقان
٦٤٣	تفسير سورة الشعراء
٦٦٥	تفسير سورة النمل
٦٨٧	محتويات المجلد الثاني

وَقِفُّهُ لِلَّهِ تَعَالَى

طَبَّعَ عَلَى نَفَقَتِهِ

الْمَحْسِنِ الْكَبِيرِ

مَعَالِي السَّيِّدِ حَسَنِ عِبَّاسٍ الشَّرِيفِيِّ

فَجَزَاهُ اللَّهُ كُلَّ خَيْرٍ

يُوزَعُ مَجَّانًا وَلَا يُبَاعُ